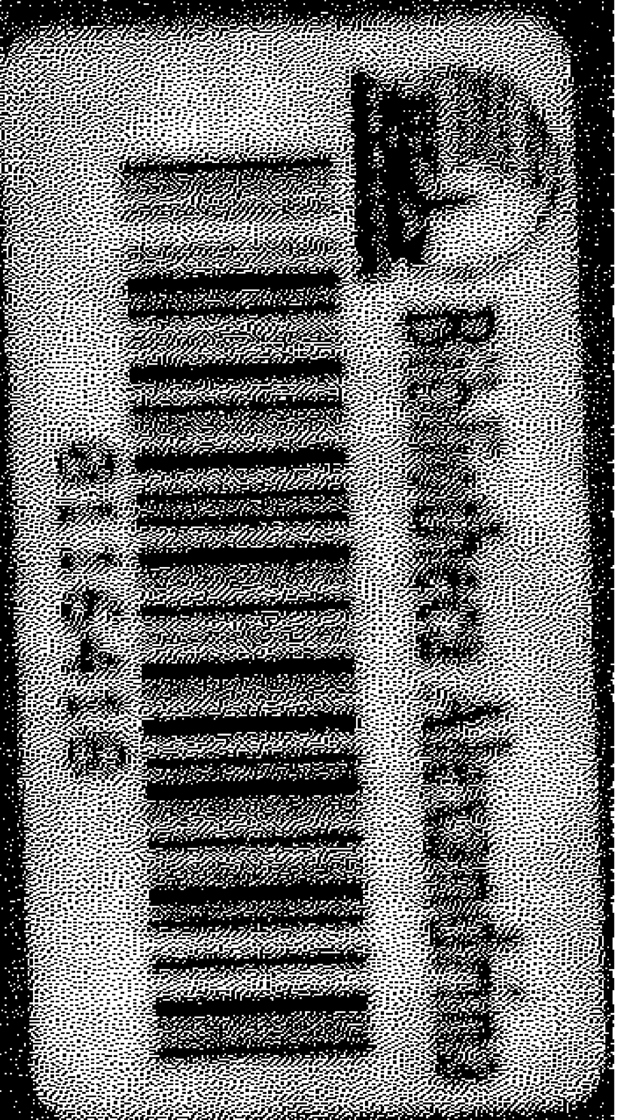
أحمد شوقي

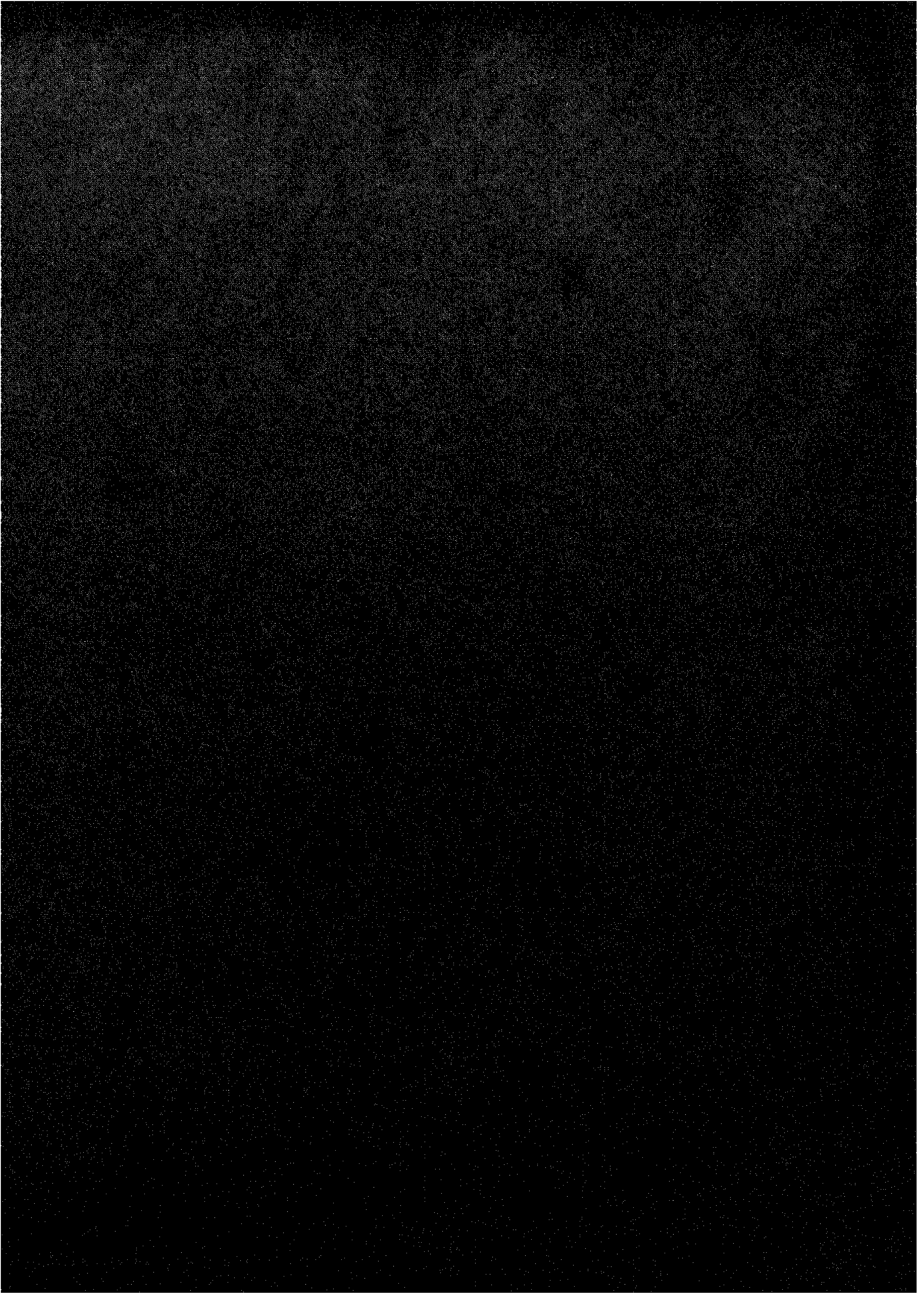
الأعمال الكاملة

المسرحيات



الهيئة المصرية العامة للكتاب







أحمد شوقي

الأعمال الكاملة

المسرحيات



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٤

قـام على تحقـيـق هـذه الـطـبـعـة لـغـويـاً وعـروضـيـاً
سعــد درويـــش

وراجعها
الدكتور عز الدين إسماعيل

تصميم الغلاف والإخراج الفنى : سعـد عبـد الوهـاب

تقـــديم

يحتل الشاعر أحمد شوقى مكانة مرموقة فى تاريخ الأدب العربى الحديث ، أهله لها عطاؤه الأدبى الغزير والمتنوع ، الذى شغل به الناس فى حياته على مدى نيف وأربعين عاما ، ومازالوا يشغلون به حتى اليوم ، شأنه فى هذا شأن المتنبى .

لقد كان مايزال حيا عندما اتفق النقاد فى أمر شعره واختلفوا ؛ لكنه بعد وفاته صار ملكا للتاريخ ، فتوارت دوافع المعاصرة بوجهيها الإيجابى والسلبى ، وبقى نتاجه الأدبى حيا فى ضمائر الأجيال ، مؤكدا أنه كان أمة وحده ، وأنه كان – بحق – شاعر أمته .

لم يكتف بأن يكون الشاعر المبرز فى زمانه فيقتصر نشاطه الإبداعى على فن القصيد ؛ ولو فعل لكفاه أن يكون شاعر عصره ، كسائر الشعراء الكبار فى تاريخ الأدب العربى ، ولكن طموحه الأدبى كان يجاوز هذه الغاية . كان يكفيه أن يكون الشاعر الذى رسخ دعائم النهضة الشعرية الحديثة ، ولكن إحساسه العميق بمطالب النهضة الأدبية بعامة ، دفعه – منذ صدر شبابه – إلى التطلع إلى آفاق أخرى من الإبداع الأدبى ، كان الواقع – آنذاك – يلح فى طلبها . ولا شك فى أن السنوات الأربع التى قضاها مبعوثا فى فرنسا ، والتى أتيح له فى أثنائها أن يزور إنجلترا ويمضى بها شهرا ، قد قوت فى نفسه ذلك الإحساس ، من خلال ما اطلع عليه من أشكال

أدبية ، وبخاصة فى مجال المسرح والقصة .

وهكذا اجتمعت كل الظروف ، العامة والخاصة ، على دفعه إلى الخروج من إطار القصيدة الغنائية المحدود ، وإلى المغامرة فى عالم المسرح ، فكتب - وهو ما يزال فى بعثته - مسرحيته الأولى المسماة «على بك الكبير» . ويبدو أنها لم تلق القبول من الخديو ، ولكن المؤكد أنها كانت - مثل كثير من الأعمال الأولى - عملا هزيلا ، بدليل أن شوقى نفسه قد عاد فى أخريات حياته فأعاد كتابتها .

والواقع أن إخفاق شوقى فى هذه التجربة الأولى قد صرفه ردحا من الزمن عن الكتابة للمسرح ، ولكنه بعد أن عاد من بعثته واستقر به المقام فى القاهرة ، اتجه إلى معالجة لون آخر من ألوان الإبداع الأدبى ، فكتب عددا من القصص ، فى وقت لم تكن القصة فيه قد أصبحت فنا أدبيا معترفا به ومقدرا من البيئات المثقفة . ولأمر ما لم يشغل أحد من نقاد شوقى المعاصرين له بهذا اللون من النتاج الأدبى ، بل ما تزال العناية بهذه القصص التى كتبها شوقى محدودة للغاية حتى اليوم ، على الرغم من أهميتها التاريخية والفنية .

وهكذا شاءت الظروف أن يظل شوقى مرتبطا بفن الشعر فى إطار القصيدة ، وأن تتحدد مكانته الأدبية على المستويين المصرى والعربى فى ضوء ما أبدع فى هذا المجال ، على مدى نيف وأربعين عاما ، فكان تتويجه أميرا للشعراء فى عام ١٩٢٧ .

وعند هذا المدى كان شوقى قد استنفد كل الطاقات التعبيرية لإطار القصيدة ، وكانت ظروف المجتمع قد تطورت فحصلت مصر على وعد باستقلالها ، ووضع الدستور وقامت الحياة النيابية ، واستحكمت دعوات التجديد واتضحت فيها الرؤية . عند ذلك عاود شوقى الحنين إلى مغامرته الأولى فى كتابة المسرحية الشعرية ، فإذا هو يتجه إليها بكل طاقته ، وإذا هو فى غضون السنوات الأربع أو الخمس الأخيرة من حياته يكتب سبع مسرحيات جديدة ، ويعيد كتابة مسرحيته القديمة «على بك الكبير» .

وإذا دل هذا النتاج الغزير فى ذلك الزمن المحدود على شىء فإنما يدل على أن شوقى ظل طوال ذلك الزمن مؤرقا بفكرة المسرح ، وأن هاجس هذه الفكرة لم يكف

فى نفسه ، إلى أن صارت الظروف مواتية فانطلق الشاعر فى الكتابة كأنه يسابق الزمن ، وكأنه وجد أخيرا متنفسا لذلك الهم الثقافى الذى حمله فى قلبه وفى ضميره زمنا طويلا .

* * *

وقد كان المسرح فى مصر حتى ذلك الوقت قد غلب عليه تياران استجاب كلاهما لجانب من الذوق العام ، أحدهما تيار الترجمة والتمصير للمسرحيات الكوميدية ، وبخاصة كوميديات «موليير» ، والآخر تيار عربى ، يستمد موضوعاته من الحكايات الشعبية ، وبخاصة من «ألف ليلة وليلة» ، ويمتلىء بمقطوعات الشعر التى تؤدى غناء . ومن خلال النكتة أو الغناء كانت المسرحية تجد طريقها إلى نفوس جمهور المشاهدين . ومع ذلك فإنه إلى جانب هذين التيارين كان تيار ثالث يظهر على استحياء فى أعقاب الحرب العالمية الأولى نتيجة لتزايد الاتصال بين مصر والثقافة الغربية ، وعودة بعض المبعوثين الذين درسوا أصول المسرح وفن التمثيل ، والذين حرصوا على أن يقدموا الأعمال المسرحية الجادة لكبار الكتاب الغربيين ، وفى مقدمتهم شيكسبير وكورنى وراسين . وربما كان هذا المناخ الجديد - بالإضافة إلى عوامل أخرى - هو ما شجع شوقى على معاودة الكتابة للمسرح .

* * *

ومهما يكن من شىء فقد استهل شوقى نشاطه المسرحى بمسرحيته المسماة «كليوبترة» ، ثم أعقبها «مجنون ليلى» و «قمبيز» و «على بك الكبير» و «عنترة» و «أميرة الأندلس» و «الست هدى» و «البخيلة» . ولاخلاف فى الترتيب من حيث الزمن حول المسرحيات الثلاث الأوليات ، والمسرحيتين الأخيرتين . وعلى كل فإن المدة القصيرة التى استغرقتها كتابة هذه المسرحيات جميعا تجعل للترتيب الزمنى لصدورها قيمة ثانوية . وما قد يراه بعض النقاد فى مسرحية متأخرة ، مثل «الست هدى» مثلا ، من تطور فى فن الكتابة المسرحية بالقياس إلى مسرحية متقدمة مثل «كليوبترة» أو «مجنون ليلى» يمكن مراجعته فى ضوء حقيقة أن طبيعة الاختلاف بين الموضوع التاريخى المأسوى فى «كليوبترة» ، والموضوع الواقعى الكوميدى فى «الست هدى» قد اقتضت أسلوبين مختلفين للمعالجة .

من أجل هذا آثرنا ، فى هذا المجلد من الأعمال الكاملة لشوقى ، أن نقدم إلى القارىء هذه المسرحيات مرتبة على النحو التالى : عنترة ، مجنون ليلى ، أميرة الأندلس ، ثم قمبيز ، فكليوبترة ، فعلى بك الكبير ، فالست هدى ، فالبخيلة .

وقد آثرنا هذا الترتيب لسبب موضوعى ، يأخذ فى الحسبان نتاج شوقى الشعرى فى مجمله . فقد رأينا كيف أن شوقى قد كتب هذه المسرحيات فى أخريات حياته ، بعد أن كان قد استوفى حظه من كتابة الشعر فى إطار القصيدة . وقد لاح لنا أن ما كتبه شوقى من مسرحيات لا يكاد يخرج فى مضمونه الكلى وفى مغزاه الأخير عما استأثر باهتمامه فى «شوقياته» ؛ فهناك إطاران موضوعيان ارتبط بهما كثير من هذه الشوقيات ، هما الإطار العربى والإطار المصرى . ومن جهة أخرى يشكل التراث العربى مصدرا أساسيا وجوهريا لثقافة شوقى ، فى الوقت الذى يشكل فيه التاريخ المصرى منذ عهد الفراعنة حتى زمنه رافدا أساسيا لشعوره الوطنى . ومن أجل هذا وذاك كانت المسرحيات الثلاث الأولى - فى هذا الترتيب - هى ما استمد فيها شوقى من ثقافته العربية ؛ وكانت المسرحيات الخمس الأخيرة هى ما استمد فيها شوقى من التاريخ المصرى القديم والحديث نسبيا ، ومن الواقع المعاصر .

لقد كانت هذه المسرحيات تتويجا لرحلة طويلة فى عالم القصيدة ؛ وهى لذلك لا يمكن أن تنفصل عنها ، بل إنها تفسرها بقدر ما تفسَّر بها . وهذا موضوع دراسة طريف ، ولكن لا مجال له هنا .



وقد يقال إن قدراً لا يستهان به من قصائد شوقى قد تحرك فى إطار آخر غير الإطارين العربى والمصرى ، هو الإطار الإسلامى ، وإن الجزء الأكبر من هذه القصائد قد ارتبط بالترك وبسلاطينهم بوصفهم حماة الإسلام . ولم يكن شوقى يعتقد هذه العقيدة وحده ، بل كان هناك آخرون مثله ، يقودون تياراً سياسياً يصطرع مع غيره من التيارات . ومع ذلك لم يفكر شوقى فى أن يكتب مسرحية يستمد موضوعها من التاريخ التركى فى أى مرحلة من مراحله ؛ وكل ما نعرفه فى هذا الشأن هو ما صرح به ابنه حسين من أن أباه كان قد شرع فى كتابة مسرحية عن محمد على الكبير ، رأس الأسرة المالكة فى مصر . أما القسم الآخر من هذه القصائد فيتعلق

بالإسلام فى قيمه الروحية ومبادئه الأخلاقية . وفى هذا المستوى نستطيع أن ندرك أن هذه القيم والمبادىء كانت تسيطر على رؤ ية شوقى لسلوكيات بعض شخوصه المسرحيين فى بعض المواقف ، سواء منهم العرب والمصريون . ومن ثم كان من الصعب أن نعزل بعض مسرحياته لكى نصنفها فى إطار إسلامى صرف .

ومرة أخرى يمكننا أن نتمثل تلك العلاقة القوية بين نتاج شوقى المسرحى ونتاجه الشعرى إذا نحن أخذنا فى الحسبان مصادر مادة هذه المسرحيات . فأربع من هذه المسرحيات مستمدة من التاريخ ، وهى قمبيز وكليوبترة وعلى بك الكبير وأميرة الأندلس ؛ واثنتان منها مستمدتان من روايات شبه تاريخية ، هما عنترة ومجنون ليلى ، واثنتان منها تضربان بجذورهما فى قلب الواقع الذى عايشه شوقى ، هما الست هدى والبخيلة . فإذا عرفنا أن المسرحيات الأربع الأولى قد اتصلت بالملوك والأمراء والولاة وحياة القصور اتصالاً وثيقاً ، أدركنا العلاقة الموضوعية والنفسية بين هذه المسرحيات وكثير من قصائد شوقى فى الأسرة المالكة وفى وصف حياة القصور التى خبرها عن قرب . وإذا عرفنا أن المسرحيتين التاليتين قد اتصلتا بشاعرين عربيين كانت عاطفة الحب مدار حياتهما ، أدركنا كذلك العلاقة الموضوعية والنفسية بينهما وبين قصائد شوقى الغزلية ، التى حاول فيها أن يشرح عاطفة الحب ، وأن يسمح لنفسه بالتعبير عن مشاعره الذاتية . ثم تأتى المسرحيتان الأخيرتان فتعلنان - باتصالهما المباشر بالواقع الاجتماعى - عن مرحلة التحول فى شعر شوقى إلى هموم الشعب ومشكلاته . وأيضا فإن الاتصال بين الفكاهة الشعبية الساخرة فيهما وشعر « المداعبة » عنده لا يحتاج إلى بيان .

وهكذا تصبح هذه المسرحيات فى هذا النسق معبرة عن مناح ثلاثة ، هى المنحى التاريخى ، والمنحى الذاتى ، والمنحى الاجتماعى . وهذه المناحى هى نفسها التى يعلن عنها حصاد شوقى الشعرى .

على أنه ينبغى أن يكون واضحاً أننا لم نقصد بهذه المقاربة بين نتاج شوقى المسرحى ونتاجه الشعرى أن نقول إن أحدهما يمكن أن يحل محل الآخر أو يغنى غَناءه ؛ وأيضاً فإننا لا نقصد بها أن ندعم النقد القديم الذى ذهب فيه أصحابه إلى أن شوقى قد نقل شعره الغنائى إلى مسرحياته . وكل ما قصدنا إليه هو أن نشير إلى

الأطر الموضوعية العامة لعالم شوقى كماتتمثل فى مسرحه وفى شعره على السواء . ويبقى بعد ذلك أن يتميز الإطار الفنى للمسرحية - حتى عندما تكون شعرية - عن إطار القصيدة .

* * *

وقد كتب شوقى مسرحياته شعراً باستثناء مسرحية واحدة كتبها نثراً ، هى مسرحية أميرة الأندلس .

وليس هنا مجال الخوض فى علاقة المسرح بالشعر ، قديماً وحديثاً ، ولكن ما ينبغى تسجيله هنا هو أن شوقى قد وجد نفسه - وقد أقدم على كتابة مسرح شعرى - مطالباً بأن يطوع ذلك القالب الضيق لمقتضيات الأداء المسرحى ، حيث تتباين الشخوص والمشاعر والأفكار فى المواقف المختلفة ، وحيث يبطىء الحوار ويسرع وفقاً لطبيعة كل موقف . ومن ثم فقد كان مضطرا - من أجل تحقيق هذا الأداء - إلى الخروج من قبضة الوزن الشعرى الواحد والقافية الموحدة ، إلى التنويع الدائم للأوزان والقوافى ، على نحو يضمن مرونة الأداء ، ويلائم طبيعة الحوار فى كل موقف ، بل فى كل منعطف شعورى أو فكرى فى داخل الموقف الواحد . ويمكننا أن نلاحظ - بالإضافة إلى كل ذلك - أن بنية البيت الشعرى الواحد صارت تفتت أحياناً - وفقاً لمقتضى الحوار فى مواقف بعينها - بحيث تستوعب مساحة البيت اللغوية حواراً متبادلاً بين شخصيتين ، على نحو ما نرى فى الحوار التالى من مسرحية عنترة :

عبلة : فتى ! وممن الفتى ؟

ناجية : من عامر

عبلة : وما حداه نحو عبس ؟

ناجية : الهوى

فهذه البنيات اللغوية الأربع ، المتمثلة فى سؤالين من عبلة ، وإجابتين من ناجية ، إذا ضمت جميعاً شكلت بنية عروضية لبيت شعرى واحد ؛ لكن ورودها على هذا النحو قد ذهب بالإيقاع الصوتى الحاد لهذه البنية العروضية ، وحقق للحوار

ما يقتضيه فى هذه اللحظة من مرونه وسرعة . وما نحسب أن شاعرنا كان فى مقدوره - وهو يرتاد كتابة المسرح الشعرى فى بيئة ألفت الشعر فى شكل القصيدة - أن يطوع هذا الشكل لمقتضيات الحوار بأكثر مما صنع . ومن ثم يصبح ضرباً من التجنى ما ذهب إليه بعض الدارسين * من أن شوقى لم يستطع تكييف المعجم الشعرى لمقتضيات الأداء المسرحى ، وأنه كان ينزلق فى الاسترسال الغنائى .

حقاً إن هناك مواقف يسترسل فيها الشاعر فيجرى على لسان أحد الشخوص حديثاً قد يطول حتى ليوشك أن يكون قصيدة . ولكن التأمل فى مثل هذه المواقف يدلنا على أن الشخصية لا تسترسل - فى الأغلب الأعم - إلا لأنها فى موقف « مناجاة » . والمناجاة بطبيعتها حديث مع النفس ، أو كشف عن مكنونها ؛ وهى وسيلة من وسائل الأداء المسرحى ، عرفها المسرح منذ القدم ، وما زال يستخدمها حتى اليوم . وكثيراً ما كان شوقى ينص فى توجيهاته المسرحية على أن الشخصية فى موقف مناجاة ، مثلما صنع - على سبيل المثال - فى بداية الفصل الرابع من « مصرع كليوبترة » :

كليوبترة : « كأنما تناجى نفسها »

نام ماركو ولم أنم　　　وتفردت بالألم

إلى أن تقول :

أيها العين أبصرى　　　إنما كنت فى حلم

وفى هذه اللحظة تلتفت إلى « شرميون » التى كانت تقف مع « هيلانة » فى أقصى الحجرة والدموع تنهمر من عينيها فتقول لها :

يا شرميون بلغنا موقفا حرجاً　　　لا الرأى ينفعنا فيه ولا الباس .

ومن الواضح أن تغيير شوقى للوزن والقافية هنا ، فضلا عن المضمون ، يوحى بخروج كيلوبترة من حالة التفرد والاستغراق فى المناجاة إلى حالة الحضور الجماعى .

ويبقى بعد هذا أن بعض الشعر الذى ورد فى مواقف المناجاة مشبع بغنائية تؤهله لأن يلحن ويغنى . وسواء قصد شوقى إلى هذا قصدا أو صدر عنه بطريقة

عفوية فإن هذا المسلك لم يكن بمعزل عن هدف من أهداف المسرح العربى قبل شوقى ، وهو - كما ذكرنا - التأثير فى الجمهور عن طريق الغناء . وفى هذا الصدد يقول الدكتور محمد مندور : «ونحن لا نلوم شوقى لتضمينه مسرحياته بعض المقطوعات الغنائية ؛ وكنا نود لو مثلت - كما قلنا - بعض تلك المسرحيات كأوبرا ، وعندئذ كان لابد أن يختفى ما لاحظه بعض النقاد أو معظمهم من أن هذه المقطوعات الغنائية قد جاءت أحيانا دخيلة على بناء المسرحية ، معوقة لسير أحداثها وتطورها نحو خاتمتها»* .

والواقع أن مواقف المونولوج المشبعة بالغنائية لا تصادفنا فى كل مسرحيات شوقى الثمانى ؛ فعلى الأقل هناك المسرحيتان الأخيرتان ، وهما «الست هدى» و «البخيلة» . هاتان المسرحيتان قد خلتا من الغنائية ، لا لأنهما خلتا من مواقف المونولوج فحسب ، بل لغلبة الواقعية على أحداثهما كذلك . والواقع أن شوقى قد تنبه - بعد تجربته فى «مصرع كيلوبتره» و «مجنون ليلى» ، وبتأثير ما وجه إليه حينذاك من نقد - فخفف فى مسرحياته التالية من مثل هذه المواقف .

* * *

وعلى الرغم من تنوع مسرح شوقى من حيث مصادر مادته ، ومن حيث أساليب معالجته ، فإن القارىء المتأمل لهذا النتاج فى مجموعه يستطع أن يستشف صدور شوقى فى هذا النتاج كله عن مبدأ أخلاقى ، يحكم نظرته إلى التاريخ أو ما يشبه التاريخ من جهة ، وفهمه لوظيفة المسرح من جهة أخرى . فهو فيما يختار من أحداث تاريخية يدير حولها بعض مسرحياته يكون مدفوعا بمشاعر وطنية ، وأعراف وتقاليد اجتماعية ، يستهدف تعميقها فى نفوس الجماهير وتأكيدها فى ضمائرهم . وهو من أجل ذلك لا يفسر غدر كيلوبترة بأنطونيو على أساس من الانحلال فى سلوكياتها ، أو ميلها إلى النجم الصاعد آنذاك وهو أكتافيو بقصد إغوائه ، وبرغبتها فى تحقيق أمجادها الشخصية ، بل يفسر هذا الغدر فى ضوء سياسة وطنية كانت كيلوبترة - فى رأيه - تتبناها ، مؤداها أن توقع بين قواد الرومان حتى يفنى بعضهم بعضا ، فتتمكن بهذا من بسط نفوذها على مصر وعلى الإمبراطورية الرومانية نفسها ؛ وكأن شوقى قد هدف من هذه المعالجة إلى إحداث نوع من التعاطف بين الجماهير وبينها ، وكسب

* محاضرات عن مسرحيات شوقى - معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٤ ص ٢٠ .

عطفهم عليها . أما أن يكون قد نجح فى تحقيق هذا الهدف أو لم ينجح فهذه مسألة أخرى .

ونفس الشىء يمكن أن يقال عن موقفه من واقعة زواج «نتيتاس» من قمبيز ؛ فهو يميل إلى جعل إقدامها على الزواج من هذا الملك الغريب موقفا وطنيا منها . لقد كان قمبيز قد هدد وطنها مصر بالغزو عندما رفض فرعون مصر أن يزوجه من ابنته . وقيام نتيتاس بدور البديل هو نوع من التضحية بالنفس فداء للوطن . هكذا أراد لها شوقى ، على الرغم من أن رؤ ية أخرى للأحداث نفسها قد تنتهى إلى تفسير آخر لسلوك نتيتاس ، مغاير لما رآه شوقى . وفى هذه الحال يمكننا أن نقبل وجهة نظر شوقى أو نرفضها ، ولكن دون أن نذهب إلى تخطئته . فشوقى لم يغير من أحداث التاريخ الكبرى المرصودة ، ولكنه مضى يفسرها فى ضوء مبدئه الأخلاقى ، ويوجه مغزاها توجيها خاصا ؛ وهذا حق مشروع له ولكل الأدباء ، عندما يتجهون إلى التاريخ ليأخذوا منه مادة موضوعاتهم .

ويرتبط بهذا المنزع عند شوقى ما يمكن ملاحظته من اختياره من حياة الأمة الحقب التاريخية التى تكون فيها فى حالة انكسار ، أو تكون قد ألمت بها فيها بعض الكوارث . فالنظرة العجلى قد ترى فى هذا الاختيار تعارضا مع أهدافه الوطنية ، وإلا فقد كان الأولى به أن يختار الحقب التى يبلغ فيها الوطن أوج الازدهار ، والتى يحقق فيها أمجاده . هكذا كان اختياره لأحداث « قمبيز » و« كليوبترة » ؛ فالأحداث الأولى تنتهى إلى سقوط مصر تحت سيطرة الفرس ؛ والأخرى تنتهى إلى وقوعها تحت سيطرة الرومان . فإذا اتجه إلى الأندلس اختار الحقبة التى أخذ فيها حكم « الطوائف » فى الانهيار ، وعلى وجه التحديد حقبة انهيار دولة المعتمد بن عباد فى إشبيلية . أما فيما يتصل بتاريخ مصر الحديث نسبيا فقد اختار - فى « على بك الكبير » - حقبة تصور انحلال الحياة السياسية والاجتماعية على أيدى المماليك فى زمن الحكم العثمانى . لكن المتأمل فى المسرحيات التى دارت أحداثها فى هذه الحقب يدرك أنها أكثر ما تكون ملاءمة لكتابة « المآسى » المسرحية بصفة عامة . لكن شوقى - مدفوعا بأهدافه الأخلاقية - كان يبحث فى قلب هذه الانتكاسات التاريخية عن البطولات التى تكتسب عندئذ قيمة وأهمية خاصة فيبرزها .

هذا فيما يتصل بمسرحياته الأربع ذوات العلاقة الوثيقة بالتاريخ المعترف به . أما فيما يتصل بمسرحيتى « عنترة » و« مجنون ليلى » فالهدف الأخلاقى يتركز فى تأكيد المبادىء والأعراف والتقاليد التى درج عليها المجتمع . فالقيم والأعراف الاجتماعية السائدة تمثل عند شوقى الإطار المرجعى للحكم الأخلاقى على شخوصه . فإذا اصطدمت مشاعر الفرد بأعراف الجماعة كان على الفرد أن يضحى بمشاعره فى سبيل تحقيق هذه الأعراف . وفى هذا يتمثل الصراع الذى كتب على الشخصية المأزومة عنده أن تخوضه . وهذا المنحى يدل على رغبة شوقى فى عدم الاصطدام بالتقاليد والأعراف ، أو إحداث أى هزة لها ، وميله - على العكس - إلى تأكيدها .

إن ليلى حين خيرت فى الزواج بين قيس وورد لم تتردد فى اختيار ورد ، على الرغم من حبها لقيس . على أن رفضها لقيس لم يقم على أساس من مبدأ نابع من ضميرها الشخصى ، بل من ضمير الجماعة التى كانت تأبى للفتاة أن تزف إلى من شبب بها فى شعره ، وكشف عن مشاعر الحب نحوها . فالتقاليد القبلية إذن هى التى اصطدمت برغبة ليلى ، فضحت بحبها أو بالزواج ممن تحب ، إبقاء منها على تلك التقاليد . وكذلك كانت التقاليد القبلية - على نحو آخر - هى المتسلطة فى « عنترة »

وعلى الجملة يمكن أن يقال إن التزام شوقى الأخلاقى بوجهيه الوطنى والعرفى هو المسئول عما يكشف عنه تحليل الصراع فى مسرحياته التاريخية وشبه التاريخية من نجاح أو إخفاق .



وكل من يتأمل مسرحيتى شوقى الأخيرتين ، « الست هدى » و« البخيلة » ، يدرك التطور السريع الذى حققه شوقى فى مجال الدراما الشعرية . وهذا التطور يتمثل فى عدة مستويات .

فعلى مستوى الاتجاه العام خرج شوقى نهائيا من إطار المأساة الكلاسيكية وانتقل إلى الملهاة الواقعية . وقد استتبع هذا انصرافه عن شخوص الملوك والأمراء ، وعن الشخوص الذين صنعت الرواية الشعبية من حياتهم أسطورة ، واتجاهه إلى شخوص

عاديين مألوفين من طبقة البرجوازية فى مجتمع المدينة الذى عاصره . والطريف أن الشخصية الرئيسية فى كلتا المسرحيتين شخصية نسائية . فالست هدى امرأة ثرية ودميمة ، يطمع أزواجها الواحد بعد الآخر فى أن يرث ثروتها . والبخيلة كذلك امرأة تكتنز الثروة وتحرم نفسها وكل من حولها منها . ومن ثم كان أساس الدراما فى المسرحيتين هو المفارقة . والمفارقة من شأنها أن تثير الضحك ، ولكنها قد تنطوى كذلك على نقد لاذع . وبهذا تسجل هاتان المسرحيتان تطورا فى إنجاز شوقى الدرامى على مستوى الموضوع والتناول .

وقد استتبع هذا كله تطورا ملحوظا على مستوى الأداء اللغوى والشعرى . فاللغة فى هاتين المسرحيتين قد اقتربت إلى حد كبير من لغة الكلام وإن حافظ الشعر على تماسكها .

ومن جهة أخرى اكتسب الشعر كثيرا من المرونة والحركة نتيجة لتطويعه لمقتضيات الحوار . وسوف يلاحظ قارىء هاتين المسرحيتين إلى أى مدى امتزجت اللغة فيها بالشخوص وصارت دالة عليها ، وإلى أى مدى استوعب الشعر الإيماءات والنكات والتعبيرات الشعبية دون أدنى افتعال أو تكلف .

* * *

وبعد فليس الهدف هنا تقديم دراسة أو ما يشبه الدراسة لهذه المجموعة من المسرحيات ؛ وإنما هى كلمة تقديم لها ، لن تحول بحال من الأحوال بين القارىء وما ينتهى إليه من آراء خاصة . وقد اقتضى هذه الكلمة إصدار هذه المسرحيات الثمانى مجتمعة فى مجلد واحد ، بعد أن صدرت كل مسرحية منها فى كتاب على حدة . والحق أن معظم هذه المسرحيات قد طبع خلال الخمسين عاما الماضية عدة طبعات . أما مسرحية البخيلة فلم يسبق نشرها فى كتاب قط ، إلا فى هذه الطبعة التى تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب . وقد كان من أثر الطبعات المختلفة غير المسئولة لتلك المسرحيات أن كثر فيها التحريف والتشويه والأخطاء اللغوية والعروضية ، وتداخلت فيها أحيانا أقوال الشخوص واختلطت على نحو يفسد

المشهد . وكان لابد من تدارك هذه الأخطاء والعيوب جميعا ، وإصدار هذه الطبعة الجديدة من هذه المسرحيات ، محررة ومدققة قدر الطاقة ، ضمن مشروع لإصدار أعمال شوقي الكاملة ، على نحو يليق بمكانته الأدبية في تاريخنا الحديث ، ووفاء لأجيال المستقبل .

القاهرة فى ١٩٨٤/١/١٦

عز الدين إسماعيل

أحمد شوقى
الأعمال الكاملة
المسرحيات

عنترة

تمهيد

زمن الرواية : حوالى منتصف القرن الأول قبل الهجرة

مكان الرواية : بادية نجد — أحياء عبس وعامر وما بينهما

أشخاص الرواية :

عنترة ، فارس بنى عبس ، أسود اللون لأمه .

عبلة ، محبوبة عنترة وابنة عمه .

مالك ، أبو عبلة ، وعم عنترة ، وهو سرى من سراة عبس .

زهير، عمرو ، إخوة عبلة .

صخر ، سرى من سراة عامر يحب عبلة ويتردد على حيها ويخطبها .

ضرغام ، فارس شاب من فرسان عبس يحب عبلة ويخطبها كذلك .

ناجيـــة	، فتاة من عبس تحب صخرا .
شـــدّاد	، أبو عنترة .
داحس	، رفيق عنترة .
مارد غضبان	، عبـــدان .
رســـتم	، قائد الفرس .
ســـعاد	، خادم عبلة .
نكرات مسرحية	، رجال وخدم وفتيـات من عبس وعامر راقصـات ومغنيـات و زامرون ، ولصوص ...

الفصل الأول

« عين ذات الأصاد فى يمين المسرح وقد حفت بالنخيل. »
« وفى اليسار مضارب بنى عبس ، وأظهرها خيمة مالك الحمراء »
« التى يبدو جزء منها حوله ومن ورائه فضاء . فى جبهة المسرح ربوة »
« عالية وكثبان من الرمال تستوى بالأرض من ناحية اليمين . »
« الوقت فى مطلع الشمس وقد وقف عنترة أمام الخيام باديا »
« عليه النصب والكلال ، يسمع نباح كلاب من وراء الخيام »

المشهد الأوّل

عنــــترة :

سَلِي الصبحَ عنّى كيفَ ياعبلَ أُصبِحُ ... وأينَ يَرانِى نجمُهُ حينَ يلمحُ
أفى خيمَتِى كالنّاسِ أمْ فى بيوتِكُمْ ... أُبثُّ الخيامَ الشوْقَ وهْو مبرِّحُ
أُقبِّلُ أطنابَ البيُوتِ ورُبَّما ... تلفَّتُّ عن مُنْهلَّةِ الدمعِ تسفَحُ
أرى بِوُقُوفِى فى ديارِكِ راحةً ... كما يَستريحُ ابنُ السبيلِ المطَرَّحُ
أبوكِ غريرُ القلبِ لم يعرفِ الهوى ... ولم يَدْرِ ما يأسُو القلوبَ ويَجرَحُ

يَخِفُّ لواشٍ يشرَحُ الزورَ سمعُـهُ وفي أُذْنِهِ وقـرٌ إذا جئتُ أَشْرَحُ
أَرى الغيدَ من حولي وفيهنّ سَلْوةٌ فمَـالِي أردُّ القلبَ عنكِ فيَجْمَحُ
فمـا سرَّنِي منهنّ ما كان يُشْتَهى ولا رَاقَ لي منهنّ ما كان يَمْلُحُ
أَحِيدُ عن السَّارِي لكي لا يَرِيبَكُم وأُقْصِي كلابَ الحيِّ عنّي فتنبَحُ
فياعبـلَ قـد طالَ التّنائي وظلُّهُ متَى بتَدَانِينا الحـوادِثُ تَسمَحُ؟

[يصعد الربوة من اليمين]

ياليت حبّكِ عبلَ لي حبُّ القَطَاةِ لِشكْلِها
أو حبُّ قُـبرّةِ الصَّفا لأليفِـهـا ونَحلِّهـا
أو مثلُ حُبِّ نَجيبَـةٍ مجنـونةٍ في فَحْلِهـا
ليتَ افْتتـانَكِ لم يكُن بِشجَاعَتِي وبِفَضْلِهـا
أو ليتَ حبَّكِ لم يكن لقصـائِدي وَلِنُبْلِهـا

[يهيئ لنفسه مضطجعا وراء نخلتين على الربوة تحجبانه عن سائر المسرح جهد المستطاع ثم يرقد ويعلو نباح الكلاب وثغاء الشاء وصياح الديكة ويمرّ به فتيان سائران على الربوة وقادمان من ناحية الخيام]

المشهد الثاني

أحد الفتيين: ماذاك؟ مَنْ؟ قِفُوا، انْظُرُوا جُلمودُ صخْـرٍ أم جَسَدْ؟
الآخـر: هـذا الفَتَى عنـتَرةٌ كلُّ الـثَّرى له وُسُـدْ

قَــدِ الْتوَى كالأُفعُــوا نِ وتَمطَّى كالأسَـدْ

[يهبط الفتيان الربوة ويختفيان
ناحيــة اليمين وراء النخيل ويسمع
صوت هاتف من وراء الخيام]

المشهد الثالث

الهـاتف : الديكُ عِندَ البُيوتِ صاحَا يا حىَّ عبْسٍ عِموا صَبَاحَا
حىِّ هلاَ يا رُعاةُ هُبُّــوا هاتُواالمَواشِى خُذُواالبِطاحَا
هلُمُّنَ يارَاعياتِ عَبْسٍ الرَّعْىَ والحلْبَ والفَلاحَا

[يخرج صبية وجوار من كل ناحيــة فى الحى مارّين بالخيمة الحمراء ومتجهين الى الحظائر وراء النخيل بينما يجلس جماعة من الجوارى على حفافى العين يملأ ن الجرار ومن بينهن ناجيــة ثم تخرج عبلة من الخيمة الحمراء وتقف أمام بابها تمطى وتتاءب]

المشهد الرابع

عبــلة : وَادى الصَّفا تَجَاوَبتْ وزَقْزَقَتْ عصَافِـرُهْ
وَآنتَبَهَتْ خِيَـامُـــه وآستَيْقَظَتْ حَظائِرُه
صاحَتْ هُناكَ شاؤُه وَهَهُنَــا أَباعِــرُهْ

أوّلُهُ في جُنَّةِ الْـفَجْرِ جَرَى وآخِرُهْ
نَبَـاتُهُ وماؤُهُ وظِلُّهُ وحافِرُهْ

فتاة تتغنى : جِئْنَ الصفا يا عَذَارى وآملأْنَ منهُ الجِرارَا

الأخريات متغنيات :

جِئْنَ الصفا ... ...

الأولى وحدها :

ماءٌ من الفَجْرِ أصْفَى فرِدْنَ صفًّا فصفًّا
واقعدْنَ فاضرِبْنَ دُفًّا وقُمْنَ فاضرِبْنَ طارَا

الأخريات: جِئْنَ الصفا يا عذارَى وآملأْنَ منه الجِرَارَا

الأولى : تلك دُموعُ الغَوادى جُمِّعْنَ من كلِّ وادِ
في عينِ ذاتِ الأصادِ ثم انفجَرْنَ انفجَارَا

الأخريات: جِئْنَ الصفا يا عذارى واملأْنَ منه الجِرَارَا

الأولى : رِدْنَ القَراحَ الزُّلالا رِدْنَ الرَّحيقَ الحلالا
فما سقَى منذُ سالا كمِثْلِ عبْسٍ دِيارَا

الأخريات: جِئْنَ الصَّفا يا عذارى وآملأْنَ منه الجِرَارا

[تدخل عبلة خيمتها و يمر صخر أمام الخيام متهاديا
واقفا في المسرح هنا وهناك بين الحين والحين]

المشهد الخامس

إحدى الفتيات : ناجيةُ اسمَعِي انظُرى مَنِ الفتى يا ناجِيَه؟
ذاكَ الفتَى المُهَنْدَمُ الحُلْوُ الرقيقُ الحاشِيَهْ

ناجية : كيف ألم تَرَيْهِ قبْلَ هذه فى النَّاحِيهْ؟

الفتاة : للهِ ما أظرفَهُ

ناجية : أحببتِهِ يا غاوِيَه
خَلِّيهِ فهْوَ مغرمٌ صَبٌّ بأخرَى سالِيَهْ

الفتاة : مَنِ الفتَى ؟

ناجية : مِنْ عامِرٍ أبوهُ موفورُ النِّعَمْ
يقالُ فى حِظارِهِ ألفانِ من حُمرِ النَّعَمْ

الفتاة : يحبُّ مَنْ؟ يعبدُ مَنْ؟ يا ليتَنِي كنتُ الصَّنَمْ

ناجية : إنَّ التى هامَ بها بغيرِ عبدٍ لم تَهِمْ

الفتاة : عبلةٌ ؟

ناجية : لِمْ لا؟ إنها اليومَ حديثٌ للأُمَمْ
صيَّرها عنترةٌ نارًا على رأسِ عَلَمْ

[تظهر عبلة على باب الخباء]

المشهد السادس

ناجية :

خيمتكِ الحمراءُ يا عبلَ لعمْرى فاخرهْ
تصلحُ أن يسكُنها عقائلُ المناذِرَهْ

فتاة :

مُتِّعتِ يا أختُ بها ولا تزالُ عامرهْ
وعاشَ أهلوكِ وعاشَ مالكٌ وعِشْتِ فى بيْتِكِ ياعبلَ المدى
مَعْ رَجلٍ كأنه ليثُ الوغَى

صخر : بل رَجلٍ كأنهُ بدرُ الدُّجَى

عبلة :

بدرُالدجى؟ لا . ليس ذاكَ بُغْيَتِى نحنُ الغوانى حسبُنا بدرُ السما
إن كان فى الأسْمارِياتَ عندَنا أو فى الكَرى علَىالمضاجِعِ انحنَى
البـدرُ فى بِيضِ لياليـهِ مَعِى

صخر : ماذا تُريدينَ إذنْ ؟

عبلة : ليثَ الشَّرَى
أريدُ أَجلادا شـديدَةَ القُوى وساعِدًا خشْنا كجُلمودِ الصَّفَا

صخر :

وسِحنـةً كأنمـا قـد قُلِّبَتْ على هَبابِ القِـدرِ وجْهًا وقفَا

عبـــلة :

تُرِيدُ أنْ تسخَرَ من عنترةٍ؟ بيِّن كفى يا صخرُ تعريضاً كَفَى

إن كنت كالفتيانِ فامْضِ لاقِهِ

صخـــر : أنا ؟ أُلاقيــهِ أمجنونٌ أنا؟

لِمْ لا تقولينَ الْقَ حيَّــةَ الصّفا أو أسد الصحْراءِ أو ذئبَ الفلا

عبـــلة : خَلِّك منه صخرُ لا تَقْتَبس به لا تَزِنْ صخر بفارسِ الوغى

صخـــر : الحقُّ أنى يـابـنـا ت عبْسَ خانَنى الصَّبرْ

سئمتُ من عنترةٍ ومن ثنائِه العَطِرْ

ومن حديثِ بأسِه ومن نُعوتِهِ الأُخَرْ

وفتنــةِ البَــدوِ بهِ وشأنِه بينَ الحضَرْ

أكُلُّ ذئبٍ ريِّه وشَــبْعُه من البَشَرْ

وكلُّ ليثٍ فاتِك وكلُّ حيّــةٍ ذَكَرْ

وكلُّ سيْلٍ لم يدعْ وكلُّ ريحٍ لم تَـذَرْ

عنـدَ الرجالِ والنسا ءِ كائنٌ له خطَرْ؟

عبـــلة : خلِّينَ صخرًا دعْنَــهُ قد قتلَ الفتَى الحسدْ

إسمعْنَ شاةَ عامرٍ ماذا تقولُ فى الأسَـدْ

صخـــر : شاةٌ أنا يا بنات عبْسٍ إحسَبْتِنِي الشاةَ مايضُرُّ؟

فى الشاةِ واللهِ كلُّ خيرٍ وليس فيها أذًى وشَرُّ

مِزاجُها هادئٌ لطيفٌ وشكلُها رائقٌ يَسُرُّ

عبلة [ضاحكة]: اضحكن يا بناتْ العامرىّ شاةْ

[ثم الى صخر]: بُسبُسْ تعالَىْ بُسبُس

أخرى: هُس شاةَ عامرٍ هُسِي

خُذى كُلِى مِن تُرمُسى

صخر: شهِدَ اللهُ قد أسأْتُنّ فهْما

عبلة: نحنُ؟ بل أنتَ قد أسأتَ مَقالاَ

صخر: ما الذى قلت؟

عبلة: قلتَ ماقيمةُ البأ سِ وصغَّرتَ عِندنا الأبطالاَ

صخر: إنما قلتُ تأخذُ الذئبةُ الذئبَ وتُعطَى اللباءةُ الرئبالا

وابنةُ الناسِ لابنهمْ فَقديمًا سخَّر اللهُ للنِّساءِ الرِّجالاَ

عبلة: لا تريدُ الرجالَ يا صخرُ إلا جُبَناءً أذلّةً أنذالاَ

صخر: بلْ أريدُ الحياةَ خيرًا وسِلْما ليس شرًّا سبيلُها وقتالاَ

أريد الجمالَ لهذا الجمالِ وأبغِى الشَّبابَ لهذا الشَّبابْ

ويحزُننى أن تُزَفّ الظِّباءُ الى أُسُدِ الغابِ أو للذِّئابْ

وأن تُحمَلَ امرأةٌ كالشُّعاعِ عَروسًا الى رجُلٍ كالهَبابْ

وفى البيدِ كلُّ فتىً كالسِّراجِ اذا أظلَمَ الليلُ أو كالشِّهابْ

عبلة : جميلٌ وليس بحامى البيوتِ ولا مانعٍ من يدٍ مالَه

اذا ما عوى الكلبُ ضلّ السلاحَ وبلّ من الخوفِ سروالَهُ

يجودُ بزوجتِــه للغَــير ويرمى الى الذئبِ أطفالَهُ

صخر : ومَن تعنين يا عبلَ؟

عبلة : ومَنْ يا صخرُ من تعنى؟

لقد أسرفتَ فى التعريضِ بالليثِ وفى الطعنِ

[تسمع ضجة وأصوات استغاثة من ناحية الخيام]

عبلة : وَيْحَ جيرانى وَوَيْحى صرخاتٌ وصفيرُ

وعلى الخيماتِ أشباحٌ وأقدامٌ تدورُ

أتُرى قد نزلَ اللصُّ بعبسٍ والمغيرُ؟

صخر : الحياة الحياه النجاة النجاه

الفرار الفرار الفرار الفرار

[يفر الجميع من هنا ومن هناك وتبقى عبلة وحدها فتخرج اليها من الخيمة الخادم سعاد]

المشهد السابع

سعاد : سيدتى هىّ اهربى جَمعُ الشياطينِ اقتربْ

عبلة : أهرُبُ؟ لا! ما فى طِباعِ العربياتِ الهربْ

نحنُ ثِنتانِ يا سُعادُ تعالىْ بجانبى
بلْ قِفى حيثُ أنتِ فى طَرَفِ البابِ رَاقِبِى

سعاد : ومَعِى

عبلة : ما الذى حمَلْتِ ؟

سعاد [وتظهر خنجرها] : خَليلِى وصاحِبِى

[تدخل عبلة الخيمة ويسمع صوتها
من الداخل وترى من الباب]

عبلة : خنجَرٌ مِثلُ خنجَرِى جَرِّديهِ تأهَّبِى
خنجرِى أينَ خنجرى اليومَ مِنِّى هُوَ ذا خنجرِى تعالَ أُعِنِّى
حُطْ عَفافِى وَحامِ عن قُدُسِ العُزَّى ورُدَّ اللصوصَ عنْها وعَنِّى

[تتجه عبلة الى صنم بداخل الخيمة]

عُزَّاىَ قَوِّى يمِينى عُزَّاىَ لا تخذُلِينى
أَبى تأخَّرَ عنِّى وإِخوَتِى ترَكُونِى
وأين عنترةُ اليوْمَ أين حامِى العَرِينِ؟
لوْ كانَ فى أرضِ عبسٍ بلجرَّدَ السيفَ دُونِى

عُزَّاىَ معبودَ ثقيفٍ وإلَهَةَ العَرَبْ
إنَّ اللصُوصَ طَمِعوا فيما عليكِ مِن ذَهبْ

لن يسلُبوكِ شَعْرةً وفىَّ عِرْقٌ يَضطرِبْ

[تخرج عبلة]

كيم الرِّجالُ ، هلُمِّى قُومِى اُنْظرى يا سُعادُ

[تدور سعاد حول الخباء فى حذر ثم تعود]

سعاد : سيِّدتى لا تُراعى حوْلَ الخباء ثلاثهْ

وجوهُهُمْ كالجثاثُ وبالثِّيابِ رثاثهْ

المشهد الثامن

« يظهر أحد اللصوص فتختفى الفتاتان وراء باب الخباء ، حتى إذا حاذى الباب طعنته عبلة فى ظهره »

عبلة [هامسة] : ذِئبٌ ؟ تعالَ خُذْ ، مُتِ قتلتُهُ بِضَرْبةِ

المشهد التاسع

« يظهر لص آخر فتطعنه سعاد »

سعاد [هامسة] . وأنتَ أيضاً يا شَقِى خُذْ امضِ مُتْ بِهِ إلحَقِ

اللص [ممددا على الأرض] :

آهِ من الخناجِرْ

الأول : شلّت يمينُ الغادِرْ

[يظهر لصوص آخرون
من هنا وهناك وراء الخباء]

المشهد العاشر

سعاد : سيّدتي

عبلة : سُعادُ ماذا؟ ما الخبرْ؟

سعاد : سيّدتي الآنَ نُواجِهُ الخطَرْ
سِرْبٌ من الذئابِ نحوَنا انحدَرْ

عبلة : بَلْ هُوذا سُعادُ في البَيْتِ انفجر

قِفِي سُعادُ ناحيهْ دونَكِ تلكَ الزاويَهْ

سعاد : وأنتِ مِن ورائيَهْ

عبلة : لا بلْ مكاني هَهُنا فَربّةُ الدّارِ أنا
سُعادُ لَلْمنيّهْ أحلَى مِنَ الدّنيّهْ
ولا يَزيدُ في العُمُرْ شيءٌ اذا الموتُ حضَرْ
هيّ ابنتي تقنّعِي وناولِيني بُرْقُعِي
وقاتِلِي الجمعَ معِي

أحد اللصوص : السلاحُ أكبرْ ما ذاك ؟

عبلة : خنجرْ

[تحاول أن تطعنه فيمسك بذراعها و يمسك لص آخر بذراعها الأخرى و يقبض لصان آخران على سعاد]

اللص : ما للبرقعاتِ والخناجرِ يحملنها؟

عبلة : لردعِ كلِّ فاجرِ

لص آخر : تعالىْ اسفرى ارفعى ما ذا وراءَ البرقعِ؟
الآنَ تمضينَ معى !

[يحمل بعض اللصوص عبلة وسعاد الى ما وراء الستار من ناحية اليسار فتسمع استغاثة عبلة من هناك بينما يبقى فى المسرح سائر اللصوص]

المشهد الحادى عشر

عبلة(مستصرخة) وَاعنْترا وَاعنترا لَيتكَ عِندى فترَى
حَلّ الذئابُ ساحَتى إلىّ يا ليثَ الشّرَى
أحد اللصوص : الخيمَةُ الحمْرا القُبّة الكُبْرى
هُنا روائعُ التُّحَفْ هُنا نَفائسُ الطُّرَفْ
هُنا عصائبُ اليَمنْ ووشْيُها الغالى الثّمَنْ

آخر [ممسكا بخناق أخيه] :

بُشراىَ دعْ يا ابنَ الزنا القُـرْطَ لِى

آخـر : بَلْ لِى أنَا

الأوّل : السـيْفُ بَيْنَنَا حَكَمْ

الثانى [ويطعنه] : خُذْهاوماشِئْتَ فَنَمْ

الثالث : لا لَكَ القُرْطُ وَلَا لَهْ

[ثم يطعن الثانى]

أَعطِنيـهِ يا حُثَالَهْ

[ضجة الغارة مستمرة من وراء الستار . يقدم من يسار الربوة المرتفع شـداد ومالك فيهرب اللصوص و يمر القادمان بعنـترة وهو نائم]

المشهد الثانى عشر

شـداد : أضجْعَةً يا عَبْدُ والحىُّ سُبِى

عنـترة : مَنِ المُنادِى؟ سيِّدى : صوتُ أبى ؟

شـداد : ماذَا يَقولُونَ غدًا فى العَـربِ !

[يظهر من يمين الربوة بعض الهاربين]

المشهد الثالث عشر

أحد الهاربين :

أُبيحَتِ الحِظارُ والخِيـامُ واختُطِفَتْ بحروةُ يا هُمَامُ

مالك : وأفرسًا طارَ بِهـا الطَّغَامُ !

مالك[لعنترة]: عنترَ قُمْ ردَّ عليّ جَرْوَتِي

عنــترة [ببرود] : سِرْأنتَ أنقذهاأوابعثْ إخوَتِي
وخَلِّنِي أَغنَمْ لذيذَ غَفْوَتِي

[ويرقد]

هارب آخر : يا سـيِّدَ الماء ليْسَ لنـا المـاءُ
أُطرِدَتِ الإبــلُ وسِيقَتِ الشّـاءُ

شــدّاد : يابنَ شدّادَ

عنترة [بتهكم] : ما أنا ابْنٌ لِشــدّادَ وَلكِنْ عبدٌ يَسُومُ ويَسْقِي
لستُ من عبْسَ لا، ولسْتُ لكَ ابنًا لونُ أُمِّيَ أفاتَنِي مِنْكَ حَقِّي

شــدّاد : قُــمْ يافتى عبسٍ انْهَضْ ذُدْ عنْ حَرِيمِي وعَنِّي
إذا رَدَدْتَ السبَايا فأنتَ عنــترةُ ابْنِي

عنــترة : ياســيِّدَ الحيِّ قُــلْ لي مَتَى فَطِنْتَ لِشــأْنِي
أأنتَ ذَا تَدَّعيـنِي وكُنْتَ تَــبْرأُ مِنِّي؟

هارب ثالث : يا سـيِّدَ الوادِي هيَّ آحِـهِ هيَّ
عبْـلَة ...

عنترة [ناهضا] : ما الخطْبُ ؟

الفــتى : سُلَّتْ مِنَ الحيّ

عنـــترة :

أنا كالليث ما الهزيمةُ فى طبْعى وليْس الفِرار لى فى جِبِلَّهْ

أنا حُرٌّ وإن أبتْ عبْسُ والنا س وآبائى السَّراةُ الأجِلَّهْ

لا لحُرِّيَّتى أموتُ ولكنْ حبَّذا الموتُ فى سَبيلك عبْلَهْ

[يسمع صوت استغاثة من وراء الستار]

المستغيث : عنـــترةَ البـــأسِ ويا عَـــزيزَ الجـــارْ

تـــلك نِســا عبْسٍ حـــلَّ عليها العـــارْ

عنـــترة : لبيْـــكِ يا عبـــسُ يا عبْـــس لَبيْـــك

عنـــترةُ الـــروْعِ أمْـــنَ سِربيْـــكِ

[يسمع صوت عبلة من بعيد ومن وراء الستار]

عبـــلة : واعنـــترتَا واعنـــترتَا

عنـــترة : لبيْكِ عُبيْلَ الليْثُ أتَى

عبلةٌ يا عبـــلَ لا تُراعى لبيْـــكِ بالسيْفِ بالقَناةِ

يا عبلةَ القلْبِ لا تُراعى لبيْـــكِ بالرُّوحِ بالحياةِ

تأمّلى غضْـــبَتى ترَيْـــها كغَضْبَةِ الليْثِ لِلّبَـــاةِ

[يظهر جماعة من اللصوص من ناحية الخيام يحملون أسلابا ، ويحاولون الهرب عن طريق العـــين حينما سمعوا صوت عنترة فيهبط عنترة من الربوة و يقطع عليهـــم الطريق]

المشهد الرابع عشر

عنترة : يا سَرَقَهْ يا فَسَقَهْ — الليثُ جا
رُءُوسَكم نُفُوسَكم — أوْ فالنَّجا
خَلُّوا الحُلى — دَعوا الوُسُدْ
من يَخْتَلِسْ — حَبْلَ مَسَدْ
فَوَيْلُهُ — مِنَ الأسَدْ

[يهجم عليهم]

كُونُوا ذِئابَ الفَلَا — إنِّى أنَا القَسْوَرَهْ

أحد اللصوص : عنترةٌ جاءَكُمْ — عنترةٌ عَنْتَرَهْ

عنترة : رُدُّوا الحُرَمَ الى الخِيَمْ — سُوقُوا النَعَمَ الى الحِظَارْ
هلُمُّوا يا ذِئابَ القَفْرِ — لاقُوا السيْلَ والنارَا
هلُمُّوا جمعَكُمْ وابْرُوا — رِياحًا أجرِ إعْصَارَا
فهذا اليومُ فى البِيدِ — سيبقَى بيْنَنا ثارَا
مَن يَبْرِزْ باللَّيثِ من؟ — حَذَارِ من بطشى حَذَارْ
هاتُوا القَنَا ألقُوا هُنا — إنى أنا سيْلٌ ونارْ .

أحد اللصوص : زمجرةٌ قَسْوَرَةٌ — عنترةٌ هيُّوا الفِرَارْ

آخر : بَل اهجموا وأقْدِمُوا — لا تُحجِمُوا فَذاكَ عارْ

أسـيد : مكانكمْ ياقومُ لا تفرّقوا كمْ ذا من العبْد الى كم نفرق؟

[لعنترة] : هـلمَّ عنترَ القنِي تُسق الردى أو تتّقِي

عنـترة : مَن الفتى ؟

أسـيد : ابنُ حُرةٍ!

عنـترة : عرّضْتَ يا أحمقُ بِي

أنا ابنُ شـدّادَ فمنْ أبوكَ؟ جِئْني بِالأبِ

أسـيد : أبى مُعانِقُ الأسَلْ سَلْ عنْ أبى مَنْ شِئْتَ سلْ

عنـترة : شـدّاد أعلَى وأجلْ

أحد اللصوص : صَاحِبُكم وعنترهْ يا عجبًا هبّوا نرَهْ

أُسَـيْدُ شهمٌ أُسَـيْدُ باسِـلْ

تعالَ ننظُـرْ كيفَ ينُازِلْ

ليثَ الصحارَى غـولَ القبائلْ

[يطعن عنترة أسيد فيرديه ثم يجرى الى ما وراء الخيام باحثا عن عبلة ووراءه مالك وشداد]

المشهد الخامس عشر

لـص : أُسيدُ عِش أنتَ اسيدُ يَستاهِلْ

من يَطفر النـارَ فليس بالعـاقِلْ

آخـــر : هــذا القـدَرْ مَن يقتحمُـهْ
هــذا الصخرْ مَن يَصـدِمُهْ

[يفرّ اللصوص من اليمين ويدخل عنترة
وعبلة من اليسار ووراءهما داحس وسماد]

المشهد السادس عشر

عنــترة :
لبيك عبلةُ يا فِداكِ حَيـاتي ... نادِى يُجِبْكِ مُهنّدِى وقَنـاتى
لو رنّ صوتُكِ فى جَوانِبِ حُفرَتى ... لبّـاكِ من تَبَجِ الترابِ رُفاتى
البِيدُ تحتَ يَدِى وتحتَكِ ضَيْعةٌ ... أنا لَيْثُ غابَتِها وأنتِ لَبـاتى
رُوِّعتِ بِنتَ العمِّ ؟

عبــلة : مِمَّ ؟

عنــترة : ألم يرُعْ
مَرْأى البُزاةِ حَمامَتِى وقَطاتى

عبــلة :
مَرْأى البُزاةِ ؟ ترَى اللصوصَ بَوازِيا ... هُمْ دونَ ذلك، هُم حداةُ [illegible]
جُبناءُ خَطّافونَ أكبرُ همِّهمْ ... عكازُ شيخٍ أو حُلِيُّ فتاةِ

عنترة : ماذا لقيتِ منَ اللصُوص؟

عبلة : بَل امضِ سَلْ

[تشير الى قتيلين على باب الخباء]

هذينِ كيفَ تلقَيَا طَعناتِي

أنا وابنَتِي هاتيكَ جندلناهما

عنترة : حقٌّ سعادُ فعلتِ

سعاد : سَلْ مَوْلاَتِي

عنترة :

أجَلْ أرَى جثَّـةً وأخْرَى داحِسُ ماذا تَـرَى؟

داحس : دِمَاء

عنترة : أأَنتُما تقتُلان

عبلة : لِمْ لاَ؟

عنترة : من قلّدَ الخنجَرَ الظّبَاءَ؟

عبلة : ذِئابُ قَفْرٍ مَشَتْ إليْنَا كَوَاسِراً تُضمِرُ العَداءَ

عنترة : وأيْنَ كانَ الرجالُ ؟

عبلة : سَلْهُمْ

عنترة : وكيفَ لم يَسْمَعُوا النّداءَ؟

عبلة : لقــد تلفّتُّ لم أجِدْهُمْ ولم أجِدْ حولِيَ النّساءَ

عنترة [ملتفتا لداحس] :

دَاحسُ صِحْ وأَسمِــع ونَادِ ، عبْــلَةٌ مَعِى

وَأَنَّهَا سَالِمَــةٌ وأنَّها لَمْ تُــرَعِ

[تدخل سعاد الخباء وينادى

داحس من وراء الخيام]

المشهد السابع عشر

داحس : ياعبْسُ بُشْرى لكُمُو قد وُجدتْ أختُكُمُو

عنــتَرَةٌ حيالَكُمْ وعبــلةٌ بَيَنَكُمُو

عبــلة : عنــترةٌ ؟

عنــترة : عُبيلةٌ

عبــلة : مِن أَينَ ؟

عنــترة : مِن طولِ السُّرى

سَرَيْتُ أبْغِى الحىَّ ليــــلِى كلَّه حــتى دنا

وجئتُ فى مُنبلَجِ الــــصّبح أسابِقُ الضُّحى

عسایَ أرعَى شاءَكُمْ كعادَتى فيمَــنْ رَعَى

عبــلة : لا لستَ تَرعى الشاءَ يا عنــترَ بل تَرعى الحِمَى

وأينَ يابنَ العــم كنتَ لم تَزُرْنا مِن مَدى

عنترة : في عالَم الدنيا وفي وادي الحياةِ وفي شِعابِهْ
في البِيدِ عبلةُ في عَرِيـــنِ الليْثِ في سلطانِ غابِهْ

عبلة : سعاد

[تخرج سعاد من الخباء ويعود داحس من وراء الخيام فيصعد الربوة ويختفي وراء النخيل]

المشهد الثامن عشر

يا بنت اذهبي جيئي بتمر ولبن

[تدخل سعاد الخباء]

المشهد التاسع عشر

عنترة :

أجلْ لي ثلاثٌ ألبَسُ البيدَ حائرا ... كما يلبَسُ الليلَ الطويلَ سقيمُ
اذا قمتُ من ذئبٍ عثَرتُ بحيّةٍ ... طريقي منايا كلُّه وسُمُومُ
أهيمُ على وجْهي وقلبي من الجوَى ... على وجْهِه بين الضلوعِ يَهيمُ
ويَهدأُ إلا حين تهتزُّ بانةٌ ... ويُطرِق إلا حينَ يشخَصُ رِيمُ
أجيءُ حِماكُم من نجومٍ بعيدةٍ ... وتَرجِع بي مِن حيثُ جئتُ نجومُ
ويحزُنُني يا عبلَ أني أزورُكم ... فيصرِفُ عمّي الوجهَ وهو كريمُ
يكاد يَسُلُّ السيفَ حين أجيئُه ... ويوقِدُ نارَ الطرْدِ حين أريمُ
نخاضَ الموالي في حديثي وأقبلتْ ... عليَّ مِن الوادي الظنونُ تحومُ

وكم رامَ وُدّى فى القبائل سيدٌ ... وَوَدّ مكانى فى الديارِ زَعيمُ
ولو لم يَكُنْ يا عبلَ عمّا ولا أبًا ... لِعبلَةَ سيمَ الخسفَ وهْو كظيمُ

عبــلة :

تَسومُ أبى خسْفاً ؟

عنــترة : مَعاذَكِ عبْلَتِى

مَعَاذ الهوَى أنّى إذن للئيمُ

ولكنّ عمّى جارَ

عبــلة : هَبْ لىَ ذنبَه

وهَبْنِى التى جارَتْ أكُنتَ تَلومُ؟

عنــترة :

عُبيْلَةُ جُورى واترِكى عمّنا يَجُرْ ... فإنى على عهْدِ الهوَى لَمقيمُ

[تخرج سعاد من الخباء حاملة قصعة فيها مجيع
وهو طعام يصنعه العرب من التمر واللبن ، فتضع
القصعة على الأرض وتدخل من حيث خرجت]

المشهد العشرون

عبــلة : عنترَ خذْ قاسمْنىَ المَجيعا

عنــترة : هاتى فقد كدتُ أموتُ جوعا

[يجلسان الى قصعة المجيع فتتناول
عبلة بضع بلحات تعطيها الى عنترة]

عنترة :

حَسْبي النوى عبلَ ما في التمر لي أربٌ مُناى كلُّ نواةٍ خالَطَتْ فاكِ
التمرُ أطيبُ ما فيه النواةُ إذا مرّتْ بثغرِكِ أو مسّتْ ثناياكِ
لقد مررْتُ بوادٍ غيرِ ذي شجرٍ نضْرٍ وإن لم يُصِبْهُ الغيثُ ضحّاكِ
مُطيَّبٍ نفحَتْني منه رائحةٌ كالمسكِ يا عبلَ أو تعلو على ذاكِ
فقلتُ عبلةُ في الوادي مشتْ ورمتْ على نَواحيهِ مِن فيها بمِسْواكِ

عبلة : لقد أحسنْتَ يا عنترَ فاقبَلْ من فمي التمرا

عنترة : بروحي فُوكِ يا عبلةُ هاتي الشهدَ والخمْرا

عنترة : عبس اشهدوا عبلةُ قدْ قامتْ تزُقُّ عنترهْ
كما تزُقُّ فرخَها على الغصونِ القُبَّرهْ

عنترة : عبلَ

عبلة : لبيْكَ سامي الخيْلِ

عنترة : لاما أنا للخيلِ يا عُبَيْلةُ حامِ

عبلة :

من إذن يُمسِكُ النجيبةَ في السَّرْجِ ويَحمي النجيبَ خلفَ اللجامِ؟

عنترة : ألهذا أحببْتِني؟

عبلة : ولشأنٍ كضُحى الشمسِ أو كبدرِ التَّمامِ
كلَّ يومٍ يُقالُ عنترةٌ أرْدَى كميًّا وقام عن ضرْغامِ

عنـــترة :

لِمَ لا تعشــقينَ عبــلَ جَوادى؟ لِمَ لا تَعشقينَ عبلَ حُسامى؟
أوَ ليْسا هُما شَريكَىَّ فى الفتْكِ وضربِ الطُّلَى وحصْدِ الهامِ؟

[يظهر داحس على الربوة ثم يهبط منها
حاملا معه فراخ نسر وثلاثة أشبال]

المشهد الحادى والعشرون

عبــلة : مــاذاك؟ مــاتحمــلُ؟ مــاذا عــنترة؟
ما تِلْكَ عنترَ؟

عنترة [متناولا أفرخ النسر من داحس] :

هَــذِى يا عبلَ أفــراخُ نَسْرِ
إغْـــترَّ بِى أبــوَاها وكنتُ بالشِّعْبِ أسْرِى
فظلَّلَ الأبُ صدْرى وغطَّتِ الأمّ ظَهْرِى
ومسَّـــيانِى بِـكَـرٍّ على الجبــالِ وفَـــرٍّ
توَهّمــانِىَ صيْــدًا يهنِى الفِراخَ ويمرِى
فلم أكُنْ غيرَ يُتْمٍ لِمُبتغِى الصيْدِ مُرٍّ

عبــلة : ما أتَا؟

عنــترة : أجلْ لَقِيَا عبلَتِى جزاءَ التجرِّى

مُحطَّمين بكفِّى ممزَّقين بظُفرى

[يدخل جماعة من المارين فتيانا وفتيات
من ناحية العين و بينهم صخر وناجية]

المشهد الثانى والعشرون

صخر : عبلةُ لم تُسبَ
صوت : عبلةُ فى الحَىّ
آخر : عنترةٌ ثَمَّ لاخوفَ من شئٍ
عبلة : وما هذه الأخرى؟
عنترة : شُبولٌ ثلاثةٌ تُربّى هنا بين البيوتِ وتُصلَحُ

تعرّضَ لى ليثٌ يُدِلُّ ببأسِه الى جانبيْه لبوةٌ تتبجّحُ
وقد ملأ البيداءَ رعْدًا كأنما بكلّ سبيلٍ ذو رُعودٍ مُلمِّحُ
مَشيتُ إليه فانثنى فطلبتُه فاقبل تيّاهَ الخطا يترنَّحُ
ظللنا مليًّا أتقيه ويتّقِى ويُعجِمُ فى قولِ الوَعيدِ وأُفصِحُ
فاغمدتُ سيفى فى قرارة جوْفه أليس لسيفى ذلك الغمدُ يصلُحُ؟
الى أن تعايا فى يدى فذبحتُه ومن ذا رأى الضِّرْغام كالشاةِ يُذبحُ
وكم من كمِيٍّ فى أعنّةِ سابحٍ تركتُ ورائى فى الدمِ الحُرِّ يسبَحُ

عبـــلة :

وما صَنَعْتَ باللبـاةِ يابنَ عمْ

عنـــترة : عفوْتُ عنها

عبـــلة : ذاكَ واللهِ الكَرَمْ

عنـــترة : اقتحَمَتْنِي مرّتينِ وانثنَتْ لم ترَ من فائدةٍ أن تَقْتحِمْ

أنثى ضَعيفةُ القُوى تركتُها إنّ الإناثَ عندَ أمثالِى حُرَمْ

صخـــر :

شبولٌ تُربّى فى البُيوتِ أغَابةٌ حِماكُم ؟

عنـــترة : ونحنُ الأسدُ فى الغابِ نَسْرح

ومالَكَ ياهذا وعبْس ودُورِها وما أنتَ؟ مَنْ هذا الفَتَى المتوقّحُ؟

صخـــر :

فتىً زائرٌ من عامرٍ من سَراتِها وما هـو إلا معجَبٌ مُتمـدِّح

عبـــلة :

جبانٌ ذليلٌ جاء عبْسا وماءَها يعرّضُ للإفكِ العذَارى ويَفضَحُ

فتـــاة :

فتًى عامرٍ فى كُربةٍ أينَ عامرٌ؟ يكادُ فتاها فى السراوِيلِ يَسلَحُ

ناجيـــة : أساتَ به ياعنترَ الظنَّ

عنـــترة : ما أرَى وأسمعُ؟ أنثَى عنكَ يا خِلُ تَنْضَحُ؟

مخبر [همساً] :

دعينا دعيه لا تزيديه ثورةً

ناجيـة : تنحَّ إذنْ قد أوشك الكبشُ ينطحُ

[ينصرف الجميع فلا يبقى إلا عبلة وعنترة]

عنترة :

يا عبلَ كم بيداءَ جبتُ مخوفةٍ   قـذفتْ إليَّ بذئبها والضيغمِ

فلقيتُ كلَّ منازلٍ بسلاحهِ   وجعلتُ أضربُ باليدين وبالفمِ

أخرتُ رمحي وادخرتُ مهنّدي   وربطتُ سرجي للكميِّ المُعْلَمِ

حتى تراءتْ ظبيةٌ فتملَّأتْ   ممّا رأتْ رعباً فلم تتقدمِ

لمّا رأتني والسباعُ تنوشُني   نفرتْ نِفارَكِ من عيونِ الموسمِ

ريمٌ تلفّتَ لم يفتْكِ بجيدِه   وبمقلتيـهِ وفتنـةِ بالمبسمِ

فمنعتُها من كلِّ ضارٍ ثائرٍ   وأبحتُها الواديَ وقلتُ لها اسلمي

يا ليتنا يا عبلَ عصفورتانْ   في غصنِ ضالٍ أو على فرعِ بانْ

في روضـةٍ غُفْلٍ وراءَ الرُّبا   لم يسـقِها إلا الغواديْ الدانْ

على جناحيكِ جناحي وفي   فمي مكانَ الحَبِّ هـذا الجُمانْ

عبلة : لقد وددتُ فوقَ ما   شئتَ لنا ما قسورهْ

من عيشـةٍ وادعةٍ   خاملـةٍ مستترهْ

لا بعيونِ النـاسِ أو   ألسنهم مكدّرهْ

عنــترة : لو لم تهيمى عبلــتى بجمــلاتى المنكــرهْ
وايــس بى أنا ولا بســحْنتى المحتقــرهْ
لقلتِ إذ دعــوتنى يا قمــرى يا سُــكّرهْ!
عبــلة : هذا السوادُ يا بنَ عمّــى مثلُ صِبغةِ السَّحَرْ
كالمسْكِ والكُحلِ همَا فى مَفْرِقى وفى البَصَرْ
وما يضُرُّكَ الســوا دُ يابنَ عمّى ما يَضُرْ
الكعبةُ الغَــرّاءُ من أحْسنِ ما فيها الحجَــرْ
البَــدْوُ فى إجْلالهِ وفى وقارهِ الحضَــرْ
عنــترة : ماذا وددْتِ يا عُبيــلَ يا حياةَ عنــترهْ؟
عبــلة : وددتُ أنّى صــدفٌ وأنتَ فيــه جوهــرَهْ
فى زاخرٍ لم يدرِ بعدُ الغائصونَ خَبَرَهْ
ومَوْضعٍ لم يَســمعِ الفُلْكُ به ولم يَــرَهْ
عنــترة : بى أنتِ يا عبــلةُ بى لا بَــلْ بأمّى وأَبى
لا بَلْ بعبْسٍ بل بنَجْــدٍ بلْ بمُلْكِ العــرَبِ

ســتــار

الفصل الثانى

المنظر الأول

« المكان كما كان فى الفصل الأول إلا أن خيمة مالك قريبة »
« جدًا تملأ المسرح أو تكاد ، ويبدو بابها كأنه ستر مسدول »
« ولا أثر لعين ذات الأصاد ولا لسائر خيام بنى عبس ، »
« ويرى مقدم المسرح كأنه طريق عام أمام الخباء . »
« الوقت فى الأصيل وقد وقفت عبلة وناجية توصوصان »
« من ثقوب فى باب الخباء ثم تتحدثان ... ... »

المشهد الأول

عبلة : مَن يا تُرى الرجالُ مَنْ؟ أتى الحِمَى يا ناجيهْ؟
ناجية : ضيوفُكُمْ من عامرٍ من السَّراةِ العاليهْ

عبـــلة : وفيمَ يا أختُ جاءوا

ناجيـــة :

لا أدرِ... ما يطلبونا

عَساهُمُو رُسْل خيرٍ لعلّهـم خاطِبـونا

عبـــلة :

من عامرٍ أجلْ عرفتُ بعضَهم ويَخطبونَ عِندنا مَن يا تُرى؟

ناجيـــة :

أظنُّ بنتَ مالكٍ عالمـةً بكل ما جَرى ويجْرِى فى الحِمَى

ومَن عسى يُخطَبُ فى الحىِّ سوَى عبلةَ ربّةِ السَّناءِ والسـنا؟

عبـــلة : هازلةٌ يا أختُ أمْ مجنونةٌ أنتِ؟ أجاءَ القومُ من أجْلِي أنا؟

ناجيـــة : لا تُنكرِى عبـلةُ لا تَجاهَلِي لم يبقَ سِرًّا أمرُ ذلك الفَتَى

عبـــلة : فتًى وممّنِ الفتَى ؟

ناجيـــة : مِن عامرٍ

عبـــلة : وما حداهُ نحوَ عبسٍ؟

ناجيـــة : الهوَى

عبـــلة : وما اسمُهُ

ناجيـــة : صخـرٌ

عبـــلة : لعلّه الذى فى كل مَغرِبٍ علَى المـاءِ يُرى

ناجيـــة : كيف أما تَهوينَه يا عَبلَ

عبـــلة : لا أخْطَاكِ ما حسِبتِ يا نَاجِىَ لَا

ناجيـــة : يافرحا خلبه لي ترى

عبـــلة : اذهبي به متى أخذته منك متى

[تنصرف عبلة من اليسار متبرمة آبية ، وتعود ناجية الى الوصوصة من ثقوب الخباء ، وبعد لحظات يقدم صخر من اليمين متأبطا صرة فيها ثياب]

المنظر الثاني

ناجيـــة :
عِمْ صَباحا ياعامِرِيُّ إلى أينَ؟

صخـــر : إلى عبــلةٍ

ناجيـــة : أيُمكِن ذا كَا؟

صخـــر : لِمَ لَا

ناجيـــة : عبلةٌ تَرى الذئبَ فى جَوْزِ الفَيافى لكِنّها لا تَرَاكَا

صخـــر : ما تَقولينَ ؟

ناجيـــة : لم أَقُلْ غيرَ حقٍّ هِى ياعامِرِىُّ تَهوَى سِوَاكَا

صخـــر : عبلةٌ لى غدًا

ناجيـــة : خُدِعْتَ ولم يصدُقْــكَ شيطانُكَ الذى مَنّاكَا
صَخْرُ دعْ عبلةً وخلِّ هواها وتحوّلْ إلى التى تَهْوَاكَا

صخـــر : أنا أهوى سواكِ يا أختَ عبسٍ

ناجيـــة : إمضِ لا نلتَ يا غبيُّ مُناكا

[ينصرف صخر من ناحية اليسار ، ثم تتبعه ناجية بعد قليل من التفكير ثم يفتح باب الستار المسدول عن داخل الخباء]

المنظر الثانى

« داخل خيمة مالك وتبدو النعمة على كل ما فيها وقد جلس »
« مالك القرفصاء فى جانب ، وجلس فى جواره وفى الجانب الآخر »
« رجال من بنى عامر — خدم وقوف بباب فى صدر الخباء »

المشهد الأوّل

مالك :

أَلجزورَ، الجزورَ ؛ ألنارَ، ألنارَ ؛ قِرى الضَّيْفِ ضيفنا اليوم عامرْ

[ينصرف الخادم]

المشهد الثانى

يا مرحبًا بعامرٍ العِلْيَةِ الأكابرِ
حظٌّ لعَمْرى عظيم

الضيفان : لَنَحنُ أعظمُ حظًّا

مالك : سَراةُ عامرَ عنــدى

أحد الضيوف : فى دارِ سيِّدِ عبْسٍ

آخــــر : فى البِيدِ يا مالكُ قولٌ شائعٌ نُريدُ أن نعــلَمَ منكَ خبَرَهْ
ثمَّ نخُوضَ فى الذى جئْنا له

مالك : هاتُوا اسألُونى راشدِينَ بَرَرَهْ
ماذَاكَ ؟

الضـيف : إنّ الناسَ قد تحدّثوا أنَّكَ لن ترضَى بغيْرِ عنـترهْ

مالك : صِهْرًا ؟

الضـيف : أَجَــلْ

مالك : مَن قال؟ ذاكَ كذِبٌ أيطمعُ الأسودُ أنْ أُصاهِرَهْ؟

الضـيف :
ذلك يا مالكُ ما قلتُ لَهُمْ

[ثم يتلفت حوله]

لا يسمَعَنَّ ابنُ الإماءِ لا أَبَرَهْ!

آخــــر :
عبلةُ لا تُهدَى الى ابنِ أَمَةٍ يرْعَى الشُّويْهاتِ ويَسْقِى الأبْعِرَهْ

آخــــر :
أبا عبلةٍ جئْناكَ نخطبُ عبـلةً

مالك : لِمَنْ ؟

الأول : لنجيبٍ سيدٍوابنِ سيّدِ
لأبيَضَ من فِتْيانِ عامِرَ ماجـدٍ وليْس لعبدٍ عند شـدادَ أسودِ

مالك : ماأسمُ الفتى

الأول : صخرٌ مِنْ ولدِ الأشتر

مالك : وهلْ رأى عبلة؟

آخر : ألفَ مرّه وسمِعَ الخُبرَ حديثَ الخَبر

مالك :

أَصيخُوا لى... أصاحِبُكُم شجاعٌ؟ فعبلةُ تُبغضُ الرّجلَ الجبانا

أحدهم :

كلَيْثِ الغابِ إقداماً وكرًّا اذا اعتقل المهنّد والسّنانا

مالك :

أَصيخُوا لى أَصاحبُكم جَوادٌ فعبلَةُ تبغِض الرجلَ البخيلا

أحدهم :

يكادُ ندى يديْهِ حين يَهمِى يُنسِّى حاتم السمْح المُنيلا

مالك :

أَصيخُوا لى أصاحِبكُم جميلٌ؟ فعبلَةُ تُبغِضُ الرجل الدّميما

أحدهم :

ألم تَرهُ ألم تنظرْ اليهِ اذن لم تُبصِرِ المَلَكَ الكريما

مالك

أَصيخُوا لى أصاحبكم فَصيحٌ؟ فعبلَةُ تُبغِضُ الرجلَ العَيِيّا

أحدهم :

ألم ترقُسّا فى عُكاظٍ؟ وسَحْبانًا اذا شهدَ النّديّا؟

مالك :

أَصيخُوا لى أصاحِبُكم رَقيقٌ؟ فعبلَةُ تُبغِض الرجلَ العَنيفَا

أحدهم :

ستُلفيهِ اذا حُمِلتْ إليـهِ وَديعًا مثلَ نعجَتِها ألُوفا

مالك :

أصيخُوا لى أصاحبكُم غَنِيٌّ؟ فعبلَةُ طِفْلةٌ تهوَى الثَّراءَ

أحدهم :

سنُسكِنُها القصورَ كبنْتِ كسْرى ونُلْبِسُها الجواهِرَ والفِراءَ

آخر :

ذكرْنا شيخَ عبْسٍ كلَّ شيء ولم تذكرْ لنا مهرَ الفَتاةِ

آخر :

فَهَيَّ سَل اقترِحْ ما شئتَ هيَّ أأَلفُ نجيبَةٍ أم ألفُ شاةِ؟

مالك :

عَلِمتُمْ أنَّنِي مُثْرٍ غَنِيٌّ فلا أبْغِي النِّعاجَ ولا النِّياقَا

ولستُ بجاعِلٍ مَهرًا لبِنْتِي هِجانَ الإبْلِ والخيْلَ العِتاقَا

أحدهم : ولكن ما تُريدُ ؟

مالك : أريدُ شيئًا لو ابتُلِيَ الحديدُ به لَضاقَا

أحــدهم : إذنْ فاذكُرْهُ قلْهُ

مالك : وما انتِفَاعى ولو حَمَّلتُ صخـرًا ما أطاقَا

أَصيخُوا لى آذهبُوا قولُوا لصخْرٍ يُقـدِّمْ رأسَ عنترةٍ صـدَاقَا

أحــدهم :

نَقولُ له انتزِعْ قُلَلَ الرَّواسِى؟ نقولُ له آهدِم السبْعَ الطِّبـاقَا؟

نقـــول له تُطالبُـهُ بِمَهــرٍ تَضيقُ به القبـائلُ أن يُساقَا

آخـــر :

ولِمْ لَا ؟ ما هُنالِك مُستحيلٌ هُنـاكَ دمٌ سئِلْنا أن يُرَاقَا

أليسَ المـالُ يصنَعُ كلَّ شيء؟ ويَرشُو السُّمْر والبِيضَ الرِّقاقَا

ولو هَبطَ الأباطِحَ مالُ صخْـرٍ لغطَّى الشـامَ أو غمَـرَ العِراقَا

اذا أعياهُ رأسُ العبدِ أغرَى موالِىَ بيْتِـهِ ورَشَـا الرِّفاقَا

مالك :

ألانَ فَهِمْتُمُو قد ضِقْتُ ذَرْعًا بعنـترةٍ وضِـقْت به خِنَـاقَا

أريدُ العبـدَ ميْتـا ما أُبالِى قضى بالسيْفِ أم ماتَ اخْتِناقَا

أُرِيدُ فِراقَهُ وأريدُ حـرّا مِنَ الأصْهارِ يُبْلِغُنِى الفِراقَا

إذا ذاقَ الهـلاكَ لنـا عدوٌّ أنسألُ عنـه أينَ وكيفَ ذاقَا؟

أحد الضيوف :

فى غـــدٍ نحـــرٌ وقِـدرٌ فى غـــدٍ دُفٌّ وزامِـــرْ

انهَضوا بورِكَ فى الصِّهرِ لعبْسٍ ولِعَامر

[يهمون بالقيام]

مالك : مكانَكمْ ياضيوفَ عبْسٍ هُنيْهَةً تطعَمُوا المَجيعَا
مَجيعُ البِيدِ من لَبنٍ وتمْرٍ ولا تَلْقاهُ إلا عنْدَ عبْسِ
إذا الغِلمانُ للأضيافِ قامُوا فإنى خادمٌ ضيْفى بِنفْسِى

[ثم يخرج ليأتيهم بالطعام]

المشهد الثالث

أحدهم للآخر : لقد كذَبتَ كثيرا وقُلتَ واللهِ زُورا
قد زِدتَ للشاةِ شاةً وللبعيرِ بعيرا
وقد صنعْت لصخْرٍ مخالبًا وزئيرا
ورُبما طارَ صخرٌ إذا رأى عُصفورا!

الآخر : أجلْ كذَبْتُ وما ضرَّ لستُ أوّلَ كاذبْ
وكلُّنا قد كذبْنا لكَىْ نقومَ بِواجبْ
لقد خَطبْنا لصخرٍ والكِذْبُ فنُّ الخواطِبْ!

ثالث : ومالكٌ كيف نسِيتمْ كلماتٍ قالَها
مُباهِيًا ببنْتِهِ ومُظهِرا كمالَها
سمِعْناهُ يقولُ ولا يُبالى فعبلةُ تبغِضُ الرجلَ الدَّميا

ولم نرَ قبلَ عبلةَ في البوادي فتاةً علقتْ عبدًا زنيما
سمعْناه يقولُ ولا يُبالي فعبلةُ تُبغِضُ الرجلَ العنيفا
ولم نرَ قبلَ عبلةَ في البوادي فتاةً علقتْ ذِئبا مخُوفا

[يدخل مالك حاملا قصعة فيها طعام ومن ورائه غلمان يحملون مثلها ، توضع القصاع على الأرض ، و ينصرف الغلمان]

المشهد الرابع

مالك : المجيعَ المجيعَ يا ضيفَ عبْسٍ إطعَمُوهُ اطعَمُوا هنيئًا مَريئًا

[يقبل الحاضرون كلهم على القصاع]

أحدهم : ألبانُ عبْسٍ تفضلُ العُقارا
آخر : وتمْرُها كلَمَ العذارَى
آخر : أَفديهما من لبَنٍ وتمرِ
آخر : [هامسا] لا أشترِيهمَا بزِقِّ خمرِ
مالك : ألانَ استعْمِلوا الحزْمَ فما نعلَمُ ما يطْرا
بني عامرٍ لا تجهُروا لِما كانَ هنا ذِكْرا
أحدهم : أبا عبلَةَ لا تَخْشَ سيبْقَى ما جرى سِرّا
آخر : وما ضرَّ اذا نحنُ أذعْنا الأمرَ ماضِرّا؟
ولمْ لا نذكُرُ الخِطْبَة أو لا نُعلنُ البُشْرَى؟

إذنْ أنت تخافُ العبْدَ أو تخْشى له شَــرا؟

مالك : أليس الحزْمُ أنْ نأخذَ مِن عنــترةَ الحِــذْرا؟
فقــد يقتلنِي وحْدى وقـــد يقتُلُنَــا طُرًّا
ولا يُبــقِ لنــا شاةً على المْرعى ولا بَكْرا

أحـدهم : أبو عبَلةَ بالعبْــدِ وما يَفْعَــلُه أدْرى
فَسِــيروا بالذى قالَ ولا تَعْصــوا له أمْرا

[يقومون عن الطعام ثم يحيون مالك ويبدأون في الانصراف فاذا انصرفوا وقف مالك بباب الخباء]

أحـدهم : فى ذمّةِ الله وفى حِفْظِه... مالك

مالك : مَحْرُوسينَ بالله

المشهد الخامس

مالك : عَبــلَ

عبلة [من وراء الستار] : أَبى ؟

مالك : مِن أينَ يا عَبْــلَةُ

المشهد السادس

[تدخل عبلة]

عبــلة : مِن خِبائِيَــا

مالك : وأينَ تمْضين ؟

عبلة : أهيـبُ بِسُقاةٍ شائيَا

مالك : قِفِي اسْمَعِي لِي ساعةً وخفِّفي عَنائيَا

عبلة : قُلْ أبي مُرْ

مالك : إذن تعالَيْ أُصَيْحي وزُهيرٌ أخُوكِ أينَ زُهيرُ؟

عبلة : مع عمرٍو هُناكَ

مالك [ينادي]: يا عمْرُو

عمرو [من وراء الستار] : لَبيْكَ أبي

جئْ تعالَ هَيَّ زُهيرُ

[يدخل عمرو وزهير]

المشهد السابع

مالك :

عبْلَ أصغِي في أرضِ نجْدٍ شَبابٌ أُطلِعُوا فِي سَمائها أقمارَا

مِنهمُ الأُسْدُ جُرأةً وثَباتًا والقوارينُ نِعْمةً ويَسارَا

مِثْلُ صخرٍ

عبلة : ومَن يرَبْك صخرٌ؟

عمرو : عامِريٌّ مِن أرفَعِ البِيدِ دَارَا

زهـــير :

مِن بَنى الأشترِ الكَثيرينَ مالًا ونَخيـلًا وَضـيْعةً وعَقارَا

عبـلة :

قدعَرَفتُ الغُلامَ ذاكَ الفتَى النِّضْـوَ الّذى لايُطيقُ يَقْتُلُ فَارَا

كل يوم معَ العَذارَى كثيرُ الـعُجْب مُستحْيِياً كإحْدَى العَذارَى

أترى يا أبى وأنتَ أخى يَا عمـرُو كيفَ انتقيْتُمَا الأصْهارَا

زهـــير :

وأنَا لا أرَى عُبَيْلةَ خيْرًا مِن أبِيها ولا أخِيها اخْتِيارَا

أنتِ مفْتُونةٌ بِأسْوَدَ عبْدٍ مِن بنِي عَمِّنا تَسرْبَلَ قارَا

عبـلة :

أوتَعْنِي الذى حَمَى حَوْضَ عبْسٍ وكَسَا البِيدَ سُؤْدَدًا ونَفَارَا؟

والذى قَـلَّدَ الوقَائِعَ والأيّـامَ عبْسـا وخَـلَّدَ الأشْعَارَا

يا زُهيرُ اتئِدْ مَتَى كانَتِ الألْوا نُ تَبْنِي وتَهدِمُ الأحْرارَا؟

لم يَحُطَّ السّوادُ من أسَدِ القَفْرِ ولم يرْفَعِ البَيَاضُ الحِمَارَا

أرأيْتَ السوادَ قد عبَّدَ اللَيلَ كما عبَّدَ البياضُ النَّهارَا؟

مالك : زُهيْرُ

زهـــير : أبِى

مالك : أصغ عمرُو استمِعْ و ياعبلَ آنَ لنَا أن نَجِدْ

عبلة :

متى كُنتُ هازِلةً يا أبى؟

مالك : هَزَلتِ ابنتى وأضعتِ الرّشَدْ

وما زِلتِ بالعبدِ مفتونةً وهيهاتَ بالعبدِ يرضى أحَدْ

فَلا أنا أرضى ولا أخوَالكِ ولا مَن تدانَى ولا من بعُدْ

عبلة :

أعنترةٌ يا أبى قد عَنيْتَ ؟

مالك : أجَلْ

عبلة : وَا لِعنترةَ المُضطهَدْ!

أبى قد تمكّنَ مِنكَ الوُشاةُ وأثّرَ فيكَ كَلامُ الحسَدْ

أليسَ ابنَ عمّى؟ أليسَ الجوادَ؟ أليسَ الشُّجاعَ أليسَ الأسَدْ؟

أما هُوَ مِنّى ومِن إخوتى نمَاناً أبٌ فى الأوائلِ ويَمّ؟

وَفى البِيضِ رُدَّ لآبائِهِ وليسَ إلى الأُمّهاتِ الوَلَدْ

أبى عنترةٌ ليسَ بِزِنجىٍّ ولا عبْدِ

ولم يُجلَبْ مِنَ النُّوبِ ولم يحضَرْ مِنَ السِّنْدِ

ولكنْ مِيسَمُ اللّونِ كَمِثلِ الأسَدِ الوَرْدِ

فتًى كالأسمرِ اللّدْنِ جَميلِ الشَّعَرِ الجَعْدِ

شُجاعٌ ذائعُ الصِّيتِ جَوادٌ واسعُ الرِّفْدِ

عمـــرو :

أبى سُــدًى تُرَاجِعُ المفْتُونا وعَبَثاً تُخـاطِبُ المجْنُـونا

زهـــير : فَمُرْ يكنْ ما شِئْتَ أن يَكُونا

مالك :

الأمرُ يا عبلَ ما تأمرينـا فالشَّأْنُ يَعْنِيكِ لَيْس يعْنِينا

عبـــلة :

ذاكَ أمرٌ الرَّأْىُ فيه لِعمْرِو وزُهيرٍ وليْسَ لِى الرأْى فيهِ

ياأَبِى أعقِدْ علَى زُهيرٍ لصخرٍ أو فزوِّجْه يا أبى من أخيهِ

مالك [فى دهش] :

أُزَوِّجُ الــرِّجالَ بالرِّجالِ؟ ذاكَ لَعَمْرِى مُنْتَهى الخبَالِ

زهـــير : اسْتَهْتَرَتْ أُخْتِى فَمَا تُبَالِى

مالك : إذنْ يا عبلَ أصررت؟

عبـــلة : أجَلْ ولَيكُنْ ما كَانَا

فلنْ أرضى سِوى عَنْتَرَةَ ابنِ العَمِّ إنسَانا

[ثم تخرج غاضبة]

المشهد الثامن

مالك : إذن فانتظِرى ياعبــلَ لِلْعبْدِ ولى شَــانا

[يخرج فى أثر ابنته ويقبل صخر من
ناحية الطريق من جهة اليسار ومعه
الصرة التى كان يحملها فى المنظر الأول]

المشهد التاسع

صخــر : عَمْرو زُهيرٌ؟ عَجَبُ الحظِّ صَديقاىَ هُنا!
يا طِيبَهـا لِقـاءَةَ

عمــرو : لِلَّــه ما أسْــعَدَنا
أهْلًا بِصخرٍ مَرْحبًا بالقَمرِ العَـالِي السَّنا
ما هَــذِه الحُـلَّةُ مَا أظْـرَفَهَا مَا أحْسَنا

زهــير : أصَــنْعَةُ الشَّـامِ؟

صخــر : ولِمْ لا تَذْكُرانِـ اليَمَنـا؟
صَنعاءُ أغْلَى من دِمَشْــقَ سِــلْعَةً وثَمَنـا

عمــرو : تِلكَ أمــورٌ يَا أخى يَعرِفُها أهْـلُ الغِـنَى

زهــير : وما ذَلِكَ مَا المنديــل ياصخْــرُ وما فيــه؟

صخــر : ثِيـابٌ مِثْلُ أثوابى مِنَ الوَشْيِ وغَاليه
لِــكُلٍّ مِنكُمَا ثَوْبٌ إليْــهِ جِئْتُ أُهْدِيه

[يفرد الصرة فيتناول كل منهما حلة]

زهــير : عَمْرُو تأمَّلْ يا لَهَا حُلَّةً لِلّهِ ما أبْهَى وما أبْهَجا

الحقُّ ما قال فتى عامرٍ   صنعاء أعلى بلد منسجا

[يرى فى الصرة طرحة من حرير فيتناولها]

وتلك عمرو ؟

عمـــرو : طرحةٌ مثلُ ذُنابى الطاوُس

كمثلها ما لمست   فى الوَشي كفُّ لامِس

عمرو مبتسما : هـــديَّةٌ لعبـــلة؟

صخـــر : مجلوبةٌ من فارِس

زهـــير : خلّنا صخرُ من هداياك . قلْ لى كيف أزمعتَ أن تُلاقِيَ عنتر؟

صخـــر : غدًا على العبدِ أصُبُّ النَّحسا   عبدينِ من شرِّ العبيد نفسا

ومن أشدِّهم قُوًى و بأسا

إن صارَعا جُلمودَ صخرٍ صُرِعا   أو قارَعا ضَيغَمَ غابٍ قُرِعا

أو رَمَيا الشمسَ أصابا المطلعا

غَضبانُ وهو المنيَّـــهْ   ومارِدٌ وهـــوَ حيَّـــهْ

كلاهُما جنّيَّهْ

ها هُمَا أقبَلا تأمّلهُما يا عمرُو

[ينظرون الى شبحين قادمين من ناحية اليمين]

عمـــرو : ماذا أقـــول جنّيان

ولِمَنْ يا تُرى هُمَا ؟

صخــر : السابِقِ الأوّلُ عبْدِى وقد شَريْتُ الثّـانى

[يدخل العبدان غضبان ومارد]

المشهد العاشر

تَعَالَ غَضْبانُ قل لِصَـخْرٍ كم أسـدٍ صِدْت؟

غضبان : نَحْوَ ألفِ

عمـرو : ألفٌ؟ أفى البيدِ ألفُ لَيثٍ لَوْ قُلْتَ لَيْثيْنِ كان يكفِى!

زهـير : وكم ذِئْباً قتلْتَ ؟

غضبان : اثنين !

عمـرو : ماذَا ؟

غضبان : قتلْتُ عِدادَ ناصِيَتِى ذِئاَبا!

زهـير : وكنتَ إذا بَعثْتَ لها سِهامًا وجِئْتَ تجُسُّها وُجِدَتْ كِلاَبا!

وأنتَ يا مارِدُ قُـــلْ لى كيفَ صيْدُكَ الأسَـدْ؟

مارد : أصِـيدُه إذا أتَى لِبَطْنِ وادٍ فرَقَدْ
وكُنْتُ فَوْقَ نَخْـلَةٍ يَزِلُّ عنْها مَنْ صَعِدْ

والقَوْسُ فى حُضْنِى كما تَحْتَضِنُ الأُمُّ الوَلَدْ

وكانَتِ السِّهامُ فى كنَانَتى بِلا عَدَدْ

هُناكَ أرْمِى فأسُلُّ الرُّوحَ من أصْلِ الجَسَدْ

فى حَائِطِ التَّامُورِ إن شِئْتُ وفى رُكْنِ الكَبِدْ

عمرو : غَضْبانُ

غضبان : لبيْكَ

عمرو : أجِبْنى

غضبان : سَلْ مُرِ

عمرو : كيفَ لِقَا عنْتَرَةَ الغَضَنفَرِ؟

غضبان : وجْهًا لوَجْهٍ ؟

زهير : لِمَ لا ؟

غضبان : لا أجْتَرِى

زهير : كيفَ تَبيعُهُ إذَنْ وتَشْتَرِى؟

غضبان : أقْذِفُهُ مِن فَرْسَخٍ بِخَنْجَرِ أتْرُكُه كالَتِّيتَلِ المُعَفَّرِ

معفر : وأنتَ يا ماردُ لَسْتَ تَجهلُهْ

مارد : مَنْ يَجهلُ اللَّيثَ ؟

معفر : فكَيْفَ تقْتُلُهْ ؟

مارد : آتى لرأسِ جَبَــلٍ فأنزلُهُ وثَمّ

صعفــر : مَا ذَا ؟

مارد : لى سَهْمٌ أرسِلُه

يُودّعُ الحيــاةَ من يَسْتَقبِلُهْ

[يتهامس الثلاثة لحظة ثم يتجه عمرو وصعفــر ناحيــة اليمين لينصرفا]

عمــرو : الخــيرُ فى العَبدَيْنِ سِيرا امضيَا راشِدَيْنِ

[يخرج عمرو وصعفرو ينصرف العبدان من ناحية اليسار وتسمع ضجة تتعالى شــيئا فشيئا ، وصياح وعويل ، فتظهر عبلة من الباب الذى فى الصدر، فزعة مضطربة]

المشهد الحادى عشر

أصوات من الخارج : وَا وَلدَا! وَا كَبِدَا ! وَا أَسَدَا!

عبــلة : زُهيرُ ما الضّــجّه؟ ما هــذه الرّجّــه؟

زهــير : أحسبُها قافِــلةً مُدْبِرَةً مُنهَــزِمَه

تَعَرّضتْ لِقَاتِلِك فَــردّها مُحَطّمَــه

[يسمع صوت مناد ينادى]

الصــوت : يا معْشَرَ البِيــدِ اسمَعُوا بُشْرى لكُمْ أهلَ الحِيَمْ

بِظَهْرِ عبْسٍ وَوَرَاءَ الـــــحَىّ إبــلٌ وغَــنَمْ

ألفانِ أو ما نحــو ذا ... كَ مِن كَرائِمِ النَّعمْ
كانتْ إلى كِسرى تُساقُ ... وإلى أرْضِ العَجَــمْ

[يسمع صوت مناد آخر من ناحية أخرى]

الصــوت : وراءَ الحيِّ يا عبْس ... مِن الأنعامِ ألْفانِ
جَنَى عنــتَرَةَ الفلْحا ... ءِ من أسْلابِ سرْحانِ
وكانتْ فى الفَلا تُزجَى ... الى كِسْرى بْنِ ساسَانِ
ألا فَلْيعْــلَمِ القــاصِى ... مِنَ الخيامِ والدّانِى
بأنَّ الليْثَ قد جادَ ... عــلَى الحيِّ بقُطْعانِ

زهــير : مَنِ الليْثُ ؟

عبــلة : لَحاكَ اللهُ ... هلْ فى البِيدِ لَيْثانِ ؟

[يمرّ على الطريق رجال ونساء هم فلول القافلة المسلوبة
فى هيئة ذعر واضطراب داخلين من اليمين]

المشهد الثانى عشر

أحــدهم : وذِراعِى وأينَ منِّى ذِراعِى؟

آخــر : أينَ ساقِى قد طَيَّرَ السيفُ ساقِى؟

امــرأة : نَعْلي . تركْتُ في القِتال نَعْلِي

أخــرى : أمّا أنا خلفْتُ فيــه بَغْلي

آخــر : وافَــرَسِي ما حالَ بَيْنَــهُ وبيْن صاحِبِهْ!

أيُّ جَبانٍ حَطَّني عَنْ سَرْجِهِ وطارَ بِهْ!

عجوز [باكية] :

لَهفي على فَوارِسٍ من قَوْمِي ناموا على العَــراءِ شرَّ نَوْمِ

يا لَيْتَني لم يَتأَخَّرْ يَوْمي

عبــلة : تِلْك العَجُوزُ ثاكِلَهْ تَبْكي ابنَهـا في القافِلَهْ

يا أُمُّ ماذا دَهَاكِ أَوْجَــعَ قَلْبِي بُكاكِ؟

العجــوز : عِشْرونَ من بَواسِلِ الفُرْسانْ تَحْتَ لِواءِ وَلَدِي سرحانِ

عبــلة :

سرحانُ ليثُ الضَّرْبِ والطِّعانِ؟

العجــوز : أجلْ تَرَكْتُهــمْ علَى المَكانِ

وليمةَ الحِدَاءِ والغِرْبانِ

عبــلة : إذنْ سرحانُ في القَتْلَى لَكِ الرحمنُ من ثَكْلَى

من المُغِــيرُ؟

العجــوز : عُصْبَةٌ

عبــلة : مَن الزَّعِيمُ؟

العجــوز : عَنْــــتَرهْ

عبلة : عَنترةٌ يفعَلُ أفعَالَ اللُّصوصِ الفَجَرهْ ؟

العجوز : لا يا ابنتى ظلمَتِه غنترةٌ لَمْ يَبْتَدِى
عنترةٌ كالليْثِ عنْد شَبْعهِ لا يعْتَدِى

عبلة : من بَعَثَ الحرْبَ إذنْ ومنْ جَنَاهَا؟

العجوز : وَلَدِى
ثَكِلْتُ على الدرْبِ خيرَ البَنِين وفَاجأنَا فى الطَّرِيق الهَبَلْ
وكُنّا ثلاثِينَ غيرَ الرُّعاةِ
مِنَ آمرأةٍ مَعَنا أوْ رَجُلْ
وكان السَّوامُ كثيرًا يَضِيقُ
بِهِ السَّهْلُ أو يَتَغَطَّى الجَبَلْ
وكُنَّا نُيمِّمُ أرضَ العِرَاقِ لِنَجْتَازَها

عبلة : نَحْوَ كِسْرى؟

العجوز : أجَلْ

عبلة [غاضبة] : لِتُعطُوا الرِّشا وتَنَالوا المنى ويُمنَح سرحَانُ بعضَ العمَلْ
ويحكُمَ فِى البِيدِ باسْمِ الهُمَامِ وتَحتَ ظُبَى فارسٍ والأَسَلْ
ذَلِيلٌ ببَاب أنو شِروَانَ وعِنْدَ الخِيامِ العَزِيزُ البطَلْ
إلى كم تَهيمون تحتَ النجوم وتفترِقُون آفتراقَ السُّبُلْ؟
فنصفٌ قِطاعٌ رعتْها الذِّئاب ونِصفٌ على البِيدِ فَوضَى هَمَلْ ؟

وليس لكم دولةٌ في الوجودِ وتسحبكُم كالذُّيولِ الدُّولْ
ألمَّ على حوضِكم قيصرٌ وكسرى على جانبَيهِ نزَلْ
ويحكُمُكم تحتَ نيرِ الغريبِ ومِهمازِهِ الأدعياءُ الدَّخَلْ
هُمُ الأمراءُ وقد يرتَدونَ ببابِ الأعاجِمِ ذُلَّ النَّذُلْ

أحدهم : سَمِعتَ !

آخر : ما ذاك ؟

الأول : سَمِعتَ النَّاعيةْ ؟

فَهِمتَ !

الثاني : فارقَني تَزَحزَحْ ناحِيَةْ

الأول [لعبلة] يا لكِ من مُكَابِرهْ تَطعَنُ في الأكاسِرَةْ
وتلعنُ المناذِرَهْ !

الآخر : عَبلَةُ تنطِقُ الذَّهبْ لو كُنتَ تعقِلُ الخُطَبْ

الأول : وما الَّذي تَرمي لهُ ؟

عبلة : أرمي لِتَحريرِ العَرَبْ

الأول : تَحريرُهم ؟ مِمّ ؟

عبلة : من القيدِ

الأول : وكيفَ قُيِّدوا ؟

عبلة : الفُرسُ والرُّومُ استَرَقُّوا قَومَنا واستَعبَدوا

الثانى[لأخيه]: مَالى إذنْ ؟

الأوّل : ما ذَا ؟

الثانى : لا قيْــدَ فى رِجْــلِى

وأنْتَ والنـــاسُ جَميعُكم مِثْــلِى !

عبــلة : ألا بَطَلٌ نلتَقِى حــوْلَهُ كإسْرَائِل(١) حوْلَ لِواءِ الرُّسُلْ ؟

يفُكُّ مِنَ الرِّقِّ أعْناقَنا كَمَا فَكَّ مُوسى رقابَ الأُوَلْ

الأوّل : وَجدْنَاهُ ؟

صــوت : مَنْ ذاكَ مَنْ يا تُرى يكونُ؟ تكلّمْ لكَ الوَيْلُ قُلْ

عبــلة : أتَنْسونَ عنْتَرَةَ العَبْقرِىَّ ؟

صــوت : أيحكُمُنا العبْد هــذا خَبَلْ !

لَبِئْسَ أميرُ الرِّجالِ الغُرابُ وبِئْسَ الدَّليلُ إذا ما جَهِلْ

الأوّل : أتجحَدُ عنترةَ ؟

آخـــر : خَــلّه فما جدَّ فى قولِهِ بَلْ هَزَلْ

عبــلة : ما بالُكُمْ جَبُلْتُمو يا عبْسُ قَــوْما ونِسَا؟

حــتّى رَمَى هــذا الفَــتَى عنــتَرَةً بما رَمَى

---

(١) بنو إسرائيل .

أَلَيسَ في أرجُلِكُمْ نعْلٌ وفى الأَيْدِى عَصَا؟

[يهجمون على من سب عنترة ويضربونه]

الأوّل : ما لك يا فَتَى بلغْتَ في الوَقَاحَةِ المَدَى

آخر : ما ذا الذى غَرَّكَ يا كلبُ بضِرْغامِ الشَّرَى؟

المضروب : وأنتَ مايعْنِيكَ من عنترةٍ؟ وماالذى يَعْنِيكَ منْ شأْنِى أنا؟

عبلة :

صَدقْتَ ما كُنْتَ لِتَعْنِى أَحدًا لولمْ تَخُضْ فى الفَرْقدِ العَالى السَّنا
أما ٱبنُ شدّادٍ فـذُخْرُ قومِه بِهِمُ من رَاحَ ويَعْنِى مَنْ غَدَا

[يسمع صوت عنترة من وراء
الستار قادما من ناحية اليسار]

عنترة : يا بيسدُ ها أنا ذا أنا حامى حِماكِ ورَبُّ غابِكْ
إن كُنتِ جاهِلَتِي ٱخرُجى بجميعِ ظُفْرِكِ لى ونابِكْ
هاتِى أُسودَكِ كلَّها هاتِى الكَوَاسِرَ من ذِئابِكْ

أحدهم : يا رِجالُ الفِرارَ قد طلعَ الليْثُ علينا هيوا الفِرارَ الفرارَا

[يفرّون جميعا من ناحية اليمين وتبقى عبلة وحدها]

المشهد الثالث عشر

عنترة [من وراء الستار] :

أيا عبل

عبــلة : مَنِ الطارِقُ مَن بالخيْمةِ استذْرَى؟

مَن الهاتِفُ مَنْ ؟

[يدخل عنترة]

المشهد الرابع عشر

عنــترة : عنــترة العبسىّ

عبــلة : يا بشرى !

عنــترة : تعَـالَى ظبيــةَ القــاعِ أَجيرى أســدَ الصحْرا

ســتــار

الفصل الثالث

المنظر الأول

« المنظر فى وادى الصفا على مقربة من حى بنى عامر على سبيل »
« مطروق . عيون ونخيل وأشجار ، عقلت عبلة بعيرها تحت شجرة »
« منها ، على بعد قليل . أناس يغدون ويروحون على الطريق »

المشهد الأوّل

عبلة : قُلْ لى بِربكَ مَن تحبُّ ومَن تحبّكَ يابَعيرْ
أىَّ النياقِ فإنهن على مراعينا كثيرْ
وهلِ اكتفيْتَ بناقةٍ أم أنتَ كالعبْسىّ زِيرْ؟
تلْهو بما دفَعَ الرّواحُ إليكَ أو ساقَ البُكورْ
مُتنقّلا بينَ البيُوتِ على عقَائلِها يدُورْ

ما حقُّ عنترَ عندَنا إلا التجنُّبُ والنُّفُورْ
مالى تَمَلَّكَ مُهْجَتِى عبدٌ على عبسٍ أميرْ!
لوْ يجمع العربَ السَّريرُ لجاءهُ يسعَى السريرْ
كاللّيلِ إلا أنَّهُ فى عينِىَ القمرُ المُنيرْ
حَسَدَتْنِىَ الدنيا عَلَيْهِ وكلُّ محسودٍ خَطيرْ

[تنسل عبلة باطعام بعيرها بينما يمر
فى الطريق ثلاثة فتيان، فيلمحون عبلة]

المشهد الثانى

قراد : بُجَيْرُ ماذا ضرَّ لوْ أنَّا أَتَيْنا الشَّجَرهْ
هلُمَّ نلْهو ساعةً بالغادَةِ المُنتظِرَهْ
بجير : أأنَا مجنونٌ أنَا ألْهوْ برِيمِ القَسْوَرَهْ؟
لا يا أُخَى لا أجْتَرِى على لَبَاةٍ مُستَتِرهْ
الثالث : صَهٍ صَهٍ بُجَيْرُ حسبُ يا قُرادُ ثَرْثَرهْ
دعا الفُضولَ وابْعثا تحيَّةً مُعطَّرَهْ
ما تلك إلا عبلةٌ ما عبلةٌ بنَكِرَهْ

[ينصرفون من الجانب الآخر ويسمع
صوت عنترة من وراء الستار]

المشهد الثالث

عنــــترة : يا عبــــلَ ...

عبلة [لنفسها] : مَنْذا ينُادِى عبلَ ؟ عنترةٌ ؟

عنــــترة : يا عبــــلَ ...

عبلة [لنفسها] : تلك لعمْرِى نَبْرَةُ الأسدِ

هذا هو الحبُّ هذا اسْمِى على فَمِهِ يأتى من القلبِ أو يأتى من الكَبِدِ

يُرَدِّدُ اسمىَ فى البَيْــداءِ منفرِدًا وربمــا نَسِىَ اسْمِى غيرَ مُنفَــرِدِ

عنــــترة :

يا عبلَ أين جَبينٌ لستُ ساليَــهُ طلقِ البشاشَةِ حلوٌ كالصباحِ ندى

وأينَ يا عبــلَ فرعٌ كان فاْغيتِى وكان لهَــوِى اذا ضفَّرتُهُ وددِى

ولى يدٌ خَشْنَةُ الأظفارِ أنقُلُهَــا مِنَ الغَــدائرِ أحيانًا الى اللِّبَــدِ

تَعِيثُ من شَعَرِ الغادَاتِ فى نَحَلٍ حِينًا ومن شَعَرِ اللبوَاتِ فى زَرَدِ

[يقبــل عنترة وفى أثره داحس فيختفى
داحس وراء الشجر بعيدا عن المسرح]

المشهد الرابع

عنــــترة : مَنْ أرَى؟ عبلةُ ؟

عبــــلة : مَنْ؟ عنترةٌ ؟

عنترة : مُهْجَتِي عبلَةُ ماذا تصْنعين؟

عبلة : خرجتُ للنُّزْهَةْ عَلَى الصَّفَا وحْدِي
أَقْضِي هُنا بِرْهَةْ أبُثُّ ما عِنْدِي
خَمِيلةَ البانِ وروْضَةَ الرَّنْدِ

عنترة [مشيرا الى البعير] :
وذاك يا نُورَ عبْس؟

عبلة : هذا بَعِيرِي صباحُ
رَبِّي مَعِي وبَعِيرِي تَحْتِي وَهَذَا السِّلاحُ

[وتريه سلاحها على هودج البعير]

عنترة :
أمثلكِ عبلَ تخْشَى بأسَ شيءٍ وتتخذُ الكنائنَ والرِّماحا
لقدقُرِنَ اسمُكِ المحبوبُ باسمِي أما يَكْفِي اسمُ عنترةٍ سِلاحا

عبلة : من أينَ يا ابنَ العمِّ؟

عنترة : مِن عَالَمِ البِيدِ

عبلة : كَمْ من فتاةٍ كَمْ ما ذا مِنَ الغِيدِ؟
يقولون عنترةٌ لم يقِفْ بحَيٍّ من البِيدِ إلا خَطَبْ

فقالَ لِهاتيكَ ماتَشتَهِى وغازَلَ تِلكَ وأُخرى أَحَبْ
خَلائِلُه صِرْنَ مِثلَ الحَصَى

عنترة : وأنتِ أصدَّقتِ هذا الكَذِبْ
أحاديثُ لفَّقها حُسَّدى وقد يَخلُقُ الحاسِدونَ الرِّيَبْ

عبلة : وأُختُ سعْدٍ ؟

عنترة : مالَها؟

عبلة : ألم تَقُدْ بَعيرَها؟
وما نَسِيتَ فى ظَلامِ الليلِ أن تَزورَها

[يسمع حفيف فى أوراق الشجر
ووطء أقدام فيقبل داحس مذعورا]

المشهد الخامس

داحس : سيِّدى سيِّدى خُذِ الحِذْرَ

عنترة : ماذا داحِ؟

داحس : أحسَسْتُ أرجلًا ودَبيبا

عنترة : لا تَخَفْ داحِ

داحس : بل أخافُ وأخشى خطَرًا ماثِلًا وشرًّا قريبا

[يعود داحس من حيث أتى]

المشهد السادس

عبلة : وما تلكَ ؟

عنترة : كيف صُنعى بها ؟

عبلة : بعثتَ إليها بجِلدِ النَّمِرْ

عنترة : وكيفَ وأينَ ؟

عبلة : لقد كانَ ذاكَ فلا تتنصَّلْ ولا تعتذِرْ

وهندُ بنتُ عامرٍ ألم تجئها فى الخِبا؟

وابنةُ بِسطامٍ ألمْ تنثُرْ عليها الذَّهبا؟

وابنةُ شيبانَ ألمْ تطِرْ بها مُشبِّبا؟

عنترة : قد زوَّروا واختلقُوا وحدَّثوكِ الكَذِبا

رُحماكِ ياعبلَ

عبلة : دَعْنى وامضِ اشتغِلْ بالحَلائِلْ

عنترة : من قالَ ذاكَ ؟

عبلة : كثيرٌ هذا حديثُ القبائِلْ

عنترة :

لا وعينيكِ وأعظِم بالقسَمْ وفمٍ عن غُرَّةِ الصبحِ ابتسَمْ

لم أنَمْ ياعبلَ عن عهدِ الهوَى من رعَى أمرًا عظيمًا لم ينَمْ

اذكُرِى ياعبلَ أيامَ الصِّبا حينَ أسقى بينَ عينيكِ الغنَمْ

وشُوَيهاتِكِ حولى أُنُسٌ يغترِفْنَ الماءَ من راحِى السُّحُمْ

إن حضرتُ الماءَ حامتْ وارتوتْ أو تولَّى الماءَ غيْرى لم تَحُمْ
اذكُرِى إذ أنت طِفلٌ حُلْوةٌ قد كَساكِ الحسْنُ فرعًا لِقَدَمْ
إذْ تَجيئين بِصِبْيانِ الحِمَى وصَبَايا الحىِّ فى ظِلِّ الخِيَمْ
فَتَقُصِّين عليهِمْ خبَرِى معَ ذئْبِ القفْرِ أو ليْثِ الأجَمْ
أنَا يا عبْلةُ عبدٌ فى الهوَى وأنا يا عبلَ فى القُرْبَى ابنُ عَمّ
اطلُبِى الإيوانَ أحمِلْهُ علَى رَاحَتَىْ كِسْرى وهَاماتِ العَجَمْ
أو سلِينِى الهرَمَ المشهورَ يا عبلَ أجلِبْ لكِ من مِصرَ الهرَمْ
أوسلِينِى البِيدَ مهْرًا أو سَلِى ما وَراءَ البِيدِ من حُمْرِ النَّعَمْ
أو تعالىْ نحْتَذِى أشرَفَ ما قُلِّدَ الانسانُ سيْفِى والقلَمْ
رُبَّ خيلٍ قُدتُ حتى قادَنى وحَوَى رِقِّى بنانٌ كالعَنَمْ
وليوثٍ صِدتُ حتَّى صادَنِى رشأُ القاعِ ورُعْبوبُ الأكَمْ
قد رعيْتُ النجْمَ حتى مَلَّنِى وتعهدتُ الدُّجَى حتَّى سَئِمْ
أشتهِى طيفَكِ فى حُلْمِ الكرَى فيقولُ الليلُ لِى أينَ الحُلُمْ؟

[فى هذه الأثناء يظهر مارد وغضبان من وراء الشجر وفى غير الناحيـة التى اختفى فيها داحس، فيسدّد أحدهما سهمه الى ظهر عنترة، فتراه عبلة وتضطرب فيصيح عنترة بالرجل دون أن يلتفت اليـه]

المشهد السابع

عنترة [ضاحكا] :

حذارِ ياوغْدُ حَذارِ يا لُكَعْ اللَيْثُ لا يقْتلُهُ الكلْبُ فَدَعْ

[يقع القوس من الرعب من يد مارد ثم يخرّ
هو نفسه الى الأرض ميتا و يفرّ غضبان]

قد وقَعَتْ من يَدِهِ وقد وَقَعْ

المشهد الثامن

قد كانَ لا بدَّ أن أَراهُ للَّيثِ عَيْنانِ فى قَفَاهُ
سيرى انظرى ماتَ وربِّ الكعبَهْ زمجرةُ الليثِ الهصُورِ صعْبهْ
بل اسمَعِى عبلَ اسمعِى كلامِى لولاكِ لم أَنْجُ من الحِمامِ
قد كنتِ أنتِ صنَمِى قُدَّامِى لكِ اتّجاهِى وبكِ اهتمامِى
رأيتُ فى عَينيْكِ قوسَ الرَّامِى ويدُهُ فى جعْبَةِ السِّهامِ

عبلة : وما رأَيْتَ ؟

عنترة : رأيتُ العينَ حائِرة والوجْهَ لونُهُ الإشْفاقُ ألْوانا
وقَفَّ شعْرُكِ وانسابَتْ غدائرُهُ كما أثرْتِ وراءَ الليلِ ثُعبانا
وقام صدرُكِ كالمِنفاخِ مُجتهِداً لا يُفرِغُ الريحَ إلا ارْتدَّ مَلآنا

فقلتُ شرٌّ ورائى لستُ أبصرهُ في عِطْفِ عبلةَ لما رُوِّعتْ بانا
ولاحَ لى الحبُّ فى عينيك مُرتسِماً لم تَستطيعى لهُ يا عبلَ كِتمانا

عبلة : الحبُّ ! كيف عرفتَ الحبّ ؟

عنترة : منكِ ومنْ عينيكِ

عبلة : قد تكذبُ العينانِ أحيانا

عنترة :

لا عبلَ لا إن عينَ الحبِّ صادقةٌ وما تعوّدتُ من عينيكِ بُهتانا

عبلة :

أجلْ ولكنْ قديماً كان ذاك أجَلْ هذا السوادُ لعينى كانَ إنسانا

عنترة : واليوم ؟

عبلة :

مالَكَ فى قلبى الجريح هَوًى اليومَ عنترَ من أحببْتُ قد خانا

عنترة :

دَعِى الوساوسَ والأوهامَ عنكِ دَعِى ياعبلَ جُرِّى على ما قيلَ نِسْيانا

[يسمع وطء أقدام]

عبلة : عنترَ تلك ضجّةٌ فلنتوارَ ناحيهْ
لا يجد الواشى إلينا سُبُلاً والواشيهْ

[يختفيان وراء الشجر و يقبل من ناحية أخرى مالك وضرغام وزهير كأنهم مارون بالطريق ، و يتشاغل زهير بالشرب من ماء عين أو بشىء من مثل هذا]

المشهد التاسع

ضرغام : سيدَ الحيِّ

مالك : ألف لبيْكَ ضِرغامُ تكلَّمْ أثَمَّ شيءٌ تقولُ ؟

ضرغام : سيدَ الحيِّ عبلةُ اختارَها القلبُ فهلْ لى إلى الزَّواجِ سبيلُ ؟

مالك : والمهرُ يا ضِرْغامُ

ضرغام : مهرُ عبلَةَ ؟ اقترحْ تَرَهْ

قدِّرْهُ أو خلِّ إلى عبلَةَ أن تُقدِّرَهْ

وغاليَا ما شئْتُمَا فيهِ وظُنَّا المقدِرَهْ

مالك : المهرُ يا ضِرغامُ غالٍ فاجتهِدْ أن تحرِزَهْ

ضرغام : سلْ تاجَ كسرَى واقترحْ عِمامةَ المنَاذِرَهْ

سلْ سُبْحةَ القيْصرِ أوْ فاطلُبْ صليبَ القيصرَهْ

مالك : المهرُ فوقَ ذاكَ

ضرغام : قُلْهُ لا تخَفْ أن تذكُرَهْ

مالك : اسمعْ إذنْ أصغِ لهُ المهرُ رأسُ عنتره

ضرغام [لنفسه] :

له الويلُ ماذا قَالَ ؟

مالك : قد وجمَ الفتَى

ضرغام : أبا عبلَةَ اذكرْ هوْلَ ما أنتَ سائلُ

مالك : جبُنْتَ !

ضرغام : معاذَ الله ما الجبنُ في دمي

مالك : فَلِمْ ضِقْتَ ذَرْعا؟

ضرغام : مهرُ عبلةَ هائلُ

أأَمْشي الى الفلحاءِ أخطفُ رأسَهُ فِداءُ الذى أَمْشي اليهِ القبائلُ

كريمٌ لعمري والكِرام قدِ انقضَوْا شجاعٌ وشجعانُ الرجالِ قلائلُ

إذا قال بزَّ القائلينَ رَنينُهُ ومابَزَّهُ في أيْكةِ البِيدِ قائلُ

هَزارُ البوادي طارحتْه بشجْوِها رُباها وغنّت في صداهُ الخمائلُ

وما بينَنا ثارٌ ولا بينَ أهلِهِ وأهْلِي عداوات خلَت وطوائل

مالك : وعبلةُ يا ضِرغامُ؟

ضرغام : مَا شأنُ عبلةٍ؟

مالك : أليس فِداَها في الحجازِ المَقاتل؟

ضرغام :

أجَلْ وفِداها الشمسُ ما التقتِ الضحَى عليها وما رَقّتْ عليها الأصائلُ

مالك :

أأَنتَ تخافُ العبْدَ؟

ضرغام : لِمْ لا أخافُهُ تُخافُ وتُرْجَى في الرجال الفَضائلُ

وإن ٱبنَ شدادٍ وان ذاعَ بأسُهُ فتًى مِلءُ بُرْدَيْه عفافٌ ونائلُ

من العُصْبةِ المسطورِ في البيتِ شعرُهم قصائدُهم أستارُهُ والوَصائلُ

ما لك :

فما لَكَ مُصفَرًّا كأنَّك هالكٌ من الخوفِ قبلَ الطعْنِ والضربِ زائلُ؟

تعالَ زهيرُ اسمعْ حسِبْناهُ حائطًا

[يقبل زهير]

زهير : فما هُوَ؟

ما لك : ركنٌ في العواصفِ مائلُ

وأمّلْتُه سيفًا فلما لبِستُه إذا هو عُودٌ أنكرتْهُ الحمائِلُ

وقلتُ غَمامٌ يُمطِرُ الحيَّ في غدٍ فكانَ جَهامًا ما لَنا فيهِ طائلُ

وقلتُ كليبٌ نستَطيلُ بِصهرِهِ إذا هُوَ كلبٌ

ضرغام : ضَلَّ ما أنتَ قائِلُ

وأقسِمُ لولا ظَبيةٌ تحتَ خيمةٍ وغصنٌ حوتْه في الحِجالِ الغَلائلُ

لما رُحتَ إلا جُثّةً في الثَّرى لقًى وغالتْك من قبلِ المَغيبِ الغَوائلُ

ما لك : تجرأْتَ يا ضِرغامُ

ضرغام : ما تِلكَ جُرأةٌ ولكنْ كما قد كِلْتَ لي أنا كائِلُ

ما لك :

كفَى حسَبٌ يا ضِرغامُ حسْبُ وقاحةٍ فما أنتَ إلا مُكثِرُ الزهوِ خائلُ

لقد قلتَ قولًا شفَّ عمّا وراءَهُ وقامتْ على لؤمِ النِّجارِ الدلائلُ

ولا يرفَعُ الأبطالَ أنك مِنهُمو فما هذهِ للباسلينَ شمائلُ

وما لَكَ كالأبطالِ سيْفٌ تُجيلُهُ ولكنْ لِسانٌ بالسفَاهةِ جائِلُ
أيُذكَرُ عبدُ السوءِ فى كل قفْرةٍ وذِكْرُكَ يا ضرغام فى البِيدِ خامِلُ
أما أنت كالفلْحاءِ صِنديدُ قوْمِهِ أما لَكَ كالفلْحاءِ سيفٌ وعامِلُ؟
ألا حَسدٌ للعبْدِ؟

ضرغام: لا . لستُ حاسِدًا ولا أنا للنّارِ الأكُولةِ حامِلُ
أأحسدُ مَن يحيَا العُفاةُ بمالِه ويأوِى اليتامَى ظلَّهُ والأرامِلُ؟
أأحسدُ من لا يَعصِمُ البيدَ غيرُه إذا زَحفتْ من أرض كسرى الجحافلُ؟
أأحسدُ من يُرجى لتأليفِ قوْمِهِ اذا افترقتْ تحتَ الملوكِ القبائلُ؟

مالك :
يؤلِّفنا عبدٌ أما ثمَّ سيّدٌ عن العبد يغْنِينا أمَا ثمَّ عاهِلُ؟
إذن فليَسُمْنا الخسْفَ كِسرى وقومُه وقيصرُ والرومُ الجفاةُ الأراذِلُ
أيمنعُنا عبدٌ؟ إذنْ نحنُ عُزَّلٌ فأينَ عوالينا وأينَ المنَاصِلُ؟

ضرغام :
لقد عِيل صبرى للّذى أنا سامِعٌ

مالك : إذا الصبرُ لم ينفَدْ فما أنتَ فاعِلُ؟

ضرغام :
عِقابٌ يُنسِّيكَ الوقاحةَ عاجِلٌ وآخرُ متروكٌ الى الغَدِ آجِلُ

مالك :

رُوَيدكَ يا ضِرغامُ مالكَ هاذِياً وما لَكَ قد ضاعتْ لديكَ المنازِلُ؟

فما العبْدُ إلا كالدُّخانِ وإن عَلا الى النّجمِ مُنحطٌّ الى الأرضِ سافِلُ

ضرغام :

تعالَ تأهّبْ

[يمسك بكتفيه فيهزه هزا]

مالك : كاهِلي خلِّ كاهِلي

ضرغام : أقالَبُ زُبْدٍ ذاكَ أمْ ذاكَ كاهِلُ

زهير [صائحا] :

هلُمُّوا سَراةَ الحيِّ هاتُوا رِجالَكُم

مالك : الىَّ فعبْسٌ فاجأتْها النوازِلُ!

يا عبْسُ

[ويرى عنترة قادما فيجرى
نحو الحى هو وابنه زهير]

عنترةٌ ؟

المشهد العاشر

عنترة [من وراء الستار] : لبيك مَا بِكُمُ؟ خَوْفٌ من السيْل أم خوْفٌ مِن النارِ؟

أللهُ آمِن بالفلْحاء سِرْبَكُمُو أفي الصّريمِ وليث القفْرةِ الضّارِى

[يظهر عنترة]

المشهد الحادى عشر

مَن الفتى من أرى؟ ضِرغامُ أنتَ هُنا أغارةٌ؟ أين عهـدُ الجار للجارِ؟
أجئتَ تَسبي مَهاتى؟

ضـرغام: جئت أخطُبها

عنـترة: ما أجملَ الصِّدْق لم يُلْبَس بإنكارِ
فما جَرى؟

ضـرغام: نَال مِنّا مالكٌ وبَغَى عليكَ بالشتم هذا العائبُ الزَّارِى
حتى انصرفتُ اليـهِ كىْ أؤدِّبَهُ

عنـترة: يا ليتَ أدّبتَـهُ تأديبَ جبّار
ضِرغامُ

ضـرغام: عنـترةُ

عنـترة: اسمعْ بيلنا شَرَكٌ فى حبِّ عبلةَ قد يَدنو من الثارِ
فاجعـلْ لنفسك أنثى غيرَها أرَبًا فإنَّ عبلةَ آرابى وأوطـارِى

ضـرغام:
وأنت فاعبُـدْ سِواها إننى رَجلٌ جعلتُ عبـلةَ أوْثانى وأحجـارِى

تعالَ نذهبْ الى شمسِ النهارِ معًا نقول عبلةُ قـد خُيِّرتِ فاختارى

فما ترى أنتَ ؟

عنـــترة : رَأْيى أن نَصِيرَ إلى جمـالِ تضحيةٍ أو فضلِ إيثـارِ

رأسى ورأسُك فى الميزانِ قد وُضعا وحُكمُ سيفِك أو سيفى هوَ الجارِى

من ماتَ منا قَضى حقَّ الهوَى كرمًا وليْس بالموْتِ دُون الحبِّ من عار

ضـــرغام :

رأيتَ عنـــترَ رأيا لستُ أتبعُـهُ يأباهُ حـبى وإعجـابِى وإكبارِى

واللهِ لا جمعتْنـا ساحةٌ

عنـــترة : لِمَ لَا ؟ الحـربُ تجمـعُ مِغـواراً بمغـوارِ

ضـــرغام :

هبْنِى قتلتُك

عنـــترة : ماذَا ضرَّ ؟

ضـــرغام : كيف إذن تكونُ فى البيد أنبائى وأخبارى؟

ألستُ شِـبْلا فَتيًّا من شبُولتهـا فهلْ أجرِّبُ فى الرئبالِ أظفارِى؟

وكيف أفلقُ رأسًا ملؤهُ شرفٌ أحقَّ من جَبَهـاتِ الروم بالغارِ؟

وكيف أضربُ عُنْقا فى أمانَتِهـا كرامَةُ القوْمِ من بَدْوٍ وحضَّارِ؟

وكيْف أرمِى لِسانا طَالَمـا سُقيتْ بِشهدِه البِيـدُ من شَرْبٍ وسُمَّارِ؟

عنترة ينادى : ياعبلَ

عبلة [من وراء الستار] : لبيكَ ياابنَ العمِّ

[تقبل عبـــلة]

المشهد الثانى عشر

ضرغام : أنتِ هُنا؟

عبلة : أجلْ

ضرغام : إذن سمِعتْ ما قيلَ أُذْناكِ؟

عبلة :

أجلْ علمتُ بما قد دارَ بيْنكُمَا

عنترة : فما تريْن؟ لعلَّ القولَ أرْضاكِ

ياعبلَ حبُّكِ فى لحمِى جرى ودَمِى وقد يحُبُّكِ ضِرغامٌ ويهْواكِ

ضرغام : أحبُّهاحُبِّيَ العُزّى وأعبدُها عِبادةَ اللاتِ

عنترة : بِنْتَ العمِّ بُشراكِ

ضرغام :

ولو يُطافُ بغيْرِ البيْتِ فى زمَنِي ما طُفتُ يا عبلَ إلا حول مَغْناكِ

عبلة :

ماذا تقولُ ابنَ عمّى بِمَ تُبشِّرنى بُشرَى بماذا ؟

عنترة : بهذا العاشِقِ الباكى

عبلة [لنفسها] :

يُحبُّنى؟ ربِّ أشقيْتَ الفوارِسَ بِى فلا أُتيِّمُ إلا المُعلَّمَ الشَّاكِى

عنـــترة :

عبلَ اسمعِى عبلَ هذا الحبُّ كيف أتى هلْ كان فى فترات الدهْرِ يلقاكِ؟

عساهُ جاءكِ يشكو الحبَّ من زمَنٍ لعـلَّه بالهوَى مِن قبـلُ ناجاكِ

ضِـــرغامُ هاتِ تكلَّمْ

ضــرغام : أنتَ تظلِمُنِى فـا نصبْت لعبْس قطُّ أشْرَاكِى

قولى لعنترةٍ يا عبل ما خُلُـقِى كما يقولُ ولا فى شِيَمتى ذَاكِ

هل التقيْنا على ذاتِ الأصادِ ضُحىً وهـــل لقِيتُكِ إلا فى عذارَاكِ؟

وهل نظرتُكِ إلا خاشِعا خَفِرا كما نظرْتِ وراءَ السِّـترِ عُزّاكِ؟

عنـــترة :

الآنَ يا عبـلَ تختارِينَ راضِـيةً هاكِ الخطيبيْن قد مدّا يداً هاكِ

عبـــلة :

إنى قد اخترتُ يا ابن العمِّ من زمَنٍ

عنـــترة : مَن ؟

عبـــلة : سـيِّدى !

[تندفـــع اليه]

عنـــترة : عبدُكِ الوافِى ومولاكِ !

[تسمع ضجة وقعقعة سلاح وأصوات]
[استغاثة من الحى كأنها من بعيد]

عبـلة :

يا ويحَ أذْنِى صيْحةٌ وفـوارِسٌ ما ذاكَ عنـتر؟

عنـترة : غارةٌ وصـياحُ

عبـلة : ضِرغامُ عنترَ ما مُقامُكَ هاهُنا؟ والحىُّ ثَمَّ مروَّعٌ يُجتـاحُ

[يقبل داحس مضطربا]

المشهد الثالث عشر

عنـترة :

ماذا وراءكَ داحِ ما دهَمَ الحِمَى؟

داحس : فِئـةٌ عليهم شِكّةٌ وسـلاحُ

وطِئتْ تُرابَ المهدِ أرجلُ خيلِهمْ ولهـا عليـه نشـوةٌ ومِـراحُ

عنـترة :

أمِنَ البوادى؟

داحس : بلْ غساسِنةٌ علَى قَسَماتِهـمْ أثرُ النعـيمِ صـِباحُ

فى ظلِّ دجْلةَ والفراتِ ترعْرعوا وغدوْا على وشْيِ الرِّياضِ وراحُوا

أولادُ لخمٍ والذين رمَى بهـمْ أرضَ العِـراقِ تطلّعٌ وطِمـاحُ

جاء الحجازُ بهـم ومكةُ والتقتْ فيهـمْ جِبـالٌ حولَهـا وبِطاحُ

نُشِئوا هُنالكَ فمـا تصلَّبَ منهُمُ عُـودٌ ولا بلغَ التمـامَ جَنـاحُ

عنـترة : ما يبتغون؟

داحس : أظنُّ رأسكَ سؤْلَهم هتفُوا بهِ حوْلَ البُيوتِ وصاحُوا

أنسيتَ سرحانا وكيفَ قتلتَهُـمْ وفوارِسا بُهمًا بسيْفِك طاحُوا

ضـرغام :

ما القـوْمُ ؟

عنـترة : عسكرُ رُستُمٍ

ضـرغام : مَن رُستمٌ ؟

عنـترة : بطـلٌ له شرفٌ وفيـهِ سَماحُ

وفتى يُعظِّمهُ العِـراقُ وصاحبُ كِسرى إليـه بأنسهِ يرتاحُ

عنترة [لداحس] :

ما شكلُه ؟ ما لوْنُه ما وجْهُـه ؟

داحس : ريّانُ أبلجُ ناعمٌ وضّـاحُ

ضـرغام :

هذا الجمالُ فما شجاعةُ رُستمٍ

داحس : موْتٌ لمن يمشي اليـه مُتـاحُ

عنـترة : وثيـابُه ؟

داحس :

زرَدُ الحديدِ وبُرنُسٌ ضافٍ على أعْطافِه ووشـاحُ

قد حفَّ ساعدَه السِّوارُ ورفَّ في أُذنَيْـه قُرطُ اللؤلؤِ اللّـاحُ

[تزداد الضجة وتقترب الأصوات]

ضرغام :

اسمع لواءَ البِيد أصغ لِصوْتِهمْ هـذا النِّـداءُ يَزيدُ والإلحاحُ

[يسمع صوت رستم]

الصوت :

العبدُ! رأسُ العبدِ

عنترة [لداحس]: إمضِ فقلْ لهُم رأْسِى لهم فى مَنكِبَىَّ مُبـاحُ

[ثم يواجه الأشباح القادمة من بعيد]

ياقومُ لم أفهمْ نداءَ كُمُ اعرُبوا إذ ليس فى لُغةِ الأسُودِ نبـاحُ

ويحٌ لرأسِى قد غدا كرةً لهـم راحٌ تجىء به وترجـعُ راحُ

كثُروا عليه فى الطِّلابِ ودونَه تتقطَّعُ الأسْـيافُ والأرْماحُ

[يقبل جماعة من الحى هاربين
وينصرف عنترة وضرغام للقاء المهاجمين]

المشهد الرابع عشر

عنترة [من وراء الستار] :

لبيْـكَ يا أسْـوارُ تعـلَمَ أيُّنـا يُبكَى عليـهِ فى غـدٍ ويُنـاحُ

عبلة [للقادمين] :

حُييتمو عبْسُ عِمُوا مَساءَ

عبسُ اسْمعوا الزئيرَ والعُواءَ

قُوموا انْظرُوا عنترةَ اللِّواء

[يشرف الكل على المعركة الدائرة من وراء الستار]

أحدهم : علَى قَـدَمْ حَيُّوا العـلَمْ لَيْثَ الأجَمْ

عنترة [من وراء الستار] : عبَـلَ عبـلَ

عبـلة : لبيْكَ ألفَ لَبْ

أحـدهم : ذاكَ عبـدُ شـدّادٍ انقـلَبْ

عبـلة : بَـلْ لـواءُ عبْسٍ فتَى العـرَبْ

أنْصِـتُوا اسْمَعُوا الرعْد فى السُّحُبْ

تلك صرْخَـةُ الليْثِ فى القَصَبْ

أحـدهم :

وآخرُ ليس دونَ أخيه بأساً

عبـلة : أجلْ

الأوّل : ضِرغامٌ العَضْبُ الحُسامُ

مُبيدُ الضيغميْن بشِعْبِ خَبْتِ

آخـر : أجلْ ضِرغامٌ الموتُ الزؤامُ

المنظر الثاني

« نفس المنظر بعد زمن قصير ، لاتزال عبلة ومن معها من »
« بنى عبس يشرفون على المعركة ، وإن كان يبدو أنهم قد تأخروا »
« فى المسرح الى مكان أبعد من مكانهم فى المنظر الأول قليلا . »
« فى مقدمة المسرح من ناحية أخرى جماعة قليلة من بنى نلم »
« أنصار الفرس وبيد أحدهم صندوق وحديثهم يكاد يكون همسا »

المشهد الأول

واحد من بنى نلم :
ماذاك ؟ ما الصُّندوقُ ؟ ما بأكفِّكُم ؟

حامل الصندوق : السِّلمُ يا إخوانُ والإصلاحُ
العبدُ رأسُ العبيدِ بُشرى فارسٍ اليومَ كلُّ محلَّةٍ أفراحُ

[يفتح الصندوق فترى فيه رأس قتيل مغطى]

آخر :
أبرأسِ عنترةٍ أتيتُم ماله يثْرُو ؟ وما لِلسِّتْرِ عنهُ يُزاحُ ؟

آخـــر :

أتراهُ حيًّا !

آخـــر : هل جُنِنْتَ

الأول : إذنْ قَضَى وتنافَحتْ من غُولِها الأرْواحُ

آخـــر :

من ذَا الذى ذبَحَ الغضنْفرَ ؟

الجماعة : رُسْتُمُ فَحْلُ العِراق وكَبْشُه النَّطاحُ

آخـــر :

حُطُّوهُ ننظُرْ يا إلهى مَا أرَى [يكشف القاتل الرأس]

ويْلٌ لهم أىَّ الرءُوسِ أطَاحُوا؟

ما ذاكَ عنترةٌ ولكن رُستُمٌ مَنْ يا تُرى الجانِى مَنِ السفَّاحُ؟

آخـــر :

مَن غيرُ عنترةٍ يُجَنْدِلُ رُسْتُمًا قد كانَ بين الضيغَمينِ كِفاحُ

ماتَنْظُرونَ الرأسَ فى الدّمِ غارِقًا وعليه من كل الجهاتِ جِراحُ؟

لهَفى على قَسماتِهِ وجبينِهِ عفَتِ البشاشةُ وانطفَا المِصْباحُ

آخر [صائحا] :

يالَكِسْرى ونَواحِى فَارِسِ لِقَتيلٍ حوْلَ عبْسٍ دَارِسِ

قَتَلَ العبْدُ بحُرٍّ فارِسِى قائدِ الجحفلِ أُسْوارِ العِراقْ

يا بني المنذرِ آلِ الأشهبِ شرفَ الفرسِ ومجدَ العربِ
قد صحبتم رستمًا في الموكبِ فاركبوا في ثأرِهِ الخيلَ العتاقْ
بيننا يا عبسُ يومٌ ذو نبا

[تتجه الجماعتان: بنو عبس
وبنو لخم بعضهما الى بعض]

بنو عبس : مرحبًا باليومِ أهلًا مرحبا
أحدهم : هذه السمرُ أُعدّتْ والظُّبى أُرهفتْ وانتظرتْ يومَ التلاقْ
عبلة : أولادَ لخمٍ
آخر : مَنِ المُنادي؟
آخر : عبلةُ
الأول : مَنْ تلك ؟
الآخر : بنتُ مالكْ
عنترةٌ جُنَّ في هواها والبنتُ جُنَّتْ بهِ كذلكْ
آخر : لبيكِ لبيكِ أُختَ عبسٍ
عبلة : ألا أُنبِّئكمو بأمسِ؟
ما نحنُ إلا أبناءُ جنسٍ نحن بنو الشمسِ والصحارَى
لا تحفِلوا رُستمًا دعوهُ خلّوهُ للفرسِ يثأرُوهْ
ولا يُقاتِلْ أخًا أخوهُ منكم ولا تخذُلوا الديارَا

حُشِرْتُمو تحتَ كلِّ رايهْ وأسْرَجُوكُمْ لِكلِّ غايهْ
وسَّعْتُمو الملكَ والولايَهْ لِكلِّ كِسْرى وَكلِّ دارا»
قبيلةٌ تحتَ حُكْمِ كسرَى وقيْصرُ الرومِ دانَ أخرَى
أصبحْتُمو للغَريبِ جِسْرا يَركَبُهُ كُلّما أغارَا
احدهم : ما ذا تقُولينَ يا فتاةُ؟ أَيَترُكُ القائدَ الغُزاةُ
كأنَّه فى الطَّريق شاةُ وذابحُ الشاةِ قد توارَى ؟
عبلة : يا لخمُ يا بنى العرَبْ يا لخمُ حُرْمةَ النَّسَبْ !
[ضجيج]
رُويْدَ ما هذا الجلَبْ
بنو لخم : نُريدُ رأسَ عنترَهْ
عبلة : قد رُمْتمُو ما لم يُرَمْ ما أنتمُو ولا العَجَمْ
بِبَالِغِى ليْثِ الأجَمْ
بنو لخم : نُريدُ رأسَ عنترَهْ
احدهم : يا عبلَ أحْيِ رُسْتما — إن شئْت — نَحقنِ الدَّما
أو ناولِينا المُجْرِمَا
الجميع : نُريد رأسَ عنترَهْ
[يسمع صوت عنترة مقبلا من
بعيد فيلتفت الى ناحيته الجميع]

الصـوت :

أراكِ يا عبلَ تغضبينا يا عبلُ منْ ذا تخاطبينا
من ذا الذى يرفعُ الجبينا مخاطبًا ملكةَ العذارى

عبلة :

عنترةَ البأسِ خلِّ سيفكْ وعُدْ خمًا فى الحىّ ضيفكْ
ولا يرى الأقربون حيفكْ ولا يقولوا العبسىُّ جارا

ما أنتَ من ظلمَ القريبَ وهذه لخمٌ قرابتنا الأدانى قاعدة بدار
بالأمسِ تبنى ركنَ قومِك باذخًا واليومَ تفعلُ فيه فعلَ المعول
بالبيتِ بالعزى بعبلةَ بالهوى بالحق إلا سرتَ سيرةَ مُجمِل

[يظهر عنترة]

المشهد الثانى

عنترة : ما لكِ عبلَ ثائرهْ ما يبتغى المنادرهْ
صنائعُ الأكاسرهْ

بنو لخم : نريدُ رأسَ عنترهْ

عنترة : رأسى أنا

واحد من بنى لخم : لِمْ لا أجلْ

عنترة : هلْ لكمو به قِبلْ

الكل : أَجَلْ أَجَلْ أَجَلْ أَجَلْ

عنترة : يا بُعْدَ رَأْسِ عنترَهْ !

يا لَخْمُ هاتوا جَمْعَكُمْ هاتُوا القَنَا وامْضُوا لِكسْرَى وارْجِعُوا فى جَحْفَلِ
جِيئُوا بِفُرْسانِ العراقِ وفَارِسٍ من راكِبٍ فِيلًا ومن مُتَرَجِّلِ
وتَقَلَّدُوا أَمْضَى المَنَاصِلِ واطلُبُوا رأْسِى بما قَلَّدْتُمُو من مُنْصُلِ

هَلُمُّوا يا بَنِى لَخْمِ خُذُوا رأسىَ من جِسْمِى
بما شِئْتُمْ فَبالسيْفِ وبالرُّمحِ وبالسَّهْمِ

[يناز لهم و يقتل منهم مقتلة عظيمة فيفرون صائحين]

أحدهم : خَلِّنى أَنجُ بنفسِى

آخر : أَنجُ مِن جَبَّارِ عَبْسِ
ذاك جِنِّىٌّ ولا يَبرُزُ لِلجِنِّىِّ إِنْسِى

عبلة : رُحماكَ عنترَ

عنترة : أَنتِ عبلةُ ذِى

عبلة : أَجَلْ

عنترة : ما تأمرينَ سلِى الخوارِقَ أَفْعَلِ

عبلة :
رُحماكَ عنترَ لا تَشِم سيْفًا ولا تطعنْ برمحٍ واتَّئِدْ وتَمَهَّلِ

[يلق عنترة سلاحه ثم يقبل عليها]

لم أنسَ ذِكرَكِ والجراحُ تسيلُ من ... عى وتصبِغُ أشقَرى بالعَنْدَمِ
(ولقَدْ ذكرتُكِ والرِّماحُ نواهِلٌ ... منّى وبيضُ الهندِ تقطُرُ من دمى)
فمضَيْتُ أعتنِقُ الرِّماحَ لأنَّها ... خطَرَتْ كأسمرِ قدِّكِ المتقوِّمِ
(ووددْتُ تقبيلَ السُّيوفِ لأنَّها ... لمعَتْ كبارِقِ ثغرِكِ المُتبسِّمِ)

ستــــار

الفصل الرابع

« فى حى بنى عامر وفى مضارب بنى الأشتر وفى خيام صخر . »
« سرادق ضخم وسامر حافل فيه جماعة من سراة عبس وأخرى »
« من وجوه عامر . خدم يروحون ويجيئون بقصاع الطعام »
« وأوانى الشراب . جماعة يزمرون ، وآخرون يضربون »
« على الدفوف والمزاهر... ... ... »

المشهد الأول

أحدهم : عبلةُ فى الوَشْيِ زُفَّتْ الى عامِرْ
يا زامرَ الحيِّ هاتِ أشْدُ يا زامِرْ
هيِّ ارتجِلْ هيِّ وأطرِبِ السّامِرْ

شيخ من عامر :

الطعامَ الطعامَ يا عبْسُ قومُوا الطعامَ الطعامَ ضِيفانَ عامر

آخر :

الشرابَ الشرابَ تلك بواطيه وهذى أقداحُه ياحساةُ

دونكم تَمْرَ عامرٍ ما اكتسَت أطيبَ منهُ ولا ألذَّ النواةُ

دونكُم من زبيبِ جِلّق والطـائفِ مالم يَسقِ الملوكَ السُّقاةُ

آخر :

هــذا شرابُ الرماةِ دعْنى مِنهُ وهاتِ اسْقنى الكرُومَا

آخر :

هيَ جواريَ الحِمَى هيَ صبَايا عامـرِ

فُمن الى الدُّفوفِ واضرِ بْنَ علَى المزاهـرِ

زِدْنَ جمالَ العُرسِ أوْ زِدْنَ جمالَ السامرِ

قـد كَمَلَ الأُنْسُ قد تجرِت الكأْسُ

قومُوا اطرَبُوا عبْسُ

قد كَمَلَ السامِرْ ورَنّم الـزَّامـرْ

قومُوا اطرَبُوا عامرْ

غنـاء : يا عبـلَ حيِّنا إنا مُحيُّـوكِ

هـاكِ الرياحينا يَنفحْن عن فيكِ

ياعبـلَ ياحُـرَّهْ يا ملَـكةَ الغيـدِ

أصبحتِ كالدُّرّه فى مَفرِقِ البِيـدِ

ضيف : لاَ تَسْقِنِى التمرَ ولا بِنْتَ الشعيرِ والذُّرَهْ
وعاطِنِى مايشربُ الرُّ ومُ وراءَ أنقــرَهْ
إذا شربتُ أربعًا منهـا انقلبتُ عنترَهْ!

[يسمع صوت عنترة من بعيد
يخاطب رجالا من وراء الستار]

صوت عنترة : مَنِ الرجالُ ؟
صوت أحد الرجال : ومَنْ أنـــتَ ؟
صوت عنترة : فاتِكٌ ومُغــيرُ
من آثَرَ العيْشَ فلْينــجُ بالنفْسِ
لا جــرَّدَ اللهُ سيْفِى على عبْسِ

واحد من بنى عامر : عنـــترةٌ ؟
آخـــر : ماذَا ؟
الأوّل : عنـــترةٌ جَاءَ
آخـــر . بل ذَاكَ سكرانُ يَقُـــولُ ما شَاءَ
آخـــر : ماذا تـــردُّ البِــواءُ؟
آخر [ثملا] : ما ذاكَ إلا ثُغَـاءُ
شُـوَيْهـــةٌ جاوَبْتهـا مِنَ المـــرَاعِى الشَّـــاءُ

صوت عنترة : وقفتم يا رجال ؟

صوت أحد الرجال : أجل وقفنا

صوت عنترة : نزالِ إذن نزالِ إذن نزالِ

صوت أحد الرجال : تأهبْ يا فتى

صوت عنترة : أبناءُ عمّى ؟ إلهى كيف أصنعُ بالرجالِ ؟

صوت أحد الرجال : تأهبْ يا فتى للقاء عبس

صوت عنترة : وأنتمْ فاستعدّوا للقتالِ

[تسمع قعقعة سلاح]

واحد من بنى عامر :

أما تبيّنتَ الفتى أما عرفتَ الزمجره ؟

واحد من بنى عامر [ثملا] : عامرُ

آخرون : ماذا ؟

الأول : ظفرت أيديكمو بالجوهره

فزتم من البيدِ ومن سمائها بالنيّره

آخر : وبعد ؟ ...

آخر : ماذا تبتغى ؟ فيم تحكّك الحنجره ؟

الأول : أريدُ أن أعلمَ أينَ اليومَ أينَ عنترهْ ؟

عبسٌ على سلاحها وعامرٌ منتظره

وذاك سيفى فى يدى فليجئ العبدُ يرهْ !

أحـدهم : أعـوذُ بالعُـزّى أعـوذُ باللّاتِ
آخـــر : نَعـــوذُ بالْبيتِ من الفُجاءاتِ

صوت عنترة :

أنا الذى لقَّبَـنِي أَبي وأمِّي القسْـوَرَهْ
ضجَّت ضَراغِمُ الفـلَا من حَمـلَاتِى المُنكَرَهْ

واحد من بنى عامر [لآخر من بنى عبس] :

أوَلم تقلْ لى إن رأسَ العبدِ كان صَداقَ عبلهْ ؟

الآخـــر : قدقيل ذاك أجل

الأول : فكيف إذن نراهُ ؟

ثالث [من عبس] : أنت أبلهْ !

منذا الذى يَقوَى على رأس الغضنفرِ عنتره ؟
قد ماتَ رستُمُ دونَه وهَوَى أُسَيْدُ القسوره
وجنى شيوخُ الحىِّ من مَهـرِ الفتـاة الثرثره
فرضُوا صداقَ فتاتِهم نَعَـمًا تُساقُ وأبْعـره !

[يدخل عنترة ومعه رجال آخرون من عبس وفتاة مقنعة
فينهض السامرون ويشهرون سيوفهم ويفر من
بنى عامر غير قليل ، ويبرز لعنترة واحد من بنى عبس]

المشهد الثانى

المتقدم : أنَا الذى تعلَم عبسٌ أنّى أذودُ عنها وتَذودُ عنّى
خُذْ يا ابنَ عمّى الحذارَ منّى

عنترة : مرحبًا بِكْ مرحبًا بِكْ عِش تمتّعْ بشبابِكْ

[يحمل عليه عنترة فيطير السيف من يده ولا يؤذيه]

تعالَ سيفُكَ طارَا لا تخشَ بالأسْرِ عارَا
إنّى أرْعى الأسارَى

[يأخذه رجال عنترة أسيرا]

عنترة : خُذُوا الأسيرَ ناحِيَهْ ولا تجزُّوا الناصيَهْ

[يبرز له آخر من بنى عبس]

المتقدم : إنّى أنا الغضنفرُ العبْسىُّ تعرفُنى الرِّماحُ والقِسىُّ
والوحشُ فى الفلاةِ والإنسىُّ

عنترة [حاملا عليه] :

أنا المنَايَا الماثِلَهْ أنا القضايَا النّازِلَهْ
غضنفَرٌ فى قافِلَهْ

[يحطم سيفه]

سيفُكَ يا هـذا كُسِرْ وصاحبُ السيفِ أُسِرْ

[إلى رجاله] : خُـذوهُ

[إلى منازله] : هيَّ إمْضِ سِرْ

[يأخذه رجال عنترة فيبرز له شاب ثالث]

المتقـدم : أنا أَخُـو الأشبَالِ مثــلُ أبي الرئبـالِ

بالقِرْنِ لا أُبالي

عنـترة : وأنتَ أيْضـا يا حـدَثْ ما الحـرْبُ ياطِفـلُ عبَثْ

قِفْ لا تَسِرْ إلى الجدَثْ

[يحمل عليه عنترة فيطير السيف من يده]

الشـاب : أينَ مَضَى سيفي ؟ قد كانَ في كفِّي

عنـترة : لا تَقتَحِمْ ولا تَسَـلْ سيفُكَ في سيفي دَخَلْ !

سِرْ قِفْ هناكَ يا بطَلْ !

الآنَ أنتَ لُعبَتِي إلحَـقْ بِصـاحِبَيْكَا

إمضِ انضِمْ اليهِمَا

[وفي هـذه الأثناء يكون قد رفع بيده من الأرض مبارزا آخر كان قد خرج اليه فيقذفه بجانب الشاب]

وضُـــم ذَا إليــكَا

[ثم يخاطب الجماعة]

سُدّى حربكمْ ياقومُ ألقُوا سِلاحَكمْ ولا تُرْكِبُونى فى دمائِكُمو وِزْرَا

رأيتُمْ يدى؟

أحد بنى عامر : ما كانَ أعْظمَ بطْشَها؟

عنترة : وسيْفِى؟

آخر : كسيْفِ الموْتِ يَفْرِى ولا يُفْرَى

[يقترب عنترة من الفتاة المقنعة التى دخلت معه]

انْهضِى الآن يا عروسُ تعالى لا تخافِى منِّى ولا مِنْ رِجالى

بطلٌ كلُّهم فلا خوْفَ مِنْهُمْ كيْفَ تشْقَى النساءُ بالأبْطالِ

[يرفع عن وجهها القناع فاذا هى عبلة]

صخر [فى ذهول] : مَنْ هذِه؟

عبلة : عبلةُ!

صخر : مَن بمن تزوّجْتُ إذَنْ؟

مَن التى تَركْتُ فى الخِباءِ؟

ومَن تُرى تكونُ فى النِّساءِ؟

رجل لآخر : لكنْ أجِبْنِى ألَسْنَا فى دارِ صخْرٍ وعُرْسِهْ؟

الآخر : نعمْ وأحسَبُ صخْرا جرتْ أمورٌ بِنَحْسِهْ

عنترة :

قِيامًا عامرُ انتظِروا قضائى فإنِّى الموْتُ ما مِنْه فِرارُ

وأنتمْ عبسُ للأوْطانِ عُودوا لما فِى عامرٍ لكمْ قَرارُ

نَسيتُ لكم وأنْسى ما جَنيتُمْ تُحَبُّ وإن تنكّرتِ الدِّيارُ

الجماعة : [كل جملة يقولها رجل] :

العفــوَ عنــترهْ الصفحَ يا بطَــلْ
مُرْنا بِمَـا تشــا أمرُكَ مُمْتَثَــلْ

عنــترة : رأيتُمو يا قومُ عبــلَةَ معِي وكنتُمُوحسِبْتُمُوها فى الْخِبَا
نِيطَ بعبْسٍ وشبابِ عامرٍ أن ينقُلوها مِن حمًى الى حِمى
ساقُوا بعيرَها وكانُوا حولْهَا عشرينَ فتيانا أشدّاءَ القُوى
أدركتُهُمْ على الطّريقِ فنجَا من المنُونِ بالفِرَارِ مَن نجَـا
وماتَ دونَ الرحْلِ نحو عَشْرةٍ قد غُودِروا مُجندَلين فى الفَلاَ
وهؤلاءِ هم بَنُو العمِّ أبوْا إلا المسِـيرَ معَنا الى هُنـا

كانت مَعِى ناجيةٌ فركِبَتْ بعيرَ عبْـلةٍ وحَثّتِ الْخُطا
فى وشْيِ عبْلَةٍ وفى خِمارِها وانطلقتْ تُحدَى بأتْباعِى أنَا

رجــل : حــديثُ عبــلةٍ عجَبْ لَيُؤْثرَنَّ فى العَــرَبْ
لَترْوينَّه الحِقَبْ

صخــر : واشِــقْوَتِى وابــلاَئِى فَقَــدْتُ إبْلِى وشَـائِى!
عبــلة : يا صخرُ إنَّ فى الخباءِ جارِيةْ تَهواكَ فى السرِّ وفى العَلانِيَهْ

صخـــر : جاريةٌ تحبُّني! من ؟

عبــلة : ناجيــةْ

صخـــر : ناجيــةٌ؟ ومن أرادها ليَهْ ؟

عبــلة : أنا التي جعلتُها مكانيهْ

عنــترة : ناجيــةٌ يا فتى جاريةٌ كالرَّشا

وأنت بانٍ بها إن شئتَ أولم تَشا

صخـــر : قبلتُ بالحُكمِ إنْ قبلتْ عامر

مُرْهُــم بما شئتَ أنتَ هُنــا الآمِرْ

عنــترة : من يُخالِفُ إرادتِي مِنكُمو يَمْضِ ناحيــةْ

[لا يتحرك أحد]

قــد قبِلتُمْ مَشيئتِي ورَضِيــتُمْ قضائيــهْ

إشهَدوا عُرْسَ عبْلةٍ واشهدُوا عُرْسَ ناجِيهْ

عبــلة : إنِّي أخافُ

عنــترة : عجبًا يخافُ جارُ الأسَــدِ

عبــلة : غدًا يُقــالُ صِــدْتَنِي وكنتَ لي بمَرْصَدِ

غداً يقالُ قد تآ مرْنا على التَّمرُّدِ

يُقالُ خان عمّهُ

عنترة : وأنتِ

عبلة : خُنتُ والِدى

عنترة : لِيَقُلِ السّامِرُ مَا قدْ شاءَ ولْيَهْذِ الندى
ولتَقُسِمِ البِيدُ لما نأتِى بهِ وتَقْعُدِ
ماذا يهُمُّ بعدَ ما قد صارَ كنْزِى فى يَدِى
وبعدَ أن نِلْتِ مُنا كِ وبَلغتُ مَقصِدِى

عبلة : والناسُ من كلِّ فُضو لىٍّ وكلِّ مُعتَدِ؟

عنترة : الناسُ ؟ خلِّى لِقَنا تِى النّاسَ أو مُهنَّدِى
أنتِ اذا أطعَمْتِهِمْ مُخَّ الرَّشا لم تُحمَدِى
غداً يخصُّونَك بالـتمْليقِ والتّوَدُّدِ
البيدُ معبَدٌ وأنتِ دُميةٌ فى المعبدِ

واحد من عبس :

عنترَاسلَم لعبْسَ نحنُ فِداؤُكْ لقِيَ الذلَّ والردَى أعداؤُكْ
لقد أبَى عمُّكَ أنْ يُهدى إليكَ الجوهَرهْ
عمُّك نحنُ قومُهُ نحنُ لنا أنْ نأمُرَهْ
عنترَ هاكَ عبلَةً عبلَةٌ هاكِ عنترَهْ

عنترة : الآنَ صخرُ امضِ إلى الخباءِ جئْ بناجيَهْ

عامرُ عبسُ أقبلوا زُفُّوا العروسَ الغاليَهْ

مَا هِيَ بالخادمِ فى عبسٍ ولا بالرَّاعيَهْ

لكنْ فتاةٌ حُرَّةٌ من البُيوتِ العاليَهْ

تَزوَّجتْ بوافرِ المالِ كثيرِ الماشيَهْ

صخر : عنتر

عنترة : صخرُ هاتِ قُلْ

صخر : وإبِلي وشائيَهْ؟

عنترة : تُردُّ فى غدٍ اليكَ وهى مَهرُ ناجيَهْ

يا عبلَ سامحَنِي فى قُربِكُم زمَني وشاءَ ريبُ الليالى أن نَعيشَ معًا

يا بيدُ هيَّ اشهَدى أعراسَ عنترةٍ ويا سباعُ تعالَىْ هنِّئى السَّبُعَا

عبلة :

التَامَ فى عامرٍ شملى بعنترةٍ وكان ظنِّىَ فى شملى به انصَدعَا

قد اجتمعْنا على عُرسٍ وفى فَرحٍ كم من شتيتَيْن بعد الفُرقةِ اجتَمعَا

إنّى وضعتُ بنانِى فى يدَىْ أسدٍ لو مرَّ مِخلَبُه فوقَ الصَّفَا خَشَعَا

سامَ القبائلَ إجلالى وملَّكَني عقائلَ البِيدِ حتى صِرْنَ لى تبَعا

ستار الختام

مجنون ليلى

تمهيد

زمن الرواية :

صدر الدولة الأموية

مكان الرواية :

بادية نجد

أشخاص الرواية :

قيس — مجنون ليلى

ليلى

المهدى — أبو ليلى

ورد — زوج ليلى

ابن عوف — أمير الصدقات فى الحجاز وعامل من عمال بنى أمية

زياد — راوية قيس وصديقه

منازل — غريم قيس فى حب ليلى

بشر — رجل من بنى عامر

ابن ذريح — شاعر من شعراء الحجاز
نصيب — كاتب ابن عوف
سعد — رجل من بنى عامر
الغريض — مغن مشهور
ابن سعيد — شاعر
أمية — رفيق ابن سعيد
الأموى — شيطان قيس

عضرفوت هبيد عسر عاصف	شياطين

بلهاء — جارية قيس
عفراء — جارية ليلى

سلمى هند عبلة	فتيات من بنى عامر

رجال — قوافل — حداة — صبية — فتيات

الفصل الأول

« ساحة أمام خيام المهدى فى حى بنى عامر ـ مجلس من مجالس السمر في هذه الساحة ـ فتية وفتيات من الحى يسمرون فى أوائل الليل ، وفى أيدى الفتيات صوف ومغازل يلهون بها وهم يتحدثون ـ تخرج ليلى من خيام أبيها عند ارتفاع الستار ويدها فى يد ابن ذريح »

« ليلى »

دعى الغزْلَ سلمى وحَيِّي معى   منارَ الحجازِ فتى يثْرِبِ (١)

« تصافحه سلمى »

ويا هِنْدُ هذا أديبُ الحِجاز   هلمّي بمَقـدَمِهِ رَحِّبي

« تصافحه هند ويحتفى به السامرون »

« سعد »

أمن يثربٍ أنت آتٍ؟

« ابن ذريح »

أجل   من البلدِ القُدُس الطيِّب

---

(١) يثرب ـ المدينة المنورة

« ليلي »

أيابنَ ذَريحٍ لقينا الغمام

« هند »

وطافَتْ بنا نَفَحاتُ النبي

« عبلة — هامسة إلى سعد »

مَن ابنُ ذَريحٍ ؟

« سعد »

فتًى ذِكرُه على مَشرِق الشمس والمغرب
رَضيعُ الحُسَيْنِ عليه السلامُ وتِرْبُ الحُسَيْنِ من المكتبِ

« عبلة — الى بشر ومشيرة الى ابن ذريح »

أتسمَعُ بشرُ رضيعُ الحسَيْنِ فديْتُ الرضيعيْن والمُرضعهْ
وأنت إذا ما ذكرنا الحسينَ تصاممتَ !

« بشر — هامسا ومتلفتا كأنما يخشى أن يسمعه أحد »

لا جاهلاً موْضِعهْ
ولكن أخاف امرأً أن يرى عليَّ التشيُّع أو يَسمَعه
أُحبُّ الحسينَ ولكنما لساني عليه وقلبي معه !

حَبَسْتُ لسانيَ عن مدحه حِذارَ أُميَّةَ أن تقطعه
إذا الفتنةُ اضطرمتْ في البلاد ورُمْتَ النجاة فكُن إمّعه !

« ليـلى »

إبنَ ذريحٍ نحن في عزْلةٍ فهل على مُستفهِمٍ منك بأسْ ؟

دارُ النبيِّ كيف خلفتَها ؟ كيف تركتَ الأمرَ فيها يُساسْ

« ابن ذريح »

تركتُها ياليلَ مَضبوطةً يحكُمُها والٍ شديدُ المراسْ
إن حديثَ الناس فى يثربٍ همسٌ وخطوَ الناسِ فيها احتراس

« ليلى »

إبنَ ذريحٍ لا تجزْ واقتصدْ أحلامُ مرْوانَ جبالٌ رَواسْ
يؤسّسُون المُلْكَ فى بيتهم والعُنْفُ والشدةُ عند الأساس

« تتضاحك الفتيات وتقول إحداهن لأخرى »

« فتاة »

ليلى على دينِ قيسٍ فحيثُ مالَ تميلُ ؟
وكلُّ ماسرَّ قيساً فعند ليلى جميلُ

« ابن ذريح »

ما الذى أضحكَ منى الظّبياتِ العامريةْ
ألأنى أنا شيعيٌّ وليلى أمويةْ ؟
إختلافُ الرأى لا يُفْسدُ للود قضيه

« ليلى »

أعِرْنى سماعَك يابنَ ذريحٍ ولا تسمَعِ الطفلةَ الهاذيةْ
أتيْتَ لنا اليومَ من يثربٍ فكيف ترى عالَمَ الباديه
أكنتَ من الدور أو فى القصور ترى هذه القبّةَ الصافيه ؟
كأن النجومَ على صدرها قلائدُ ماسٍ على غانيه

«هند»

كفي يابنةَ الخال ! هذا الحريرُ كثيرٌ على الرِّمَّة الباليه
تأمَّلْ تر البيدَ يابن ذريح كمقبرةٍ وَحْشَةٍ خاويه
سئمنا من البيد يابن ذريح ومن هذه العيشة الجافيه
ومن مُوقدِ النار فى مَوْضعٍ ومن حالب الشاة فى ناحيه
وراغيةٍ من وراء الخيام تُجيبُ من الكلأ الثاغية (١)
وأنتم بيثربَ أو بالعراق أوِ الشام فى الغُرَف العاليه
مُغنّيكمو مَعبدٌ والغريضُ وقَيْنتُنا الضَّبُعُ العاويه
وقد تأكلون فُنونَ الطُّهاةِ ونأكل ماطَهتِ الماشيه

«ليلى»

قد اعتَسفتْ هندُ يابنَ ذريحٍ وكانت على مَهدها قاسيه
فما البيد الا دِيارُ الكرامِ ومَنزلةُ الذِّمَم الوافيه
لها قُبْلةُ الشمس عند البُزوغ وللحَضَرِ القُبلةُ الثانيه
ونحن الرياحينُ مِلْءَ الفضاء وهنَّ الرياحينُ فى الآنيه
ويقتلُنا العِشقُ والحاضراتُ يَقُمْنَ من العشق فى عافيه
ولم نصطَدِم بهموم الحياة ولم نَدرِ ــ لولا الهوى ــ ماهيه
وآنا نخف لصَيْد الظباء وآنا الى الأسد الضاريه

«هند ــ ساخرة»

وفى كل ناحيةٍ شاعرٌ يغنِّى بليلاهُ أو راويه

(١) الراغية : الناقة والثاغية : الشاة

« تحاول ليلى أن تمد رجلها فتتألم وتستغيث »

« ليلى »

قيسُ ، إليَّ قيس

« هند »

ما دهاكِ ليلى ما الخبرْ

« ليـلى »

أُحس رجلى خدِرت حتى كأنها الحَجَرْ

« هند »

قـد صحتِ قيسُ مرتين

« ليـلى »

أو ثلاثاً ما الضرر

« هند ـ متهكمة »

إسم الحبيبِ عنـــبدنا نذكره عنـد الخـدر

« ليـلى »

هنـــــد كفى دعابة إن هو الا اسمٌ حضر

« لنفسها »

يا قيسُ ناجَى باسمك الـــقلبُ اللسان فعثَر

« عبلة ـ ضجرة »

أما سوى هذا الحديثِ شاغلُ ؟ كيف ظللْتَ اليومَ يا منازلُ ؟

« منازل ـ ضاحكا »

منازلُ اليومَ كأمس هازلُ يشرَبُ أو يَطعَمُ أو يُغـازلُ !

« هند »

بخٍ ! كذا فلتكنِ الحياةُ   مُت يابعيرُ وانفقى ياشاةُ
انغَمست فى الترف الرعاةُ !

«ليلى»

وكيف ظللت اليوم سعدُ ؟ أهازلٌ   كتِربك أم فى صالحٍ ورشادِ !

« سعد »

بل الجدُّ ياليلى سبيلى وديْدنى   حياتى بوادٍ والمجُونُ بواد
صحبتُ زيادا طول يومى تلقفا   لأشعار قيسٍ من لسان زياد
وإن زيادا ـ منذ كان ـ لرائحٌ   علينا بشعر العامرىّ وغاد
ولولا زيادٌ ما تمثّل حاضرٌ   بأشعار قيسٍ أو ترنم باد

« يبدو على ليلى شىء من الزهو فتتهامس الفتيات »

« سلمى »

انظرى هند ترىْ ليلى ! كتست زهواً وكبرا
وتعالت كابنةِ النعمان أو كابنة كسرى !

« هند »

لمَ لا سلمى ، ألم   يرفعْ لها المجنونُ ذكرا؟

« عبلة »

لِمْ إذن ياهند من   قيسٍ ومما قال تبرا ؟

هند

عَبَثُ النّسوةِ ! إنا نحن   بالنسوة أدرى !

«سلمى»

سلوا الآن بشرا فيم أنفق يومه ؟

« أصوات »

سلوه

« هند »

سلى يا ليلَ عن يومه بِشرا

« ليلى »

وهل يومهُ الا شؤونٌ كأمسِهِ   من الصيد؟

« هند »

إن الصيدَ لذتُه الكبرى

« بشر »

نعم هو ملهايَ الذى لا أملُّه   ولا النفسُ تُعطَى عن تناوله صبرا
ولو كان عيشى فى قصور أميّةٍ   لعلّمتُ فنَّ الصيد فتيانها الزهرا
وما أنا صيّادُ الأرانب مثلَهم   ولكن على حيّاته ألجُ القفرا

« ليلى »

إذن هاتِ واصدُقْ بشرُ فى القول مرّةً
ولا تخترعْ أو تبنِ من حجَرٍ قصرا !

« بشر »

دعى عنكِ هذا السُّخْرَ ياليلَ واسمعى

« ليلى »

تحدّثْ فلا واللهِ لم أُضمرِ السُّخرا

« بشر »

بكَرتُ كدأبي اليومَ أبغى قنيصةً

ومَن يتصيّدْ يحسبِ الغُنمَ والخُسرا

(رأيت غزالا يرتعى وَسْط روضة

فقلت أرى ليلى تَراءتْ لناظُرا) [١]

« هند ــ مشيرة الى ليلى »

وأيَّ الليالى بشرُ آنست ؟ هــذه

« بشر »

إذا شئتِ ــ أو هاتيكِ ــ أوحُرةٌ أخرى .

فقلتُ له ياظبيُ لا تخشَ حادثا

(فانك لى جارٌ ولا ترهب الدهرا)

(فما راعنى الا وذئبٌ قــد انتحى

فأعلق فى أحشائه الناب والظُّفرا)

(ففوّقتُ سهمى فى كَتومٍ غمستُها

فخالط سهمى مهجةَ الذئبِ والنحرا)

« ليلى ضاحكة »

أخى بشرُ لا شُلَّتْ يمينُك من يدٍ

ولا فُضَّ فاك الصبحُ والليلُ ماكرّا

---

(١) الأبيات التى بين الأقواس من شعر المجنون

سمعنا بإقدام اللصوص وفتكهم
فلم نر أدهى منك فتكا ولا أجرا !
ووالله لم تغضب لظبي ولم تثب
بذئب ولم تُعمِلْ خيالا ولا فكرا
أخذتَ فلم تترك لقيسٍ بضاعةً
سرقتَ لَعمرى الظبىَ والذئبَ والشعرا !

« ضحك من الجميع »

حديثُ الظبيِ والذئبِ وقيسٍ لستُ أنساه
زيادٌ عنه نبّانى ولا ينبيك إلاه
رأى قيسٌ على رابيــة ظبيا فناداه
فألقى الظــبيُ أذْنيْهِ ومسّ الأرضَ قرناه

« ثم تقول فى لوعة وصوت مخفوض وكأنما تحدث نفسها »

برُوحى قيسُ! هل راحت ظباء القاع تهواه ؟
وهــل يَرثى له الريمُ ولا أرثى لبـلواه ؟

« تسترسل فى حديثها الأول : »

على فيه من العُشْبِ بقايا صبغت فاه
رأى فى جيده قيسٌ وفى عينيه ليلاه
فبينا هو فى الشوقِ وفى نشوة ذكراه
حبا الذئبُ من الوادى الى الظبى فأرداه

تغذى بحشا الظبى غداء ماتهناه
رماه قيس فى المقتل بالسهم فأصماه

« بشر : مندفعا بحماسة ! »

أجل يا ليلَ ! ما قلتِ سوى شىء شهدناه
وإن لم تذكرى القبرَ ولا كيف خططناه
حفرنا القبرَ للظبىِ وقمنا فدفناه
وصلَّينا على الميْتِ وبالدمع سقيناه
فقولوا ولتقل ليلى معى يرحمُه الله !

« أصوات : بين الضحك والسخرية »

أجل بشرُ !

أجل بشرُ !

أجل يرحمه الله !

« ابن ذريح »

بشرُ كفى هزلا وتخليطا كفى — ويابنةَ العم مضى الليلُ سُدى
أرسلنى قيسُ فلو أخبرتنى — متى متى بأمر قيسٍ يُعتنى ؟
بتنا نخافُ أن يجِلّ خطبُه — وتبلغَ البلوى بقيسٍ المَدى
وقيسُ ياليلى وإن لم تجهلى — زين الشباب وابنُ سيد الحمى
لم ندرِ فى حيِّك أو فى حيِّه — فتى حكاه نسبا ولا غنى
ولا جمالا ، وهنا (ياليلَ) ما — ترينَ أنتِ لا الذى نحن نرى

« بشر ــ ساخرا »

بخٍ بخٍ ! إبنُ ذريح خاطبٌ

« ابن ذريح »

أسكت فلست للمروءات أخا !

« ليــلى ــ غاضبة »

فيم هذا الـكلامُ يا بنَ ذريحٍ ؟

« ابن ذريح »

إتقى اللهَ واقصِدِى فى التجنى

« ليــلى »

ما تجنّيت

« ابن ذريح »

بل ظلمت ، دعينى أُحسنِ الذَّودَ عن صديقى وخِدنى

« ليــلى »

أنا أَوْلى به وأحنى عليــــه لو يُداوَى برحمتى والتحنّى
يعلمُ الله وحــده ما لقيس من هوًى فى جوانحى مستكِنِ
إننى فى الهوى وقيسا سواءٌ دَنُّ قيس من الصبابة دَنّى
أنا بين اثنتين كلتاهما النا ر فلا تَلْحَنى ولكن أعِنّى
بين حرصى على قَداسة عرضى واحتفاظى بمن أُحبُّ وضنّى
صنتُ منذ الحداثة الحبَّ جَهدى وهو مستهترُ الهوى لم يصنّى

قد تغنى بليلة النيل ، ماذا كان بالغيل بين قيس و بيني ؟
كل ما بيننا سلامٌ وردٌّ بين عين من الرفاق وأُذن
وتبسّمتُ في الطريق إليه ومضى شأنه وسرتُ لشأني

« تهيب بالسامرين وقد بلغ بها الغضب أقصاه »

أَوْغل الليلُ فلنقمْ

« ابن ذريح ـ متوسلا »

بل رويدا واسمعي (ليلَ)

« ليلى »

خلِّ عنِّيَ دعني !

« تدخل خباءها بينما ينفض السامرون فلا يتثاقل منهم فى القيام »
« الا منازل ـ الهرج والأسف يسودان الجميع »

« بشر »

انفضَّ سامرُ ليلى وكان حَفْلا كريما

« سعد »

قد فَضّه ابنُ ذريح ففض عِقدا نظيما
أثار ليلى فهاجت كما تنفَّر رِيما
ترى أتُبغِضُ قيسا

« ابن ذريح »

لا تقلبوا الحبَّ بغضا
ليلى العشيةَ غضبى ويُصبح الصبحُ ترضى

« سعد »

أنعم (منازِ) مساء

« منازل »

نعمت سعدُ مساء

« هند »

بشرُ مُسّيتَ بخير

« بشر »

أنعمي هندُ مساء

« هند »

نحن يحوينا طريقٌ فامض بلّغني الخِباء

« سعد ـ ضاحكا »

احذري يا هند منه !

« هند »

أنا لا أخشى اعتداء

قد عرفتم وعرفنا كيف يصطاد الظباء !

« تسمع ضحكاتهم من أقصى الطريق بينما يظهر »

« قيس وزياد من جانب المسرح الآخر »

« قيس »

سجا الليل حتى هاج لى الشعرَ والهوى

وما البيدُ الا الليلُ والشعرُ والحبُّ

ملأتُ سماءَ البيدِ عشقاً وأرضَها
وحُمِّلتُ وحدي ذلك العشقَ يارب
أَلَمَّ على أبياتِ ليلى بيَ الهوى
وما غيرَ أشواقي دليلٌ ولا ركبُ
وباتت خيامي خطوة من خيامها
فلم يَشفني منها جوارٌ ولا قرب
إذا طافَ قلبي حولها جُنَّ شوقُه
كذلك يُطْغِي الغُلَّةَ المنهلُ العذب
يحن إذا شطَّت ويصبو إذا دنت
فيا ويح قلبي كم يحن وكم يصبو
وأرسلني أهلي وقالوا امض فالتمس
لنا قبسا من أهل ليلى وما شبّوا
عفا الله عن ليلى لقد نوّتْ بالذي
تحمّلَ من ليلى ومن نارها القلب

« منازل — وقد سمع همهمة الصوت ورأى شبحيهما فى الظلام »

أرى شبحا مقبلا فى الظلام وأسمع همهمة فى الدجى
هو ابن الملوّح دلّ الهزالُ عليه ونمّ اضطراب الخطا
عدوّى البين وما بيننا ولا بين صاغيتَيْنا (١) جفا
روى شعرَه البدو والحاضرون وشعريَ ليس له من روى

(١) صاغية الرجل قومه

وهــام بليــلى وهامت به لقد كنت أولى بهذا الهوى
تشرّد مستعظَمـــا فى البلاد وجُنّ فما ازداد الا نُهى
وإنى لأبديــه اليــه الوداد وأخفى له فى الضـلوع القِلى
وأحسُدُه حسدا ما علمت أقيسُ الشقىُّ به أم أنا

« يتقدم منهما خطوات »

من الراكبُ الليلَ ؟ قيسٌ أخى ؟

« قيس »

منـــازل ؟ ما أعجبَ الملتقى !

« منازل »

أقيساً أرى فى ظلال البيوت ؟ وعهديــ بقيس حليفَ الفلا

« قيس »

منازل ، من أين ؟

« منــازل »

من عندِها من السمر الممتع المشتهى

« قيس : حنقا »

أمن عنــد ليــلى تجرُّ الذيول حديث لَعمرُ أبى مفــترى

« منــازل »

بل الصدقُ ماقلتُ يابن الملوّح

« قيس »

إخسأ متى قلت صــدقا متى ؟

وما كنت تصنع ؟

« منازل ساخرا »

ما يصنعون لموت لعمريَ فيمن لها
وسامر ليلى كثير الزّحام فلست تعدُّ شباب الحِمى
وليلى تُفيضُ على من تشاء رضاها وتحرمُه من تشا

« زياد مغضبا »

منازل، قيسُ، سبيلكَ قيس ! وكِلْ لىَ تأديبَ هذا الفتى

« منازل — وقد أخذ بتلابيبه »

تؤدبُني زيادُ وأنت ظل لمجنون وراوية لماذى
وتزعمُ أننى نِدٌّ لقيس رضيت من المصائب غيرَ هذى !

« زياد »

من قال ذا ؟ أنت لقيس نِدٌّ لم يبق فيكِ يا حياةُ جِدّ

إمضِ بنا ناحيةً يا وغد !

« يجره الى حيث تسمع أصواتهما من بعيد ثم تختفى »
« فيقبل قيس على خباء ليلى وينادى »

« قيس »

ليلى !

« المهدى : خارجا من الخباء »

من الهاتف الداعى ؟ أقيس أرى ؟ ماذا وقوفُك والفتيان قد ساروا

« قيس : خجلا »

ما كنتُ يا عمُّ فيهم

« المهدى : دهشا »

أين كنت إذن ؟

« قيس »

فى الدار حتى خلَتْ من نارنا الدار

ما كان من حطب جزْلٍ بساحتها أوْدى الرياحُ به والضيفُ والجار

« المهدى ــ مناديا »

ليلى ــ انتظر قيس ــ ليلى

« ليلى ــ من أقصى الخباء »

ما وراء أبى ؟

« المهدى »

هذا ابن عمك ما فى بيتهم نار

« تظهر ليلى على باب الخباء »

« ليلى »

قيس ابن عمى عندنا يا مرحبا يا مرحبا

« قيس »

متِّعتِ ليلى بالحيا ة ، وبلَغْت الأربا

« ليلى : تنادى جاريتها بينما يختفى أبوها فى الخباء »

عفراء

« عفراء ــ ملبية نداء مولاتها »

مولاتى

« ليـلى »

تعـــــالَىْ نقضِ حقا وجبا
خــذى وعاءً واملئيــــه لابن عمى حطبــا

« تخرج عفراء وتتبعها ليلى »

« قيس »

بالروح ليلى قضت لى حاجةً عرضت
ما ضرها لو قضت للقلب حاجاتِ
مضت لأبياتها ترتاد لى قبسا
والنار يا رُوحَ قيسٍ ملء أبياتى
كم جئتُ ليلى بأسباب ملفقة
ما كان أكثر أسبابى وعلاتى

« تدخل ليـلى »

« ليلى »

قيس

« قيس »

ليــــلى بجانبى كلُّ شىء إذن حضرْ

« ليلى »

جمعتنا فأحسنت ساعـــةٌ تَفْضُلُ العُمُرْ

« قيس »

أتجدِّين ؟

« ليلى »

مافـــــؤا دى حديدٌ ولا حجر

لك قلبٌ فسله يا قيـــس ينْبئْكَ بالخبر

قدْ تحملتُ فى الهوى فوق ما يحمل البشر

« قيس »

لستُ ليـــلاى داريا كيف أشكو وأَنفجِر ؟

أشرح الشوقَ كله أم من الشوق أختصِر ؟

« ليلى »

نبّنى قيسُ ما الذى لك فى البيد من وطر ؟

لك فيهـــا قصائدٌ جاوزَتْها الى الحضر

كلُّ ظـــبيٍ لقيته صُغت فى جيده الدرر

أتُرى قـد سلوْتنـــا وعشقتَ المهَا الأُخر ؟

« قيس »

غرت ليـــلى من المهَا والمهـــا منك لم تَغَر

حبّب البيدَ أنهـــا بكِ مصبوغَةُ الصُّوَر

لست كالغيـــدِ لاولا قمرُ البيـــد كالقمر

« ليلى : وقد رأت النار تكاد تصل الى كم قيس »

ويحَ عينىَّ ما أرى قيس !

« قيس »

ليلى

« ليلى : مشفقة »

خذ الحذر !.

« قيس : غير آبه الا لما كان فيه من نجوى »

رُبَّ فجر سألتُه هل تنفستِ فى السحَر
ورياح حسِبتُها جرَّرَت ذيلَك العطِر
وغزالٍ جفونُه سرقت عينكِ الحوَر

« ليلى »

إطرح النارَ يافتى أنت غادٍ على خطر
لهبُ النار قيسُ فى كمك الأيمن انتشر

« قيس : مستمراً بعد أن رمى النار من يديه »

وذئابٍ أرقّ ياليلَ من أهلِك الغُيُر
أنِستْ بى ومرّغت فى يدى الناب والظفُر

« ليلى »

ويح قيسٍ تحرقت راحتاه وما شعَرْ

« قيس »

أنت أججتِ فى الحشا لاعجَ الشوقِ فاستعَرْ

ثم تخشين جمرةً تأكلُ الجلد والشعَر

« يترنح قيس فى موقفه وتظهر عليه بوادر الاغماء »

« ليلى »

فِدَاكَ أبي قيس ، ماذا دَهاكَ ؟ تكلم ، أبِن قيس ، ماذا تجد

« قيس »

أحسُّ بعينيّ قد غامتا وساقيّ لا تحملان الجسدْ

« يخر صريعاً الى الأرض فتتلقاه على صدرها صارخة »

« ليلى »

يا لأبي للجارْ قيسٌ صريعُ النارْ مُلقىً بصحن الدارْ !

« يخرج أبوها من الخباء على صوت استغاثتها »

أبي ها أنت ذا جئت أغثنا أبتِ أدركْ

لقد حُرِّق بالنارِ فما يصحو إذا حُرِّك

« المهدى »

يرانا الناسُ ياليلى

« ليلى »

أبي انفِ الناسَ من فكرك

هنا لا تقعُ العينُ على غيرى ولا غيرك

ولا يَطْلُعُ إنسانٌ على سرى ولا سرك

ولا أجدر من قيس باشفاقك أو برك

أبى صدرىَ لا يقوى فأسنده الى صدرك

« المهدى — وهو يتلقى عنها جسد قيس ويحاول إنعاشه »

رعاكِ اللهُ ياليـــــلى وكافاكِ على صبرِك
أخافُ الناسَ فى أمرى وأخشى القلبَ فى أمرِك
وكم داريتُ ياليـلى وكم مهّدْتُ من عذرِك
ولستُ الوالدَ القاسى ولا الطامعَ فى مهرِك

« يناجى قيسا فى غيبوبته »

أبا المهدىّ عوفيتَ ويا بورِك فى عمـرِك
أرانى شعرُك الويلَ وما أروى سوى شعرِك
كما لذّ على الكُرهِ كلامُ الله للمشرِك !

« يتحرك قيس ويبدو عليه كأنما سبق فيناديه »

قيس

« قيس — يحاول الوقوف فتسنده ليلى »

لبّيك عمّ

« المهدى »

حسبُك فاذهبْ لا تطأْ لى بعد العشيّةِ دارا

« ليـلى »

أبتِ لا تجزْ على قيسَ

« المهدى »

لِمْ لا إن قيسا على القرابةِ جارا

« ليلى »

أبتى ما تراه كالقَنن الذا وى نحولا وكالمَغيب اصفرارا ؟
وتأملْ رداءه ويديهْ تجد النارَ أو ترَ الآثارا
أبتى دَعْه يَسترحْ

« المهدى »

بل دعينا لا تزيدى ياليلَ سُخطى انفجارا

« قيس »

حسبُ يا ليلَ، حسبُ ذلا لمثى وكفى حلفةً له واعتذارا
عمٌّ ماذا جنيت ؟

« ليلى »

ماذا جنى قيس

« المهدى »

نسيتِ الرُّواةَ والأخبارا

« قيس »

إنهم يأفِكون يا عمّ

« المهدى »

والغَيلُ أليلاً غشيتَه أم نهارا ؟
ما الذى كان ليلةَ الغَيْل حتى قلتَ فيها النّسيبَ والأشعارا ؟

« قيس »

لم تكنْ وحدَها ولا كنتُ وحدى
إنما نحن فتيةٌ وعذارى

جمعتنا خمائلُ الغيل بالليل كما يجمــعُ الحمى السمّارا
ليس غيرَ السلامِ ثم افترقنا ذهبتْ يَمنةً وسرتُ يسارا

« المهدى »

إمض ياقيس إمض لاتكسُ ليلى كلَّ حينٍ فضيحةً وشنارا
فكأنى بقصة النار تُروى وكأنى بذلك الشعر سارا
وكأنى ارتديتُ فى الحى ذلا وتجللتُ فى القبائل عارا
إمض قيسُ امضِ

« قيس »

عمُّ رفقا بليلى وبقيسٍ ولا تكن جبارا
الحذَارَ الحذَارَ من غضب الله ومن سُخطه الحذار الحذارا

« المهدى »

إمض قيس امض جئت تطلب ناراً
أم ترى جئتَ تُشعلُ البيتَ نارا ؟

« يخرج قيس »

ستــار

الفصل الثانى

« طريق من طرق القوافل بين نجد ويثرب . على مقربة من حى بني عامر حيث »
« تبدو مضارب هذا الحى على مدى البصر وعلى سفح جبل التوباد — قيس وزياد »
« جلوس الى جذع نخلة ، يستشرفان شبحا يسير نحوهما »

« قيس »

زيادُ ، ما تلك ؟ مَن الجُوَيْرِيَهْ ؟ أتلك (بلهاء) ؟

« زياد »

أجل قيس هيَهْ

« تظهر بلهاء وعلى رأسها قصعة »

« قيس »

بلهاء كيف الحىُّ ؟ كيف أُمَّيَه ؟

« بلهاء — وهي تضع القصعة »

تسأل عنكَ كما سألتَ

« تبدو على قيس كراهة للطعام وعزوف عنه »

« زياد »

باللهِ قيسُ إلا أكلت

« يشتد ميل قيس عن الطعام »

« بلهاء هامسة لزياد »

زيادُ ما ذاقَ قيسٌ ولا همّا

« زياد »

طبخُ يدِ الأمِّ يا قيسُ ذُقْ مِمّا
الأمُّ يا قيسُ لا تطبخُ السُّمّا

« ينزع عن القصعة غطاءها »

تعال تأمّلْ قيسُ ، تلك ذبيحةٌ

« قيس »

عسى اليومَ نحرُهُ

« زياد »

أين نحنُ من الأَضْحى ؟

« قيس »

أرى صُنعَ أمي يازيادُ ، فَدَيتُها بروحي وإن حمّلتُها الهمَّ والبرْحا
ستخبرنا البلهاء

« زياد »

بلهاء بيِّني ولا تكتمي عنا الحديثَ ولا الشرحا

« بلهاء »

لقد مرّ عرّافُ اليمامةِ بالحمى فما راعنا إلا زيارتُه صُبحا

طوى الحيَّ حتى جاء عن قيسَ سائلا وأظهرَ ماشاءَ المودّةَ والنُّصحا
ولاحت له شاةٌ جَثومٌ بموضعٍ تخيَّلَها ظلا من الليل أو جُنحا
فقال اذبحوا هاتيك فالخير عندَها فقام اليها يافعٌ يُحسِنُ الذَّبْحا
فقال انزعوا من جثّة الشاةِ قلبَها فلم نألُ قلبَ الشاة نزْعا ولا طرْحا
فلما شويناهــا رَقَى بعزائم عليها وألقى فى جوانبها المِلْحا
وقال اطلبوا قيسًا فهـذا دواؤه كأنى به لمـا تناولَه صَحَّا

« زياد »

تعلّلْ قيسُ بالشــاة عساها تذهبُ الحبّا
فمـا العرّافُ بالمجهو ل لا علماً ولا طبّـا
ولم تَعلَمْ عليه البيد تدجيـلا ولا كذْبا
طبيبٌ جرّبَ اليابسَ فى الصحراءِ والرَّطْبا
فذقْ قيس ولا تَرتبْ بمـا قال وما نَبَّـا
وتلك الأمُّ ياقيـــس أطِعْهـا تطِـع الربّا

« قيس »

زياد اسمعْ وكن عونى وخلِّ اللومَ والعَتبا
إذا ما لم يكن بُدٌّ فإنى آكُـلُ القلبا

« زياد »

قيسُ يبغى القلبَ يابلـــهاء أين القلب أينـا ؟

« بلهاء »

هـو عنـدى ويسيرٌ ما اشتهى قيسٌ علينا

هـو فى الشاة

« زياد »

هلمّى أخرجى القلبَ إلينا

« بلهاء »

القلبُ ! أين القلبُ ؟أيـن يا ترى وضَعْتُه ؟

يا ويحَ لى ! نسيتُ أنى بيـدى نزعتُه !

« قيس »

وشاةٍ بلا قلبٍ يداووننى بها

وكيف يُداوى القلبَ من لاله قلب !

« تسير بلهاء الى الحى ويظهر صغار من ناحية الحى يلهون فى طائفتين وإذ تقع »
« أبصارهم على قيس وزياد تتغنى كل طائفة بغناء »

« الطائفة الأولى »

قيسُ عُصفورَ البوادى وَهـزارَ الرَّبَواتْ

طِرتَ من وادٍ لِوادى وغمـرتَ الفـلواتْ

إيهٍ يا شاعـرَ نجـدٍ ونجىَّ الظَّبَيـاتْ

أضمـرِ الحبَّ وأبدِ لأعَفَّ الفَتَيـاتْ

« الطائفة الثانية »

قيسُ كشَّفتَ العذارى وانتهكتَ الحُرُماتْ

ودمَغْتَ الحىَّ عارا فى السنينَ الغابراتْ

قد ذكرتَ الغَيْلَ دعوى واصطنعتَ الخلوَاتْ
صَلِيَتْ ليلى ببلوى منك دون الفتَياتْ !

« يلتقط قيس بضع حصوات من الأرض ويهم أن يحصب بها الصغار ثم يتردد »
« وينثر الحصا من يديه ، بينما يظهر من جانب الطريق الآخر ابن عوف وكاتبه نصيب »

« قيس : مناجيا نفسه »

قيسُ لا ! سامحْ صغارا لا يُحسُّون الخطيئه
إنهم فيما أتوْه ببغاواتٌ بريئهْ
لقّنوها كلماتٍ نزهاتٍ أو بذيئه

« زياد : وهو يصرف الصغار »

إذهبوا عودوا الى آبائكم واذكروا قيسا بخير يا خُبُثْ
إذهبوا أوْحُوا الى أترابكم وليُبلِّغْ حَدَثًا منكم حَدَثْ
سيطْرَ الحبُّ على دنياكمو كلُّ شيء ما خلا الحبَّ عَبَثْ

« يجرى الصغار أمام زياد مضطربين ثم يختفون عن الأنظار ، بينما يستلقى قيس »
« على الأرض فى شبه إغماء »

« ابن عوف : الى نصيبُ وزياد يطارد الصغار »

انظرْ نُصيْبُ ضجةٌ وصبيةٌ ورجلٌ يرمى الصغار بالحصا

« نصيب »

أرى أميرى نشأً تعلقوا بابن سبيلٍ مُتعَبٍ واهى القُوى

« ابن عوف »

بل امضِ سَلْ

« نصيب : معترضا زياد »

من الفتى ؟

« زياد : لنفسه وقد رأى ابن عوف »

ماذا أرى ؟ هذا أميرُ الصَّدَقات ههنا

« ثم يرد على نصيب »

قيسُ إمامُ العاشقين

« ابن عوف »

أيُّهم فهم كثير ، كل قيس بهوى

« زياد »

أجلْ ولكنّ الذى تُبْصِرهُ أرفعُهم ذكرا وأعلاهم سنى

« ابن عوف »

لعله قيسُ الذى نعرِفُه لقد رَوِيْتُ شعرَه فيمن رَوى
فأين ظلُّه زياد ؟

« زياد »

أنا ذا أنا الذى يتبعهُ حيثُ مشى

« ابن عوف »

أنت الذى تهدى لكلّ قريةٍ مُجاجةَ النحل ونفحةَ الرُّبا
ما بالُه يطَأ الترابَ حافيا ويقطعُ البيدَ مُمَزَّق الرِّدا
خُذ يا نُصَيْبُ بُردتى فغطِّه لا يلحقنَّه من العُرىِ أذى

« زياد »

إحفظ عليك البُرْدَ يا أميرُ لا   فقرَ اليه بابن سيد الحمى

إن لقيس من ثياب الوشْيِ ما   يفنى به العمر وما يُعيي البلى

« ابن عوف : مناجيا نفسه »

ياويحَ قلبي ما خلا من قسوةٍ   ما باله رَقَّ لقيسٍ ورثى

« يقبل على قيس »

قيسُ بُنَيّ

« زياد »

هـو فى إغماءة   من وَجْده وما أظنُّه صحا

« يسمع صوت حاد من ناحية نجد ، ويتعالى الصوت قليلاقليلا حتى يظهر الحادى »
« ومن ورائه قافلة تسير الى المدينة ثم يذوب الصوت قليلا قليلا حتى ينقطع »

« أنشودة الحادى »

يا نجدُ خُذْ بالزمامْ   ورحِّبِ

سرْ فى ركاب الغمامْ   ليثربِ

هـذا الحُسيْنُ الامامْ   ابنُ النبى

النورُ فى البيد زادْ   حتى غَمَرْ

أُحْدُ الحيا فى الوهادْ   أُحدُ القمر

أُحْدُ جمالَ البوادْ   زينَ الحضرْ

ابنَ النبى

« ابن عوف »

سمعتمو ؟ يالكِ من   رنة حادٍ مُطرِبِ

« زياد »

يا ليت شعرى ما الركا ب مَنْ لواء الموْكب

« نصيب »

قد بيّن الحادى فقل أصمٌّ أنت أم غبى ؟

هذا منارُ العرب هذا الحُسين ابنُ النبى

هذا الزكىُّ ابنُ الزّكىّ الطيّبُ ابنُ الطيب

عارَضَنا الحسينُ فى طريقه ليثرب

هذا سنا جبينه مِلْءُ الوهاد والرُّبى

قد جلّ حاديه جلا لَ القارئ المطرّب

« ابن عوف هامسا الى نصيب »

نصيبُ صه لا تَسلكنْ بنا مسالكَ التُّهَمْ

ولا تَظاهرْ بالهوى لوارث البيت العَلَمْ

إحذرْ جواسيسَ ابن هندٍ وعيونَ ابن الحَكَمْ

نحن رجالُ دولةٍ قوّامةٍ على الأمم

ليس بعينها عمًى ولا بأُذْنها صَمَمْ

تسمع فى ظل القصور همسَ رُعيان الغنم

« الى زياد مشيرا الى قيس »

زياد انظرْ فما انفكّ صريعَ الوجد والذكرى

كما مرّ بنا الركبُ الحسينىُّ به مرّا

فلم يشغَلْ له بالا ولم يوقظْ له فكرا

« زياد »

رويدا سيدىَ مهلا ولا تستغرِب الأمرا
لقد سقناه بالأمس لحجِّ الكعبةَ الغرَّا
فلما لمس الركنَ ومسَّتْ يدُه السِّترا
وقلنا الآنَ من ليلى ومن فتنتها يبرا
سمِعناه ينادى الله من ساحته الكبرى

« ابن عوف »

وماذا قال ؟

« زياد »

ما تابَ من العِشق ولا استبرا
ولكن قال يا ربُّ ملكتَ الخيرَ والشرا
فهاتِ الضُّرَّ إن كان هوى ليلى هو الضرا
وإن كان هو السحرَ فلا تُبطلْ لها سحرا
ويا ربِّ هَبِ السلوى لغيرى وهبِ الصبرا
وهبْ لى مَوْتَةَ المُضنىَ بها لا مِيتةً أُخرى

« يقبل على قيس ويميل عليه بحنان »

جنانيكَ قيسُ إلامَ الذهول ؟ أفِقْ ساعةً من غواشى الخبَلْ
صليلُ البغال ورَجْعُ الحُداءِ وضجَّةُ رَكْبٍ وراء الجبَلْ
وحادٍ يسوق رِكابَ الحسيْنِ يهزُّ الجبالَ إذاما ارتجلْ

فلم يبقَ ماشٍ ولا راكبٌ على نجدَ الا دعا وابتهلْ
فقمْ قيسُ واضرعْ مع الضارعين وأنزِلْ بجَدّ الحسيْنِ الأملْ

« يسمع صوت حاد آخر قادما الى نجد من ناحية يثرب ، على رأس قافلة أخرى »
« وتمر هذه القافلة كما مرت الأولى »

« أنشودة الحادى »

هلا هلا هيَّا * إطوى الفلا طيَّا * وقرِّبى الحيَّا * للنازح الصَّبِّ
جلاجلٌ فى البيدْ * شجيَّةُ الترديدْ * كرنَّةِ الغرِّيدْ * فى الفنَنِ الرَّطْبِ
أناح أم غنَّى * أم للحمى حنّا * جُلَيْجِلٌ رنَّا * فى شُعَبِ القلبِ
هلا هلا سيرى * وامضى بتيسير * طيرى بنا طيرى * للماء والعشْبِ
طيرى اسبقى الليلا * وأدركى الغَيْلا * العهدَ من ليلى * وَمنزِلَ الحبِّ
بالله يا حادى * فتِّشْ بتوْبادِ * فالقلبُ فى الوادى * والعقلُ فى الشِّعبِ
يا قمرا يبدو * مَطلعهُ نجدُ * قد صنع الوجدُ * ما شاء بالركبِ

« يفيق قيس ثم يتلفت مصغيا الى الحداء »

« قيس »

ليلى ! مناد دعا ليلى فخفّ له نَشْوانُ فى جنبات الصدر عِربيدُ
ليلى ! انظروا البيدَ هل مادت بآهلها
وهل ترنَّمَ فى المزمار داودُ
ليلى ! نداءٌ بليلى رنَّ فى أذنى سحرٌ لعمرى له فى السمع ترديدُ
ليلى تَردّدُ فى سمعى وفى خلدى كما تَردّدُ فى الأيك الأغاريدُ
هل المنادون أهلوها وإخوتُها أم المنادون عشاقٌ معاميدُ

إن يَشرَكونى َفى ليلى فلارجَعت ْ جبالُ نجدٍ لهم صوتا ولا البيدُ
أغيرَ ليلاى نادوْا أم بها هتفوا فداء ليلى الليالى الخرَّدُ الغيدُ
إذاسمعت اسمَ ليلى ثُبت من خبَلي وثابَ ما صرّعتْ منى العناقيدُ
كسا النداء اسمُها حسنا وحبَّبه حتى كأن اسمَها البشرى أو العيد
ليلى ! لعلىَ مجنونٌ يُخيَّلُ لى ؟ لا الحىُّ نادوْا على ليلى ولا نُودوا

« ابن عوف »

لا تكتئبْ وتعالَ يا قيسُ استرحْ
مما تكابد في الهوى وتلاقى

« قيس »

هل أنت آسٍ يا أميرُ جراحتى
أم أنت من سحر الصبابة راقِ؟

« ابن عوف »

بل من رُواتكَ قيسُ من زمنٍ مضى
لم أخلُ قيسُ عليك من إشفاق

« قيس »

قل للخليفة يابنَ عوفٍ فى غدٍ منذا أباح له دمَ العشاق ؟
هدرتْ حكومتهُ دمى فتحرّشتْ بدمٍ على سيف الجفُون مُراق

« ابن عوف »

أرَضيتنى عند الخليفةِ شافعا ؟ يا قيس

« قيس : فى أنفة »

لا والواحدِ الخلاق

بل عند ليلى فامض فاشفعْ لى لدى
ليـــلى وناشِدْ قلبَها أشواقى
جِئْها فذكِّرْها العهودَ وحِفظَها
واذكرْ لها عهدى، وصِفْ ميثاقى
لَيلى إذا هى أقبلتْ حَقَنتْ دمى
كرما وفكَّتْ يا أميرُ وَثاقى

« ابن عوف »

الآنَ قيسُ اذهبْ فبدّلْ حلَّةً
وترَدَّ غيرَ ثيابِكَ الأخـــلاق
فالصبحَ تدخلُ حىَّ ليلى قيسُ فى
ركْـــبى وبين بطـانَتى ورفاقى

« قيس : الى زياد »

أسمعتَ ما قال الأميرُ ؟ زيادُ ، طِرْ
نحو الحمى بجَنـاحى المشتــاق
إذهبْ وسلْ أمى أعزَّ ملابسى
مِن كل شـامىٍّ وكلِّ عراقى
واذكرْ لها فضلَ الأمير ، ولم تزَلْ
نِعَم الأمـير قلائدَ الأعنــاق

« يسير زياد نحو الحي بينما يتمسح قيس بابن عوف كالطفل »

سكرا لصُنعِكَ يا أميرُ ودُمتَ مَقصودَ الرحابْ

عجّلْ أمير

« ابن عوف ضاحكا »

بل انتظرْ أنسيتَ ياقيسُ الثيابْ ؟

« قيس »

مَنْ مُبلغٌ أمي الحزينةَ أن عقلي اليومَ ثابْ ؟

ومَن البشيرُ اليكِ ياليلى بقيسٍ في الركابْ ؟

اليومَ أهلا بالحيَاة ومرحباً بكَ ياشبابْ !

ســتــار

الفصل الثالث

« قطعة من الصحراء تبدو فى يسارها طائفة من مضارب بنى عامر ممتدة الى ما وراء » « اليسار على سفح جبل التوباد ــ خباء مضروب الى يمين هذه الطائفة من المضارب » « كأنه نهاية خيام الحى ــ على اليمين أشجار بان يقف فى ظلها ابن عوف » « وحاشيته وقيس وزياد »

« ابن عوف »

تراءى الحىُّ للركْبِ   وأشرفْنا على الشِّعبِ
أفِقْ قيسُ أما فى رؤ   ية الخيْمات ما يُصبى ؟
ألا تهتفُ بالشكوى   الى ليلى وبالعتْب

« قيس »

ديارَ الحى من ليلى   سلامٌ من شَجٍ صَبٍّ
على الحى على الدار   على ليلى على الحب
غدا الركبُ على طيبٍ   كريح المندَل الرَّطب
فيا ليلى عسى اليوم   أبلُّ الشوقَ بالقرب
عسى الخطْبةُ لا تنزلُ   فى ناديكِ كالخطب

عساهم لا يقولون فتى مشترَكُ اللب
ولا يذهبُ إحسانى ولا يبقى سوى ذنبى
يقولون بها غنّي لقد غنّيتُ من كربى
سلى تُربَكِ كم مرّغت خــدّى على التُّرب
وكم جُـدتُ علَى الرمل ولم أبخَلْ على العشب
بدمعٍ مثل دمع الثُّـكلِ مغروفٍ من القلب

« يتطلع ابن عوف الى ناحية الحى »

« ابن عوف »

قيسُ انتبهْ قيس

« قيس »

مَن المنادى ؟

« ابن عوف »

الحيُّ فى السلاح سدَّ الوادى
وأنت قيسُ بعد حينٍ غاد على خصوم لُـدُدٍ شِـداد
فالقَ الرجالَ صاحىَ الفؤاد لا تَلْقَهم مُضيّعَ الرشـاد

« قيس : متطلعا كذلك »

أتُبصِرُ يابنَ عوفٍ حىَّ ليلى تَدجّج فى السلاح ولا تراها ؟
فما لى لا أُحقّقُ غيرَ ليـلى و إن كثُر السوادُ لدى حماها
لقد ألقىَ هوى ليـلى حجابا على عينى فلستُ أرى سواها
و بغّضتِ النصيحَ إلىّ ليلى وسـدّ مسامعى عنه هواها

« يسمع من بعيد ومن ناحية الحى لجب وقعقعة »
« سلاح ويقترب الصوت ويتعالى شيئا فشيئا »

أرى حىّ ليلى فى السلاح ولا أرى   سلاحا كهجر العامرية ماضيا
دمى اليومَ مهدورٌ لليلى وأهلها   فداء لليلى مُهدَراتٌ دمائيا
لىَ اللهُ ! ماذا منك يا ليل طاف بى   وما ذلك الساقى وما ذا سقانيا ؟
دعونى وما عِندى لليلى أقولهُ   لليلى وأستنشي الذى عندها ليا
أهيمُ فأستعدى نهارى على الجوى   وأقبعُ ليلى أستجيرُ القوافيا
(فما أُشرفُ الأيفَاعَ الاصبابةً   ولا أُنشدُ الأشعارَ الا تداويا)
إذا الناسُ شطرَ البيت ولّوا وجوههم تلمستُ ركنىْ بيتها فى صلاتيا
(أُصلّى فما أدرى إذا ما ذكرتُها   أثِنْتَين صلّيتُ الضُحى أم ثمانيا)
توارتْ وراء الجَمْع ليلى فخانها   فمٌ كابتسام الصبح يأبى التواريا
وطِيبٌ به خُصّتْ حوى الطيبَ كلّه   فــهبه الأقاحى أو فهبه الفواغيا
فأحسستُ من فرعى لساقىّ هزّةً   كأن عياناً منكِ لاقى عيانيا
دعونا وما يبقى إذا ما فنيتمو   فواللهِ ما شىءٌ خلا الحبَّ باقيا
مشى الحبُّ فى ليلى وفىّ من الصِّبا   ودبّ الهوى فى شاء ليلى وشائيا
وإنى وليلى للأواخر فى غدٍ   لشُغُلٌ كما كنا شغلنا الأواليا

« يبدو على وجهه الاصفرار والجهد ثم يترنح فيتلقاه »
« زياد ــ تسمع أصوات الحى من قريب »

« ابن عوف »

زيادُ أدركْه أدركْ   إنى أرى الداء عادَهْ
لقــد تضاءل قيسٌ   واصفرّ مثلَ الجراده !

وليس قيسٌ بمُلقٍ   إلا إليك قِياده
الآن أسعى لقيسٍ   سعيا أخافُ فسادَه
فمِلْ بنا وبقيسٍ   حتى يُصيبَ رشادَه

« يحملون قيسا ويختفون به وراء شجر »
« البان ، وتظهر طلائع الحي من اليسار وعلى »
« رأسها المهدي ومازل ، وكلهم شاكي السلاح »

« المهدي »

يا قومُ إن البغيَ شرٌّ مركَبُهْ   والخيرُ في جانب من يُجَنَّبُهْ
هذا ابنُ عوفٍ قد أطلَّ موكبُه   وإن قيساً في الرَّكاب يصحَبُه
جاء يرومُ صِهرَكم ويَخْطُبُه   وقد علِمتمْ كيف ساء مذهبُه
وكيف طال بابنتي تشبُّبُه

« صوت »

كِلْه الى سيوفنا تؤدِّبُهْ   لقد وجدناه وكنا نَرقُبُهُ

« المهدي »

لا ، دمُ قيسٍ دمُنا لا نقرَبُهُ   يكفيه منا أننا نُخَيِّبُهُ
ونَصرِفُ الأميرَ عما يطلبُهُ

« صوت آخر »

شيخَ الحي لاتضعُفِ   ولا تردَّدْ وقف
ذُدْ عن عقيلة الحي   وامنعْ حياضَ الشرَفِ
لاتُصغِ للشافع في   قيس ولا المستعطِفِ
ليس ابنُ عوفٍ في الذي   سعى له بالمنصِف

أبا لأمير بعد ما أجار قيسا تحتفى؟
لا تخشَ بأسه ومن رجاله لاتخف
نحن كعثمانَ وليلى بيننا كالمُصحَف

« يظهر ابن عوف وحاشيته من »
« وراء الشجر ومعهم زياد »

« ابن عوف »

عِمْ أبا ليلى صباحاً

« المهدى »

عِمْ صباحاً يابنَ عَوْف

« ابن عوف »

قل لهم يُلقُوا السلاحا ليس ذا مَوْطِنَ خوف

« صوت من الحى »

يابنَ عوفٍ ياأميرْ ليس ذا شأنَ الوُلاةِ
كيف تَحمى وتُجيرْ مُستبيحَ الحُرُماتِ؟

« ابن عوف »

عامِرُ يا أجاوِدَ البطاحِ وأسمَحَ الناس بُطونَ راحِ
مالى وللسيوف والرماحِ؟ ضيفٌ أنا وما من السّماحِ
رَدكَ وجهَ الضيف بالسلاحِ ماجئتُكم ياقومُ للكفاحِ
بل جئتُ للتوفيق والإصلاحِ

« تحدث ضجة فى جانب الحى وتصايح وتهامس »
« ثم يلقى كثير منهم السلاح ويغمد السيوف »

« صوت من الحى »

يا أبا ليلى بليلى جُدْ لقيسٍ بالحياةِ
إنه شاعرُ نجدٍ ونَجِيُّ الظَّبيَاتِ

« صوت آخر »

قيسٌ أخٌ وابنُ عمٍّ وليس أهلا لذَمٍّ
نجمٌ أضاء بنجد سما على كل نجم
هبوه جُنّ بليلى ليس الغرامُ بجُرم

« منازل : حيث يستقبل الجمين خطيبا »

إن قيساً معشرَ الحى أخٌ وابنُ عمٍ أفمنه تبرأونْ ؟

« أصوات »

لا ورَبِّ البيت

« منازل »

أصغوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
إن قيساً شاعرُ البيد الذى لا يُجارَى أفأنتم منُكِرونْ ؟

« أصوات »

لا وربِّ البيت

« منازل »

أصغوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
إن قيساً سيّدٌ من عامرٍ وابنُ سادات ، أفيه تمترون ؟

« أصوات »

لا وربِّ البيت

« منازل »

أصغوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
إن قيساً قد بنى المجدَ لكم ولمجدٍ أبقيسٍ تكفرون ؟

« أصوات »

لا وربِّ البيت

« منازل »

أصغُوا لى إذن ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
إن قيسا كاملٌ فى عقله أو آنستم على قيسَ الجنون ؟

« أصوات »

لا وربِّ البيت

« منازل »

أصغُوا لى إذن ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنون
أنا لم أعدِلْ بقيسٍ شاعرا لا ولا أنتم بقيسٍ تعدِلون

« أصوات »

لاوربِّ البيت

« منازل »

أصغُوا لى إذن ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنون
أنا فى وُدى وإعجابى به لايدانينى الرواةُ المعجبون
شعرُه يبنى ويفنى غيرُه ليس كلُّ الشعر ترويه القرون
شعرُ قيس عبقرىٌّ خالدٌ ليته لم يتخللْه المجون

ولو ان المتجـــني شاعرٌ غيرُ قيسٍ أوشك الخطب يهون
رُبَّ شعرٍ قال فى ليلى ، به هتف البدْوُ وضجَّ الحاضرون
إننى أخشى عليكم عارَه رُبَّ عارٍ لبس تمحوه السِّنونْ
ضجرتْ ليلى وضجّت أمُّها وأبوها وتأذّى الأقربون
وغَدا كلُّ فتى من عامرٍ حين يلقى النّاس ، مَحنِىَّ الجبين

« أصوات كثيرة »

هو ماقلت

« منازل »

إذن ما بالُكم لم تثوروا ، مالكم لا تغضبون ؟
هو ذا قيسٌ مع الوالى أتى يطأُ الحىَّ وأنتم تنظرون
وأبو ليلى امرُؤٌ أدرِى له رِقّةَ القلب وأخْشى أن يلين
بعدَ حينٍ يعبَثُ القومُ بكم ومن الحىّ بليلى يخرجون
آن يا قومُ لكم أن تعلموا أن قيساً هتك الخدرَ المصون
قيسُ لم يترك لليلى حُرمةً ما الذى أنتم بقيسٍ فاعلون ؟

« صوت »

ما جنٌ لابدّ من تأديبه

« صوت آخر »

إن بالسَّوْط يُرَبىَّ الماجنون

« صوت »

نأخـــذُ الحىَّ عليه

« آخر »

ولنقفْ دون ليـلى وحماها كالحصون

« منازل »

حلّل السلطان بالأمس لكم دمَ قيسٍ ما الذى تنتظرون ؟

« صوت »

حلّل السلطان بالأمس لنا دمَه

« أصوات أخرى »

إنا بقيسٍ فاتكون

« ضجيج واندفاع »

« صوت »

مُنازِ يابنَ العم ما هذا الخبرْ ؟ رفعتَ قيساً فجعلتَه القمرْ
والآن أغريتَ بقتله الزُّمَرْ كفعل جزار اليهود بالبقر
برَّأها من العيوب وعقَرْ !

« يصعد بشر منبرا للخطابة فيجتمع حوله جماعة من الناس »

« قائل »

إرجعوا يا قومُ هذا منبرٌ

وخطيب

« يسأل أحدهم »

ليت شعرى من يكونْ ؟

« آخر »

أو أعمى أنت هذا بشرُ

« آخر »

هل يحسن الخُطبة بشرٌ ويُبين

« يحاول منازل أن ينسل من الجماهير »

« بشر »

قف منازِ اسمعْ سمعتَ الرعدمن جانبيْ صاعقةٍ فيها المَنون
وسمعتَ الذئب فى جوْز الفَلا وسمعتَ الليثَ فى جوف العرين
أخطيبٌ أنت أم خطبٌ وإن لم تَهُن والخطبُ أحيانا يَهُون

« منازل صائحا »

بشر . . .

« بشر »

قف !

« منازل »

مالك يا بشرُ ولى ؟
إن حربَ الأهل والصحب جُنون

« بشر »

لِمْ إذن حاربتَ قيساً لم تصن
حرمةَ ابن العم أو حقَّ الخدَين؟

« منازل »

قلتُ بشرُ الحق

« بشر »

خلِّ الحق ما

أنت والله على الحق أمين

إنما أنت لقيسٍ حاسدٌ منطوى الصدر على الحقد المَهين
كلما حدّثتَ عنه عامراً قرأتْ فى وجهك الداء الدفين
ترسِلُ الزفرةَ تتلو أختَها وتَقُشُّ الصدرَ من حين لحين
يا منازِ يا بن عمّى أصغ لى أنت دونٌ أنت دون أنت دون !

« منازل »

دعونى

« بشر من المنبر »

دعونى فلا بدَّ لى

« رجل »

أتاتك

« بشر »

لا بد أن أقتـلَهْ

« منازل »

دعونى

« بشر »

دعونى

« رجل »

دعوه اتركوه

« آخر »

ومن كتَّفَ النذلَ أو كبّله :

« منازل »

دعونى

« رجل »

دعوه

« آخر »

كلا البطلين

يقولُ الوعيدَ ولن يفعله

« بشر »

دعونى

« رجل »

تقدَّمْ

« منازل »

دعونى

« رجل »

انطلق

« بشر »

دعونىَ

« رجل »

جِئْه

« منازل »

دعونى

« رجل »

امش لهْ

« آخر »

تنحَّوْا وخلُّوا سبيليْهما ولا تخشوْا الوقعة المقبلهْ

« بشر »

منازلُ فى عقـــله كاملهْ

« منازل »

وعقلك يا بشرُ ما أكملهْ

بشر

أننزو على الحىّ نَزْوَ الديوك ونقفزُ كالأكبُش المرسلهْ
وتَفلَقُ رأسى كرُمانة وأفلقُ رأسك كالحنظلهْ
فماذا يردُّ عليك العويلُ وماذا انتفاعىَ بالولولهْ ؟

« زياد »

منازلُ كنتَ كثيرَ الكلام ، ووالله ماقلتَ الا الكذبْ

« صوت »

أتزعمُه كاذباً يا زيادُ ، وقد ذاد عن حُرمات العربْ ؟

« زياد »

رويدَكَ لا تنخدِع يا فتى ولا تأخذ الأمرَ دونَ السببْ
فلم يبغِ الا خداعَ الجموع وجلْبَ الظنون وخلْقَ الرِّيبْ
وأثَّرَ فيكم وفي آخرين وأفرغ فيكم سُمومَ الرِّيَبْ

« صوت »

منازلُ دافعَ عن سُنَّةٍ مُعظَّمةٍ من قديم الحِقب

« زياد »

تأمل منازلُ سُخْطَ الجموع وجهلَكَ ماذا عليهم جلَبْ !
أجل قد غضبتَ ولكنما لنفسك ليس لليلى الغضب
تحضُّ على قَتل قيسَ الرجالَ لتحظى بليلى إذا ماذهب

« أصوات »

يُريدُ ليحظى بليلى ؟

« زياد »

نعم !

« صوت »

تكلمْ

« صوت آخر »

أينْ

« ثالث »

إن هذا عجب ! .

« زياد »

ساوه ألمْ يكُ يغشَى النَّدِيَّ ويطلبُ ليلى أشدَّ الطلب ؟

« صوت يخاطب المهدى »

إذن كان يخطبُ ليلى ؟

« المهدى »

نعم !

« صوت »

إذن قد تجنّى

« صوت آخر »

إذن قد كذَب !

« زياد »

منازلُ قل لهمو كم ضرعـــت لليلى وكم أعرضتْ لم تُجِبْ

« صوت »

منـازلُ اخدعْ وغُشَّ غيرى

« آخر »

قد جازَ الا علىّ كِذْبُكْ !

« ثالث »

ما أنتَ إلا جـوٍ شـقيٌّ تحبُّ ليـلى ولا تُحِبُّكْ !

« تحدث ضجة حول منازل ويقف ثلاثة رجال »
« فى ركن قصى من أركان المسرح يتحدثون »

« الأول »

قد اختلف الحيُّ في أمر قيسٍ
وليلى فكلٌّ له مذهبُ
وأنت الى أيِّ رأيي تميلُ
وأيَّ الفريقين تستصْوِبُ

« الثانى »

إذا صدقت نظرتى فى الأمور ولى نظرةٌ قلما تكذبُ
منازلُ غادٍ على خيبةٍ وقيسُ على فضله أخْيب
وقد يُخفقان ويلقى النجاحَ غريبٌ له فيكمو مأرب

« الأول »

غريب ؟

« الثانى »

أجل من نواحى ثقيف

« الأول »

ومن ذاك ؟

« الثانى »

وردُ

« الأول »

وما يطلب ؟

« الثالث »

رأيناه فى الحى يمشى الحياء وقيل أتى عامرا يخطُب

« الأول »

وليلى ابنةُ الشيخ مارأيُها أما من حسابٍ لها يُحسب ؟

« الثانى »

أراها وإن لم تَخطَّ الشبابَ عجوزاً على الرأى لا تُغلَب
تصونُ القديمَ وترعى الرميمَ وتُعطى التقاليدَ ماتوجب
وبالجاهلية إعجابُها إذا قل بالسلف المعجَبُ
ومن سُنَّة البيد نقضُ الأكفِّ من العاشقين اذا شبّبوا
فلا تعجبوا إن جرى حادثٌ يُحدث عنه ويُستغرب
وإن رضِيَتْ وردَ بعلا لها وقيسُ الأحبُّ لها الأقرب
فينا طالما التمست مهربا وأرضُ ثقيفٍ هى المهرب

« منازل »

بنى عامرٍ لا تُضيعوا الحُلومَ فإن الأناة بكم أجملُ
هبوا لىَ آذانكم إننى أجِدُّ وصاحبُكم يَهزِلُ
خطبتُ وأخطبُ ليلى غدا وما لىَ يا قومُ لا أفعلُ
وقد تُعرِضُ اليومَ ليلى فلا أضيقُ ، عسى فى غدٍ تُقبِلُ
فما قيسُ أجدرُ منى بها ولا هو خيرٌ ولا أفضل

« زياد »

إليك منازلُ ! لا تتّزِنْ بقيسٍ قد اختلف المنزلُ !
ولا يستوى الشاعرُ العبقرىُّ ومن هو من باقلٍ أبقل

« منازل »

وما أنت ؟ بيِّنْ لنا يازياد

« زياد ـــ ممسكا بذراع منازل »

ستعلم مني ما تجهـل

هلُمَّ مُنازِ ، هلمَّ الصراعْ ! وودِّعْ ضلوعَك وانْعَ الذراعْ

« منازل »

خلِّ زيادُ خلِّ عن ذراعى

« زياد »

سألتَ ما أنت ؟ فأصغِ ، راعِ

إنى أنا ممزِّقُ الأضلاع !

« ثم يجره من ذراعه ويمضى به الى خارج المسرح »

« صوت »

ما ذا يكون يا ترى ؟

« آخر »

هيُّوا نرى هيوا نرى

« آخر وهم يتدافعون »

زيادُ غـــيرُ هازلِ

« آخر »

نوحوا على منازلِ

« آخر »

حمـــامةٌ وبازى !

« آخر »

هلـكتَ يامناز !

« آخر من بعيد »

إهرب من البراز

« يخلو المسرح الآن إلا من المهدى وابن عوف »
« ونصيب ثم نسمع صرخة من وراء الشجر »

« مهدى »

ما بقيسٍ يابنَ عوف ؟

« ابن عوف »

إنه مغمًى عليـــــه

« مهدى »

قيسُ لا بأسَ عليك كبِّروا فى أُذْنيْه

« صوت من وراء الشجر »

الله أكبر الله أكبر

« ابن عوف لنفسه »

سُدًى كبِّروا ما أُذْنُ قيسٍ مفيقةٌ وإن كبروا فيها أذانَ بلال
ولكن على ليلى يُفيقُ وشبهها إذا ما بدتْ ليلى بشكلِ غزال
ويصحو على ليلى إذا ردِّدَ اسمُها وراء بُيوتٍ أو وراء رِحال

« المهدى »

دَمُ الوُدِّ والقُربَى وإن كان ظالما عزيزٌ علينا أن نراه يسيل

وإنى لإنسانٌ وإنى لوالدٌ ولى مذهبٌ فى الوالدين جميل
فرفقا بقيس يا أميرُ ونَحِّه بعيدا لعل الشرَّ عنه يزولُ

« ابن عوف »

أناةً أبا ليلى وحِلما ولا يَكنْ عليك لطغيان الظنون سبيل
رددتم ركابى واتهمتم زيارتى وأجلبَ فِتيانٌ وضجّ كهول
تأملْ تجدْ جمْعا مَغيظا وكثرةً تصولُ وماندرى علامَ تصول !
رءوسٌ تنزَّى الشرُّ فيها وراءها نفوسُ ذئابٍ مالهن عقول
تَطَلَّبُ أن يُلقى اليها بجُثّةٍ على غير جوع أو يُساقَ قتيل
نواظرُ ماياتى به اليومُ من دمٍ وإن لم يُساورْها صدًى وغليل
نزلتُ فلم أُكرَمْ فهل أنت مُتبعى وقومُك نارَ الطَّرد حين أميل؟
أبيتُم علىّ القولَ قبل استماعه فلم تُنصفوا والمنصفون قليل
فهل لى أبا ليلى بناديكَ وقفةٌ فإن الذى قد جئتُ فيه جليل
وما أنا مَرْءُ السوءِ أورجُلُ الأذى ولكنْ سفيرٌ خيِّرٌ ورسول
ولم أتخذْ جاهَ الأمور ذريعةً ألا إنما جاهُ الأمور يزول

« المهدى »

بقيتم بخير يا وُلاةَ أميةٍ ولا زال يقوى ركنُكم ويطول

«مشيرا الى باب الخباء»

هنا مجلسٌ نأوى اليه لعلنى أقولُ صوابا أو عساك تقول
وثَمّ ترى ليلى وتسمعُ قولَها وليلى لها رأىٌ يُساقُ جميل

فسلْها عسى أن نهتدي ما جوابُها إباءٌ وردٌّ أو رضى وقبول

« يهم ابن عوف بخلع نعليه »

« المهدي »

أتخلعُ نعليك لا يابن عوف نَشَدَتُك بالله لا تفعلِ

أتمشي الى منزلي حافيا فديتُك، من أنا؟ ما منزلي؟

« ابن عوف »

خلعتُهما وانتعلْتُ الترابَ الى خيْمة السيّدِ المفضلِ

« نصيب : متدخلا »

دعْه يامهديُّ يفعل إنما يَرمِي لمعنى

كالحسيْنِ بنِ عليٍّ هو بالعشاقِ يُعنَى

الحسينُ انتعل التربَ الى والد لُبنَى

فرآه حافيا في ساحة الدار فجُنَّا

قال لا أملِك يابنَ المصطفى بنتًا ولا ابنا

أنت في الدار أميرٌ فبما شئتَ فمُرنا

« لنفسه »

يادهر دُرْ بما تشا ويا حوادثُ اهزلي !

ويا وظيفةُ اعزُبي ويا جرايةُ ارحلي

يبغي ابنُ عوفٍ أن يكو نَ كالحسيْنِ بنِ علي !

« يدخلان وينادي المهدي : »

هو الضيفُ ياليلَ هاتي الرُّطبْ وهاتي الشِّواءَ وهاتي الحَلَبْ

وهاتى من الشهد ما يُشتَهى ومن سَمنَة الحىّ ما يُطَّلَبْ
فما هو ضيفٌ كَكلّ الضيو ف ولكن أميرٌ كريمُ الحَسَبْ

« ليلى من وراء حجاب »

أبى ألفَ لبّيْك !

« ابن عوف »

لا بل قفى فما بى ظَماء ولا بى سغَبْ
وأعلَمُ أن القِرى دِينُكم وأن أباكِ جــوادُ العربْ
ولـكن طعامىَ

« المهدى »

ماذا ؟ اقتَرِحْ

« ابن عوف »

طعامُ الرســول بلوغُ الأرَبْ

« المهدى »

إذن قفى ليـلى اقرُبى

« تظهر ليلى من وراء الستر »

تقـــدّمى ورحِّبى

حــلّ ابنُ عوفٍ دارَنا

« ليـلى »

أكرمْ بـه وأحببِ !
قــد زارنا الغيثُ فأهـــلاً بالغــمام الصيِّبِ

« ابن عوف »

أهــلاً بليلى بالجمالِ بالحِجــى بالأدبِ
عشتِ وقيساً فلقــد نوّهتما بالعــرب

« ليلى – بين الخجل والغضب »

أتقْرِنُ قيساً بنا يا أميرُ ؟

« ابن عوف »

ولِمْ لا وقد جئتُ من أجْلِهِ
ومَنْ أنا حتى أضُمَّ القلوبَ وأعطفَ شكلاً على شكلِهِ
لقدْ جمعَ الحبُّ رُوحيْكما وما زالَ يجمعُ فى حبلِهِ

« ليلى : فى استحياء »

أجلْ يا أميرُ عرَفتُ الهوى

« ابن عوف »

فهلاّ عطَفْتِ على أهله ؟

« يلتفت الى المهدى »

أبا العامريّةِ قلبُ الفتاةِ يقول وينطِقُ عن نُبْله
فأصغِ له وترفّقْ به ولا يسْعَ ظُلمُك فى قتله

« المهدى »

أأظلم ليلى ؟ معاذَ الحنان ! متى جار شيخٌ على طفله ؟
هو الحُكْمُ ياليلَ ماتحكمين خُذى فى الخطاب وفى فصله

« ليلى »

أقيساً تريد ؟

« ابن عوف »

نعم

« ليلى »

إنه مُنَى القلب أو مُنتهَى شُغله

ولكن أترضى حجابى يذالُ وتمشى الظنونُ على سِدْله

ويمشى أبى فيَغضُّ الجبينَ وينظرُ فى الأرض من ذلّه

يدارى لأجلى فضولَ الشيوخ ويقتلُنى الغمُّ من أجله

يمينا لقيتُ الأمرَّيْنِ من حماقة قيسٍ ومن جهله

فُضحتُ به فى شِعابِ الحجازِ وفى حَزْنِ نجدٍ وفى سهله

فخُذْ قيسُ ياسيدى فى حماك

« فى حياء وإباء »

وألْقِ الأمانَ على رَحْلِهِ

ولا يَفتكِرْ ساعةً بالزواج ولو كان مَرْوانُ من رُسْلِهِ

« ابن عوف »

إذن لن تقبلى قيساً ولن تَرضَيْ به بعلا

إذن أخفق مسعاىَ وخاب القصدُ ياليلى

« ليلى »

على أنك مشكورٌ ولا أنسى لك الفضلا

وأوصيكَ بقيسَ الخيرَ لا زلتَ له أهلا
لقد يُعوِزُه حامٍ فكنْه أيها المولى

« تلتفت الى أبيها وكأنما تحاول »
« أن تحبس فى عينها دموعا »

أبى كان وردٌ ههنا منذ ساعةٍ ففيم أتى ؟ ما يبتغى ؟

« المهدى »

جاء يخطُبُ

« ابن عوف »

ومن وردُ ياليلى وهل تعرفينه ؟

« ليلى »

فتى من ثقيفٍ خالصُ القلبِ طيِّبُ
أتى خاطباً بعد افتضاحى بغيره وعارى، أهذا يابن عوفٍ يُخيَّبُ ؟
أبى : أين وردُ الآن ؟

« المهدى »

عند قرابةٍ من الحىِّ تمّوه اليهم ورحّبوا
فإن شئتِ أرسلنا اليه

« ليلى »

ابعثْ ادْعُهُ وجئْنا بقاضى نجدٍ اليوم يكتب

« ابن عوف »

تجاوزتِ ليلى غاية السُّخْط فاذكرى عواقب رأىٍ قد رأيتِ سخيفِ

« ليلى : متهكمة »

أكنتُ ابنَ عوفٍ غيرَ أنثى ضعيفةٍ

تناهتْ لرأى فى الأمور ضعيف

« ابن عوف »

أرى وقفتى يا ليلَ كانت شريفةً ولكنْ جزائى كان غيرَ شريفِ

« ليلى »

أنظِّفُ ثوبى يا أميرُ فطالما ظهرتُ به فى الحىّ غيرَ نظيف

« ابن عوف »

لئن كنتِ يا ليلى بوردٍ قريرةً فإنى على قيسٍ لجِدُّ أسيف

« ثم يخاطب أباها »

ألان بحفظ الله ياسيد الحى

لقد طال لُبثى عندكم ووقوفى

ووُفّقت يا ليلى

« ليلى »

لقد كنتَ سيدى حليفاً لقيسٍ، هل تكونُ حليفى!

« ابن عوف »

سألتِ مُحالاً إنما جئتُ خاطباً لورد القوافى لا لورد ثَقيف !

« يخرج من باب الخباء ويشيعه »
« المهدى إلى ماوراء شجر البان »

« ليلى »

ربّاهُ ماذا قلتُ ! ماذا كان من شأن الأمير الأرْيَحِيِّ وشانى ؟
فى موقفٍ كان ابنُ عوفٍ مُحسناً فيه وكنت قليلةَ الاحسان
فزعمتُ قيساً نالنى بمَساءةٍ ورمى حجابى أو أذال صيانى
والنفسُ تعلَمُ أن قيساً قد بنى مجدى وقيسٌ للمكارم بان
لولا قصائده التى نوّهن بى فى البيد ما علِمَ الزمان مكانى
نجدٌ غداً يُطوَى و يفنَى أهله وقصيد قيسٍ فىّ ليس بفان
مالى غضِبْتُ فضاع أمرى من يدى والأمرُ يخرجُ من يد الغضبان
قالوا انظرى ماتحكمين فليتنى أبصرتُ رشدى أوملكتُ عنانى
مازلتُ أهذِى بالوساوس ساعةً حتى قتلت اثنين بالهذيان
وكأننى مأمورةٌ وكأنما قد كان شيطانٌ يقودُ لسانى
قدّرتُ أشياء وقدّر غيرها حظٌّ يخُطُّ مصايرَ الانسان

ستار

الفصل الرابع

المنظر الأول

« حول ديار بنى ثقيف ، فى قرية من قرى الجن ، حيث اجتمعت طائفة منهم »
« للحفاوة بقيس وهو يهيم على وجهه ضالا فى الفلوات ، وبينهم شاب منهم »
« فى شكل إنسى جميل الثياب يتردى الحرير من فرعه إلى قدمه ، وعلى رأسه »
« عقالان من الحرير المحلى بالذهب، هو الأموى شيطان قيس ـ الجميع ينشدون »
« ويرقصون »

« نشيد الجن »

هذا الأصيلُ كالذَّهبْ يسيلُ بالمرأى العجبْ
على الوهادِ والكُثُبْ

الرقصُ يبعثُ الطربْ هلمَّ يا جنَّ العربْ
هلمَّ رقصةَ اللَّهَبْ إذا مشىَ على الحطبْ
نحن بنو جَهَنَّما نغلى كما تغلى دَمَا
نثور فى الأرضِ كما ثارَ أبونا فى السما
نحن بنو الجبارِ العلَمِ النارِ

إبليسَ بِكرِ النار يا عزَّ من لهُ انتمى
نحن الرُّعـودُ القاصفهْ نحن الرياحُ العـاصِفه
والظلمـاتُ الزاحـفَه عرمرَماً عرمرَما
لنـا وما لنا صُـوَرْ نرى ونسمعُ البشر
ولا يرَوْنَ من حضَرَ منا ومن تـكلما
نقول حينَ نصطدمْ بسـادةٍ أو بِخَدَم
صمم صمم صمم صمم عمىً عمىً عمىً عمَى

« هبيد »

فيمَ اجتمعْنا ههَنا ؟ يا عضرَفُوتُ ما الخبر ؟

« عضرفوت »

لا أدْرِ ... تلك ضجةٌ حضرتُها فيمن حضَرْ
فسل أخاك عَسَراً

« هبيد »

ماذا هناك يا عسَرْ ؟

« عسر »

نحن مسوقونَ الى ما ليسَ ندرِى كالبقرْ

« الأموى »

بنى الجنِّ فى أرضِكم عابرٌ من الإنسِ يرسُفُ فى ضُرِّهِ
فـالوا بهِ واعلموا أنه فتىً نبَّه الشعْرُ من قدرِه

« هبيد »

وأينَ تُرَى هــــو ؟

« آخر »

ماذا يكون

« الأموى »

وماذا يهمُّك من أمره

ألم تعلموا أن لى صاحبا من الإنس أحكُمُ فى شعرِه

« هبيد »

أجل أنت تُوحِى له ما يقولُ وتقذفُ ما شئت فى فـكرِه

« الأموى »

إذن فاعلموا أنه عاشــــق تمَلأَّت البيدُ من ذكره

« عاصف »

وأعلم أن الهوى واحـــد حوى المستهامين فى أسْره
وأن التى ســـحرت قلبهَ مدلّهةُ القلبِ من سحره

« الأموى »

وانى لأكفُلُ ليـــلى له وأصرِفُها عن هـوى غـيرِه
سَهِرْتُ على طُهر ليلى الزمانَ ولم أغمِض العينَ عن طُهرِه
صرَفتُ عن الحب حتى الزواجَ وما قدَّسَ اللهُ من سرِه
ولو أنَّ عينى تَشقُّ القبُورَ سهِرْت على الحبِّ فى قبره !

« عضرفوت »

ومن يكون

« الأموى »

قيس

« عضرفوت »

من قيس

« عاصف »

وهـــل يخفى القمرْ !

الشاعرُ الذى سحر والساحر الذى شَعَر

حَنْجَرةٌ لنــا وترْ منهــا وللإنس وتر

« هبيد »

وما لنــا يا عضرفوتُ ولِفتيــان البشرْ ؟

وما لقِينــا منهمو ومن أبيهم غيرَ شر !

« عضرفوت »

بنى الجنِّ اسمعوا أبِكم زكامٌ

« جني »

ولِمْ ؟

« عضرفوت »

تنَتّنتْ لعمرِكمو الجواء

« آخرُ »

وما فى الجو ؟

« عضرفوت »

ريحٌ آدميٌّ

ففيه نَتانةٌ وله ذَكاء

إذا البشريُّ مرَّ عليّ يوماً فقَد مرّت على الخُنْفُساء

« جنى »

أجل بعداوة البَشَرِ ابتُلينا وطال بها التبرّمُ والعَناء

مضى بالكبر إبليسٌ أبونا وكلٌّ تراثِ آدمَ كبرياء

يَعيب رجالُهم فيقال عبنا وتَدْفِنُ عارَها فينا النساء

وان عَجزَ المطبب قال داءٌ من الجنّى ليس له دواء

وان قَفَزت صغارهمو فزلّت فمنا معشرَ الجنِّ البلاء

وخِفنا من أذاهم فاحتجبنا فما عصم الحجاب ولا الخفاء

وكم متعوذٍ بالله منا تعوذ الأرضُ منه والسماء !

« عضرفوت »

وقد نشكو من الناس التجنى وننسى ما جناه الأنبياء

« جنى »

أَرُسْلُ الله أيضاً من عِدانا ؟

« عضرفوت »

أجل هم فى عداوتنا سَواء

بنى فخماً سليمانُ وضخماً ولولا الجنُّ ما نهضَ البناء
بنينا تدمرَ الكبرى بأيدٍ فهلْ تدرونَ ما كان الجزاء ؟

« جي »

وما كان الجزاء ؟

« آخرون »

أينْ !

« عضرفوت »

عذابٌ

وسجن ما لمدّته انقضاء !

فتحتَ الماءِ

« جي »

تحتَ الماء ؟

« عضرفوت »

عانٍ

عليه طلاسم وعليه ماء !

وفي جوف القماقم لو علمتم

« آخرون »

وما ذا في القماقم ؟

« عضرفوت »

أبرياء !

« جنى »

ومن ذا زجّهم فيها ؟

« عضرفوت »

أميرٌ

علينا لا يُرَدُّ له قضاء

نبيٌّ فهو عدلٌ حيث يَقضِي

ومَلْكٌ فهو يفعلُ ما يشاء !

« عاصف »

قيس يا قومُ منكمو ليس قيسٌ من البشر

« جنى »

قيس منا وإنما في بني عامرٍ ظهر

« آخر »

إنني قد رأيتُه يتفلّى على الشجر

« ثالث »

وسمِعناهُ قد عوى عَوَّةَ الجنِّ واستتر

« رابع »

أنا أيضاً رأيته رَكِبَ الظبيَ في السفر

« عاصف ــ متطلعا »

تعالَوْا فانظروا

« يتطلع الجميع الى حيث ينظر »

« جني »

ماذا ؟

« آخر »

عجيبٌ

« عضرفوت »

نرى شبحاً يُدحرِجُه الفضاء

أقيسٌ ذا ؟

« عاصف »

نعم هــو فاستعدوا فقد وجب التحفزُ واللقاء

« هبيد لجني آخر »

تأمّلْ قيساً المُضنى تجدْه من الذَّوَبان أصبح كالخيالِ

« الآخر »

لقد ضلّ الطريقَ أما تراهُ يُصفّق باليمين وبالشّمال ؟
وقد قلَبَ الثيابَ عليه نَهْجاً على عاداتِهم عند الضلال

« يظهر قيس فيلتفون حوله وينشدون »

ســــلامٌ مَلِكَ الحبِّ وســلطانَ المُحبينــا
وأهــلا وعلى الرحبِ لقــد شُرِّفَ وادينــا

أتى الجنُّ من الوادى يُحيّونك بالورد
حدا ركبَهم الحادى الى ناديك من بُعْدِ

« يتلفت قيس ذات اليمين وذات الشمال »

رَب الى أين انتهت بىَ السُّرى وأىَّ وادٍ أنزلَتنى يا تُرى
عساىَ فى الشامِ لعلّى جزْتُه أو أنا بالطائف أو أين أنا ؟
وهذه المُسوخُ حولى جِنةٌ أم عملُ الوهمِ وتهويلُ الكرى
لا، أنا صاحٍ

« يتحسس جسمه »

هذه رِجلى وذى يدى وتلك مقلتى يقظَى ترَى
ولِمَ لا أُومِنُ بالجن وأنْ تكون للجنة كالناسِ قُرى؟
لا أدّعى معرفةً بعالَمٍ ظاهرُه أكثرُ منه ما اختفى

« يمسح جبينه ويعيد النظر والتطلع »

تلك منَ الجنّ لعَمرى شِرذِمَهْ وهذه خيلهمو المُسَوَّمَهْ
نعامة كالفرَس المُطهَّمَهْ وأرنبٌ مُسْرَجَةٌ ومُلجَمه
وقُنفُذٌ وظَبيةٌ وشَيْهمَه

ياعجباً كلَّ العجبْ ! الجنُّ منى عن كَثَبْ
سودٌ دقاقٌ فى العيونِ كالدُّخانِ فى الحطب
يخرجُ من أفواهها ومن عيونِها اللهب
من كل مَن جال بقرْنيه وصال بالذنَب

« الجان »

نَبِيَّ الحبِّ لا تَخش | أذًى أو شِرَّةً منـا
عَطفْتَ الطـيرَ والوحشَا | فلِمْ لا تَعطِفُ الجِنا ؟
وسَـلْ حسّان والأعشى | وشيطـــانَيْهِما عنا

« الأموى »

تركتُ ورائى الشامَ لم أنتفعْ به | ولا هو من شوقى القديم شفانى
وعدتُ الى نجدٍ أقاسى صبابتى | ووجدى كأنى مابَرِحتُ مكانى
تركتُكِ ليلى فانفجرتِ لياليا | مؤلفةَ الأشـكالِ جِدَّ حِسان

فلم يَخْلُ سيْرِى منك يوماً ولا السُرى
ولم يخلُ من تمثـالِكِ القمرانـ
على كل أرض من هواكِ سوارحٌ
مـلأنَ سبيلى أو مَلَكن عنانى

(وأجهشتُ للتوْباد حين رأيتهُ | وكبر للرحمنِ حين رآنى)
(وأذريْتُ دمعَ العينِ لماعرَفْتهُ | ونادى بأعلى صوتِهِ فدعانى)

« يدنو منه قيس ويتأمله »

« قيس : لنفسه »

يا ويحَ عينى ما ترى ؟ | وويحَ أذْنى ما تَعى !
وأين عقلى ؟ غاب عنى | اليـومَ أو عقلى معى ؟
الشـعر لى مُذ قلتهُ | من شفتى لم يُسمَع

من ذا الذى أوْحَى به لذا الغلام المُدَّعى ؟

« يقترب من الشاب ويأخذ فى انتقاده »

عقـــالان يمانيّان منْ وَشْيٍ وعِقيانِ
يُضيئان كلَمْحِ الشمــــس فى جلدة ثعبان
وأين الشَفَقُ الأحـــمَرُ من مطْرَفِكَ القانى ؟
وقــد تقرُب فى الروْ عةِ من أملاك غسّان
وقد تبلُغُ فى الشعــــر الى رقـــةِ حسّان
فما شأنك ياهـذا ؟

« الأموي »

وما يَعنيكَ مِن شــانى ؟

« قيس »

أرى سارقَ أشعارٍ جـريئاً ما له ثانِ
فقـد يُسطَى على بيتٍ وقـد يُسرَق بيتانْ
ولا يَنتحِل الإنسان أبيـــاتاً لإنسان
وما أنشَدْتَ من شعرٍ فمن صنعى وإحسانى
ولم أهتفْ به بعـدُ ولم تَسمَعْه أُذنان
فمَن أنت ومِن أين أتتْ أُذْنُك ألحانى ؟

« الأموى »

أنا الملقى عليك الشعـــرَ مِن آنٍ الى آن

أنا الهاجس والشيطان

« قيس »

لا ، لا ، لستَ شيْطانى

« ثم يناجى نفسه »

أجلْ سمِعتُ باسم شيــطانى ولـكن لم أرَه

أبى وأمى حــدثّا نى فى الليــالى خبرَه

« يعود الى خطاب الأموى مترددا »

ألستَ أنت الأمويّ ؟

« الأموى »

لا تخَفْ أن تذكرَه

« قيس »

ما أنت إلا صــورةٌ فى عصبى مُصوَّره

وعبثٌ لو كان عقــلى حاضرا لأنكره

« قيس — وهو ينكت الأرض بعود »

ويحى أقيسٌ واحد أم نحن قيسان هنا ؟

وأيُّنا الشاعر هــذا الأمويُّ أم أنا ؟

أم الذى بى وبه من عَبَثِ السحر بنا ؟

أم أنا مجنون علـــىّ حبٌّ ليـلى قد جنى

« الأموى »

قيس

« قيس »

لبيكَ قيس

« الأموى »

ما أنا قيس

« قيس »

من إذَن ؟

« الأموى »

قلتُ إنَّنِي شيطانُهْ

« قيس »

قيس من آدمٍ فما أنت منه

« الأموى »

أنا من قيس عامرٍ وجـدانُهْ

« قيس »

أنت وجدانىَ ؟ استعذتُ بربى منك

« الأموى »

لا تستعذ به جلَّ شانُهْ !

هكذا شاء : كلُّ شاعرِ قومٍ عبقرىٌّ اللسان نحن لسانه

« قيس مشيحاً بوجهه ومطرقاً »

يا عجَبا أصبحَ بالجـــنِّ لســـانِى يعمُرُ !

وصرتُ ينْهَى ماردٌ على فمِي ويأمرُ
ما للساني لا يطولُ ؟ ما له لا يقصرُ ؟
يا ليت شعري كيف لا يخرُجُ منه الشررُ ؟

« الأموي ــ واضعا يده على كتف قيس »

علامَ قيس فيم أنـت مُطرِقٌ مفكِّرُ ؟
في خبري ؟

« قيس »

أجل وما صدقْتَ فيما تُخبرُ
ليس لساني ماردًا إنَّ لساني بشَرُ

« الأموي »

قلِ وحدكَ الشعرَ إذنْ !

« قيس »

تظنُّني لا أقدِرُ ؟

« الأموي »

جرِّب إذَن قلْ أرِنا يا قيسُ كيف تَشْعُرُ !

« قيس »

وما تُحبُّ ؟

« الأموي »

قريةُ الجنِّ وهـذا المنظَرُ
أليس فيها أنت راءٍ قيسُ ما يؤثِّرُ ؟

« قيس »

إسمع إذن يا أمويُّ !

« الأموى »

إننى أنتظر

« قيس »

وجوهٌ تَصوّرُ ، وفضاءٌ يزهرُ ، ورمال فى مطارح البصر تزخَرُ ،
وقريةٌ تموجُ بالجنِّ كأنها عَبْقَرْ !

« الأموى ضاحكا »

قـه قـه ! تعالَوْا واضحكوا !

« تضحك جماعة من الجن »

« قيس فى غضب »

قه قه . . أمِنِّى تسخَرُ ؟

« الأموى »

ما هكذا ياشاعرَ الـبيدِ البيوتُ تُكْسرُ

« جنى آخر »

إنك لا تَنْظِمُ يا قيس ولكنْ تنثُرُ !

« الأموى »

مالك قيسُ مُفْحَماً هذا لعمرى الحَصَرُ !
لا يُفحَمُ الشاعرُ لكن يُفحم الشُّوَيْعِرُ

مالك كالعُودِ الذى أدبرَ عنه الوتَرُ ؟
ما للقوافى الآنساتِ منكَ قيسُ تنفرُ ؟
كيف ترى لسانَكَ الا آن

« قيس »

عليه حجرُ !

أنتَ على مشاعرى وشعرىَ المسيْطِرُ !
إن غبت غاب خاطرى وإن حضرتَ يحضُرُ

« الأموى »

الآن لا تُنكرُنِى قيسُ وكنت تُنكِر !
عجِبْتَ كيف تختفى الجنُّ وكيف تظهرُ
ياقيسُ هذا عالمٌ طِينتُه التجبُّرُ
تطغَى على رائدها صحْراؤه وتغمرُ
وغاية المُمعِن فى نظامِهِ التحيُّرُ
مهما عَلِمت عنه فالذى جهِلْتَ أكثرُ !

« قيس »

يا أخَا الجنِّ لئن كنتَ أخاً لى وخليلا
أنا فى أعماء أرض لا أرى فيها السبيلا

« الأموى »

أين تبغي قيس ؟

« قيس »

ليلى كن الى ليلى الدليلا

« الأموى »

مِل يميناً يا أبا المهدىِّ ثم امشِ قليلا
تجد المنزلَ والماءَ الذى يشفى العليلا

« ينطلق قيس آخذاً يمينه مهرولا »

المنظر الثانى

« فى حى بنى ثقيف بالطائف حيث ترى دار ورد على بعد قليل ــ ورد مضطجع »
« على الرمل وبجانبه يجلس رفيق من رفاقه ــ يقترب قيس من الخباء مناجيا نفسه »

« قيس »

إن قلبى لمخبرى أن هاتيكَ دارُها
أنا بالطائف الذى قرّ فيه قرارها
فى ثقيف تنقلى وثقيف ديارِها
ما لساقى جَرَرْتُها فتعابى انجرارُها
ولقلبى يقول لى قد تدانى مزارُها
كيف لا أهتدى لليلَى وفى القلب نارها

ليت ليـــلاي نُبِّئَتْ أنني اليومَ جارها

« يتبين وردا وصاحبه »

عجبٌ ! هُديت الدارَ بعد ضلالة ما كان شيطاني عليّ كذوبا
هـذي منازلها وذلك بعلها بعثت إليّ ديارُ ليلى الطّيبا
هذا غريمي وردُ أشقر كاسمه أتراه ألبس جلدَه مقلوبا !
ما بالُه افترش الأديم كأنه بغلٌ يُعفّر في التراب جنوبا !

« رفيق ورد »

ورد أرى من المدى القريبِ شخصاً يدبُّ نحونا كالذيبِ
على خُطاه خَشيةُ المُريبِ

« ورد »

لِمْ لاتقولُ حيرةُ الغريبِ
لعلهُ ابنُ سبيلٍ يمـــرُّ بالحي مَرّا
إني أراه سـقيما يجرُّ ساقيهِ جـــرا

« ينهض من رقدته قلقاً »

« الرفيق »

عرفتَ مَن هو ؟

« ورد »

قيسٌ به الغـرامُ أضرّا

« الرفيق »

قيس ؟

« ورد »

أجل

« الرفيق »

كيف أفضَى إليك ؟ كيف تجرّا

« ورد »

دعنى وقيساً وشأنى لعـــل فى الأمر سرّا

« ينصرف الرجل ويتلاقى ورد وقيس »

« قيس »

أهذا أنت وردبنى ثَقيفٍ ؟

« ورد »

نعم والوردُ ينبتُ فى رباها

« قيس »

ولِمْ سُمِّيتَ وردا لم تُلَقّبْ بقُلاّم العشيرة أو غَضاها!

« ورد ـ فى سكون وحلم »

وما ضرّ الورودَ وما عليها ؟

إذا المزكومُ لم يَطعَمْ شـــذاها

« قيس »

(بربِّكَ هل ضممْتَ إليكَ ليلى
قُبَيْلَ الصبح أو قَبَّلْتَ فاها ؟)
(وهل رفّتْ عليك قرونُ ليلى ..
رفيفَ الأُقحُوانَةِ فى نداها ؟)

« ورد — بعد فترة سكون »

نعم ولا ياقيس

« قيس »

بل لا بدَّ من لا أو نعمْ

« ورد »

هبْها نعمْ ياقيسُ هل مع الحلال من تُهَمْ ؟
المرْء لا يُسأل : هل قبّلَ أهله ؟ وكم ؟
أجل لقد قبّلتُها من رأسها الى القدم

« قيس غاضبا »

تلك لعمرى قُبلةُ الحُمّى بلاءٌ وسقمْ !
أو قُبلةُ الذئبِ إذا الذئبُ على الشاة جثَمْ

« يتراجع قليلا وكأنما يحدث نفسه »

قلبى يقول لىَ : لا ! ياصِدْقَهُ فيما زعم !

« ورد »

إذن تعالَ قيسُ واسمعْ فى أناةٍ وكرمْ

لا تجعلنَّ الغضبَ الـــجائرَ بيننا الحكَمْ
إسمع حـــديثى إنه ما خطَّ مثلَه القـــلم
وسِرُّه لا الأهـــلُ يد رون به ولا الخدَم
أنا الذى ظُلِمتُ قيـــس ما أنا الذى ظَلَمْ
أليَّـــةً وما علىَّ لك يا قيـــس قسَمْ
كم مرَّتِ الليـــلةُ بى والليلتان لم أنم
منذُ حوت دارىَ ليـــلى ما خلوْتُ من ندَم
كانت إطافتى بها كالوثنىِّ بالصنَّم
وربما جئتُ فرا شَها فخانتنى القـــدم
كأنها لى محْرَمٌ وليس بيننا رَحِم
شعرُك ياقيسُ جنى علىَّ هـذا واجـترَم
هيبَّهـــا فامتنعتْ كأنها صيدُ الحرَمْ
وهبتُها للحبِّ والشـــعرِ وقيسٍ والألم

« قيس »

ولكن تعالَ سَرِىَّ ثقيفٍ أبِنْ لىَ مالم تُبيِّنْ تعالَ
تقولُ لَقِيتَ بشعرى الشقاء وجرَّ عليك بيانى الوبالا
لقـد قلتَ قولا فأوْجزتَه فبالله إلا شرحت المقالا

« ورد »

إذن . أصغِ قيس

« قيس »

قل الصدقَ وردُ

« ورد »

وهل كان لي الصدقُ إلا خلالا

فلولاك ما اخترتُ إلا ثقيفاً ولم أُلقِ للعامريات بالا

ذهبتُ بشعرك منذ الشبابِ أُغنّي القِصار وأروي الطِّوالا

أرى بين ألفاظِه ظِلَّ ليلى وألمحُ بين القوافي الخيالا

فلما رُدِدْتَ وقيل القصائد والعشقُ بين المحبَّيْنِ حالا

خرجتُ الى حيِّها خاطبا ولم أدَّخِرْ دون مسعايَ مالا

بنيْتُ بهـــا فتهيَّبتُها وأيُّ امرىءٍ هاب قبلي الحلالا

فشعرُك يا قيسُ أصلُ البلاء لقيتُ به وبليلى الضلالا

كساها جمـــالا فملَّقتُها فلما التقينا كساها جلالا

إذا جئْتُها لأنالَ الحقوقَ نهتْني فقدّاستُها أن أُنالا

أمثْلِكَ أبا المهدي !

« يستحيل كلامه الى همس ، إذ تبدو ليلى على باب الخباء »

أُنظُرْ هذه ليلى علينا طلعتْ من الخبا

« ثم ينادي بصوت متهدج »

ليلى تعالَيْ أسرعي ، قيسٌ أتى ليلى هَناكِ ، مَنْ تحبِّين هنا

« قيس »

أمازحٌ يا وردُ قل لى أنت أم تَسخَرُ منى أم تُرَى تَهزَا بنا ؟

« ورد »

بل قلتُ جِدًّا لم أقلْ مُهازلا

« قيس ــ هاما بالذهاب اليها »

إذن فدعْها لاتُجشِّمْها الخُطـا

« ورد ــ وليلى تقترب »

إسمعْ أبا المهدىّ همسَ خطوها كأنه وَطْءُ الغزال فى الحصا
دعوتُ فاهتمّتْ ولو لم أدْعُها لوَجَدتْ ريحَكَ من أقصى مدى
قيسُ تثبّتْ واستَعِدَّ ، هى ذى أتتْ ، فلا يذهبْ بلُبِّكَ اللقا
الآن أمضى لسبيلى

« قيس »

بل أقِمْ إلبثْ أعِنّى ، إننى خُرتُ قُوَى

« ورد »

قيسُ أرى الموْقف لا يجمعُنا أنت حبيبُ القلب، والزوجُ أنا
يا لـكما منى ويالى منـكما ! نحن الثلاثةُ ارتطمنـا بالقضا

« ينصرف وتقبل ليلى على قيس »

« قيس »

ليلاى ، ليلى القلب

« ليلى »

قيس مالى دارتْ بى الأرضُ وساءحالى ؟

« قيس »

فداكِ ليلى مهجتى ومالى من السَّقام ومن الهزالِ
تعالىْ اشكى لى النوى تعالِى ألقِى ذراعيكْ على خيالِ

« تصافحه بشوق »

« ليلى »

أحقٌ حبيبَ القلب أنت بجانبى أحلمٌ سرى أم نحن منتبهان ؟
أبعد تراب المهد من أرض عامرٍ بأرض ثقيفٍ نحن مغتربان ؟

« قيس »

حنانيكْ ليلى ، ما لخلٍّ وخلِّه من الأرض إلا حيث يجتمعان
فكلٌّ بلاد قرّبتْ منك منزلى وكلٌّ مكانٍ أنت فيه مكانى

« ليلى »

فمالى أرى خدّيك بالدمع بُلّلا أمِنْ فرَح عيناكَ تبتدران

« قيس »

فداؤكِ ليلى الروحُ من شرّ حادثٍ رماكِ بهذا السقْم والذّوبان

« ليلى »

ترانى إذن مهزولةً قيس ؟ حبّذا هُزالى ومَن كان الهُزالَ كسانى

« قيس »

هو الفكرُ ليلى ، فيمن الفكر ؟

« ليلى »

فى الذى تجنَّى

« قيس »

كفانى مالقيتُ كفانى

« ليلى »

أأدركتَ أن السهمَ ياقيسُ واحدٌ وأنَّا كلينا للهوى هدفان ؟

كلانا قيسُ مَذبوحٌ قتيلُ الأبِ والأمِّ
طعينان بسكِّينٍ من العادة والوهم
لقد زُوِّجتُ ممَّن لم يكن ذوقى ولا طعْمى
ومن يكبُرُ عن سنّى ومن يصغُرُ عن علمى
غريبٌ لا من الحىِّ ولا من وَلد العمِّ
ولا ثروتُه تربِى على مال أبى الجَمِّ
فنحن اليومَ فى بيت على ضِدَّيْن مُنضَمِّ
هو السجنُ وقد لا ينطوى السجنُ على ظلم
هو القبرْ حوى مَيْتين جارَيْن على الرّغم
شتيتيْن وإن لم يَبعُدِ العَظْمُ من العَظم
فان القربَ بالرُّوح وليس القربُ بالجسم

« قيس »

تعالىْ نعِشْ ياليلَ فى ظل قَفْرَةٍ — من البيد لم تُنقَل بها قدمان
تعالىْ الى وادٍ خَلِيٍّ وجدْولٍ — ورنَّةِ عُصفورٍ وأيْكةِ بان
تعالى الى ذكرى الصِّبا وجنونه — وأحلام عيشٍ منْ دَدٍ وأمان
فكم قُبلة ياليلَ فى مَيْعَة الصِّبا — وقبلَ الهوى ليست بذات معان
أخذْنا وأعطيْنا إذ البَهْمُ ترتعى — وإذ نحن خلف البَهْم مستتران
ولم نكُ ندرى يومَ ذلك ماالهوى — ولا ما يعودُ القلبَ من خفقان
مُنَى النفس ليلى قرِّبى فاكِ من فمى — كما لفَّ منقاريْهما غَرِدان
نَذُقْ قُبلةً لايعرِف البؤسَ بعدها — ولا السُّقمَ رُوحانا ولا الجسدان
فكلٌّ نعيم فى الحياة وغبطة — على شفتينا حين تلتقيان
ويخفِقُ صدرانا خفوقاً كأنما — مع القلب قلبٌ فى الجوانح ثان

« تنفر ليلى »

« ليلى »

وكيف ؟

« قيس »

ولِمْ لا ؟

« ليلى »

لستَ ياقيسُ فاعلاً — ولا لى بما تدعو إليه يدان

« قيس »

أتعصِيننى يا ليلَ ؟

« ليلى »

لم أعصِ آمرى — ولكنّ صوتاً فى الضمير نهانى

ووردٌ يا قيس ؟ وردٌ ما حفَلتَ به
لقد ذَهلتَ فلم تجــــعلْ له شانا

« قيس : غاضبا »

تعنين زوجكِ ياليلى

« ليلى : منكسة رأسها »

نعم

« قيس »

ومتى أحببْتِ وردا ؟ ترُى أحببتهِ الآنا !

« ليلى »

فيمَ انفجارُكَ ؟

« قيس »

من كيدٍ فُجئْتُ به

« ليلى »

إنى أراك أبا المهدى غيْرانا
وردٌ هو الزوجُ ، فاعلمْ قيسُ أن له
حقًا علىّ أؤدّيه وسـلطانا

« قيس »

إذن تحابيتما ؟

« ليلى »

بل أنت تظلمنى فما أحبَّ سواكَ القلبُ إنسانا

ولستُ بارحةً من داره أبدا
حتى يُسرِّحنى فضــلا و إحسانا
نحن الحرائرَ إن مال الزمانُ بنا
لم نشــكُ الا إلى الرحمن بلوانا

« قيس »

بل تذهبين معى !

« ليلى »

لا ، لا أخونُ له عهداً ، فما حادعن عهدى ولا خانا
فتًى كنبْع الصفا لم يختلفْ خلقًا
ولا تلوّنَ كالفتيـــان ألوانا

« قيس : متهكماً »

أراكِ فى حبِّ وردٍ جِدَّ صادقةٍ
وكان حبُّكِ لى زوراً و بهتـانا

« ليلى »

فبس !

« قيس : صارخاً »

اتركينى بلادُ الله واسعةٌ ! غداً أبدّلُ أحبابا وأوطانا

« يحاول أن يتركها فتمسك به ليلى »

« ليلى »

العقلَ ياقيس !

« قيس »

لا خَلِّنى الرداءَ دعى

« ثم يفلت منها ويندفع الى سبيله »
« تاركا اياها باكية فى هيئة استعطاف »
« ليلى »

وارحمتاه لقيسٍ عاد ما كانا!

واهاً لقيسٍ وآهِ ما صنعا ؟ آ كثرَ قيسٌ بلواى والوجعا.

« تدخل عفراء »

عفراء عندى

« عفراء »

لبّيْكِ سيدتى الصبرَ واستدفعى به الجزعا .

« ليلى »

لقد سمعتِ الحديث كيف إذن

صبرى على ما جرى وما وقعا؟

قلتُ لقيس مقالَ مشفقةٍ لم يُلْقِ بالاً له ولا سمِعا

وقيسُ ذو جِنَّةٍ وإن زعموا جنونَه مدَّعًى ومصطنعا

تحير الناسُ فى جنون فتىً لا عقلَ الا بشعره ولِعا

واللهِ لو جاء فى محاسنةٍ يسألُ وردَ الطلاقَ مامنعا

فوردُ يا عفرَ لا كِفاءَ له   مروءةً فى الرجال أو ورعا
آه من من السقْم

« عفراء »

ألفَ عافيةٍ

« ليلى »

آه من الحادثات

« عفراء »

ألفَ لعَا

« ليلى »

أنا عُذريّةُ الهوى أحملُ العبْءَ   وإن ناءَ بالصبابة جهدى
المحبّات ما بكيْن كدمعى   فى الليالى ولا أرقن كسُهدى
ويح قيسٍ وويحَ لى أى ثأرٍ   للمقادير عند قيسٍ وعندى
أتعب الحىّ داءُ قيسٍ ودائى   وتعايى الدواءَ كُهّان نجد
لا الحواميمُ تصرفُ الجنّ عنا   حين تُتلى ولا رُقى السحر تُجدى
أبقيسٍ وبى هوى عبقرىٌّ   يَسلُبُ العقلَ من ذويه ويُردى
علّةُ البيد من قديمٍ وداءٌ   ضاعَ فيه الرُّقى وحار المُفدّى
ما سلاحاه حين يقتلُ إلا   من عفافٍ ومن وفاءٍ بعهد
لم تعذّبْ بالحب عذراءُ قبلى   كعذابى ولن تُعذّبَ بعدى

« عفراء »

هي عذراء ؟ ربيَ اشهدْ !

« ليلى »

أجلْ عذراء حتى يضمنيَّ ركنُ لحدى

« عفراء »

والذى أنتِ تحتَه ؟

« ليلى »

تحت بعلٍ غيرِ ذى جَفوةٍ ولا مستبدِّ
راعنى اللومُ من جميع النواحى فتواريْتُ فى مُروءةِ « ورد »

« يقبل ورد وقد سمع آخر ما كانت تقول »

ربِّ ماذا سمعت ؟ ليلى شكورٌ لك نفسى الفِداء يابنتَ«مهدى»

« ليلى »

ورد

« ورد »

ليلى

« ليلى »

رُحماكَ وردُ وعفوا
كنتُ أخفى الجوى فأصبحتُ أُبدى

« ورد »

ما بليـلى ؟ ماذا أثارك ليـلى ؟ هدِّئى روْعَكِ المُفزَّعَ هدِّى

« ليلى »

الداء يا وردُ في مجتهـد ملتهمٌ هيكلي وما شبعا

أصبحتُ لا أشـتهي الطعامَ ولا

يَحمَدُ جنبي الى مضطجَعـــــا

قلبي من اليأس حين حلَّ به أُحسُّ يا وردُ أنه انصدعا

لم يحملِ اليأسَ ساعةً ولقد كان بما حمَّلوه مضطلِعا

المتمني بالعيش منتفِـــعٌ ولن ترى يائساً به انتفعا

القدرُ اليومَ والقضـــاء على

حربكَ قيس وحربيَ اجتمعـا

ســتــار

الفصل الخامس

«مقابر على سفح جبل التوباد فى طريق عام على مقربة من حى بنى عامر يبدو»
« من بينها قبر جديد مازال أشخاص من الحى يهيلون عليه التراب ويضعون »
« الأحجار، ومن حوله كثير من رجال الحى وفتيانه وصغاره يرى بينهم المهدى »
« وورد وكلهم باك أو حزين ــ يبدأ المشيعون فى الانصراف وهم يعزون المهدى »
« ويصافحونه واحداً بعد واحد ويمرون على ورد مرورا »

« معز »

إنا لله أبا ليلى

« آخر »

صبرٌ أبا ليلى جميل

« فى أثناء انصرافهم يمر رجل فى الطريق »
« فيسأل صبياً من صبيان الحى فى ناحية »

«السار»

قبرُ مَنْ يا صبى ؟

« الصبى »

قبرُها يا أبى

« المار »

إمرأةٌ ؟

« الصبي »

نعم

« المار »

ومَن تكونُ ؟

« الصبي مشيرا الى المهدى »

بنتُ ذا الرجلْ

لُيلى ابنةُ المهدِى ألستَ من نجدِ ؟

« صبي آخر »

أجلْ قد دُفنتْ ليلى وما جفّ لها لحَدُ

وذا الشيخ أبو ليلى وذا صاحبُها وردُ

هنا الوالدُ والزوجُ

« المار »

وقيسٌ !

« الصبي »

لم يجىءْ بعدُ

« يقترب الرجل من المهدى فيعزيه »

« المار »

مَهْدىً أجمِلْ جزعا

« معز »

يا أبا ليلى جمالَكْ

« آخر »

عَزاء أبا ليـــــلى

« آخر »

عزاءً أبا ليـلى

« آخر »

صبرٌ أبا ليلى جميل

« صديق من أصدقاء ورد هامسا إليه »

لقد أحسنتَ ياوردُ وما للناس إحسان
يُعزّون أبا ليـلى وما عزّاك إنسان
بل انظُرْ ترَهم أقسى عليك اليوم ما كانوا
على الأوجُه بغضاء وفي الأعيُن عُدوان

« ورد »

مهلاً أخي وانظُرْ إلى النـــاس بعين مُنصفِ
هم يأخذون مابدا ويتركون ماخفِي

ظنُّ الجماعات فىَّ سوءٌ ورأيُهم فىَّ ما أصابا
يرَوْن أنى عدُوُّ قيسٍ أخذتُ ليلى منه اغتصابا
وزدتُ نفسيْهما شقاءً وزدتُ قلبيْهما عذابا
ليسألِ الناس قبر ليلى فإن فى قبرها الجوابا

« يلتفت الى المهدى بعد أن يعزيه آخر معز »

تجمّلْ أبا ليلى

« المهدى ـ مصالحا إياه »

تجمّلت طاقتى ولستُ بخوّارٍ قليلِ التجلُّدِ
حَمَلْتُ فُضولَ الناس ياوردُ حقْبةً إذا قمتُ من باغٍ عثَرتُ بمعتدِ
يَعيثون فى عرضى فمن كل معوِلٍ ومن كلِ مِقراضٍ ومن كل مبرد
وهذا يحيّينى ويقطعُ فرْوتى وهذا يُفدّينى ويهدمُ سؤددى
وياوردُ لو لم تُرْخ ستراً على ابنتى لظلّتْ بعرضٍ فى البوادى مُبدّد

حَفظتَ ابنتى حفظ الشقيق ومرّضتْ
ببيتك تمريض الصغير الممهّد
وصيّرت ليلى فى حماكَ وخدرها كعذراء ديْرٍ أو كدُمْية معبَد
لقد صنتَها ياوردُ فاذهبْ فما أنا بناسٍ لك المعروفَ أو جاحدِ اليد
وليلى فتاةٌ حُرّةٌ بنتُ حرّةٍ أحبّتْ غلامًا سيّدا وابنَ سيّد

وأعلمُ أنى كنتُ حربَ هواهُما وكنتُ معَ الواشى وعَوْنَ المفنّد

« يلتفت الى القبر باكيا »

بظلّ الله ياليلى

« ورد »

وفى بحبوحة الخُلْدِ

وهذا نَجدُ ياليلى فنامى فى ثرى نَجدِ

« يدخل دائرة المسرح من جانب الطريق الآخر »
« الغريض المغنى والشاعر ابن سعيد وأمية وسعد »

« الغريض »

دنا الحىُّ يابن سَعيدٍ وثمّ

« ابن سعيد »

وما ثَمّ ؟

« الغريض »

أُنظر يُجبْك النظرْ

« ابن سعيد »

قبورٌ ؟

« الغريض »

أجل عارضَتْنا القبور وعما قليل نُجيزُ الحفَرْ

« ابن سعيد »

وهل نحن إلا على حفْرَةٍ هى الأرضُ أوهى قبر البشر

محجّبةٌ بغرور الحيــاة يراها إذا غرغر المحتضَر
غريضُ : بصُرت بقــبرٍ جــديد

« الغريض »

وماذا ســوى الموت في ذا العفَرْ ؟

« ابن سعيد »

أخٌ كان يملأ أمس الهواء ويحيا الحياةَ ويجري العُمُرُ
نزيلٌ لعمري غريبُ الغطــــاء
غريبُ الوطــاء غريبُ الحُجَرْ
لدى منزلٍ كبيوتِ الكِراء مرارا خلا ومراراً عَمَرْ
يُزارُ كثيراً فدون الكثير فغِبًّا فيُنسى كأن لم يزُرْ
وليس بنافعه الواصــلون وليس بضائره من هجَرَ
فيا ميْتَ أمسِ عدتْكَ الرياحُ
وحيّاكَ في الفترَاتِ المطر
وأمسِ كعادٍ وإن كان منك
مُطيفَ الخيــال قريبَ الصُّوَر
لقد نفض الليلُ منك اليــدين
وأدرك فيـــك النهارُ الوَطَر
وأمسيتَ تحت لواء التراب
قهرتَ القضــاء ودِنت القـدر

تلفتْ وراءكَ أين الغرورُ وأين السرورُ وأين الأشَرْ
وأين مَعالِمُ عُرْسِ الحياة وأين سنا ليله المزدَهِر
وأين شبابٌ كحُلْمِ العروسِ
ضَحوكُ العشيّاتِ طَلْقُ البُكَر
وأين العداواتُ من سافرٍ مُبينٍ ومن كاشحٍ مُستتر
وأين المودّاتُ من صُحبةٍ كنحلٍ يَحُمْنَ وأنت الزَّهَر
قليلون عندامتناعِ القِطافِ كثيرون عند رجاء الثمر
وكم مَن سَقيتَ بشَهْدِ الوداد فلم يَجْزِ الا بصابِ الإِبر
فذُقْ سِنةً لا كَكلِّ السِّنات
ونَمْ ليلةً ما لها من سَحَر
وقُل للصديقِ طوَيْنا الحديثَ
وقلْ للعدوِّ دَفنّا الخبر
وهيِّيءْ مكانيهما فى الترابِ فإن ركابهما مُنتظَر

« سعد »

أميةُ ماذا ترى فى الغريض؟

« أمية »

وماذا أرى فى أميرِ الطربْ؟

« سعد »

لقد علِم الناسُ أن الغريضَ
مُغنّى الحِجازِ وشادى العربْ
ولكن...

« أمية »

وماذا وراء « ولكن ؟ » فمن شأنها أن تُثيرَ الرِّيَب

« سعد »

أمىَّ اخفِض الصوتَ لا يسمَعَنَّ

فيغضبَ فهو قريبُ الغضب

وأُذْنُ المغنى تُحسُّ النسيمَ

وتسمَعُ فى الكأسِ رقصَ الحبَب

أميةُ إنى أخافُ الغَريضَ وإن التَّطَيُّرَ بى قد ذهب

« أمية »

وأين تَرى الشؤم حولَ الغريض

وكيف ؟

« سعد »

رُويدكِ تَدرِ السبب

أليس الغريضُ يَهيجُ البكاء

فلو رام دمعَ العروسِ انسكب

ترعرع فى بيئةِ النائحاتِ وعلّمنه النَّدبَ حتى نَدَبْ

ينوحُ بيثربَ آلَ الرسولِ

ويُذكِى مآتمَ أهلِ الحسَبْ

« أمية »

وأينَ يدُ الشؤمِ مما ذكرتَ
وأيُّ بلاء علينـــــا جلَبْ
وما هو الا مُغنّى الحيـاةِ بناحيتيها الأسى والطرب

« سعد »

ولـكننا قاصـدو عامرٍ لنقضيَ حقًّا لقيسٍ وجب
ونسـألَ عن عاشقٍ فى الديارِ
طويلِ البـلاء ثقيل الوَصَبْ
ومن زار بالنـائحـات المريضَ
وأهلَ المريضِ أضـاع الأدب

« يتهيأ الغريض للغناء »

هو ذا هـــاج شجُوه هو ذا يُرسـلُ النَّغَمْ
هـاتفٌ من نُواحِهِ رنَّ فى القـاعِ والأَكَمْ
هو فى كلِّ خـــاطرٍ وفؤادٍ صَـــدَى الألم

« أنغودة الغريض »

واديَ الموتِ ســـلامُ وســـقَى القاعَ الغمامُ
السماءُ القُـدْسُ محرابُكَ والأرضُ الحـــرامُ

أنتَ فى الصَّمتِ مُبينٌ ومن الصَّمتِ كلامُ
لم يَمتْ أهلُك لكن غشِيَ الليلُ فناموا
غُيَّبٌ لم ندر ما صاروا ولا أين أقاموا

« يخرجون الى ناحية الحى من حيث يسمع آخر »
« الأنشودة ثم يدخل من الجانب الآخر على »
« أثر اختفائهم ، قيس وزياد »

« قيس »

جبلَ التوْباد حيّاك الحيا وسقى اللهُ صبانا ورعى
فيكَ ناغيْنا الهوى فى مهده ورضَعْناه فكنتَ المُرضِعا
وحَدوْنا الشمسَ فى مغْربها وبكَرْنا فسبقنا المَطلَعا
وعلى سفحك عشنا زمنا ورعينا غنمَ الأهل معا
هذه الرَّبوةُ كانت مَلعبًا لشبابينا وكانت مَرْتعا
كم بنيْنا من حصاها أربُعًا وانثنينا فمحونا الأربُعا
وخططْنا فى نقا الرمل فلم تحفَظِ الريحُ ولا الرملُ وعى
لم تزَلْ ليلى بعينى طفلةً لم تزِد عن أمسِ إلا إصبعًا
ما لأحجارِكَ صمًّا كلما هاج بى الشوقُ أبتْ أن تسمعا
كلما جئتُكَ راجعتُ الصِّبا فأبتْ أيامُه أن ترجعا
قد يهونُ العمرُ إلا ساعةً وتهونُ الأرضُ إلا موْضعا

« يظهر بشر قادما الى المقبرة من ناحية الحى »

« بشر »

عـــــزاءً قيسُ !

« قيس »

مَنْ ؟ بشرٌ ؟

« بشر »

أجلْ

« قيس »

فيمنْ تُعزِّينى ؟

أنا الميِّتُ يا بشرُ وإن أخرَّ تَكفينى

« يضطرب بشر وقد أدرك جهل قيس »
« وحرج الموقف ثم يميل هامسا الى زياد »

« بشر »

يجهَلُ قيسٌ موتَها ولم أخَلْ أن يجهلَهْ
ويْحَ له وويْحَ لى ! ماذا عسى أقولُ لهْ
إن الحبيبَ نعيُــهُ الى المحب مُعضلهْ
إنى أخاف إن أنا خبرْتُهُ أن أقتُلَه

« قيس »

بشرُ

« بشر »

لَبّيك قيسُ

« قيس »

من أين يابشرُ ؟

« بشر »

من الحيّ

« قيس »

ماحوادثُ عامرٍ ؟

كيف أمي يابشر ؟

« بشر »

برّحها الشوق

« قيس »

وأهلي . .

« بشر »

حنينهم متكاثر

« قيس »

ولِداتي من فتيةٍ وعذارى ؟

« بشر »

كلُّهم شيِّقٌ لعهدك ذاكر

« قيس »

كيف بيتٌ لنا بمدرجةِ الريح

وناد على النجوم وسامرِ ؟

والنخيلاتُ كيف خلفتها بشر ؟

« بشر »

كما هن باسقاتٌ نواضر

« قيس »

ومِهارى التى تركتُ صِغاراً ؟

« بشر »

كَبِرت قيسُ فهى جُردٌ ضوامر

« قيس »

عزّت البيدُ ، تُنبتُ السابق الفذَّ

وتأتى بفارس وبشاعر !

« يضطرب بشر »

ويح بشرٍ ماذا به ؟

« بشر »

قيس !

« قيس »

بشرٌ !

أنت فى نفسكَ الخفيّةِ ثائر

تُشْبِهُ الحزنَ والبكى نبَراتٌ

لك كانت كضاحكات المزاهر

« بشر — الى نفسه ثم الى قيس »

ربِّ ماذا أُجيب ؟ لاشىءَ ياقيس ..

« قيس »

بل الحزنُ فى مُحيّاك ظاهر

ولقد راعنى لك اليوم جِدٌّ

من خليع العِذار بالأمسِ سادِرِ

« تغرورق عينا بشر بالدموع »

ماجرى؟ ماالذى أثارك يابنَ العم؟

ماهذه الدموعُ البوادر ؟

« بشر »

قيس لا شىءَ

« قيس »

بل كتمتَ جليلاً

هذه وَجمةُ النَّعِيِّ المحاذر !

« بشر »

قيس . .

« قيس »

لا ، لا تَجِمْ ولا تُخفِ شيئا
أنا يابشرُ بالفجيعةِ شاعر

خُلِجتْ قبل نلتقى عينىَ اليسرى
وريعَ الفؤادُ روْعةَ طائر

« بشر »

أعفِنى ! أعفِنى ! بربك ما أنت
على ما أقولُه لك قادر !

« قيس »

أماتت ؟

« بشر »

أجل قضتْ أمسِ . .

« قيس — وهو يغمى عليه »

والبلاه !

« بشر »

لله — ما أشدَّ المقادر !

« يمضى بشر فى سبيله »

« زياد — مقتربا من قيس »

هو مغمىٌّ عليه ربِّ أيصحو ؟ هل لهذا العذاب ياربُّ آخر ؟

« يصحو قيس »

« زياد »

تباركتَ ياربِّ قيسٌ أفاق ؟ صحتْ عينهُ وصحا المسمعُ !

رجعتَ لنا قيس

« قيس »

هيهاتَ هيهات !

من كان فى النَّزْع لا يرجعُ

لقد بقيتْ خفقةٌ فى السراج سيلفظها ثم لا يسطع

زيادُ غدًا يلتقى الموجَعون وموعدنا ذلك البلقع !

« يشير الى المقابر »

عرفتُ القبورَ بعَرْف الرياح ودلَّ على نفسه الموضعُ

كثكلى تلَمّسُ قبرَ ابنها الى القبر من نفسها تُدْفع

هداها خيالُ ابنها فاهتدت وليلى الخيالُ الذى أتبع

لنا اللهُ يا قلب ! ليلاك لا تجيبُ وليلاى لا تسمع !

فُجِعنا بليلى ولم نك نحسَبُ يا قلبُ أنا بها نُفجع

« يقترب الى القبر باكياً فيكب بوجهه على حجر من أحجاره »

أعينىَّ هذا مكانُ البكاء وهذا مسيلك يا أدمعُ !

هنا جسمُ ليلى هنا رسمُها هنا رَمقى فى الثرى المودَع

هنا فمُ ليلى الزَّكىُّ الضحو ... كُ يكادُ وراء البلى يلمَعُ
هنا سِحرُ جفنٍ عفَاه الترابُ ... وكان الرُّقىَ فيه لا تنفع
هنا من شبابى كتابٌ طواه ... وليس بناشره البَلْقَع
هنا الحادثاتُ ، هنا الأمل الحـ ... ـلوُ بالحيلَ ، والألمُ المُمتع
طريدَ المقادير هل مَن يُجيرُ ... كَ منها سوى الموتِ أو يمنع ؟
تَذلُّ الحياةُ لسلطانها ... وللموت سلطانُها يخضَعُ
طَريدَ الحياةِ ألا تستقرُّ ... ألا تستريحُ ، ألا تهجَع ؟
بَلى قد بلغتَ الى مفزَعٍ ... وهذا الترابُ هو المَفزَع

« يظهر الأموى شيطانه من بعيد ويناديه »

« الأموى »

قيسُ

« قيس »

مَن الهاتفُ من ... نادَى الشريدَ المُطرَّحْ

« الأموى »

أنا الذى أوْحى اليكَ ... حُبَّ ليلى واقترَحْ

« قيس »

إذهبْ وإن لم أدْرِ رُوحٌ أنت أم أنت شبَحْ
إذهبْ فلستَ صالحاً ... وأىُّ شيطانٍ صلَحْ
كنتَ قرينَ السوء لى ... وكنتَ شرَّ من نَصَحْ

لولاكِ ما بُحتُ بما خدّش ليلى وجَرَح
كأنه فى عِرضها زيتٌ على الثوب سَرَح

« الأموى »

أفقْ قيسُ

« قيس »

سِرْ خَلِّنى يا خيال ومَنْ بالخيال لمن لم يَنَمْ

« الأموى »

حنانيكَ قيسُ أقِلَّ العتابَ ولا تَسكبنَّ دموعَ الندمْ
تفرّدْتَ بالألم العبقرىِّ وأنبغُ ما فى الحياة الألم
مُرِيبُك يا قيسُ فوق التراب وأنت مع النَّجم فوق التُّهَم
أخذتَ سبيلَك نحو الخلود وليس الخلودُ سبيلَ الأُمَم
قُم اهتِف بليلى وشَبِّبْ بها وخَلِّ التقاليدَ وانسَ الحُرَم
وطِرْ فى الهواء طليقَ الجناح وسِرْ فى الأديم طليقَ القدم
فلو أنصفَ الناسُ خَلَّوْا كما كتَرْكِ الوفود حَمامَ الحرَمْ
قُم ابسُطْ جناحك فوقَ القِفار وطِرْ فى الوهاد ، وقَعْ فى الأكَم
وأَترِعْ من الوتر العبقرىِّ سَماءَ القصور وأرضَ الخِيَم
وأَلِّفْ على الحب شتىَّ القلوب وأرسِلْ سرَّ الجمال النغم
تَغَنَّ بليلى وبُحْ بالغرام وبُثَّ الصبابةَ واشكُ السَّقم
فلا خيرَ فى الحب حتى يَذيعَ ولا خيرَ فى الزهر حتى يَنِمْ

« قيس »

أقوم ؟ .... هات قدَما

أقول ؟ .... أعطنى فما

أما ترانى هيكلاً محطَّماً مُهدَّما !

« يختفى الشيطان ويستمر قيس »

يا رَبَّ قيس هل نعيتُ وهل جرتْ كأسٌ تدورُ على النفوس مَشاعُ

أوْ لا فما بالى أنوء بهيكل للموت فيه والحياة صِراع ؟

اليومَ آذننا القضاء بحكمه ما لى ولا لك يا حياةُ دفاع

راجعت فى الموت الحياةَ وعادنى فى النزْع يا ليلى اليك نِزاع

كيف الوَداعُ من الحياة ولم يُتَحْ لىَ منك يا ليلى الغداةَ وَداع

هيهات لم تعدِمْ شذاكِ قرارةٌ حولى ولم يَعدِمْ سناكِ يَفاع

وعلى سماء البيد منكِ بشاشةٌ وعلى رمال البيد منكِ شُعاع

وكأن كل ضبابةٍ دونَ الضحى قسَماتُ وجهك دونهن قناع

« يمر به ظبي سارح فيتأمله قليلا ويناجيه »

يا ظبي بَكَّ من افتداكَ بماله

إذ أنت عانٍ تُشترَى وتُباع

وأباح طفلكَ ماءَه وطعامَه إذ هنَّ عَطْشَى بالفلاة جياع

يا قاعُ كن نعشى وكن كفَنى وكن

قبرى وقُمْ فى مأتمى يا قاع

واجمعْ لتشييعي الظِّباءَ ، ومَنْ رأى
ميْتاً بأسراب الظباء يُشــــاع
أتُرى أموتُ كما حييت مُشرّداً
لا الأهلُ من حولي ولا الأتبـاعُ
وأبيتُ وحدي لا الوحوشُ أوانسٌ
حولي هناك ولا الظباء رِتاع؟

« تتخاذل سيقان قيس فيتلقاه زياد ويظهر »
« ابن ذريح على مقربة من القبر خاشعا باكياً »

« زياد »

قيسُ لا بأسَ عليكْ أنا ذا بين يديْكْ

« قيس »

نفسُ اطمئني الآن لستُ وحــدي
قد حضَر الذي يَخُطُّ لحــــدي
ويُرشِدُ الحيَّ الى بَعدي زيادُ أنتَ المُشفِقُ المُفَدّى
لم أنفرِدْ إلا رُئيتَ عندي

« يتبين شبح ابن ذريح »

زيادُ ما ذاكَ منــــذا يبـــكي وراءَ الضريحِ
إني أغارُ على القــــبر من غريبِ الجُروحِ

« زياد »

لا تخشَ يا قيسُ منه فإنه ابنُ ذَريحِ

« ابن ذريح »

يا ليلَ قبرُكِ رَبوةُ الخُلْدِ نفَحَ النعيمُ بها ثرى نجدِ
فى كل ناحيةٍ أرى مَلَكاً يتنفسون تنفُّسَ الورد
لبِسوا الجُمانَ الرَّطْبَ أجنحةً
وتناثروا كتناثُرِ العِقد
وتقابلوا فعلى تحيّتهم مِسْكُ السلام وعَنبرُ الرد
وكأن نجواهم وسُبحتَهم
صَوْبُ الغمامة أو صَدَى الرعد

نفحاتُ طيبٍ ههنا وهنا ما للرياض بهن من عهد
يا قيسُ صبرا ههنا مَلَكٌ ذِبْحُ الصبابة مُشْهَدُ الوجد
أصحُ انتبِهْ واطرَحْ بعينك فى بَهَج السماءِ وحُسْنِ ما تبدى

« قيس »

أين السماءُ وأين مُحْتَضَرٌ طلَعتْ عليهِ الأرضُ باللَّحْد
السهدُ عذّبنى وذى سنةٌ أجِدُ الشفاءَ بها من السُّهد
ولقد أقولُ لمن يُبَشِّرُنى بالخُلد ما أنا داخلٌ وحدى
لو أن ليلى فى النعيم معى أو في الجحيم تساويا عندى

ليلى النعيمُ وقد ظفِرت بها فاليوم نرقُدُ في ثرى نجد
إني أحبُّ وإن شقيتُ به وطني وأوثِرهُ على الخُلد

« يسمع صوتا ضئيلا كأنما هو خارج من القبر »

« الصوت »

قيس

« قيس »

مَن الصوتُ ويحي أبي سِحرُ

« الصوت »

قيس

« قيس »

زيادُ اسمعْ وأصغِ يابِشرُ

« الصوت »

قيس

« قيس »

سمعتُ اسمي يلفظُه القبرُ

« الصوت »

قيس

« قيس »

تناديني من قبرها باسمي
لبّيْكِ ياليلى بالروح والجسم

« يدخل في دور الاحتضار الأخير »

هل أسا الموتُ جِراحِنَا وهل قرّب الدارَ وهل لمّ الشتاتْ ؟

« أصوات »

قيس ، ليلى

« قيس »

رَنّةٌ فى أُذُنِى ردّدتْ قيسَ وليلى الفلَواتْ
نحن فى الدنيا وإن لم تَرَنا لم تمُتْ ليلى ولا المجنونُ ماتْ

ستار الختام

أميرة الأندلس

تمهيد

زمن الرواية : عصر ملوك الطوائف .

مكان الرواية : أشبيلية ، أغمات .

أشخاص الرواية :

المعتمد بن عباد ، ملك أشبيلية .

الرميكية ، الملكة .

العبادية ، أم المعتمد .

بثينة ، بنته .

القاضي ابن أدهم ، قاضي القضاة .

الأمير حريز ، من أبطال الأندلس .

الأمير بولس ، شقيق ملك الأسبان .

أبو الحسن ، تاجر بأشبيلية .

حسون ، ابنه .

ابن حيون ، من الأدباء .

أبو القاسم ، من الأدباء .

مقلاص ، مضحك الملك .

لؤلؤ } ، من حجاب الملك .
جوهر }

ابن شاليب ، رسول ملك الأسبان .

الباز بن الأشهب ، لص شهير .

أمراء

جند

مقـــدمة

جرت حوادثُ هذه القصـة فى زمنٍ كان قطعة من ليل الملمات . أخذت الأندلسَ فى جنحها الحالك ثم تركته نظمًا منحلا وركنًا مضمحِلا ، وشمسا من دول الإسلام سقُمت فألح عليها السقْم فاحتضرت ، فكانت لها فى الغرب هدّة وكانت عليها فى الشرق ضجة . وخلال تلك القطعة من ليل الملمات كان الأندلُس تحت ملوك الطوائف ، وكان هؤلاء الملوكُ على شرفِ بيوتِهم وتميز شخصياتهم ونبوغهم فى كل علمٍ وأدب أصحابَ بذخٍ وترف وأخدانَ صبْوة وخلاعةٍ ، لاحظَّ لهم من همة الملك ولا نصيب من مراشد السلطان . وإنك لتعجب من انغماسهم فى اللذات ونسيانهم لذكرِ العواقب ، وهم أتعبُ خلقِ الله وأكثرُ الملوك ركوبًا للغرر ، واستهدافا للخطر ، ومشيا على الحبائل والحفر ؛ فأما فى داخل دويلاتهم فكيد وائتمار ، وفتنة نومها غِرار ، وسيفها فى الغِمد قليل القرار ، حتى لا تكاد الشمس تطلع إلا على ملِكٍ

مخلوع ولا تغـرب إلا على ملكٍ مقتول؛ وأما فى الخارج فكنتَ ترى هؤلاء الملوكَ بين نارين تتواعدان، و بين سـيلين يتهدران : فملك الأسبان الفونس يتجنّى و يعتدى، و يضرب الجزية و يفرض الإتاوات، ويبعث لأخذ الأموال جباةً أهلَ غِلْظة وقِحَة ؛ وصاحبُ مُرّاكش يوسـفُ بن تاشفين هو وقوّاده ووزراؤه مشـغوفون بالأندلس يمطرونه الرسـل والرسائل إلى قضاته وفقهائه، مهيئين بذلك لفتح بنَوا عليه الرجاء وعلقوا به الآمال . وكان ملوكُ الطوائف يخافون جارهم هـذا المسلّحَ المتوثبَ سلطانَ المغـرب و يرجونه فكان تملقهم له لا ينقطع، وكانت الأموال تحمل إليـه فى صورة المعونة، وكانت الرِّشى تقـدّم لوزرائه ورؤساء دولتـه فى صورة الهدايا والألطاف ؛ وكل هذا المـال إنمـا كان يجمع من المكوس والمغارم ! فتخيّل كيف كان بؤس الرعيـة، وتأمل كيف تذهب معالم البلاد بين عبثِ الفرد وغفلة الجماعة ... ولقد كان على قرطبة وهى حاضرة الملك أن تحمل شطر هـذا البلاء فلم تلبثْ أن انحطت عن ذلك المكان العالى الذى كانت فيه دار الخلافة ومطلع القصرين الدمشـق[1] والرصافة فصـارت كرسىَّ إقليم وقاعدةَ دويْلة وعرش ملك صغير يؤدّى الجزية ولا يُحس لها ذلة ولا هوانا .

(١) قصور الخلفاء الأول من بنى أمية فى قرطبة .

الفصل الأول

المنظر الأول

« مقصورة من مقاصير البديع "قصر المعتمد بن عباد" فى اشبيلية »
« و إلى يمينها مصلى و فى مؤخرها ستار كبير يحجب . وقد وقف على »
« بابها جوهر حاجب بن عباد ولؤلؤ ساقيه ومقلاص مضحكه »

جوهر [إلى لؤلؤ] : كيفَ وجدتَ وجه الملِك اليومَ يالؤلؤ ؟

لؤلؤ : كسنَّتِه ، يفيض من البَشاشةِ والبِشْر .

جوهر : بل أنت واهم يالؤلؤ ! إن وجه الملك تغير فى هذه الأيام و بدا عليه التغضن وأثّرت فيه الهمومُ أثرَها الظاهرَ المبين .

مقلاص : كان الله عونَ الملِك ، إنه ليحمل من همومِ الملْك وأكدارِ السياسةِ ماتنوء به الجبال ، لعن الله السياسة وقبّح الوِلاية ، ولا جعل لى من أشغالها نصيبا .

جوهر [يضرب بيده على حدبة مقلاص] : وأىّ نصيب كنت تؤمِّل من أمور الدولة يا مقلاص حتى سألتَ الله أن يحرمك منه ؟

مقلاص [ملتفتا] : دعنى من هذيانك يا جوهر وانظر : هذه الأميرةُ

أقبلتْ كأنها البدرُ فى الليـلةِ الظلماء أو كأنها الظبىَ يتخطّر على الحصباء .

[تدخل الأميرة بثينة]

بثينـــة : يا بشراىَ ما هذا الحظُّ العظيم ، أصدقائى الثلاثةُ ههنا ، يجمعهـم باب الملك : جوهر حاجب الملك ، ولؤلؤ ساقى الملك ، ومقلاص .

مقلاص [مقاطعا] : مقلاص المهرجُ الساقِطُ والمضحِكُ الوضيع .

الأميرة [بثينة] : لا تقـلْ هـذا يا مقلاص ! ولكن قل نديمُ الملك ، وصديقُ ابنته بثينة .

مقلاص : أنا مقلاص المهرجُ صـديقُكِ أنتِ يا أميرة اشبيلية ، بل يا مليكة الأندلس ، بل يا شريكة الشمس فى عرش الوجود ؟ !

الأمـيرة : أعرفتَ الآن مكانك ؟

مقلاص : عرفته يا سيدتى و إنى به لمزهوٌّ فخور .

الأمـيرة : إذاً فاعلم أيضا أن هـذا الحاجب جوهر قد يأذن على الملكِ لرجالٍ يكره لقاءهم و يغمّه رؤيتُهم وسماعُهم .

مقلاص : أمّا أنا يا سيدتى فما وقفتُ على باب الملكِ مرة إلا حجبتُ عنه الفِكْر والغمّ .

الأمـيرة : وهذا الساقى يا مقلاص .

مقلاص : هـذا السـاقى يا مولاتى يقبض كل يوم من دِماغ الملك

شعاعا ، ولولا أنّ دِماغه الشريف كالشمس التى لا تنفَد أشِعّتها لكان اليوم جُمْجُمَةً لا عقل فيها كأكثرِ هذه الرءوس التى نراها فى الطرقات .

الأمـيرة : وأما أنتَ يا مقلاص فتسقِى الملك كلّ ساعةٍ من رحيق مَزْحِك ودُعابتِك ما يملؤه غِبْطة وعافية وسرورا .

جوهر [مقاطعا — متدخلا] : لقد استأثرتَ يا نديم الملِكِ ويا صديقَ الأميرةِ .

مقلاص [مغضبا] : بالرغم من أنفِك !

جـوهر : لقد استأثرتَ يا مقلاصُ بحديثِ الأميرةِ فتنحَّ ساعةً واترك لنا فَضْلة من الشهد .

جوهر [للأميرة] : مولاتى ، سيدتى ، بثينة أيةَ وحشةٍ خلّفْتِ فى القصرِ يا مولاتى .

الأمـيرة : أو أبدًا تبالغ ؟

جـوهر : كلا يا مولاتى ! هى كلمةٌ طافتْ بالقصرِ منذ افتقدناكِ هذا الدهرَ الطويل

الأمـيرة : أتعُـدُّ الثلاثةَ الأيام دهرًا يا جوهر ؟ ألم أقل لك إنك تبالغ كثيرا ، لِمَ لمْ تسألنى يا جوهر أين كنت؟

جـوهر : أعلم أنكِ كنتِ فى قرطبةَ يا مولاتى .

الأميرة [وتبتسم ابتسامة سخر] : أجل كنتُ فى مُلكنا الجديد يا جوهر .

جوهر : وكيف وجدته ؟

الأميرة : العنوانُ قبّة ، والكتاب حبّة .

جوهر : أرجو ألا يكون غرامُ الأميرةِ بأشبيلية وطنها الغالي ومهدِها العزيزِ قد أنساها ذِكر الفضلِ لقرطبةَ دارةِ الملكِ الأولى ومهدِ الفتح والعمران و ...

الأميرة : أجل . وسماءِ الرعودِ والعواصِف وَوَكْرِ الفِتنِ والقلاقلِ... آهِ من قرطبة وبُكاءاتِها يا جوهر ، وويل على أخي الظافر من هذه الولايةِ الحمراءِ التي لم يُقلّدها أميرٌ الا قتِل أو عزِل... عرشٌ يضطرب تحت كلّ جالس ، وتاجٌ لا يستقِر على رأسِ كلِّ لابس .

مقلاص : مولاتي !

الأميرة : مقلاص . أشبيليةُ وأبي وأنت كانتْ ذِكراكُم ملْءَ خاطري في قرطبةَ ، هل من دُعابةٍ جديدةٍ يامقلاص تُنسيني ما لقيتُ من الغم والكدر على تلك العاصمةِ الثانيةِ للمُلكِ السعيد .

مقلاص : لا تقولي هذا يامولاتي فيَغضبَ القرطُبيون ؛ انهم لا يُقَدِّمون على مدينتِهم حاضرةً من حواضِرِ الدنيا ولو كانت دمشقَ أو بغدادَ فكيف يرضون أن تكون الثانيةَ لأشبيلية وما مدينتنا في زعمِهم الا بلدُ الخلاعةِ والمجون .

الأميرة [ضاحكة] : وأين قرطبةُ منا الآن ، وأين القرطبيون يامقلاص

و بيننا و بينهم سَفَرٌ شاقّ طويل؟ تُرى من علّمك كلَّ هذا الحرص ومن أين لك كل هذا الدهاء !

مقلاص : هى الأيامُ يا أميرتى . هى الأيام . وهذا السيفُ ماذا ... كنتِ تصنعين به يا مولاتى ؟

الأميرة : كنتُ أتقى بهِ عوادى الفُجاءات .

مقلاص : وهذا اللثام ؟

الأميرة : كنت أذود به عنى العيونَ والظنونَ فى بلدٍ ضيقِ الصدْرِ مُبَلّدِ العقلِ، شتان بينه و بين أشبيلية ذاتِ العقلِ الواسع والصدرِ الرحيب .

الأميرة [لجوهر] : لقد نسيتُ يا جوهر ذكر وَاجبٍ كان علىّ أن أُقدّمه قبلَ كل شىء .

جوهر : وما ذاك يا سيدتى ؟

الأميرة : السؤالُ عن الملِك .

جوهر : هو يا مولاتى بخير . أبدًا يسألُ عنكِ .

الأميرة : وأين هو الآن ؟

جوهر : هو فى الصلاةِ يا سيدتِى .

الأميرة [تطرق فى تأثر ثم تقول] : يا ويحَ أبى لقد نظرت اليه وهو فى قصرِ السوسانِ الضيق الصغير بقرطبةَ فوجدتُه كئيبا متململا كأنَّ تلك السقوفَ المنخفِضَةَ لم تكن تليق برأسِه العالِى وكأن

تلك الحجرات الضيقة لم تصنع لعينه السامية الطماحة . وكأنما كان يرى الزهراء أولى بأن تقله ، وأجدر بأن تظله . وهنالك دنوت حتى صرت خلفه بحيث أسمعه ولا يرانى . فسمعته يقول وكان وحده فى الحجرة مطلا من نافذة يلقى نظره على قرطبة .

جوهر [باهتمام] : وماذا كان يقول يا مولاتى ؟

الأميرة : كان يقول : قرطبة ... ملك جديد أضيف الى ملك أشبيلية ؛ ما أصغر المضاف والمضاف اليه . أنظر ابن عباد الى العرش كيف صغر ، والى الصولجان كيف قصر ، والى الملك كيف اختصر ، وتأمل مكان الحكم فى قرطبة كيف سد اليوم بالمعتمد ، ومجلس الناصر كيف شغل بابن عباد .

جوهر : نحن بانتظار القاضى ابن أدهم يا مولاتى .

مقلاص [متداخلا] : لعله هذه الكركبة التى تتدحرج من بعيد منحدرة الينا .

الأميرة [مستضحكة لجوهر] : استقبل أنت يا جوهر القاضى وأدخله على أبى فإن قضاة الأندلس لا يستأذن لهم على ملوكه .

الأميرة [ثم لمقلاص] : وأنت يا مقلاص . أعرفت أنى وجدته .

مقلاص : وما ذاك يا مولاتى ومن هو ؟

الاميرة : أنسيت يا مقلاص حين تقول لأبى بمسمع منى إن الزوج الكفء لبثينة لم يخلق بعد لا فى الأندلس ولا فى غيره .

مقلاص : لا لم أنس يا مولاتى . قلت هذا ولا أزال أعيده .

الأمـيرة : إذاً فاعلم أن الزوجَ الذى يَصلح لى قد خُلِق .

مقلاص : ومن ذاك ؟ ما اسمه وأين هو الآن ؟

الأمـيرة : كل هذا تعلمه بعد حينٍ يا مقلاص . تعالَ معى الآن، اتبعْنى ودعْ جوهر ولؤلؤ يستقبلان القاضى الجليل ...

الأميرة [الى جوهر] : فى حفظ الله يا جوهر .

الأميرة [الى لؤلؤ] : فى حفظه يا لؤلؤ .

جوهر ولؤلؤ معا : فى ذمة اللهِ وكلاءتِه يا مولاتى .

الأمـيرة : لا تَنسيا أن تذكرانى عند الملك وأنى رهنُ إشارتِه .

[تخرج الأميرة مع مقلاص] .

جـوهر : أشكر الله أن أخّر مجىءَ القاضى .

لـؤلـؤ : كذلك كنتُ أحدّث نفسى وأخشى على مولاتى فى زيها هذا من عين الشيخ ولسانه .

[يظهـــر الملك]

المـــلك : هل جاء القاضى ابنُ أدهم يا جوهر ؟

جـوهر : أجل يا مولاى رأيتُه فى ساحةِ القصر .

لـؤلـؤ : وقد عادت الأميرةُ من قرطبةَ يا مولاى .

المـــلك : أوعادت الآن ؟

لـؤلـؤ : أجل يا مولاى .

المـــلك : أهى بخير؟

لـؤلـؤ : بأتم عافيةٍ يا مولاى .

المـلك : إذا انتهى ابن أدهم من زيارتهِ فأتِ بها الىّ .

لـؤلـؤ : أمرُك يا مولاى .

[يخرج لؤلؤ] .

المـلك : وعليك يا جوهر أن تَستقبِل ابنَ أدهم وتأتينى فى أوفرِ بشاشةٍ وتعظيم .

[يخرج جوهر ثم يرجع يتقدّم القاضى]
[ابن أدهم وينادى من باب الحجرة]

جوهر [مناديا من الباب] : القاضى ابنُ أدهم .

القاضى : السلام على الملك ورحمة اللهِ وبركاته .

المـلك : وعليكم السلامُ أيها القاضى ومقدم الخير ، فقد علمتُ أنك كنتَ نزيل المغربِ فى الأيامِ الأخيرةِ وكنتَ به ضيفا على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

القاضى : هو ذاك يا مولاى .

المـلك : فكيف الحوادثُ والأحوالُ هناك ؟

القاضى : عندى من ذلك الشيءُ الكثير وسأذكره فى مجلسٍ تالٍ يأمر به الملك ولا أذكر الآن إلا رسالة حمّلنيها الأمير سِيرى بن أبى بكر .

المـلك : وما هى أيها القاضى ؟

القاضى : أو يعرف الملكُ الأميرَ سِيرى ؟

الملك : كيف لا أعرفه ! هو كافلُ الدولةِ المغربيةِ وكبيرُ وزراء السلطان وقائدُ جيوشهِ الأكبر . وما يبتغي مني الأميرُ أيها القاضي ؟

القاضي : إنه يخطب إليك الأميرةَ بثينة .

الملك : ألشخصه يخطبها أم لواحدٍ من أولاده فهم فيما أعلم كُثْرٌ وأصغرهم فيما أذكر يوافق ميلادُه ميلادَ بثينة .

القاضي : بل يخطُبها لنفسه أيها الملك .

الملك : إن هذا عجيبٌ أيها القاضي ... ... وما كان جوابُك ؟

القاضي : قلتُ له إن الملكَ ابنَ عباد يذهب ببنته بثينة كلَّ مذهبٍ ولا أظنّ قلبَه يطاوعه على تزويجها في الغُربةِ وإخراجها الى بلادٍ بعيدة .

الملك : أحسنتَ أيها القاضي . فما هذا زواج ... إنْ هذا إلا قبرٌ أخطُّه بيدي لبثينة . على أنني مُحضِر إليك بثينةَ لتحدّثها وتسمعَ منها .

الملك [الى جوهر] : جوهر . جئنا بالأميرة يا جوهر .

[يختفي جوهر لحظة ثم يعود بالأميرة]

الأميرة : أبي !

الملك : بنيّتي !

الأميرة : أطلبتَني يا أبي ؟

الملك : تعالَيْ بثينةُ حيّي عمكِ القاضي ابن أدهم .

الأميرة : السلام عليك يا مولانا القاضي ورحمة اللهِ وبركاته .

القاضى : وعليكِ السلام يا بنتَ أكرمِ الملوك . تعالىْ خذى مجلسكِ بين أبيكِ وعمك .

الملك : مع من عدتِ من قرطبة ؟

الأميرة : مع لِثامى وجوادى .

الملك : وكيف وجدتِ قرطبة ؟

الأميرة : وجدتُ طرقاتِها تموج بالفقهاءِ يعرفهم الناظر بزِيِّهم فذكرتُ عندئذٍ شُهرَة هذا البلدِ بالفتنةِ والتشغيبِ وجرأة أهلهِ على أمرائِهم وحكامهم وأشفقتُ منه على أخى الظافر، وإن كنتُ واثقةً بحزمهِ وعزْمهِ .

القاضى : ومن أنباكِ أيتها الأميرةُ أن الفِتْنة والشَّغَب يجيئانِ من ناحيةِ الفقهاء ؟

الأميرة : لم يبق سِرًّا يا سيدى القاضى أن الفقهاء يُعلّقون سَعادةَ الأندلس وخلاصَه بإلقائه فى أحضان جيرانِه سلاطين المغرب .

القاضى : وأنتِ يا بنتَ ملوكِ المسلمين، أما تجدين ما يطلبُه الفقهاءُ فى قرطبةَ أجدى على الأندلسِ من بقائِه على الحالِ التى هو فيها مُشرِفا على التَّلَفِ والضياع ؟

الأميرة : لا يا سيدى القاضى ليس فى الحق أن يَغتصبَ جماعة من المسلمين أوطانَ جماعةٍ غيرِهم من المسلمين فإن الوطنَ هو كالبيتِ فى قداسته وكالضيعةِ فى حرمتِها .

الملك [متدخلا فى الحديث] : لقد بعثتُ يابثينة فى طلبك لغير هذا الشأن وفى أمرٍ ذى بال وإنى أترك للقاضى التحدثَ معكِ فيه .

الأميرة [ملتفتة الى القاضى] :

تكلمْ ياعمُّ فكلى إصغاء ؟

القاضى : لقد خطبكِ الى أبيك رجل من عظماء الإسلام فى هذا الوقت هو الأمير سيرِى بنِ أبى بكر وزيرُ الدولة المغربية .

الأميرة : أفارغ هو أم مشغول يا سيدى القاضى ؟

القاضى [فى حيرة] : بل له من الأزواج ثلاثٌ وستكونين الرابعةَ وستكونين المدلّلة الممّهدةَ من بين أزواجه .

الأميرة [فى غضب] : إنك يا سيدى القاضى تدعونى الى خُطةٍ لا أنا مضطرة فأحمل النفس الكارهة على قبولِها ولا الأميرابنُ أبى بكر معطل البيتِ من الربةِ الصالحةِ فيتشبثَ بها ويُصر عليها ، بل تلك خطة لم أجد أبوىَّ عليها ولم آلف رؤية مثلِها فى حياةِ أسرتى : فهذا أبى جعلنى الله فداءه لم يتخذ على أمى ضرّة ولم يكسر قلبها بالشريكةِ فى قلبه بخاءت بنا أولاد أعيان ، نجتمع فى جناح الأبوة ولا نفترق فى عاطفةِ الأمومة ، ولو شاء أبى لكان له كنظرائه الملوكِ والأمراءِ نساءٌ كثير ولكان له منهن بنو العلات تحسبهم إخوة وهم أنصاف إخوةٍ من كل دجاجةٍ بيضة ومن كل شاةٍ حمل .

القاضى [متلطفا] : شهد الله لقد أحسنتِ يا ابنتى . ولكن مصلحةُ الملك أنسيتِها ونصرةُ الوالد أغفلتِ عنها . وسلامةُ الأندلس أأهملتِ شأنها ؟

الأميرة : لا يا سيدى القاضى كلُّ ذلك فى المحل الأولِ من نفسى واهتمامى ولكننا مختلفان فى النظر فأنت ترى أن الأندلس لا ينهض من كبوته إلا اذا مدّ السلطان اليه يده وأنا أتخيلها يدَ الذئب يمدّها الى الحمَلِ ، وأنتَ يا سيدى القاضى قد أخذك اليأس فى أمر الأندلس وأنا كلى رجاء ولا أستبعد أن تتهيأ لأبى ، وهو كهف الأندلس وملاذه ، الفرصةُ لجمْع الكلمةِ وضربِ الأفرنج ضربةً تُريح العربَ منهم السنين الطِوال وأنتَ تعلم أن تاريخ الأندلس مفعَم بالفجاءات السعيدةِ من هذا الطِراز .

القاضى : يُريد الله بكم اليسرَ ولا يُريد بكم العسرَ ، ولقد رددتُ عنكِ أيتها الأميرة وعن أبيكِ الملك وأحسب أنى أحسنتُ الردّ .

الملك : كل الإحسان أيها القاضى .

القاضى : الآن لم يبق إلا أن أنصرف .

الملك : مشيَّعا بحفظِ الله ورعايته .

[ينصرف القاضى و يشيعه الملك]

الملك [للقاضى] : كيف تجدُ بثينة يا ابنَ أدهم ؟

القـاضى : بورِكَ لك فيها وبورِكَ للأندلسِ فى عقيلته ! إنى أجدُها روحَ الوالدِ وأرى عليها طبعةَ الزمنِ وحضارةَ الجيل .

[يعود الملك ومعه مقلاص بعد أن يودع القاضى]

الملـــك : أعلمتَ يامقلاص؟ أسمعتَ أن سيرى ابن أبى بكر يخطبُ الىَّ بثينة ؟

مقلاص [ملتفتا الى بثينة بصوت خافت] : أهذا الذى وجدتهِ ياسـيدتى ؟ إنى لا أهنيكِ بتَيْسِ المغرب .

الأمـيرة : لا يامقلاص إن الذى وجدتُهُ هو غزال الأندلس لا تَيْس المغـــرب .

الملـــك : خبرينى يابثينة ماذا وجدتِ فى قرطبة .

الأمـيرة : حال من القَذارةِ نتنزه عن مثلهِ أشبيلية .

الملـــك : هذا من توالى الفتنة والاضطرابِ على الناسِ حتى شُـغلوا عن تنظيفِ مدينتهم التى كانتِ المثالَ المحتـذى بين المدن نظافة ونظاما ... ثم ماذا ؟

الأمـيرة : راعتنى قصورُها المهجورةُ الموحشةُ كأنها الأطلال .

الملـــك : هـذا من انقراضِ الوارثين أو ضيقِ نعمتهِـم عن سكنى الدورِ الواسعة وصِغرِ أقدارهم عن نزولِ المنازِلِ الرفيعة .

[يظهر على بثينة التأثر والاغتمام] .

الملـــك : ما ذا غمّكِ يا بثينةُ ؟

الأمـيرة : تذكرتُ يا أبى قصورَنا بجزعت ، قلتُ : الزاهى ترى

ما نصيبه، والتاجُ ما ذا غداً يصيبه، والبديعُ ما يكون مصيره، والمؤنس هل توحش مقاصيره ؟

الملك : بنيتى خلى عنك هذه الهواجسَ، ولا تحملى على الشباب البؤس والهمَ فإنه لم يخلق لهما . إصرفى الشبابَ الى الضحكِ والغِبطة فإنهما طبيعته وديدنه . ألا نعود لحديث قرطبة . خبرينى كيف وجدت أسواقَها ؟

الأميره : دون أسواقِ أشبيلية حركة ونشاطا إلا سوقَ الكتب فلا أحسب بغدادَ أقامت مثلها، دخلتُها ياأبى فلبثتُ فيها ساعة أتأمل ما يقع فى جوانبها وأشهد النداء على نفائس الكتب وذخائرِ المخطوطات ،وهى فى أيدى الناسِ يقلّبونها فى اعتناءٍ وإشفاقٍ كأنها كرائم الحجارةِ فى أسواق الجوهر .

الملك : وهل كنتِ تهتمين بكتابٍ هنالك ؟

الأميره : أجل ياأبى . نُودىَ على رسالة المنجم الضبّى، التى سماها : هل القمر مسكون ، وكنتُ سمعتُ بها وكنتُ أريد إحرازَها فسرنى الظفرُ بها، وكان بالقربِ منى فتى حسنُ الهيئةِ ظريفُ الثيابِ هو لا شك من بنى البيوتات، وكان ينازعنى الرغبة فى الرسالةِ فلم يزل يزيد فيها وأنا أحرجه فأزيد حتى بلّغها الى خمسِ مائة دينار فقبضتُ يدى فرجع اليه المنادى فأخذَ المالَ وناوله الرسالة .

الملك : لا أظنّ حرص الشابّ على الرسالة إلا للباهاة، ولكى يقال عنده خزانة كتب حوتْ كل ثمينٍ ونادرٍ حتى رسالةَ المنجم الضبيِّ فإن الشهرةَ فى قرطبة من قديم الزمان أن يتنافس الناس فى اتخاذِ الخزائنِ للكتب حتى الذين لا علم لهم بما فيها .

الأميرة : ظلمتَ يا أبى غريمى الشابّ فقد كنتُ ألحظ عليه الحِرص على الرسالة والسعىَ لإحرازِها حتى ما بقى فى نفسى شك أن الفتى من أهلِ المعرفةِ والاطلاع .

الملك : وكيف هو يابثينة : ما شكله؟ ماصفته ؟

الأميرة : شاب يناهز الثلاثين ، جميل وقور يشبهك يا أبى أو كأنه أخى الظافر وما كان أعظمَ أدبَه ومروءتَه فانه حين غلبنى على الرسالة بادر فقال : أيها الفتى الملثم ! إن كان اعتناؤك بهذه الرسالةِ شديدا كما رأيتُ فعرِّفنى بموضع إقامتك وأنا أستصنع منها نسخة وأبعثُ بها اليك . فشكرتُ واعتذرتُ بكثرةِ أسفارى فى الأندلسِ فانطلق شديدَ الفرح بما نال وكان جواده بانتظارِه فاعتلاه فواللهِ يا أبى ما رأيتُ قط بعدَك و بعد أخى الظافر أرشقَ وثُوبا على جوادٍ ولا أحسنَ قياما فى صهْوةٍ من غريمى الشاب .

الملك [مبتسما وهو يضع يده على كتفها] : أخشى يا بثينة أن يكون غريمُك الشاب أعرفَ بتصيدِ القلوبِ منه باعتلاءِ الجياد .

مقلاص : الآن عرفته هو فتى السوق، هو فتى الرسالة .

[يدخل لؤلؤ و يقول] :

الجماعة يتواردون على مجلِس الشرابِ أيها الملك فانظر ماذا تأمر ؟

بثينة : وأنا أيضا ذاهبة لبعضِ شأنى إن أذِنت .

الملك : فى كلاءةِ الله يا بثينة .

[تخرج بثينة] .

المنظر الثانى

« ترفع الستار الخلفية عن مجلس شراب الى جانبه ستر مسدل »
« وفى وسطه مائدة حولها الملك وجماعة من حاشيته وتطل »
« هـذه المنظرة على الوادى الكبير حيث للـملك زورق » .

المــلك : ما عندَكَ من الشراب لأصحابنا يالؤلؤ ؟

لـؤلـؤ : خمورُ مالِقة وزبيبِ أشبيلية .

المــلك : وماذا هيأتَ لهم من نقْلٍ وطعام ؟

لـؤلـؤ : الجوزُ واللوزُ من وادى الطلْح .

الملك [يرفع عقيرته ويغنى] : الجوزُ اللوزُ ياربِّ الفوز .

أحد الحاضرين [الى جاره] : هـذا لحنُ الملك الذى يحبه ويهتِف به حتى فى الحمـام .

مقـلاص : ولحنى أيها الملك أتسمعه ؟

المــلك : قل . هاتِ يا مقلاص .

مقلاص [يغنى] : الجوزُ اللوزُ بوادى الحوز (١) .

المــلك : مرحى ! مرحى ! .

(١) متنزه مشهور بالأندلس .

الحاضرون جميعا : مرحى ! مرحى ! .

الملك [لمقلاص] : تعالَ قِفْ خلفى يا مقلاص وقم عند رأسى .

مقلاص : ها أنا قائم عند رأسك الشريف هل أفلِّيه ؟

الملك : تأدّبْ يا وَقاح. القُمَّلُ لا يوجدُ فى رءوس المُلوك .

مقلاص : ما أدرى يا مولاى ولكنى أعلم أن القُمَّلَ يوجد فى لبدةِ الأسد وأنت أسد الأندلس الذى يعنو له الملوك .

الملك : لله ما أمرَّ لسانَك وما أحلاه . فهو كمِشرطِ الجراحِ الماهرِ جمعَ مرارةَ القطعِ وحلاوةَ الشفاء .

الملك [الى لؤلؤ] : ثم ماذا يا لؤلؤ ؟

لؤلؤ : كلُّ ما لذَّ وطابَ من السمك . بعضُه مجلوبٌ من بحرِ الزقاق . وبعضٌ من صيدِ الوادى الكبير .

الملك [يتغنى] : الجوزُ اللوزُ يارَبَّ الفوز .

الملك [الى وزيره ابن سعيد] : ماذا يقولون فى المدينةِ يابنَ سعيد ؟

الوزير : لا حديثَ اليومَ لأهل أشبيلية الا تلك النكبةُ التى حلَّتْ بأبى الحسنِ التاجر .

الملك : واهًا لأبى الحسن . وويحَ الأندلس ما أعظَمَ مصيبتَهُ فى تاجرِه العاملِ الموفَّقِ الأمين .

الملك [الى ابن سعيد] : وكيف وقعتِ الكارثةُ يابنَ سعيد ؟

الوزير : كانتْ لأبى الحسنِ التاجر فى لُجَجِ البحارِ ثلاثُ بوارج

وهى، الزُّهرة، والثريا ، والجوزاء ، خرجتِ الزهرةُ الى الاسكندرية تحمل اليها مقدارا عظيما من الزيت الأشبيلى فأخذها عاصفٌ فغرقتْ فى الطريق . وأقلعتِ الثريا بعد ذلك بأيامٍ مشحونةً بالمتاجرِ المتنوعة الى ثغور الأندلس فصادفها أسطولٌ للفرنجة كان يتجوّل على الشواطئ فأخذها مَغْنَمًا باردا . وكانتِ الجوزاءُ قد سبقتْ أختَها الى عَرضِ البحرِ تقصد سواحلَ المغرب محمَّلةً الشىءَ الكثيرَ من مصنوعاتِ الأندلس ومتاجرِه فشبّتْ فيها النار فأعيا إطفاؤها فسقطتْ شعلةً فى الماء .

الملك : ويح لأبى الحسن ويح ! !

الوزير : إن أبا الحسن أيها الملك شيخ كبير قد فرغ من الدنيا وفرغتِ الدنيا منه ، فمصيبتُه أقصرُ عمرًا وأهونُ وقعًا من مصيبةِ ابنهِ الواحدِ وولدِهِ النابهِ الشاب حسون .

الملك : قد ذكر لى اسمه وسمعتُ الثناء عليه من كثيرٍ من الناس .

الوزير : وإنه لكما نعتوه لك أيها الملك وفوق مانعتوه : شابٌّ جميلٌ وقورٌ جرئٌ، وافرُ القِسْطِ من العلمِ والأدبِ، تعلّم لغةَ الإسبانِ حتى أجادَها حديثاً وكتابةً يجرى بها لسانه كما يجرى بها قلمُه .

الملك : إن شابا هذا شأنه وهذه همته فى الحياة لا يترك نبوغه

سدًى ولا يوكَلُ الى اليأس القاتل، بل يجمُلُ بنا أن نأخذَ بيدِه فنُهوِّن عليه عثرةَ أبيه البرئ .

الجماعة [يتهامسون] : ما هذا السِتر ؟

آخر [همسا] : تُرى ماذا يُخفِي هذا السِتر ؟

ثالث [همسا] : ماذا خبأ لنا الملِك وراءَه ؟

الملك : فيم تتهامسون؟ لعلكم تذكرون الستر . إشربوا الآن ما بدا لكم واطربوا، وأما الستر فستعلمون نبأه بعد حين . لقد وزعتُ عليكم من أيامٍ وفدَ النصارى من نُبلاءِ الاسبان فماذا صنعتم بهم وكيف كانت أنصبتكم ؟

الملك [ملتفتا الى وزيره دانى] .

الوزير دانى : كانتْ حِصّتى يا مولاى أطيبَ الحِصصِ، فضيفى شابٌّ نبيلٌ طروبٌ لطيفُ الأذُنِ، مولعٌ بالقيثارةِ لا يضعُها من يدِه وله عليها ضربٌ يأخذ بالألباب .

الملك [متبسما] : يسأل آخر من الجلساء . وأنت يابن الصائغ كيف ضيفك ؟

ابن الصائغ : أنا أقل الإخوانِ حظا أيها الملك، فضيفِى رجلٌ كهلٌ قِسّيسٌ يقطع الليلَ بالصلاةِ وتلاوةِ الانجيل .

الملك : بل لعلك أعظمُ الجماعةِ حظا ولا تدرى .

ثالث من الجلساء [مخاطبا الملك] : أما أنا أيها الملك فقد ابتليتُ برجلٍ شيخ شرِّيب خمرٍ لا يرويه فى اليومِ دنٌّ ولا دنان . فاذا

كان قبل كل طعامٍ قدّمتُ له ز بيبي أشبيلية فأقبل يعبه عبا كما يقع الظمآن على الماءِ الزلال ؛ وقد شربَ من خمرِ مالقة فى ثلاثِ ليالٍ أقامها عنـدى ما يكفينى أنا شهرا وأنا الذى يعرف الملِك وَلعى بالخمرِ المالقى .

الملك : وأنت يا لؤلؤ كيف ضيفُك وما حاله ؟

لؤلؤ : إنه شاب يا مولاى خفيفُ الظل والروح . مولعٌ بالرقص وأنا أتلقى عليه كل ليلةٍ دروسا فى الرقصِ الأسبانى حتى كدتُ أحسنه .

الملك : وأنتَ يا مقلاص . كيف ضيفُك وماذا يصنع معك ؟

مقلاص : ضيفى يا مولاى رجلٌ كهلٌ بادنٌ ضخمُ الجثـةِ كالخنزيرِ المتدلى البطنِ من تراكبِ الشحمِ واللحمِ اذا جاء فى البيتِ و راح ارتجتِ الجُدرانُ واهتزَّ ما على الرفوفِ من آنيـةٍ . واذا نام خرج الغَطيط والنخير من حلقِهِ ومن أنفِه ومن كل موضع فيه ولو نام فى جبانةٍ لأيقظ غطيطُه الأموات .

الملك : وكيف طعامُه يا مقلاص؟ وما أحبُّ الألوانِ اليه؟ .

مقلاص : هو يا مولاى مجنون المعـدةِ بالإوزّ . له كل صباحٍ على الريقِ إوزّة وغداؤه إوزّة وعشاؤه ...

الحضور جميعا : إوزّة .

الملك [ملتفتا لوزيره دانى] : وماعندك أنتَ يا دانى مما يقولون فى المدينة؟

دانى : يتهامسون فى المدينةِ بأن الفتنة قد تحركت شياطينها فى قرطبة

وأن القـادرَ صاحبَ طُلَيْطُـلَةَ يسعى لأخذها من ولدِك الأميرِ الظافر، وأنه يستعين فى دسه وكيدِه وتدبيرِه بالبطل حُريز وصاحبه ابن طولون .

المـلك : الولاياتُ يا دَانى كخلايا النحل فيها العسل وفيها الأسل وأنا واثقٌ بحزمِ الظافرِ وعزمه والله يفعل بعد ذلك مايشاء إن ضيوفَكُم النبلاءَ أيها الأصحاب سيكونون هنا بعد ساعةٍ .

الملك [الى جوهر] : وأنت يا جوهر أنظر . أين الجنديان ؟

جـوهر : بالباب يا مولاى .

المـلك : أدخلْهما .

[يدخل الجنديان]

الملك [الى الجنديين] : أين الكلب؟! أجئتما به ؟

الجنديان : هو بالبابِ يامولاى يرسُفُ فى قيودِه .

المـلك : أدخلاه .

[يدخل ابن شاليب اليهودى يجر قيوده]

ابن شاليب : التحية والإجلال للملك .

المـلك : تحية لا نتقبلها من رجلٍ شتمنا بالأمسِ بمسمع من رجالِنا وأعواننا .

ابن شاليب : معاذا الله أيها الملك : ما شتمتُ ولا تهجمتُ ولا نسيتُ أنى نزيل هـذه المملكة ، يجبُ علىّ لصاحبها التوقيرُ والإكبار .

الملك: بل أنت تكذِبُ يابنَ شاليب .

ابن شاليب: على رِسلك أيها الملك ، أنسيتَ أن ورائى مليكا عظيما يسألُ عن أمرِى وأنا سفيرُه عندك ورسولُه اليك، وقد يغضبُ لى إن أنتَ نلتني بسوء .

الملك: فان كان السفير وَقَاحًا قليلَ الأدب ؟

ابن شاليب: هذا كثير أيها الملك فاجعل للإهانةِ حدًا ولا تنسَ لى مكانى.

الملك: ستعلم مكانَك بعدَ قليل .

[الى ابن وهب]

أعِد يابن وهبٍ على هذا الكلبِ ما لهث به حين عرضتَ عليه مال الجزية .

ابن وهب: لقد همَّ يا مولاى برد المالِ معتلًا بسوءِ العيارِ ونُقصانِ الإتاوةِ عن السنةِ الماضية وقال: بلغ سيدَك أنه لا يحول الحول حتى آتى فآخذَ عينيْه .

ابن شاليب: هذا كذبٌ واختلاق .

الملك: بل أنتَ الكذّاب . فما أنا بالملك الذى يَكذب عليه وزراؤه وأعوانه . وما شرفُ الأندلسِ وجلالُه إلا عدلُ قضاتِه وقلّة شاهدِ الزورِ فيه .

ابن شاليب [يمرغ خدّيه على البساط و يقول] : ألا تعفو أيها الملك الكريم . فهم يقولون إن العفو شيمتكم معشر العرب .

الملك : إلا ما مسّ الشرفَ والكرامة .

ابن شاليب : أتقتلنى أيها الملك من أجل كلمةٍ سبق بها لسانى وأعمانى الغضبُ فلم أزِنها ولم أقدر عواقبَها .

الملك : عجبا يا وزير ألفونس ... أنت تزِن القناطيرَ المقنطرةَ من الذهبِ والفضة فلا يفلِتُ من حسابك بُرادةُ مِثقال . ثم لا تحسن أن تزِن كلمةً تخرج من فيك ! ...

ابن شاليب : أعفُ عنى واستبقِنِى أيها الملك وأنا أشترِى منك حياتى بوزنِ جسمى ذهبا .

الملك : لا واللهِ ولا بثقلِه لآلئ ويواقيت وأنا أعلم أن وراءك ملِكا عظيما هو عبد المال . أما أنا يا ابن شاليب فعبد الله .

الملك [للجنديين] : أيها الجنديان خذا هذا المجرم فأمضيا أمرى فيه .

[الجنديان ينقضان على ابن شاليب
فيأخذانه الى ما وراء الستر المسدل]

الحاجب [يدخل] : نبلاءُ الأسبان بالباب يا مولاى .

الملك : يدخلون .

كبير النبلاء : التحياتُ للملك .

الملك : مرحبًا بضيوفنا النبلاء . تفضلوا وخذوا مجلسكم واطرحوا الكلفة .

كبير النبلاء : شكرا يا مولاى ؛ هذه الحفاوةُ بالضيف لا تستغرب من ملكِ العربِ الكريم .

الملك : تعالَ اجلس بجانبي أيها النبيل .

[يجلس كبير الأسبان حيث أشار الملك
يطوف لؤلؤ على القادمين بالشراب و بالنقل]

لؤلؤ : ماذا تَشتَهِى من الشراب ؟

كبيرالأسبان : ما دمنا فى أشبيلية يا فتى الملك فإنى لا أقدم على زبيبها الصافى المعطرِ شيئا .

أحد الحاشية [فى أذن جاره] : انظر السكير ياأخى كيف تجاهل خمر مالِقه وكيف نسِى أنه أنفد ذخيرتى منها فى ثلاث ليالٍ أقامها عندى .

[ضجة وشراب وأحاديث همس]

الملك [الى لؤلؤ] : دلنا يا لؤلؤ على ضيفك الرقّاص .

لؤلؤ [يشير الى أحدهم] : هو هذا النبيل يا مولاى .

الملك [الى الاسبانى] : إن فَتاىَ لؤلؤ أيها النبيل مغتبطٌ بما تعلّم عليك من أصول الرقص .

الأسبانى : وأنا يا مولاى ما رأيتُ أسرعَ خاطراً ولا أرشقَ حركاتٍ ولا أحسنَ حِفْظا لما يلقى عليه فى فنون الرقص من صاحبِي لؤلؤ .

الملك : إن مطربى هذا ابنَ حزم يحسن الضربَ على القيثارة . وقد تعلّم فى صغَرِه الكثيرَ من ألحانكم ونغماتِ رقصكم .

الملك [الى لؤلؤ] : فلْيرقصْ لؤلؤ على إيقاعِه .

الملك [الى الاسبانى] : وأنت ترسم له أيها النبيل النغْمة التى تصلح للرقصة .

[لؤلؤ وصاحبه الاسبانى يرقصان و يعزف لهما ابن حزم... و يصفق لهما الملك والجماعة ثم يجلس الثلاثة بين الاستحسان والاعجاب]

الملك [فى جد الى جليسه الاسبانى] : أيها الضيفُ النبيل . أمر يَشْغَلُ بالى ويهتمّ به أصحابى وينتظرون حكمى فيه . وقد رأيتُ أن أنتهزَ فرصة الأنس بحضوركم لأسيرَ على ضوْءِ رأيك فى تصريفه .

النبيل الأسبانى : ليس أحبَّ الىّ أيها الملك ولا أزيدَ فى شرفى من مشورةٍ خالصةٍ نافعةٍ ألقيها الى جلالتك .

الملك : إذن فاعلم أيها الضيفُ النبيل أن أحدَ جيراننا الملوكِ أوفد الىّ رسولا فى مهمةٍ معلومةٍ فنسى الرسول مكانى حتى سبّنى بمسمع من رجالى وأوعد وتهدّد . فما الذى يقضى به عُرْفُكم على رجل هذا فعله .

النبيل الاسبانى : مثل هذا جزاؤه القتل يا مولاى .

الملك [الى النبلاء] : أسمعتم يا معشرَ النبلاء .

النبلاء : سمعنا أيها الملك وقد أفتى كبيرنا وهو العدل والصواب .

الملك : إذن فانظروا .

الملك [ثم لأحد الجند] : أيها الجندىُّ ارفع هذا الستر .

[يرفع الستر عن جثة ابن شاليب جثة هامدة معلقة على عود]

الجماعة صائحين : ابن شاليب ؟

الملك : هذا صاحبكم ابن شاليب قدرمانى أنا ووزيرى هذا ابن وهبٍ بتزويرِ العيار والغش فى الميزانِ وقال لرجالى وأعوانى : بلِّغوا سيدكم أنى آتٍ فى العام القابل فآخذ عينيه من رأسه .

أحد الجماعة مستنكرا : وما ذنبنا نحن أيها الملك حتى عاقبْتنا بهذا المنظر؟

الملك : لقد تردّدتُ بين أن أقتلَه بأعينكم وبين أن أَعرِضَه عليكم وهو كما ترون جثة بلا روح ولكنى وجدت فى الرأى الثانى تخفيفا على ضيوفى فعمِلْت به .

[ثم ينهض الملك علامة الاذن فى الانصراف ويختلط بهم وهو يشيعهم]

الملك : انقلوا أيها النبلاء إلى الملك ألفونس ما سمعتم ، وصِفُوا له ما رأيتم ، وتحدّثوا به فى طولِ بلادِكم وعرضِها ليعلم الناس هناك أن الأسد العربى لا يُشتَم فى عرينه وأنه لو غلِب على غابتِه حتى لم يبق له منها إلا قاب شبرٍ من الأرض لما استطاعتْ قوى الإنس والجن أن تنفذ إلى كرامته من قابِ هذا الشبر .

[ينسل النبلاء الاسبان من المنظره وهم يجرون سيقانهم جرا من الرعب]

الملك [إلى حاشيته] : الآن يا نبلاءَ العرب نطوى هذا البساط ويبقى

هذان الجنديان حتى إذا خلت منا المنظرة رفعا الستر عن
جثة ابن شاليب ليعلم أهل أشبيلية كيف يحل العقابُ
بمن يجترئ على شرف أميرهم الذى هو شرفهم الرفيع .

المنظر الثالث

« الملك نشوان ، ومعه مضحكه مقلاص يدنو من زورق »
« على الوادى الكبير فيثب فيه و يقول ... ... »

الملك : أنظر يا مقلاص إلى هذا الزورق ما ألطفه ، صدق القول : كلُّ صغيرٍ لطيف .

مقلاص : إلا وظيفتى فى قصرك فإنها لا لطيفة ولا شريفة ، وإن هذا الزورقَ قد ينقلبُ فيأخذ شكل النعشِ ولن يكون النعشُ لطيفا أبدا .

الملك : هبه انقلب يا مقلاص فصار نعشا ، أليس النعشُ مركبَ كل حى وإن طالتْ سلامته ؟

مقلاص : أما أنا فيعفينى الملك .

الملك : لا يا مقلاص — لا أعفيك ولا أحسبك تدعنى أسير فى لُجة النهر وحدى وأنا كما ترانى نشوان .

مقلاص : وإن كان ولا بد أيها الملك فإنى أقترح .

الملك : وما تقترح ؟

مقلاص : أن أكون أنا المجدِّف وحدى .

الملك : ولماذا ؟

مقلاص : الأمر بيّن ! التيار مجنون ، والسكر مجنون ، وأنت سلطان وكل سلطان مجنون ، وهذا الزورق خشبة لاعقل لها فهو أيضا مجنون ؛ وإنى أربأ بحياتى أيها الملك أن أجمع عليها مجانين أربعة .

الملك [مستضحكا] : لا يكون إلا ما اقترحتَ يا مقلاص تعالَ اركبْ وجدِّف وحدكَ واتركْ لى أنا الدفةَ .

مقلاص : أما هـذا فنعم . وإنى أرجو أن تكون دفةُ هـذا المركبِ الصغيرِ أحسنَ مصيرا فى يديْك من دفةِ المملكة .

الملك [مستضحكا] : تعال ثِب ، هاتِ يدَك .

[مقلاص ينزل الى الزورق و يأخذ المجدافين] .

الملك : أنظر يا مقلاص وراءك إنى أرى قاربا يندفع نحونا مسرعا كأنه حوتٌ مطاردٌ مذعور .

مقلاص : هو ذا قد دنا منا يا مولاى فأَحسنْ مسك الدفة واجتنِب الصدمة وأنا أذوده عنا بمجدافى هذا وأضربه ضرْبةً تقذفُه به الى الشاطئ الآخرِ من النهرِ .

الملك : إياك أن تفعلَ ، بل أسره فلا بدّ لنا أن نؤدّب هذا الشاب المغرور فإنى أرى الملاّحَ فتى كريمَ الهيئةِ فهو لا شك من أبناء أعيان أشبيلية .

[يصطدم الزورقان و يظهر مقلاص ارتباكا وجبنا فيقبض الملك على الزورق المهاجم بيد قوية و يقول لمقلاص] :

الملك : إقذف الآن به إن استطعتَ الى الشاطئِ الآخرِ من النهرِ
[ثم يلتفت الى الشاب الملاح و يقول] : مكانكَ أيها الغلام الوَقَّاح ،
ما هذه الجرأة على التيار وعلى شبابك هذا الغض النضير .
وما غرك بالملك حتى قربتَ عودك من عودِه تريد أن
تأخذ عليه الطريق .

الملاح : مولاى . إن الرعيَّة يهفون . و إن الملوك يعفون ، وزورق
إنما اندفع بقوة التيار القاهر فوافق مرورَ مركبك المحروس
فكان ما كان مما أعتذر الى الملك منه .

الملك [بصوت منخفض] : ويح أذنى ما ذا تسمع ؟ هذا الصوتُ أعرِفُه !
[ثم يلتفت الى الملاح قائلا] : قد عرَّفناك أيها الفتى من نحن
فعرِّفنا بنفسك .

[يرفع الملاح قناعه]

الملك [صائحا] . بثينة ؟

الأميرة [الملاح] : أجل أيها الملك ابنتك وأَمَتُك بثينة .

الملك : عجبا أأنتِ هنا بين العَبَبِ والتيار وعلى هذا العود الذى
يشفق أبوكِ من ركوبه وأبوكِ من تعلمين أشجعُ العرب
قلباً .

الأميرة : ولِمَ لا تكونُ ابنة الملكِ شجاعةَ القلبِ مثلَه إن الأسد لا يلد
إلا اللَّباة .

الملك [يهدأ غضبه] : ومن أين مجيئك الساعةَ يا بثينة ؟

الأمــيرة : من الموضع الذى أحبُّه كما أحبُّ الحجرة التى ولدتُ فيها ، ومن ناحيةِ السرْحةِ التى أحِنُّ لها حَنينى للقاصيرِ التى ضمتنى طِفلة ممهَّدة ، ومن بُقعةٍ مباركةٍ وقفتِ السعادة بك فى ظلها على أمى الروميكية فرأيتَهـا فأحببتَها أوّلَ وهلة . ولم تكن إلا غسَّالةً مغمورةً فتزوّجتهـا فرفعتَها أعلى ذُرى الشرف ومِن هذا الزواج الموفّق السعيد ولدتُ أنا لأب قصّر الآباء عن بِرّه ومَلكٍ جل عن النظراء والأمثال . أليس ذلك المكان الذى هو مهد حبكما الأول من حقه أن يُحَنَّ اليه أحيانا بل من حقهِ أن يُحج آنا فآنا .

الملك [متأثرا] : بنفسى ورُوحى أنتِ يا بثينــة . لقد عظَّمْتِ المهــدَ وقضيتِ الحقَّ والآن ألا ترجعين الى القصر بســلام فلا أحسب القصر إلا قائما لغيبتكِ على ساقٍ حتى لكأنى بأمكِ تسأل عن أمرِك و بجدّتك أشغلُ وأشدُّ قلقا .

الأمــيرة : لقد كنتُ يا مولاى فى طريق الى القصر لولا هذا الاتفاق السعيد الذى صدم عودى بعودِك والآن إذْ أمرتَ فإنى أنطلق فى سبيلى وأستودعك الله يا مولاى .

المــــلك : إذهبى يا بنيتى فى كلاءةِ اللهِ و إياكِ والمجازفةَ فيما تفعلين فإن الحيــاةَ أعزّ وأنفسُ من أن تُعرّض للتهلكة وأنهــاكِ عن

الخروج بعد اليوم إلا مصحوبةً بلؤلؤ أو جوهر فإنهما لا يألوانك خدمة وحراسة .

الأميرة: لا يكون يا مولاى إلا كما أشرت .

[تندفع بثينة بالزورق وتغادر الملك — وقد أطرق مليا إلى أن بدا لمقلاص أن ينبهه من هذه السنة]

مقلاص : مولاى إن الشط قريبٌ و إن الأرضَ أصلحُ مجلسا لمثل ما أنتَ فيه من الهم والتفكير .

الملك : كيف رأيتَ بثينة وكيف وجدتَ جرأتها يا مقلاص ؟

مقلاص : تلك اللّباة من هذا الأسد يا مولاى .

الملك : ما كل جرىء فطِن ، وهذه الفتاة جمعت الحجا والشجاعة . إنها تعلم أننى رجل رقيق القلب مجيب العاطفةِ وتعلم كذلك أن شيئا من النفورِ قد دخلنى نحو أمها منذ حينٍ فانظر كيف تحيَّلَتْ حتى ذكرتنى العهدَ القديم . فوالله ما أنا الساعةَ بأقلّ حبا للرميكية ولا عطفا عليها منى منذ عشرين سنة . جدِّفْ يا مقلاص جدف . سبحانك اللهم جعلتَ الولد سفير المودّةِ والرحمة بين الوالدين .

[يندفع الزورق]

الملك [يتغنى] : الجوزُ اللوزُ يارَبَّ النوز .

مقلاص [يجيب] : الجوزُ اللوزُ بوادى الحوز .

ستار

الفصل الثانى

« خان التيمى فى أشبيليه حيث صفت الموائد والأرائك وجلس اليها »
« قوم يتحدثون ويحتسون الشراب . ابن حيون منفرد وحده الى مائدة »
« وأبو القاسم قادم عليه من باب الخان . حريز يجلس الى مائدة أخرى »
« وأمام ابن حيون . ورجال هنا وهناك يلعبون النرد والشطرنج »
« أو يطالعون بعض الرسائل ... ... »

أبو القاسم : ابنَ حيون ؟ ما أطيبَ هذا اللقاء .

ابن حيون : سيدى أبو القاسم يامرحبا يامرحبا ها هنا صُفَّةٌ لينة ومجلس كريم فلو جلسنا ساعة نتحدث . أزائرى أنتَ أبا القاسم أم جئتَ الخانَ فى شأنٍ يعنيك .

أبو القاسم : بل إياك قصدتُ يابن حيون . وإن الشوْق اليك لشديد .

ابن حيون : شوقٌ بعضُه من بعضٍ يا أبا القاسم ولكنْ من أنبأك أنى مقيم بخان التيمىّ .

أبو القاسم : لقد عرفناك كالرواد الرحّل . لا تُرى الا فى خانٍ أوعند دوارسِ الأحجار .

ابن حيون : الخانُ والسوقُ يا أبا القاسم مدرستان من مدارسِ الحياة ينتفع بهما الرجلُ الأريب ... ألستُ فى هذا الخانِ كل يومٍ أبدل أهلا بأهلٍ وجيرانا بجيران وأستعرضُ صوراً متحرّكة من الخلائق كلما احتجبتْ صورة خلفتها صورة ... وكيف حال أشبيلية يا أبا القاسم وهل من حوادثَ هناك ؟

أبو القاسم : الحالُ إن لم يصلحها الله فمالهـا من صلاح . والحوادثُ يابن حيون تتوالى ولا تتولّى واليومُ مغبر والغدُ مكفَهِر .

ابن حيون : وابنُ عباد فى غوايته مستمر !

أبو القاسم : خل ابنَ عباد يا أخى لاتجرِ ذكره بسوءٍ فانه السيفُ الذى يرجوه العرب . والحِصنُ الذى يحتمون غداً فيه .

ابن حيون : لم تُنصِفْ يا أبا القاسم . طبعتَ للعربِ من الخشب سيفا وبنيتَ لهم من الشفير الهائر حصنا .

أبو القاسم : إتق الله يابن حيون ... بعضَ هـذا البغى ... للمعتمِد من المحاسنِ ما يغطى على مساويه . أجهلتَ إحسانه على أهل العلمِ وعَطْفهُ على أهل الأدبِ ؟ أجهلتَ كيف يربى أولادَه تربية لم نعرفها من الأمراء والملوك؟ أجهلتَ كيف يعامل الرميكيةَ زوجته الفاضلة معاملةً تحسدها عليها عقائل الأندلس؟

ابن حيون : آه يا أبا القاسم من ههنا دائى وههنا ثارى عند صاحبك ابن عباد .

أبو القاسم : يا عجبا كل العجب . ما هذا الثأر ما حديثه ؟

ابن حيون : اسمعْ أبا القاسم وأنصفني .

أبو القاسم : تكلم يا بنَ حيون فكلّي مسامع .

ابن حيون : كنتُ في صدر شبابي صيادا شابا مليحا رأسُ مالي شبكة وقِـوام معيشتي سمكة، وكانت تختلف إلى المواضع التي أختلِف اليها من النهرِ للصيدِ وابتغاء الرزق صبية غسّالة حلوةُ الدلالِ بارعةُ الجمالِ كأن حديثها السحرُ الحــلال . فانعقــدتْ بيننا ألفة وكانتْ لنـا مجالس على المـاءِ كأنها أعراسُ النهرِ ولقاءاتٌ على الوادي الكبير كأنها أعيادُ الدهرِ، أحببتُ الصبيّة وأحبّتني وتكلمنـا في الزواج وشرعنا نأخذ له أهْبته .

أبو القاسم [مقاطعا] : وبينما أنتما على ذلك طلع عليكما من النهر فُلْكٌ عليه شارةُ الملك، يحمل ملكا شابا جميلا فنَظَر الصبيّةَ فراعهُ حسنُها وكلمها فأعجبه أدبها . وارتجلت الشعرَ بين أذنيه فبلغ إعجابه بها الغايةَ فتزوجها من يومِه فملأتْ قصورَه غِبْطة وبهجة وولدتْ له الشموسَ والأقمار . هذا حديث الرميكية يابنَ حيون وهــذا خبرُ زواجِها يعلمه كل من في الأندلس ويتناقلونه بالإعجابِ ويتحــدثون أن بنتَ الشعْب نزلتْ قصورَ الملكِ من أولِ يومٍ نُزولَ الأقمارِ في هالاتِها، وأنها

من عشرين عاما الى اليوم قدوةُ عقائلِ الأندلس والمثال الأعلى بين أميراتِه وملِكاته ؟ .

ابن حيون : وما كان ذنبي يا أبا القاسم حين احتقرتْ حُبِّي واستهانتْ بِخطبتِي؟ ! وكيف تريد مني بعد ذلك أن أكون لصاحبك المعتمد من المخلصين .

أبوالقاسم : هبِ الأمرَ كان معكوسا يابنَ حيون ، وهب الفلك الذى وقف يومئذٍ بكما كان يحمل ملكةً شابة فاتنة الجمالِ بيمينها الجاه وفى شمالها المال فنظرتْك فأحبتْك ودعتْك لتبنِيَ بها وتشاطرهَا عِزة الملكِ وثراءَ المالِ — أتُراك كنتَ تُعرِض عن الملكةِ وفاء بعهدِ الغسّالة . لا والله يابنَ حيون ما كنتَ فاعلا ذلك . وهـذا ما فعلتْ الرميكية . رأتْ ملكا كبيرا وشبابا نضيرا وفضلا وأدبا غزيرا فخلتْ نفسها من ذلك الودادِ وفضلتْ أصيدَ على صياد . عرفتَ يابن حيون أن ذنب الرميكية ليس بالعظيم كما توهمْتَ . بقى المعتمد وأنا لا أجدُه اقترفَ اليك ذنباً أو أراد لك ضُرا بل أنا أقسم لو علِم ابنُ عباد يومئذٍ بما كان بينكما من الحب وما صرتُما اليه من الخطبةِ ووشْك الزواج لأخذكما فى كنفه وتكفلتْ لكما نعمتُه بالزواجِ ونفقتِه ، وبالبيتِ وجهازه وبالضيْعةِ التى تُغل عليكما وتبقى بعدكما على الأولاد .

[ابن حيون مطرقا] :

أبو القاسم : ابنَ حيون . مالك مطرقا لا تنبِس . ما بالُ عينيك تمتلئان استرحْ يا أخى للبكاء واسكبْ دموعَ الندم .

ابن حيون : الآن استرحتُ يا أبا القاسم وانطرح عن صدرى أتونٌ من الحقدِ حملتهُ عشرين عامًا حتى حنى الظهـرَ وأ كلّ الصدرَ وأدنى من القبر .

أبو القاسم : مسكينٌ أنتَ ابنَ حيون إن حقـدَ عشرين عاما لو جمع وقذِف به فى جهنم لكان لها منه وقودٌ لا ينفَد .

ابن حيون : لقد شفيتنى أبا القاسم من ضلالى القديم فأرشدنى كيف أعتـذر الى الرميكية عن سوءِ ظننتُ وبغيض أسررتُ وأعلنتُ وكيف أُكفِّر عما سلف منى فى ذاتِ المعتمدِ من جهرِ السوءِ وهمسه .

أبو القاسم : يغفر الله لك يابن حيون إن الحقـد ما نحرج من قلب إلا دخلته الرحمة وإنى لأرجو أن ستحبّ صاحبيك وترحمهما وتحسن اليهما كلما وجدتَ الى الإحسانِ سبيلا .

| يطوف قيم الخان على الجالسين حتى يقف به الطواف |
| على المائدة التى جلس اليها حريز وابن لا طون |

قيم الخان : لعلّ السيدَيْن قد وجدا الراحة فى هذا الخانِ الصغيرِ ببنائه الكبيرِ بأقدارِ روّادِه ونزلائه ؟

حريز : ومن السيد ؟

ابن لاطون: هذا الأديبُ التميمى صاحبُ الخان وقيّمه .

قيم الخان: لعلى أيها السيدان بحضرةِ الأمير حريز أسد الأندلس وصديقه ابنِ لاطون نمِر الجزيرة .

ابن لاطون: هو ذاك يا أخا تميم . هذا الأميرُ حريز بطلُ الأندلُس وواحده وأنا ابن لاطون خادمُه وكاتبُ ديوانه .

قيم الخان: ياطيبَ هذه الزيارة وما أعظمَ شرفى بها ، لقد مر بنا أيها الأمير منذ ساعةٍ ركبان حدثونا العجب عن ذلك السباق الذى أقامه ملك الفرنجة ألفونس فى معسكره إكرامًا لك وحفاوةً بك وخبرونا كيف احتلْتَ على الطاغيةِ فمرقتَ من ذلك الجيش الجرار ناجيا بجوادِك الصاعقة وظافرا بالأميرِ بطرس شقيق الطاغية .

حريز: وكلاهما الساعةَ تحت سقْف خانك هذا . ففى بعض غرَفه بطرس أمير الأسبان يأخذ قسطه من الراحة . وفى الإسطبل الصاعقة أمير الجياد يُعلف ويستجم .

قيم الخان: يافرحا ياشرفا . أخو الطاغية أسيرٌ فى خانى نبأٌ والله عظيم لا تطلع شمس الغد حتى ينتشرَ فى الأندلس فتشتغِل الدنيا بالتميمى ويهتم بخانه الناس .

حريز: والصاعقة أمير الجياد أنسيتَه يارجل؟ إن اسطبلك ليَتيه بهِ على مغانى الفرنجة وقصورِهم فاذهبْ فمر رجالك أن يعتنوا

به وليأتوا بما كان عليه من الأمتعةِ والأسباب فيضعوا ذلك كله فى هذه الزاوية من الخان .

قيم الخان : سيكونُ ما أمرتَ ياسيدى .

[يخرج الأمير بطرس من غرفة الخان]

[فينهض حريز وابن لاطون حفاوة به]

الأمير حريز : الأمير بطرس ؟ لعلك أخذتَ قسطك من الراحة .

الأمير بطرس : أجل قد استرحتُ يا حريز والآن خبرنى ما أنتَ صانع بى لقد أصابت الحُبالة فما أنتَ صانعٌ بالصيد .

حريز : إنها أيها الأمير حُبالةُ كريم . .

بطرس : ولكنى على كل حال أسيرُك ياحريز .

حريز : أجل ولكنك الحاكم فى الأسر .

بطرس : لم تنصف أخى الملك ياحريز . اطمأنّ إليك فخدعته ووثِقَ بك وخنته وأطلق لك جوادَك الصاعقةَ وأسرتَ أخاه .

حريز : نحن فى حربٍ معكم أيها الأمير والحرب لا تُسأل عما تفعل وأنا صاحبُ حصنٍ للعرب يحاصره أخوك وفى الحصن أبطالٌ لا يعرفون الخوفَ ولكنهم بَشرٌ يعرفونَ الجوع . ومنهم المرأة والصغير والشيخ الفانى الكبير، وحصنى يوشك أن يسقط بعد طولِ الحصارِ وضيقه .

بطرس : إذن يهمك أن يخرج النساء والأطفال والشيوخ من الحصن .

حـــريز : أراكَ فهمتَ أيها الأمير .

بطــرس : إذن فاعلم ياحريز أَنك إن خلَّيتَ الآن سبيلى فرجعتُ الليلةَ إلى معسكرى وقــومى فإنه لا يُصبح الصبحُ حتى يطلق سراحُ كل من فى حصن رباح وينالهم من برأخى وعطفه ما ينسيهم جراحَهم ولا ينزَع من رجالك سلاحُهم بل تُترك للأسد أظفارُها .

حــريز : هذا ما أبغى أيها الأمير .

بطــرس : وأىّ الأقسامِ تريد أن أعطيك عليه ؟

حــريز : إن الرجلَ الشريفَ كلمتُه قَسَمٌ وإشارته يمين، فأنا أكتفى بما سمعتُ من وعدِك فانطلق الآن محروسا بعناية الله وعد لأخيك الملك فبلغه تحيتى وإجلالى وخبره بأن ربحى من ذلك السـباق كان عظيما فقــد غنمتُ صحبةَ أخيه الأمير النبيل الكريم وغنمتُ أيضا خلاص رجالى فى الحصن . وخرجتُ فوق ذلك من الميدان بكنوز طُلَيْطُلَةَ وجواهرِ ملوكها بنى ذى النون .

الأمير بطرس : كنوز طليطلة؟ خرجتَ بها بين عين الجيش وأذنه؛ يالك من داهيةٍ عتيد . أكانتْ هذه الكنوز معكَ حين أتيتَ للعسكر؟

حريز [ضاحكا] : كلا أيها الأمير بل كانتْ فى طليطلة وفى خزائن ملوكها

بنى ذى النون وإنما احتلتُ حتى حملتْ إلىّ مع الصاعقة
إذ أمر أخوك الملك أن يذهب الى المدينة المحصورة من
رجاله ورجالى من يأتى بالصاعقة .

بطرس : عجبا . لقد رأيتُ الصاعقة حين جىء به من طليطلة فلم
أرَ عليه شيئا من الأحمال والأثقال فهل كان يحمل فى بطنه
الكنوز ؟

حريز [ضاحكا] : ولم لا تقول إنها كانتْ على ظهره أيها الأمير ... ...
(مناديا) يا تميمىّ .

التميمى : مولاى .

حريز : إدفع الى الأميرِ جوادَه قيصر وشيِّعه بفارسين من أشد
رجالك يرافقانِه حتى يبلغ خطوط الفرنجة .

بطرس : فى حفظ اللهِ يا حريز .

حريز : بذمةِ الله أيها الأمير .

[يخرج حريز مشيعا الأمير بطرس الى باب الخان
ويعود فيجلس على مائدة مع ابن لاطون]

ابن لاطون [يسأل حريز همسا] : لقد ذكرتَ أيها المولى كنوزَ طليطلة
للأمير الأسبانى فأين هى منا الآن ؟

حريز : هى معنا يابن لاطون بين أعيننا وفى خفارةِ سيفينا ولكنك
لا تراها ولا يقع فى وهم واهمٍ بأى موضع هى من الخان .

[يسمع من خارج الخان مناد ينادى متغنيا]

المنادى : أنا ذا طاهٍ أتاكم من شريش بقطائف

من يذقْ حلواىَ يبرز لحريزٍ غيرَ خائف

حريز : لله ما ألذَّ الصوتَ وما أحسنَ الشعر .

ابن لاطون : وإنا نرجو ألا تكونَ القطائف دونَهما لذةً وجوْدة .

[حريز متجها الى باب الخان]

حريز : تعالَ يا صاحبَ القطائف . أتعرف أيها الرجل حُريزًا الذى أشدتَ بذكرهِ فيما أنشدت ؟

البائع : أو تجهله أنتَ كائنًا من كنتَ وهو عنترةُ البيد وحيدرةُ الحِمى ونادرة الزمان ؛ أعرفُه بأمسِه و يومِهِ كما يعرفه سائر النـاس .

حريز : وكيف صفتُه ؟

البائع : رجل عِمْلاقٌ أشمٌّ طويلُ الساعدينِ عبْلٌ شَمَرْدَل .

حريز : كفى يا شريشى كفى إكشفْ عن بِضاعتـك لنرى أينَ المنادَى عليه من النداء .

[البائع يعرض الصينية مكشوفة]

صوت من الحاضرين : تعالى الله ما أشهى .

صوت آخر : تعالى الله ما أطيبَ .

حريز : بكَمْ تبيعُنى هذه الصينيةَ يارجل .

البائع : كل ما أعطيتَ مقبول أيها السيدُ الكريم .

حريز [و يلق اليه صرة دنانير] : خذْ هذه الصرَّةَ مباركًا لك فيها .

البائع : ولكُمْ فى القطائف أيها الطاعِمُ الكريم .

حريز [للحاضرين] : تعالَوا أيها الإخوان نتقاسمْ هـذه اللقْمَة الطيبة . تفضلوا . أقبِلوا . ذوقوا معنا من هذا اللون الذى ذاعتْ شهرتُه فى البلاد حتى قيل إنّ من دخل الأندلسَ ولم يذقْ من مجبناتِ شريش فما عرف من متاع الأندلس شيئا .

أحد الحاضرين : إن لهذه القطائف لَطيبا يسكِر من بعيد .

[الجميـع يأكلون]

أحـدهم : ما ألذ .

ثان : ما أطيب .

حريز [وهو يأكل ملتفتا الى ابن حيون] : ما بالُ الأديب لا يجيبُ الدعوةَ .

ابن حيون : إنى صائم أيها الأمير .

حـريز : تقبَّل الله منكَ وإن أنتَ لم تَقبلْ منّا .

أحد الحاضرين [على المائدة وهو يأكل] : هـذه المـائدةُ جمعتْ العلَفَ والشرفَ . فوالله ما كان أحدكم يحلم أن يؤاكل أسدَ الأندلس .

آخـر : حق إن هذا لهو الشرفُ العظيم .

[يفرغون من الأكل]

حـريز : يا ألله ماهذا الدوار ؟ ! ابن لاطو ... .

ابن لاطون : وأنا أيضا كأنى داخل فى غيبو ... ... بة .

رجل [لصاحبه] : كيف تجد الدنيا فى عينك ياضبيّ ؟

الضبي : مظلِمةٌ صاعدةٌ نازلةٌ .

الرجـل : وأنا أيضا أجد الدذ ... ... يا .

أبوالقاسم : لقد رُحِمْتَ بصيامك يابنَ حيون فانى أظنّ القطائف طبِخَتْ بالبنج وأخذتْ تصرع ... نى .

ابن حيون [مذعورا] : ياويح للجماعة غودروا صرعى وويح لك أباالقاسم سقطتَ سليبَ العقلِ والحَراك .

[يظهر صاحب القطائف و يصفر فيدخل جماعة من اللصوص] .

ابن حيون [وقد امتلأ المكان باللصوص] : ياألله ! امتلأ المكان باللصوص . الآن تبينت أن القطائف كانت مصيدة لم يعصِمْني منها إلا الصيام .

ثم لنفسه [همسا] : تناومْ يابن حيون "و يتناوم على مقعده" .

صاحب القطائف : يا أصحابَ الباز . غدا يتحدّثُ الأندلس أن صاحِبكم صرعَ الأسـد وأخذ الصاعقة من فارسِه الجبار وقد خصصْت نفسى بأمير الخيل الصاعقة فهو حِصتى من غنائم اليوم وما سواه فهو لكم تقتسمونه بينكم فدونكم الجيوب ففتشوها وعليكم بالحقائب فانبشوها وخذوا أثاثَ الخان وعُروضه، كل ما خفّتْ زِنته وعظُمتْ قيمتُه .

أحد اللصوص : ولكنّ الصاعقة عريان لا سرْج عليه أيها الزعيم .

البازى : بجياد الأندلس جميعا هو كاسيًا كان أو عريانا .

لص آخر : لقد لمحتُ أيها الزعيم فى زوايا الاسطبل سرجًا محلى بالذهب والفضـــة .

الباز : أو أنتم تاركون لى السَّرْجَ المذهَّب المفضَّض أيها الأصحاب؟

اللصوص : نحن وما نملك للزعيم .

الباز اللص : إذن فاسبقْنى يا شهابُ فضع السرجَ المذهبَ على الصاعقة وانتظرنى هناك .

[يأخذ اللصوص فى السلب والنهب و ينسلون واحدا إثر واحد بما حوت أيديهم و يبقى رجل منهم فينحنى على سرج عاطل يتأمله و يظن ابن حيون المكان قد خلا فيستوى فى مجلسه و يقع نظر اللص عليه فيرمى السرج العاطل عليه قائلا ...]

أحد اللصوص [لابن حيون و يرمى عليه السرج العاطل] : خذْ يا شيخَ السوء هذه الخشبَة لعل فيها العوضَ عما أفاتك الصيامُ من القطائف .

[و يخرج اللص] :

ابن حيون [لنفسه] : شلّتْ يدُ اللص ، لقد قذف السَّرج بقوةٍ حتى كسرهُ ولو أصابنى به لتركنى جثةً بلا روح ، يا لله . تُرى أىُّ شىء فى فروج هذا السرج .

[يدنو منه و يمسك به ثم يتأمله و يدس فيه يده]

ربِّ ما هذا الحصى ؟ أى مجنون يملأ سرجه بهذه الأحجار ... !

[ثم يستخرج عددا من الأحجار البارقة و يقلبها بين يديه مذهولا قائلا] :

لآلئ ! يواقيت ! أبا القاسم قم فانظر إن الذى حشا

رأسَكَ بالعِلْمِ والفِقه قد حشا رُدْنى باللآلئ واليواقيت .

[ثم لنفسه] يا ابن حيون أين يُذهبُ بك ؟ هذا كنزُ ملِك عظيم من أقيال الروم جدّ به الحرصُ وخاف امتدادَ الفتنة الى كنزه، فاختار له هذا السرج البالى وفى نفسه أن يصونَهُ أو يموتَ دونه فأخلفَ الدهرُ ظنونَه .

[يجمع اللآلئ بين الدهشة والاضطراب و يقول] :

ابن حيون [و ينظر الى اللآلئ] : لآلئ! يواقيت! ماس! زمرد!

رباه هذا عجل الذهب ، هذا هو معبودُ الناسِ بعدَك

هذا هو المـال .

ستـــار

الفصل الثالث

« بستان أمام دار أبي الحسن . الى يمينه باب الدار ومن ورائه شاطئ »
« الوادى الكبير — أبو الحسن جالس فى هـذه الساحة و بين يديه »
« تابع له هو (سـعيد) و جماعة بالقرب منه من السماسرة يتهامسون »

أبو الحسن : ما هـذا ؟ ما أرى ؟ إنى لا أعرف هذه الوجوه ؛ فمن الرجالُ يا سعيد وما يبتغون ؟

سـعيد : هـذه الوجوه تحومُ على الدارِ منذ حينٍ يا مولاى وتسألُ عن أجزائهـا وتستفهمُ عن مشتملاتها ؛ وتتحـدثُ عن المكتبةِ خاصة وما عسى تضم من نفائسِ الأسفار .

أبو الحسن [رافعا وجهه الى السماء] : لطفكَ اللهم ! لقد لهِج الناس بالنكْبةِ واشتغلوا بالمنكوب ، وما أولع الناسَ بالناس .

[ثم الى الرجال] : أيها الرجال تعالَوا فان كنتم ضيوفًا فيامرحبًا بكم ، و إن كانتْ لكم حاجاتٌ تريدون قضاءَها فهاتوا آذكروا .

احـدهم : إيذن لى يا سـيدى التاجر أن أصارحَك القولَ فليس

مركزك بسرٍّ ، والدارُ معروضــة لا محالة ، فلنبعْها اليوم ، فقد تغبن جدّا فى الغد .

أبوالحسن : أتُشـفِق على الدارِ أن يكسد سـوقها فى غدٍ ؟ أم تشفق على نفسِك أن يكون السمسار غيْرَك ؟ ... بِكَمْ قوّمتمُ الدارَ أيها الوسيط المجتهد ؟ وأىّ ثمنٍ تعطون ؟

أحـدهم : عندى المشترى لهـا بخمسين ألف دينار يا سيدى التاجر . تحمل اليك فى الصباح إن قبلت .

أبو الحسن [الى الثانى] : وأنتَ فماذا عِندك ؟

الثانى من السماسرة : عندى الراغبُ الذى يزيد خمسةَ آلافِ دينار .

أبو الحسن [مشيرا الى الثالث] : وهذا الثالثُ الآخَر . ماذا عندَه ؟

الثـالث : عندى أيها السيد أن صديقا لك لا أسمِّيه يريد أن يشترى مكتبَتَكَ بالثمنِ الربيح فهل أنتَ بائع ؟

أبوالحسن [فى غضب] : والمكتبةُ أيضا أخذوا يتحدثون فى شرائِهـا ! ووسادتى وفرشُ نومى أما لها عنـدك من طالب أيهـا الرجل ؟ أُعزُبْ عنى ! أعزُبْ وخذ صاحبيْـك معك وانطلقوا . إن النكبة لم تبلغ بعـدُ تمـامَها ولم نَبلغ معها الى اليأس .

[يقترب شيخ غريب الثياب ملتفتا الى الرجال الثلاثة قائلا]

[المغربى الشيخ] : تلك واللهِ وقاحة !

أحد السماسرة : عجلتَ فيها يا وجهَ النحْس !

[ينصرف السماسرة] .

أبو الحسن [يناجى نفسه] : ظهـرَ فيكِ السمسارُ يا دار ! اللهـم أنتَ أعطيتَ وأنتَ أخذتَ وأنتَ تعلم أنى لستُ التاجرَ اللّص ولا المحتال ، فالطف بى فيما قضيتَ وأعِن ولدى حسوناً على ما يواجِه من فِرار النعمةِ وانتقالِ الأيام [ثم يشعر براحة و يقبل على الشيخ المغربى قائلا] : وأنت يا شيخَ البربر ماوراءَك ؟

المغـربى : أنا زائر ياسـيدى التاجر . وربمـا كلمتك فى شأنٍ يكون فيه ارتياحك ورضاك .

أبو الحسن : مرحبا بالزائر . تعالَ يا سـيدى نتحدثْ على هذا الفضاء الطلق . وفى ظل هذا الروضِ الكريم [يسيران قليلا ثم يجلسان] .

المغـربى : أنا يا سـيدى التاجر رجلٌ من أغنياءِ المغرب . حبَّبَ الله إلىَّ السـياحةَ فى أرضِـه . أجوبُ مذ كنتُ البر وأرفعُ شِراعَ البحـر . الى أن دفعتنى الأسـفارُ منذ أيامٍ الى مدينتِكم هـذه أشبيلية الغنّاء وكنتُ سمعتُ عنهـا وقرأتُ الشيءَ الكثير . فلما نزلتها ودخلتُ فى مواضعِها وخرجتُ ملأتْ نفسى وشـغَلتْ خاطرى . فاعتزمتُ أن أجعلَها قرارى ومُلقى عصاىَ فى رِحلةِ الأيام .

أبو الحسن : ما أسعد أشبيلية يا سيدى بابنِها الجديد البار .

المغـربى : مهلا يا سـيدى التاجر وخذ الحـديثَ الى آخره ، لم يبقَ

فى نفسى من هوى الأسفارِ إلا جولةٌ أجولها فيما وراء هذا الأندلُس من ممالكَ للفرنجة وديار . فاذا كتبَ الله لىَ السلامة، أتيتُ هذه المدينةَ فاتخذتُها وطناً وديارا .

التاجرأبو الحسن : مشيّعا بالسلامةِ والكرامة .

المغـربى : ولكنى مزمِعٌ سفراً شاقا بعيدا . وما يدرِى المسافر ما وراء الغربةِ من الفُجاءاتِ ،وما تدرى نفْسٌ بأى أرض تموت، ومعى يا سيدى من كريم الجوهرِ ونادرِه ما أخشى عليـهِ السّرقة أو الضّياع وأنا منقطعُ الوارثِ لا أهلَ ينتظرونَنى ولا ولد، ولقد مررتُ بدارِك هـذه مرارا فكنتُ كلما زدتهـا تأملا زادتْنى بهجةً وروعةً . حتى حدثتنِى النفسُ بشرائِهـا .

أبو الحسن [فى غضب] : أأنتَ أيضا ياسيدى أتيتَ تساومُنى فى الدار !

المغـربى : دعنى أستتِمّ يا أبا الحسن فإنى جاد! ما أنا بالمساومِ ولا بالرجلِ الذى يلتمس الفوائدَ لنفسِه من مصائبِ الناس؛ ولكنى جئتُ أخطبُ اليـك الدارَ وأَجعَلُ مهرَها ما أُقـدّرُ أنا لا ما تقدرُ أنتَ ولا الناس .

أبوالحسن: ماذا تريدُ ياسيدى؟ بيّن! صرّحْ! إنى لا أفهمُ ما تقول!

الشيخ المغربى [و يخرج عقد لؤلؤ من كمه] : هذا عقدٌ من كبيرِ اللؤلؤِ وخالصه قيمتُه زُهاء المـائةِ ألفِ دينار نقدُه ياسيدى ثمنـا لدارِك

وأبقَ فيها وآحرسها لى حراسة القيِّم الرفيق . فإن لقيتُك سالما بعد ثلاثةِ شهورٍ تمضى من يومنا هذا نزلتُ فى دارِى ؛ وإن مضتْ هذه المدة ولم أعد ، بقيتْ عليك الدار مباركًا لك فيها ولوَلدِك .

أبو الحسن : ولكن يا سيدى هذا الثمنُ كثيرٌ جدا لدار يشتغل بها الآن السمسارُ والدّلّال .

المغربى : بربك أيها السيد لا تُعرِض عن خيرٍ ساقه الله اليك ولا تقِف لأهلِ المروءات فى سبيلهم ولا تستنكرْ على رجلٍ قد زاد مالُه حتى ما يدرى ما يصنعُ به أن يُعين بفضلةٍ منه كريمًا مثلكَ طالما آسى الجروحَ وأقالَ عثراتِ الكرامِ فأجِز الصفقة يا سيدى أجزْها .

أبو الحسن [ينظر الى العقد قائلا] : أمائةُ ألفِ دينار ؟

المغربى : أجل يا سيدى فى أقل تقدير .

[أبو الحسن يأخذ العقد ويتأمله ويقلبه وفى هذه اللحظة يرسو شراع فتنزل منه بثينة متنكرة فى ثياب شاب ومعها جوهر ولؤلؤ]

أبو الحسن : ما ذا أرى ؟ ماهذا الشراع ؟ مَن الفتْيةُ ياترى ؟ إيذن لى أيها الزائرُ الكريم وانتظرنى فإنى عائد اليك من فوْرى .

[يتجه أبو الحسن نحو القادمين من الشراع . المغربى يزيل تنكره فاذا هو ابن حيون . حسون يلمح ابن حيون من داخل الكشك فيناديه من وراء مجلسه] .

حسون : تعالَ يابنَ حيون ألاعبْكَ الشطْرنج .

ابن حيون : لبيْك ياسيدى حسون .

[ويدخل ابن حيون الى حسون عند اقتراب أبى الحسن من القادمين يسارع اليه ابن غصين ولؤلؤ وجوهر] .

ابن غصين (بثينة) : السلامُ عليكم ياعمّ .

أبوالحسن : وعليكمُ السلامُ يابنىّ .

ابن غصين : لمن ياعمُّ هذا القصرُ المنيفُ وهذه الربوةُ الغناء ؟

أبوالحسن : هذا الكوخُ يابنى لخادمِكم أبى الحسن التاجر .

ابن غصين : تسمِّى غرفةَ الفردوْس كوخا ! هذا منتهى التواضع ياسيدى التاجر .

أبوالحسن : ومن السيِّد ؟

ابن غصين : ولدُك ابنُ غُصين من أبناء أعيان قرطبة، وهذان جوهر ولؤلؤ صاحباى ورفيقا سفرى .

أبوالحسن : مرحبا مرحبا بشباب قرطبَة النابهْ . إنى أرى الدار قد أعجبتكم يابنىَّ وإنه ليسرُّنى ويشرِّفُ قدرى أن تدخلوا فتقضوا ساعة معْ ولدى حسون فإنى أرى عليكم الفضلَ والأدبَ والمجادَةَ ، وحسون لا يصاحبُ ولا يجالسُ إلا أهلَ الفضلِ والنُّبْلِ ، فتفضلوا أيها الأدباء وشرِّفوا أخاكم بزوْرة وأنتم واجدون عند حسون كل ما يشتهى

النشءُ المثقّفُ ، ففى خزانته ما قدُم وما حدُث من آلات الطربِ حتى عود زرْياب .

جوهر [يصيح] : عودُ زِرْياب ؟

أبوالحسن : أجل يابنى ذلك العودُ الذى على أوتارِه كان عوّاد الأندلُس يُسمِع الخلفاءَ ما توحِى اليه الجن من روائع الألحان وتجدون كذلك عند حسون مكتبةً لم يُجمع مثلُها فى البلاد . قد حوتْ الذخائرَ فى كل علم وفنّ .

ابن غصين : وكيف ولعُ فتاك ياسيدى بعلم الفلكَ ؟

أبوالحسن : أشد الولع يابنىّ وقد جمع الكثيرَ من نفائس المخطوطاتِ فيه وفى أولها رسائل المنجم الضبىّ .

ابن غصين : المنجم الضبى ؟

أبوالحسن : أجل يابنىّ وأذكر أنه من شهرين أو أكثرَ أو أقلَّ ، قد انتهت الى حسون رسالةٌ مما وضع الضبى فدخلَه من ذلك فرحٌ يشبه الجنون .

ابن غصين [لنفسه] : رسالة للضبى من شهرين أو أكثر أو أقل ؟ ! بشراك ياقلب إنه هو ، وبشراكِ ياصين ستكتحلين به الساعة [ثم الى أبى الحسن] لقد شُقْتنا الى ولدك الفاضل أيها السيد فأين من يستأذن لنا عليه ؟ .

أبوالحسن : يامرحبا ! يامرحبا ! ما أعظم حظ حسون . إتبعون ياسادة اتبعونِ ، فإنى دليلكم الى ناديه ، و إنى أرجو أن

سيُعجبكم ، إن حسون شابٌّ قد ألقى اللهُ عليه محبة للناس .

[أبو الحسن مع ابن غصين ورفاقه يقفون أمام
كشك حسون . ابن غصين يلحظ لعبة الشطرنج] .

أبوالحسن [لابن غصين] : هو ذا حسون ياسيدى يلعب الشطْرنْجَ
مع صديقٍ لنا قديم كريم لاتخلو منه الدارُ ساعة .

[أبو الحسن ينادى ابنه] .

أبوالحسن : حسون يا ولدى .

حسون : لبيْك .

أبوالحسن : هذا ابن غصين من نبلاءِ فتيان قُرطبةَ ومعه صاحباه ورفيقا
سفرِه يريدون أن يجتمعوا بك ساعة .

حسون : يامرحبا ! يامرحبا ! أهلا وسهلا بالسادة .

أبوالحسن : لقد جمعتُك بضيفانِك الكرام ياحسون والآن أتركُكُم
فى حراسةِ الله لأعود الى زائرِى المغربى فإنه بانتظارِى
وأخافُ أن يأخذه القلَق .

[أبو الحسن يرجع يفتش عن المغربى فلا يجده] .

أبوالحسن : ياالله . أين الشيخ ؟ أين ذهب [مناديا] سعيد .

الخادم : لبيك يامولاى .

أبوالحسن : ماصنع الله بالشيخ المغرِبى الذى كان ههنا منذ لحظة ؟

سعيد : لا أدرى أين ذهب يامولاى .

أبوالحسن [ينظر فى يده وكان قد نسى فيها عِقدَ اللؤلؤ] .

أبوالحسن [لنفسه] : ويْحِى ما ذا أرى ! هذا عقدُ اللؤلؤ فى يدِى نسيتُه

فيها يا نجلا ! ماذا يقولُ الرجلُ عنِّي ؟

ابن حيون [من داخل الكشك] : سيدى أبا الحسن لقد لمحتُ زائرك المغربي خارجا من الدارِ يُهَرول فعبثًا تبحثُ عنه .

[حسون مع ابن غصين ورفاقه وابن حيون] .

ابن غصين [لنفسه] : إلهى . صدقنى القلب ما حدث وقلّما تكذب القلوب، هذا هو شاب قرطبة الذى لم يخل منه القلب دقة [ثم الى حسون] الآن صَدَقتنى الذاكرةُ فنحن ياسيدى قد تعارفْنا قبل اليوم .

حسون : وأين كان ذلك ؟ وكيف نلت هذا الشرف ؟

ابن غصين : فى سوق الكتب بقرطبة من نحو شهرين أو أقلّ أو أكثرَ.

حسون : لله ما أعظمَ حظِّى . أنتَ والله ياسيدى ذلك الفتى الملثّم الذى نازعتُه رسالةَ الضبيّ ونازعَنيها حتى غلبتُه عليها . نعم أنتَ هو، وهذا صوته، وهذه شمائله، فكيف اهتديتَ الى كوخى أيها السيد العزيز؟ يامرحبا ! يامرحبا ! جعلها الله بيننا صداقة الدهر .

ابن غصين : ولكن أنتَ ياسيدى تلاعبُ صاحبَك الشطرنج وأخشى أن أقطعَ عليكما لذّة اللعِب .

حسون : لا ياسيدى هذه لذة نجدها فى كل وقت وأما لقاؤكم والأنس بكم فلذةُ الدهرِ وخِلسةُ الأيام . تفضلوا ياسادة .

ابن غصين [لجوهر همسا] : إجتهد ياجوهر أن تلاعبَ هذا الشيخَ وتشغَله حتى يخلو لى وجه حسون .

ابن غصين [الى لؤلؤ] : وأنتَ يالؤلؤ إذا أخذا فى اللعب فقمْ عند رأسيهِما ولا تدعْهما حتى أهمّ بالانصراف .

جوهر [الى ابن حيون] : أتأذن ياسيدى أن أحلّ محلّ السيد حسون فى ملاعبتِك .

ابن حيون : تفضل ياسيدى خذ مكان حَسون وأرخْنى من قُدرته العجيبة على الظفر بالملاعبين ، ومن حظّه الذى هو أعجبُ من قدرته .

ابن حيون [الى لؤلؤ] : وأنتَ ياسيدى أتحبُّ أن تكونَ من النظّارة ؟

لؤلؤ : ياحبذا لو أذنتَ ياسيدى .

[يتأبط ابن غصين ذراع حسون و يبتعدان ناحية] .

ابن غصين : أحقٌّ أننا التقْينا ياحسون ؟

حسون : أجل ! وكنا نظن ألا نلتقى .

ابن غصين : عنايةٌ ولطفٌ وتوفيقُ أقدارٍ لأقدار .

حسون : وقديما جمع الله الشتيتين ، وطوى الأرض للبعيدينْ [يجلسان] .

ابن غصين : أتذكر يا حسون قرطبةَ وسوقَ الكتُب ؟

حسون : أجل وأذكر رسالة الضبى وكيف كنا نتنافسُ فيها ، وكيف غلبتُك عليها .

ابن غصين [مبتسما] : وأين هى الآن يا أخى ؟

حسـون : هى هاهنا يابن غصين بالقربِ منـك وفى متناوَل يدِك ، إن شئتَ انتقلنا الى المكتبة فأخذتَها .

ابن غصين : لا يا أخى بل دَعها فى موضِعها من خزانتك فإنها عنـدك فى الحفظ والصوْن وكأنها عنـدى، ويكفينى نظرة ألقيها على الرسالة من حينٍ لحين كلما جئتُ دارك زائرة .

حسون [فى دهش] : زائرة ؟

ابن غصين [لنفسه] : ويحَ لسانى قد عثَر وكشف السرَّ القدر! .

حسون [مبتسما] : كيف تأنثتَ أخى؟ ما أنتَ الفتى الذكر؟ أما كفاك هـذا الصوتُ الساحر الرنّة اللذيذُ النّبْرة حتى جمعتَ اليه أنوثةَ اللفظ ولينَ الكلام ؟

ابن غصين [فى تلجلج وغضب] : عثرةُ لسانٍ يا شاب فمرّ عليها مرّ الكرام .

حسـون : وما أثارك يا أخى وليس فيما قلتُ ما يُغضب ؟

ابن غصين : لنطوِ هـذا الحديثَ ولنرجعْ لما كنّا فيه ... أما يسرّك يا حسون أن أختلق لزيارتك العِلل والأسبابَ وأن أجعلَ رسالة الضبى سلّمًا الى دارِك كلما اشتقتُ اليك ؟

حسـون : كلّ السرور يابن غصين، أنا واحدُ أبى لم أعرِفْ عاطفةَ الأخـوّة ولم أجدْ لهـا حنانا ولا رقةً ويخيّـلُ إلىّ منـذ عرفتُك أن قلبي يفيض منها وأن وجدانى بها مترَع؛ فهل ترضانى أخا لك شقيقا برًّا بك شفيقا ؟

ابن غصين [ويتنهد] : يا مرحبا و إن كنتَ حللتَ من قلبي محل أخي الظافر من أول يوم .

حسـون : ويح أذنى ما أسمع ؟ وما أنتَ من الظـافرِ يابن غصين ؟ وما الظافرُ منك ؟

ابن غصين [ويتلجلج فى الجواب] : عثرةٌ أخرى ، ويحَ لسانى اختلَّ عصبُه واختلط عضَلُه ، إغفر لى هذه أيضا وآنسها يا حسون .

[وكان ابن غصين ينظر الى رباط بذراع حسون فوثب فى الحـديث وقال :]

ابن غصين : وقى الله ذراعَكَ بيمينه يا أخى ، ما هذا المِنديل؟ ما وراءه؟

حسـون ؟ جُرحٌ اندملَ أكثرُه وبقِىَ أثرُه .

ابن غصين : بَعُدَ عنك الشرُّ يا أخى ، من جرحَك ؟

حسـون : هذا واحد من جراح لم يكن يُرجى أن أقومَ منها لو لم تُلْقِ عليها العناية يدها الآسية الشافية .

ابن غصين : بالله إلا حدّثتنى حديثك . أطلَعَ عليك اللصوصُ يا أخى فى مكان خالٍ من النـاس فأبليْتَ فيهـم وأبلوْا فيـك ؟ أفاجأتْكَ عِصابة البـاز بنِ الأشهب فجرحتَ رِجالهـا وجرحوك ؟

حسـون : لا يا سـيدى إن القتالَ الذى شهدتُ أعظمُ شأنا وأنبلُ أقرانا مما ذهبتْ اليه ظنونُك .

ابن غصين : وما خبره وأين كان وكيف ؟

حسـون : كان ذلك فى قرطبة .

ابن غصين : قبلَ تلاقينا فى سوق الكتب أو بعدَه ؟

حسون : بل بعد ذلك بأسابيعَ وكنتُ نزيلا على بعض خانات المدينة فكان من عجائب القدر أنى اكتشفت مؤامرة تدبر فى الخان لاغتيال الأمير الظافر وإزالة إمارته عن قرطبة وكان شيطان الفتنة ورأسُ أفعاها هو الأمير حريز بطل الأندلس المشهور فما اطلعتُ على سر المؤامرة وخطط أصحابها حتى ثار ثائرى وغضبتُ لوطنى ولقومى فانسللتُ من الخان ليلا وركبتُ جوادا كان معدّا ليركبَه بوقِ الثورةِ والفتنةِ فعدوتُ حتى أتيتُ قصرَ السوسان فنبهتُ الأميرَ وحاشيتَه وحرسَه ولم أكن الى تلك الساعة رأيتُ الظافر وجها لوجه ولا حضرتُ له مجلسا وتأهبَ الجميع للقتال وما لَبِثَ الثوارُ أن طلعوا علينا آتين من نواحى المدينة يقودهم بطل الأندلس حريز فتلقيناهم بصدورٍ قد رحَّبَتْ بالموتِ ونفوسٍ قد هشَّت اليه وذكرنا إذ ذاك الوطنَ وحقَّه وأشبيلية ومنَّتها فى الأعناق فحملنا حملةً تحيد عنها الجبال . وكان الظافرُ طيب الله ثراه .

ابن غصين [منزعجا] : حدّثنى يا سيدى عن الظافر، قل لى كيف قاتل ؟ وكيف قتله الغادرون ؟

حسون : تسألنى عن الظافر كيف قاتل ؟ سلْ حريزا عنه فهو ينبئك أنه الأسد .

ابن غصين : وأين كنتَ من الأمير فى ساعة البأس يا سيدى ؟

حسـون : كنتُ حوْله أحمى ظهرَه و يشدّ سيفى سيفَه الى أن ناءتْ به جراحاتُه فسقط عن جواده وكنتُ أنا أيضا قد أُثخِنْتُ بالجروح فسقطتُ الى جنبه حتى اذا أفقتُ من غشيتى نظرتُ حولى فرأيتُ عند رأس الظافر هذا الصديقَ الذى تراه يلاعب صاحبك الشطرنج الآن .

ابن غصين : وما اسمه يا سيدى ؟

حسـون : ابن حيون وهو من رجال العلم والأدب .

ابن غصين : وماذا كان من اهتمامه بالقتيل ؟

حسـون : طبَعَ على جبينِه قُبلة و بكاه ورحّم ثم ألقى عليه رداءَه .

[ابن غصين يدخل فى الاغماء]

حسـون : ما هـذا ؟ ماذا أرى ؟ ما أصابك يا أخى ؟ ما لعينيْـك تغمضان ؟ وما بال رأسِك يميل ؟ ويحى ماذا جنيتُ على الشاب ؟

قد كان عن حديث الظافر لى غِنىً. ربّ أصاحٍ أنا أم حالم ؟

[وعند ما يميل ابن غصين فى الاغماءة تقع القلنسوة]

حسـون : هذه ضفائر فتاة قد هوتْ عنها القلنسوة فانسدلتْ كجنحِ الليل على جبينٍ كغرّةِ الصباح . أيها الملكَ الكريم لقد عبثتَ بى إذ كنت تتنكر وتترجل فاعبث اليوم بقلبى ما بدا لك

فقــد دبَّ لك الهوى فيــه، إنْ شِئتَ فتنكر، و إن شئت فاظهر فلأ كتمنّ حديثَك ولأقدّ سنّ سرّ هواك أن يذاع، ويلاه إن الإغماءَة قد طالتْ . ابن حيون ... ابن حيون .

ابن حيون : لبيك يا سيدى .

حســون : أنا فى حاجةٍ إليْك تعالَ وحدَك أسرِعْ .

[يحضر ابن حيون]

حســون : ابنَ حيونــ أنظر ما ذا ترى لقد أُغمِى على ابن غصين فاذا الظبيُ مهاةٌ واذا البَدْر يابنَ حيونَ شمس .

ابن حيون [بعد تأمل عميق] : يا لغرائبِ القدر هذا الوجه عرفته وعشِقته قبل عشرين عاما من هذه الأيام وقد لقِيتُ بعِشقه الدواهى .

حسون [مندهشا] : قبل عشرين عامًا من هذه الأيام! أهازلٌ أنتَ ياعمّ؟

ابن حيون : بل جادّ كل الجــدّ يابن أخى . اسمع حسون هــذه بنتُ الرميكية . هذه أختُ الظافر . هذه بنت ابنِ عباد .

ســـتـــار

الفصل الرابع

« بإحدى مقاصير قصر الزاهى »

« العبادية والدة الملك ابن عباد مع بثينة »

العبادية : لقد علمتُ يا بثينةُ ما كان من زيارتِك لدار التاجر أبى الحسن وجلوسك ساعة مع ولده حسون، وأنكِ كنتِ فى زِى الغلامِ وكان معَكِ لؤلؤ وجوهر .

بثينة : ومن خبّرَكِ الخبَر ياجدّة ؟

العبادية : عينٌ من الحب وكلتها بكِ ترعى خُطاكِ وتحرُس حركاتِك وسكناتِك وإن كنتُ عظيمةَ الثقة بنفسِك الأبيّة العالية وخُلقكِ الفاضل الشريف .

بثينة : أنتِ إذن يا جدّة كالمنصورِ بنِ أبى عامر لكِ فى كل نادٍ عين، وفى كل سامرٍ أُذن .

العبادية : لا بل أنا عجوزٌ يا بثينةُ والعجائزُ يتلمسنَ الأخبار ، وأنا أرملُ ملكٍ وأمُّ ملكٍ يتجسس لى من لم أندبْه للتجسس ويجيئنى بالأخبارِ من لم أزوّد . ومهما يكن من الأمرِ

يا بثينة فلا تنسىْ أننا ما أرخينا لكِ الحبلَ إلا ونحن نعلم أنكِ الفرسُ النجيبةُ التى إذا أُرخىَ لها الرسنُ لم يُخشَ لها جِماح ولا شرود .

بثينــــة : جعلنى الله عند ظنكم يا جدّة . وببّغاؤكِ "نادر" يا جدّة أنسيتِهِ ؟

العبادية : كيف أنساه يا بثينة وقد كان لدىّ كريما وكان سيدَ الطير وكان أخفَّها ظلا وأبيَنَها حكاية ونقلا .

بثينــــة : أتذكرين يا جدّة كيف أشفقتِ عليه فلم ترضَىْ أن يُنْزَع من ريشِ جناحيه كما يَصنع الناس بالطيرِ الكريم فيأمنون طيرانه وفراره ، وإنما اكتفيتِ بوضع حَلْقةٍ صغيرة من الذهب فى رجلِهِ اليمنى تمنعه من النهوضِ وتقيده وإن كان فى الظاهرِ حرا يتنقّل فى نواحِى القصر .

العبادية [مندهشة] : وماذا أخطر ببّغائى نادر على بالكِ يا بثينــة وماذا تريدين بذكر الحلْقة .

بثينــــة : أريد أن أقولَ لكِ يا جدّة إن حالى كحالِ المرحوم نادر . قيدتمونى بجوهرٍ ولؤلؤ ومقلاص وبالعيون والأرصاد ثم زعمتم أنى حرةٌ طليقةٌ أفعلُ ما أشاء .

العبادية [مبتسمة] : ولكن لا أظن حلقةَ الذهب تُثقل رِجْلكِ يا بثينة فانى أرى خدمَ أبيك الملك لا يقصرون فى صحبتِكِ عن

خدْمةٍ ولا طاعة . على أن كل هذا لا يهمُّنى إنمـا يهمُّنى أن أعلمَ رأيكِ فى الشاب وكيف وجدته . وهـل هو على جانبٍ من الفضلِ والعقل يتميز به عن اللِّدَاتِ ويسمو به على الأتراب ؟

بثينـــة : أما هذا ياجدّة فنعم ، حسون فتى جمُّ العـلم غزيرُ الأدبِ عظيم الحظ من الفنون جميعا الى ما وهب له الله من الشجاعةِ التى لا يضارعه فيها اليوم إلا أبى الملك وإلا شابٌّ كان زينَ الشباب ، طاح بالأمسِ شهيد الكرامة والواجب .

العبادية : أو أبدًا تذكرين الظافر يا بثينة ، دعيه يا ابنتى فى أعراسِ نعيمه بين شبابِ الجنة ، خبّرينى هل فى شبانِ أمراءِ الديارِ اليوم من هو الكفء لأميرةِ الأندلسِ وعروسه ؟

بثينة [فى حياء] : هبِى الكفءَ موجودًا حاضرًا يا جدّة . أهذا وقتُ الفكرِ فى زواجى والاهتمامِ بهِ وأنتِ ترينَ الحوادثَ يجدّ جِدّها والأمورَ تسوء مصايرُها . مسكينٌ أبى الملك أصبح لا يدرى من أين يتلقى البلاء : المغاربة وسلطانهم ابن تاشفين يطلعون من البحر ، والأسبان وعاهلهم ألفونس يزحفون من البر ، والملك بينهما كالصيدِ المطارَدِ من جانبيه ، إن تلفّت عن يمينه قُتِل ، وإن تلفّتَ عن شمالِه أُكِل ، والأندلس فى هذه الأثناء كالأسدِ الواقعِ فى الحفرة إن سكن

لم ينفعه، وإن تحرك لم يرفعه، وحدة ممزقة، وكلمة متفرقة، وآمال بالعدو معلّقة .

العبادية : إن بناتِ الملوك إذا بلغْنَ الى مثلِ سِنكِ يابثينة كان الزواج أزكى بسترهن وأليقَ بجلالهن، وأما ما ذكرتِ من إظلام الجو وجهامةِ الحوادثِ، فتلك حال اختلفتْ علينا بها السنون حتى ألِفناها وقد تصير الى الأردأ الأسوأ . وقد يبعثُ الله برياحِ اللطفِ فتعصِمُ السفينةَ من الصخرةِ وتقيها كارثةَ الاصطدام . بثينة ! بنيتي أنا الجدّة ولدتُكِ مرتين إستريحي اليّ بسرّك وبُوحي اليّ بمكنونه فلن تجدي أرحبَ بسرك ولا أرحم لكِ من هذا الصدر . خبريني يا بثينةُ أتعرفين بين أبناء سرَوَاتِ أشبيلية اليوم فتى يُتوسّم فيه الخيرُ ويُرْجى فى أمرِه الصلاح، ويقول الناس عنه : فلان كفء لبناتِ الملوك ؟ بثينة . لقد مررتِ باسم حسون مرا ولم تصفيه لى . فما شكله ... وما أوصافه ؟

بثينة : هو يا جدّةُ شابٌ فى أواخر العقد الثالث من عمره، رشيقُ القامة فى طولٍ، أسمرُ اللون فاحمُ الشعرِ جَعْدُه ، ساحرُ النظرة، اذا تبَسّم جذبَ، واذا تكلم خلبَ .

العبادية [مبتسمة] : هو إذن فتى جميلٌ يا بثينة ؟

بثينة : جدا وخفيفُ الظل فوقَ ذلك .

العبادية [بعد إطراق] : ولكن ... ...

[فأجفلت الفتاة ولاحظت الجدّة ذلك] .

العبادية : لا تغضبي يا بثينة فليس وراء « ولكن » شيء أقوله يحط من شأن حسون وينزل به عن مرتبة الفتيان الأمجاد . بل كل ما هناك أن الناس يتحدثون اليوم فى همسهم عن نكبة نزلتْ بالتاجر أبى الحسن فذهبتْ بمعظم مالهِ .

بثينة : وما يَعيبُه من هذا يا جدّة ؟ أليس أبو الحسن تاجرا ، والتجارة جزرٌ ومدّ ، وحرْمان وجدّ ، ونحس وسعْد ، فكم من تاجرٍ بمنزلةِ أبى الحسن قد نُكب فذهبَ عنه كلُّ شيء الا الخلُق ، ثم لم تمضِ مدّة من الشهورِ أو الأعوام حتى سمِعَ الناسُ وتحدّثوا أن التاجرَ فلانا المنكوبَ تغلبَ بالخلُقِ على نكبتِه فعاد دولابُ تجارتِه كأمسٍ عظيمَ الحركة عميمَ البركة ، ومثلُ أبى الحسن فى خُلُقِه وأمانتِه وشرفِ اسمِه فى الأسواقِ لا يبعدُ أن يقومَ من هذهِ السقْطة ورجلاهُ فى عافية .

بثينة [صاغية ثم قائلة] : ... أسمعتِ يا جدّة .

العبادية : أجل ! سمعتُ تنفُّساً .

بثينة : تُرى مِن الطارق ؟

[يدخل عليهما الملك] . .

الملك : صفْحا يا أمّ وعذرا يابثينة اذا كدرتُ عليكما الخلوةَ وقطعتُ

عليكما الحديثَ فوالله ما دفعنى اليكما الساعةَ إلا همٌّ سارٍ وشاغل جليل .

العبادية : لا بأس عليك يا بنىّ ، وعافاك الله أيها الملكُ ، تفضلْ، اجلِس .

بثينة : خذْ مكانَك بيْننا يا أبتِ واسترحْ الينا من همومِك ، فهاهنا الرحمةُ قد بسطتْ جناحيْها : هاهنا الأم والبنت .

[الملك يضع جبينه على كتف بثينة باكيا] .

بثينة [باكية] : ... هوّن عليك يا أبتِ وتجملْ أيها الملك فقبْلك لم تَبْكِ الآساد ، ولا اشتكتِ الأطواد ، ولا ضاقَ البحرُ عن الأعاصيرِ الشداد . تحدّثْ الينا يا أبتِ ولا تيأسْ من روْحِ الله . وعليك بهذه الجدّة الشفيقةِ والأم البرّةِ فائتمنْها على سرك .

الملك : الملك ألفونس منذ سقطتْ طُلَيْطُلَةُ وقضاها الله له أصبحَ لايعرفُ لى منزلةً ولايألونى تحقيرًا و إهانة و يطلب المالَ باستكلابٍ وشرهٍ والبلادَ باستطالةٍ ولؤمٍ؛ ومن عجيب أمرِه أنه يغضبُ من جهة فيصخبُ و يتهدّد، و يلينُ من أخرى فيلومنى على الاستغاثة بيوسفَ بن تاشفين واستنجاد جنوده ، و يدّعى الطاغيةُ أنه أوفى لى منه عهدًا وذمة وأصفى صداقة ومودّة ، وأنى إن حالفت سلطان

المغرب كانت محالفةَ الذئبِ للحمَل، وأن بربر المغرب اذا دخلوا الأندلس طغَوْا فى البلاد وهدموا بنيان الحضارة فيها، ومن نكد الدنيا أن تَصْدُق فينا نبوءة هذا الناصح الغاشّ فقد طمِع ضيفُنا ابن تاشفين فى ملكنا وسلطاننا وتطلعتْ نفسُه الى خيراتنا وأرزاقنا، واستنصرناه على ألفونس فاذا نحن الآن نخشى منه بطشَ النصير، واذا أشبيلية قد تضمّنت منى ومنه العجب ، النمر فى قصرٍ هناك وراء الضفة يجتمع به أعدائى وأعداء الأندلس من أبنائه الأندلسيين وصغارِ العقول من الفقهاءِ ومن يلتفّ عليهم ، وهؤلاء يحسنون له البقاء فى الأندلس واغتنام الفرصة لضمه الى سلطنته ، ويقيمون عنده الحجج على فسادِ ملوكِ الطوائف ويجعلونَنى الهدف الأوّلَ ، وهنا فى هذا القصر أسد مقلّم الأظفار مغلوبٌ على العرين وحيدٌ من الأنصارِ والأعوان .

الحاجب : شيخٌ يُدعى ابنَ حيون بالباب يا مولاى .

بثينة : أدخله يا أبى وبالغ فى إكرامه فقد سلفَ للرجل إحسانٌ إلينا لا ينبغى لنا أن ننساه أبد الدهر .

الملك : أدخِله أيها الحاجب ... [يخرج الحاجب من الباب] خبرينى يا بثينة ما إحسان ابن حيون إلينا ؟

بثينـــة : لقد حدّثنى من لا أشك فى صدق روايته أن هذا الرجل صلى على أخى الظافر وبكاه وألقى عليه رداءه .

[يدخل ابن حيون فتسدل العبادية وبثينة كلتاهما على وجهها القناع] .

ابن حيون : السلام على الملك ورحمة الله .

المـــلك : وعليكم السلام أيها الولىُّ الشفيق الحميم .

ابن حيون : لو أذِن لى الملك فى خلوة [وقد رأى السيدتين] .

المـــلك : لاتخْشَ شيئا يا ابن حيون ، فهذه العبادية ، أمى وهذه بثينة بنتى ، فحديثُك لن يساق إلا الىّ ، وسرُّك لن يجاوزَ أذُنىَّ .

ابن حيون : أيها الملك . نحن اليوم أخوف ما كنا على هذه الأوطان ، وفى مثـل ما نحن فيـه تجبُ على الأمةِ النصيحةُ للملك ، وقـد انتهى الى أذنىَّ من بعض الفقهـاء والمختلفين الى ضيفِك هذا يوسفَ بنِ تاشفين أنه أصبح يرى نفسَه أحقَّ بهذا الملك منكَ وقد رأيتُ رأياً فان أذِن الملك رفعتُه اليه .

المـــلك : وماذا رأيتَ يا أديبَ الأندلس ؟

ابن حيون : إعلم أيهـا الملك أن هـذا الضيفَ الذى نصرتَه ونصرَك وحالفتَه وحالفَك وقاتلتَ معـه قتالا يبقى حديثَ الدهرِ هو أهل لأن يغـدركَ وفى غدرِك ضياعُ الأندلس جميعا ووقوعه فى قبضته البربرية الغاشمة ، وقديمـا كان هـذا سلوكه مع غير واحدٍ من أمراء المغرب فنزعَ منهم ملكَهم

وسلطانَهم وشرَّدهَم فى الصحارى والقفار، فلا تفوتنَّك يا مولاى خُطة الحزْمِ والعزْمِ فى أمرِ هذا النِّمر ذى العمامةِ والمِسبَحة .

الملك : وماذا تنصح لى أن أصنع ؟

ابن حيون : ألا توطئَ الأرْقم سريرَك ، وأن تقطعَ السيفَ قبل أن يقطعَك، وأن تقبِض من فوْرك على ضيفِك هذا فتَسجنَه ولا تطلِقَه حتى يأمر جنودَه بمغادرةِ الأندلسِ برِّه وبحرِه، ثم يحرس أسطولُك البحرَ من كل سفينةٍ مغربية تجرى فيه ، فاذا تمَّ لك ذلك أخذتَ على ابن تاشفين الأقسامَ ألا يعودَ الى الأندلس بعدها أبدا . وخذْ منه الرهائنَ فإن نفسَ الرجل أعزُّ عليه من ملك الأندلس والمغرب مجتمعينِ؛ وله أعداءٌ ببلاده يخشى تحرُّكهم وانتقاضَهم ويخافُ أن ينتهزوا الفرصةَ للاستيلاء على مُلكه ...

العبادية : أيها المتكلمُ المحسنُ والناصح الصادقُ لم يخفَ علىَّ مكانُ مشُورتِك ولكنها خُطة أوّلها لؤمٌ وآخرها شؤم؛ فان الملِك أكرمُ وأعظمُ من أن يغدر ضيفَه أو يخونَ جارَه أو أن يحفرَ الحفْرَة لمن أقالَ عثْرته .

الملك [لابن حيون وقد رآه يضطرب] : لا تُرَعْ أيها الرجلُ الصادقُ فقد كنا حين نُبئنا بوصولِك نخوضُ فى هذا الحديث وكان رأيى

كرأيك وأما ابنتي بثينة فلم تكن أبدت رأيها بعد .

بثينة : مولاي . كلا الصوتين نبرةُ حق . ونصيحةُ صِدق ، إلا أنني أميل إلى الأخذ برأي الأديب ابن حيون .

الملك : بورك فيك يا عقيلةَ الأندلس . مثل هذا السمو في الرأي وهذا الحرص على حقيقةِ الملك لا يستغربان من بناتِ الملوك المنشّآت بين أعباءِ الدولة ومهام السلطان .

العبادية [معترضة] : ونحنُ بنات الشعبِ ألا يقام لرأينا وزن يامولاي؟

الملك [مبتسما] : أنتنّ تلدْنَ الأجسامَ الصحيحةَ والقلوبَ الجريئةَ وتُحسِنَّ تدبير البيوتِ ولكن لا تَصلُحْنَ لسياسة الممالك .

الملك [لابن حيون] : لو تيقنتُ يا بنَ حيون أن جمهورَ شبانِ الأندلس يشاطرونكَ أنتَ وبثينةَ الرأيَ لما تأخرتُ ساعةً عن العملِ بما تُشيرانِ به عليّ .

[يدخل مقلاص] .

الملك : كيف قضيْتَ ليلتك عند ضيفِنا أميرِ المسلمينَ يوسفَ ابن تاشفين ؟

مقلاص : كانَتْ ليلتي يا مولاي ونحن، كما تعلم، في آذار وفي إبانِ القمر طويلةً مظلمةً باردةً لم أُضحِك فيها السلطان مرة ولكن بكيتُ مرارًا ولم أجلبْ له السرورَ ولكن جلبتُ لنفسي الغمّ .

الملك [متعجبا] : ما هذا الخبرُ يا مقلاص ؟

مقلاص : وُجِدتُ يا مولاى بحضرةِ أميرٍ للسلمين لا يفهمُ كلامَ العربِ وعنـد رأسِه تَرجمان من كتّابه يفسرله كل مانقوله معشرَ العـرب فى مجلسـه ويشرح لكلٍ منا ما يشرِّفه به السلطان من الخطاب .

الملك : ثم ما ذا ؟

مقلاص : رأيتُ هنـاك يا مولاى مـلوكَ الأندلسِ وُقـوفًا ببـاب السلطان متنافسين فى إذنهِ .

الملك [ملتفتا الى زائره قائلا] : أسمعتَ يا بن حيون ... ؟ أعرفْتَ ... ثم ما ذا يا مقلاص ؟

مقلاص : ورأيتُ ثَمَّ فقـهاءَ الأندلسِ بعمائمهـم المكبَّرة وجُبَبِهـم الموسعةِ يتمسحون بالأعتاب .

الملك : أسمعتَ يابنَ حيون ! أعرفتَ ؟

الملك : ثم ما ذا يا مقلاص ؟ قل لنا كيف وجدتَ السلطان .

مقلاص : بُوٌّ عليه طيلسان وبُومَةٌ فى يدها صوبلجان .

الملك : وما ذا قال لك حين وقعتْ عينُه عليك ؟

مقلاص : أدخلتُ اليه يا مولاى فحقّقنى من رأسى لقدَمى ثم قال لى : أأنتَ الرجلُ الذى عمَـلُه إضحاكُ الملكِ بنِ عباد وتلهيـةُ أسرتِه ؟

الملك : فما كان جوابك ؟

مقلاص : قلتُ له أجل أيها السلطان أنا نديمُ الملكِ وسميرُه .

الملك : فماذا قال لك ؟

مقلاص : قال لى إذاً فاضحكنا نحن أيضا . عجِّل أضحكنا .

الملك : فماذا صنعتَ ؟

مقلاص : دخلنى خجلٌ شديد ووقفتُ ساعةً أنظرُ فى ثيابى ولم يفتح الله علىّ بشئٍ يَضحَك منه ضيفُك الكريم . فهمَمْتُ بأن أقبِضَ على السلطانِ بكلتا يدىّ وأقذفَ به من النافذة .

الملك : وماذا منعك يا مقلاص ؟

مقلاص : سيفُه المعروضُ على حِجرِه والزبانيةُ القائمون عند رأسِه وبجانبيهِ كأنهم العفاريت ، إلا أن السلطانَ لحظ حرَجَ موقفى فأشارَ بإخراجى فحضرَ من رجاله من صرفَنى فى وقاحةٍ وإذلالٍ فخرجتُ وأنا لا أدرى فيمَ طلبَنى الرجل . وأحمد الله على أن لم يجعلنى فى خدمةِ سلطانٍ مثلِه له وجْهٌ كوجهِ الأسد لا يعرِفُ التبسمَ ولا البشاشةَ .

[مقلاص يريد أن ينقذ الملك من تأثره] .

مقلاص : لقد وجدتُ ضالتى يا مولاى .

الملك : وما ضالتك التى وجدتَ؟ وهل عدتَ تهذى يا مقلاص؟

مقلاص : لا يا مولاى ... ألا تذكر أنى كنتُ من الإعجاب بجمالِ

الأميرة بثينة وكمالها وسموّ منزلتها بين عقائل الشرق والغرب بحيثُ لا أعتقد أن بين فتيانِ الدنيا من هو أهل لأن يخطبها إليك .

الملك [مبتسما] : والآن هل وجدتهُ يا مقلاص ... ومن تُرى يكون؟

مقلاص : فتى جرئ جميل رأيته يوم الزّلاقةِ يحمى ظهرك هو وحريزُ وابنُ لاطون فظل سحابةَ نهارِه معلناً بالسيف دونك حامياً لحوزتك حتى لقِى البطلان حريز وابن لاطون حتفَيْهما وحُمِل هو إلى داره مُثخنًا بالجراح .

الملك : ومن الفتى يا مقلاص ؟

مقلاص : هو يا مولاى أجملُ فتيان الأندلس وأشجعُهم وهو الآن طريحُ الفِراش ما يزال يشكو من جراحِه .

الملك : ومن يكون ... ؟ وما اسمه ؟

مقلاص : هو حسون ابن التاجر أبى الحسن .

ابن حيون : لقد صدقَ فتاك يا مولاى فإنى كنتُ عند حسون الليلةَ البارحةَ أعودُه وقد أفاقَ من جراحِه وقصّ علىّ حديثَ بلائِه يوم الزّلاقة حين اشتدّ القتالُ بينك وبين الإفرنج فأخبرنى أنه رأى يومئذٍ جوادَك وقد ضعُفَ وخارَ من شدّة الجراح فقدّم لك الصاعقة : أميرَ الجيادِ، فركبتهُ وكانَ تحت البازِ بن الأشهب لِصّ الأندلس فخرّ عنه قتيلا .

الملك [مندهشا] : أوكان البـازُ بن الأشهبِ بجانبي يقاتِلُ معى أعداءَ البــلاد ؟

ابن حيون : نعم يا مولاى ، و يقول حسون إنه أَبْلَى يومئذٍ بلاءً عظيما .

المــلك : يا لله ! أيكون اللصوصُ أوفى للأندلس من أمرائه وفقهائِه ، وأبذلَ منهم للأرواحِ دونَ لوائه ... وأين حسون الآن ؟

ابن حيون : هو كما ذكرتُ لمولاى مايزال طريحَ الفراشِ ولكن لاخطرَ على حياته .

المــلك : الآن تذهبُ أنت ومقلاص فتنوبان عنى فى عيادته والسؤالِ عن أمرِه و إبلاغِه تحيتى وَشكرى وما أُعِدُّ له من جَليــل المكافأة .

بثينـــة : وأنا أيضا أبلغ حسونا تحيتى وشكرى يا سيدى ابنَ حيون وأرجو أن يعلم أن أختَ الظافرِ لم تنْســهُ ساعةً وأنها قد جمعتْ له هذه الأزهارَ بيدِها فاحملْها اليه وقل له لو كنتُ الملك لبعثتُ له بالغارِ فى الأزهار و بالصوبلجان مع الريحان .

[وفى هذه الأثناء يدخل جوهر]

جــوهر : مولاى . لقد وَقَع ما كنا نحاذِرُ وحلّ بأشبيليةَ البلاء .

المعتمــد : البلاء ! تريد أن الصديقَ قد انقلبَ وأن الحليفَ قد عادَ حرْبا . هذا ما خِفتُ أن يكون وقد كان .

[يدخل لؤلؤ]

لـؤلـؤ : أغِثْ أيهـا الملك المدينـةَ أدرِكْها فقـد خلّفتُها وجنودُ السلطان يتدفّقون فيها كالسيل بعد ما اشتدّ ضغْطهم على باب الفرج وأقاموا ساعةً يدفعونه حتى ناءت به الكثرةُ فانفتح فنفذوا منـه الى كل مكان فأخرج يا مولاى فقاتِل حتى تَستنقِذَ الوطنَ أو تموتَ دونَه وإلا فالنجاءَ النجاءَ ! !

الملك [مغضبا] : تدعونى يا شابُّ للفِرار . هيهاتَ هيهاتْ . الأسَـدُ لايهربُ ولا يخـافُ الموتَ . [ملتفتا الى جوهر] خبرنى يا جوهر أين كان فتيانُ أشبيلية وأين همُ الآن .

جـوهر : قَبَع الفِتْيانُ فى البيوتِ يا مولاى إلا مائة أو مادونَ المـائة شهِدوا معك يوم الزّلاقة وتعلّموا منك الكرَّ والإقدام واليومَ قد لبِسوا السلاحَ وخرجوا يلاقونَ الموتَ وهم بانتظارِك ليجعلوك اللواء الذى تَسيل نفوسُهم عليه .

المـــلك : يا بشرای مائةُ شاب وطّنوا النفسَ على الموتِ ؛ أما والله لو صـدقتَ يا جوهر لكان لى من مائة قلبٍ مجتمعـة مؤتلفةٍ متواصيةٍ بالحق وبالموتِ قوّةٌ أرمى بهـا فى العُبابِ فيمّحى وأقذفُ بهـا على الجبـال فتزول . البـدارَ البدارَ ياجوهر إمضِ لوقتِك فضعْ بيدِك السرْجَ على الصاعقـةِ والقَنِى به على الباب .

جوهر [بصوت عال] : أبشرى أشبيلية هـذا الليث قـد تحرك لنصرة العرين .

الملك : فى ذمة الله وفى حفظه يابنات المعتمد .

بثينة : فى درع من وقاية الله يا أبى فإنى أراك أخذت سيفك ونسيت درعك .

[المعتمد وهو منطلق والسيف مسلول فى يده ولا درع عليه]

الملك :
إن يسلب القومُ العدا مُلكى وتُسلمنى الجموع
فالقلبُ بين ضلوعه لم تُسلم القلبَ الضلوع
قد رمتُ يوم نزالهم ألا تحصّننى الدروع
وبرزتُ ليس سوى القميص على الحشا شىء دفوع
ما سرتُ قط الى القتال وكان من أملى الرجوع
شيمُ الألى أنا منهمُ والأصلُ تتبعهُ الفروع

ستار

الفصل الخامس

المنظر الأول

« فى دار أبى الحسن ، فى غرفة حسون ، حسون »

« راقد على سريره مريضا وأبوه أبو الحسن داخل عليه »

أبو الحسن : قم يا حسون ، إنهض . إن العِناية بلغتْك مُناك . وشفَتْ بعودِك للحياةِ أباك .

[ينتفض حسون من رقدته جالسا]

أُوشِكُ يا بنى أن أهتدى لموضع بثينة فهل تساعدُنى وهل تخِفُّ معِى لعلنا نجدُ الكنْزَ الضائعَ . ونَظفرُ بالأُمْنِيَّـةِ المنشـــودة .

حسـون : ماذا حدثَ يا أبى ؟ ماذا رأيتَ أو سمِعتَ حتى امتلأتَ تفاؤلا واستبْشارا ؟

أبو الحسن : أتذكر يا بنىّ خاتَمَ الزُّمرُّد الذى كانتْ تطوف علينا به فى سوق الجوهر سيدة كهْلة من وصائف القصر وهى

تبحث عن توأم للفص وتلتمسه فلا تجده ؟

حسون : نعم يا أبى! وأذكر أنها كانت تنسب الخاتم للأميرة بثينة وتصف رغبة الأميرة فى الحصول على فص يكون فى حجمه وصفاء لونه وسلامته من العيب ليكون لها من الجوهرتين قرط عزيز المثال .

ابوالحسن : فاعلم إذن يابنى أننى كنت منذ حين فى سوق الجوهر فما راعنى إلا رجل قوى من قواد المغاربة قد جعل يطوف على التجار يعرض عليهم حلية فأخذتها عينى فاذا هى خاتم الأميرة بفصه . فتريثت الى أن كف المساومون وكان آخر ثمن بذل فى الخاتم ثلاث مائة دينار وكان التجار يقولون للرجل : لوجئتنا بصنو هذا الحجر لنقدناك فيهما الألف أو زدنا . وهناك أومأت الى الرجل أن يتبعنى فتبعنى . فانتبذت به ناحية وقلت له : أنا آخذ الخاتم بالثلاث مئة وأزيدك عليها مئة إن أنت صدقتنى الخبر عن مصدره وكيف وصل اليك ومن أى المعادن التقطته ؟ فانبسط الرجل وتهلل وقال : هذه الحلية ياسيدى لجارية من قصر ابن عباد وقعت لى سبية يوم هجومنا على أشبيلية ، فنقلتها إلى دارى فلم أجد عليها غير هذه الحلية وكانت فى يدها فأخذتها ، وأما الجارية فلم أجدها مغنما بل مغرما . فإنها سقيمة مستسلمة للأحزان

طعامُها قليـل ، ونومها غِرار ، ودمعها لا يرقأ حزنا على سادتِهـا . ونحن لا نحب من النساءِ إلا القـويّاتِ الصـحيحاتِ الأبدان . ولا أكتمك ياسيدى أنى بأمرِ الجاريةِ تعِبٌ ويوُدّى لو تخلصتُ منها . فقلتُ له : خذِ الآنَ الأربعِ مئـةِ دينار مباركًا لك فيهـا . وٱعلمْ أننى طبيبٌ مولَعٌ بالمشاهدَةِ والتجريب ، كثيرُ الاعتناءِ بالمريض البائس فلو مضيتَ بى الى بيتِـك لعلّنى أنظرُ الجـاريةَ ، فَأَعرِف علّتَهـا وأصِف لهـا دواءَها أو أخفف آلامَها . فقمْنا فمضـيْنا حتى انتهيْنا الى دارِه . وهنـاك أدخلَنى على الجاريةِ المريضـةِ فدنوتُ منهـا . وقلتُ لها : عوفيتِ يا جارية ولا خوفَ عليك إن شاء الله تعالى .

حسـون : والنُّونَةُ يا أبت ؟

أبوالحسن : رأيتُهـا ياحسون فوجدتُها فوْق ما كنتَ تصِفُ لى لطْفًا وجَمالا . والتفتُّ الى القائد البربرى فقلتُ له : أو تعطِينى هـذه الصبيَّةَ أيضًا وأنا أُتمهـا لك خمسَ مِائة . فتهلل الرجل وارتاح وقال : خذها يا سيدى وأرحْنى منها وداوِها أنت فعساها تصِحُّ على يديك فنقدتُه المـائةَ الخامسةَ وحملت الصبيَّة فوقَ ذراعى وخرجتُ بها فركبتُ جوادى وأركبتُها خلفى وانطلقتُ حتى بلغتُ الدار .

حسون [صائحا] : وأين هى يا أبتِ ؟ أتُراها هى بثُوَيْنة . ربى اجعلها هى ... وأين تركتَها يا أبى؟ وفى أى مَوْضعٍ من الدارِ؟

[يفتح باب غرفة مجاورة فاذا بثينة من وراء الباب . فيندفع اليها حسون صائحا ...] .

حسون : بثينة ! حبيبتى ! أميرتى .

بثينة : حسون ! أخى ! صديقى !

أبو الحسن [قاطعا عليهما لذة اللقاء والحديث] : الآن وقد جمعتُكِ يا أميرةُ بصديقِك وخادمِك حسون ، أستاذِنُ فى الخروج الى بعض شأنى ساعةً .

بثينة : لا ياعمّ ، بل ابقَ إلبثْ ، إن وجودَك معنا يَزيد الموقفَ بهْجة وطيبًا .

أبوالحسن : إن أذنتِ يا أميرة فإن احتجابى عنكما لن يطول .

حسون : بل ابق معنا يا أبى .

أبوالحسن : سأعود يابنى، سأرجع [ويخرج أبو الحسن] .

حسون [الى بثينة] : ماذا أقول يا أميرتى ؟ وكيفَ القولُ فى هذه الساعة التى هى العمر ؟

بثينة : أنظر حسون كيف جعل الله هذا اللقاءَ الذى لم يكن فى الحُسبان عِوضًا لما فاتنَا من نعيم الحياةِ ومتاعِها ، حتى كدتُ أنسى ذلك الملك المنزوعَ والسلطانَ الذاهبَ ، وأسلو القصورَ وضجّتها ، والدولةَ وأعراسها .

حسون : وأنا أيضا يابثينة غفرتُ هفواتِ الدهر لهذه الساعة المحسنةِ الطيبة وإن لم أخلُ ولن أخلو ما عشتُ من تفجُّع للوطَنِ العزيز وتوجُّع لرزئه الجليل .

بثينة [متنهدة، مكتئبة بعد انبساط] : آه من الدهر ماذا صنَع . لطف الله بِكِ يا أشبيلية فيما حلَّ عليكِ من قَضائِه، وجعلَ وطأةَ المغارِبةِ خفيفة عليكِ وعلى جاراتِك من حواضر الأندلس.

حسون [مطرقا متنهدا]: دهرٌ ببنيه يا بثينةُ قُلَّب، ودنيا تَرْتَجِلُ العجائب، وملك في السماء يفعلُ بعباده على الأرضِ مايشاء، ولكن ... بثينةِ حبيبتي أميرتي : أحقٌّ أننا التقينْا في يقْظَةٍ أم نحنُ خيالان في رؤْيا من الأحلام ؟ أتذكرين يا بثينةُ يوم السوق ؟ أتذكرين قُرْطبةَ ؟ أتذكرين رسالَةَ الضبِّي لله ما كان أحلاكِ يومئذٍ وراءَ اللِّثام .

بثينة : وأنتَ يا حسون لله ما كان أجمَلَك وأكمَلك وكأنَّك يومئذٍ ملِك . كنتَ تنتقل في السوق فتخرُج من مكتبةٍ وتدخلُ غيرها وتدعُ كتابا وتأخُذ كتاباً والكتبُ حلْيَة الشباب النابهِ وجمال الفتُوةِ النابِغَة .

حسون : أتذكرين كلَّ ذلك يا بثينة ؟

بثينة : أجلْ كلُّ ما كانَ من حركاتِك وسكناتِك يومئذٍ ومن عباراتِك وإشاراتِك ما يزالُ مُرتَسِماً في ذهْني لم تمحُه الشهورُ ولا أحسبُ الموْت يمحوه .

حسون [يمد يده الى ذقنها و يقول] : بحياتى نونة كالدرة المكنونهْ.

بثينة [فى شىء من الغضب] : نحِّ يدك يابن أبى الحسن لا تمـدها الى ما لم تملك بعدْ .

حسون [فى انكسار واستحياء] : اغفريها للحب وللشوق يا أميرة . شُلَّتْ يدى إن كنتُ أضمرتُ سوءا أو هممْتُ بريبة .

[يدخل أبو الحسن] .

حسـون : أبى ! أبى لم تُبطئْ يا أبى .

أبوالحسن : كنتُ مشغولا يا بنى بتهيئة طعامِ الأميرة .

بثينـة : جزاكَ الله خيرا ياعمُّ ومدّ لنا عمرك .

أبو الحسن [يأخذ مجلسه و يقول] : الحمد لله ياولدىَّ على هذا التلاقى الذى هو من توفيق الأقدار، فاليوم جمعكما هذا البيتُ على أثرِ الكارثة وفى أعقاب النكْبةِ كما يجمع الشاطئُ الغريقيْنِ سالميْنِ بالرمق من انكسارِ الفلْكِ ومن ثوْرة الريحِ وطغْيانِ الماء، لقد تعارفْتما بالأمس فنشأتْ بينكما الأُلفة وأنست الروحُ بالروح، وانعطفَ القلْبُ على القلْبِ وقديمًا يا أميرة صاهرتِ الملوكُ الرعيةَ وأبوكِ ، لَطفَ الله به وبنا جميعا فيما حل علينا من قضائه وقدرِه، أسمحُ مَن سنَّ هذه السُّنةَ، فرفعَ على عرش أشـبيلية امرأةً من رعاياه ، هى الرميكية خيرةُ المليكات، وأمُّ العقائل من البَنين والبناتِ .

بثينــة : أراكَ ياعمُّ قـد بالغتَ فى مؤاساتى حتى أنكرتَ يدَ الدهر وما نالتْ منـا ، وإلا فأينَ أبى منّى اليوم؟ وأين مِنْ أبى مُلكهُ ؟ وهل نحنُ اليوم إلا سوقةٌ نَتَنصَّفُ .

أبوالحسن : هوّنى عليك يا أمـيرةُ إن أباكِ لم يخلعْه قومُه ، ولكن خلعـه المُغيرون ، فهو فى نفوسـنا معشرَ الأشبيليين حاضرُ الجلالَةِ ماثلُ المهـابَة مرتسِمُ الكرامَة ؛ يومُه كأمسه وغدُه كيومِه وإن اختلفَ به اليوم والغدُ وتصرفتْ به الأيام؛ وأنتِ أيتها الأميرة فمـا زلتِ بنتَ الملكِ المعتمد بن عباد، فهل تنْزلين الى القبولِ بابنى هذا حسون زوْجا .

حسـون : وخادِما أمينا .

بثينــة : هـذا كثيرٌ فى المجاملة والمواساةِ ياعمُّ ، إن حسونًا كفءٌ ويشهدُ الله أنى أحبُّـه وأجِلُّه ، وكأنى بأبى فى غيَابةِ سجْنهِ ينظرُاليه كما أنظرُه . ويشعُر نحوَه بمثل ما أشعُر . ولكنى، كما علِمْتَ ، مفجوعة : بأبٍ منكوبٍ ، ملكٍ معْزولٍ ، أُخذ فغُـلَّ، ثم سُربل الذلَّ ، وبأمٍ ثكلى وإخوة قتْلَى ، وأخواتٍ أميراتٍ يتعـذبْن من الخلْع و يتكسبن من غزْلِ أيديهن .

حسـون : قـد قُلتِ حقا يا أمـيرةُ وأنا لا أتخيل الجميـعَ هناك إلا مشـغولين بكِ فوقَ منْفاهم . يفتِّشون عن مكانِك بعـيْن

حيّرها الدمعُ، ويد قصّرها العجزُ، وقدمٍ أعجزَها القيْد .

بثينـــة : إذًا فأنتَ ترى أنه ليس من الحق ولا من البر، أن أُوجَدَ ولا يعلمون أنى وُجدتُ ، وأن أتزوّجَ ولا يعلمونَ كيف وَبِمن تزوّجْتُ . وماذا يقولون اذا همْ عَلِمُوا أنى اتخذت من مأتمهم عُرسا ! ؟

ابن حيون [يدخل و يقول بعد أن رأى بثينة ، مندهشا] : سـيدتى بثينة هنا ؟ الأميرةُ بخيرٍ ؟ ما أعظمَ منّتكَ يارب .

[ويحاول تقبيل يد الأميرة فتمنعها منه] .

بثينـــة : لا تفعلْ ياعمّ . أهــلا بك يا بنَ حيون . وما أعظــمَ سرورى بِلِقائِكَ .

أبوالحسن : أنظر ابن حيون نعمةَ اللهِ علينا بهذا الكنْز الغالى الثمين .

حسون : أنظر ابنَ حيون كيف ردّ الله علىّ راحتى ورُوحى، وأعادَ لى الحياةَ والآمال .

ابن حيون : الحمد لله الذى جعلَكِ فى حفْظِه وفى ذمّتِـه ، والذى ردّكِ الينا سالمةً ياسيدتى، والذى هو قادرٌ على أن يجمعكِ بأهلِكِ كأمسِ على جاهِ الأمورِ وفى ظلِ شاهقةِ القُصور .

بثينـــة : لقد رأينا ياعم كيف تنتقل الأمور، وعرفْنا كيف تُبَـدّلُ أهلَها القصور، وأصبحتُ لا أطمع من دهرى إلا بالعيْش فى ظل الأمنِ والخمول، و بين قلبٍ يحنو، ونفسٍ تعطف .

ابن حيون : طيبي إذن ياسيدتى نفْسا ، إن الذى تشتهين قد اجتمع لك ، فالأمن والسكون لا تعدمينهما فى جناح من هذه الدار ، أو فى جَنَّةٍ بعيدةٍ عن النّاس من جنّاتِ هذا الإقليم وإنى أشْهَد أن هذا الفتى يُحبك وأنكِ ملءُ قلْبِه وملءُ نفسِه ، فاقرنى ياسيدتى حياتَك بحياته تجِدى حقيقةَ السعادةِ فى ظل الحبِّ المشتركِ الصحيح .

حسون : كان هذا حديثنا ياعم قبل حضورك ولكنْ لم نكن فرغْنا منه بعدُ . وقد رأتِ الأميرةُ برًّا بوالديْها وقضاءً لحقّهِمَا أن يكون زواجُنا بعيْن أبيها وسمْعه ، و بقَبول أمِّها ورِضاها . وكل زواج رَضِيه الأبوانِ وارتاحا اليه سَبقتْ فيه البَرَكةُ وطافَتْ به الرحمة .

ابن حيون : لقد رأيتم صوابا . واتفقتم على واجبٍ كان لا بدّ من قضائه . ولا أظنُّ هذا المقترَحَ لقِى مِنكَ اعْتراضا يا أبا الحسن .

أبوالحسن : معاذَ الله يابنَ حيون ، ولكن ألا ترَى معى أن حسُّونا والأميرةَ محتاجان الى الراحةِ واستردادِ العافية .

ابن حيون : أما هذا فنعم ، ولِم لا يقْضى حسونٌ والأميرةُ هذا الأسبوعَ فى هذهِ الدار حتى تثوبَ اليهما القوّةُ والعافية .

حسون [مقاطعا] : أتأذنُ لى يا أبى إن رأيتُ غيرَ رأيك ورأيِ ابنِ حيون ؟

أبو الحسن : تكلمْ يابنىّ فأنتَ حر .

ابن حيون : الكلامُ حر فى الأندلس ياحسونُ فتكلمْ .

حسون : أرى يا أبى أن نُسافِر من ليلتنا بل من ساعتِنا الى أغماتِ مَنفَى الملك .

أبو الحسن : نُسافِر ؟ نسافِر الساعة ؟ وأنتَ والأميرةُ على هـذه الحال من الضعفِ والسقام ؟

حسون : أبى إنى ذكرت الوالدين المنكوبين نخيل الىّ أنهما على جمرٍ لا يهدأ من اللوعةِ لاحتجابِ الأميرةِ والشك المعذِّب فى مصيرها ، وليس ما ذكرتما أنتَ وابنُ حيون من ضَعْفى وضعفِ الأميرة وأثرِ السقمِ والهم فينا إلا حالًا لا يلبثُ الشبابُ أن يتغلّبَ عليه ، فالمروءةُ تأمُرنا جميعا ألا نؤخّر الرحيلَ ساعة إذ لا معنى للإسْعافِ اذا هو لم يعجّل ولم يأتِ فى أوانِه .

ابن حيون : هو ذاك .

أبو الحسن : نعم الرأى .

الأميرة : ليكُنْ كما أشارَ حسون .

حسون : إذاً فهلُمّ أبى ، هـلُمّ ابنَ حيون ، هلُمّى يا أميرة . الساعةَ نسافر فنقضِى الواجبَ .

الأميرة : ويقضى اللهُ ما يشاءُ .

[يدخل الغلمان الخدم صائحين]

الغلمان : سيدى أبا الحسن ، سيدى حسون ، سيدى ابن حيون
خُذوا حِذْركم أدركوا الدّارَ .

حسون : ما يُزعجكم أيها الغلمان . وماذا حوْل الدار . إنى أسمعُ
ضجة . أما تسمعُ يابن حَيون أما تسمعُ ضجةً يا أبى ؟

بثينة : حوْل الدارِ ضجة .

خادم من الغلمان : أولئك جنودُ المغاربة يا سيدى .

الثلاثة [بصوت واحد] : جنودُ المغاربة حول الدار ! ؟

الخادم : أجل أتوا يسالوننا عن بنتِ الملك هل رأيناها وهل
آويناها وهم يقولون إنها دخلتِ الدار منذُ ساعةٍ وإنها
طريدةُ الأمير سيرى بن أبى بكر قائد جيش الفتح .

حسون مغضبا : بل قل جيش الفضْح يا غلامُ، فقد باء الغادرون
بفضيحةِ الأبد .

بثينة : الآن فهمتُ يا حسون ، الآن أدركتُ ياعمّ أن سيرى
ابن أبى بكر كان قد خطبَنى الى أبى، وكان رسُوله يومئذ
القاضى ابنَ أدهم، فلا أبى أجابَ، ولا أنا قبلْت، ولعله
تذكرنى اليوم فهو يريد أن يأخذنى عنْوة .

حسون : لا والله يا بنتَ الملك لا تسقطُ من رأسك شعْرةٌ وأنا
حىٌّ ساعدى معى وسيْفى بيَدى مسلول .

[و بعد إطراق يستأنف و يقول]

لا بأس عليكِ يا أميرة، ولا علينا يا أبى من طلعةِ البَرْبر
ولا من اجتماعهم بنا فى هذه الحجرة أو غيرها من الدارِ
ولا خوْفَ علينا من فتْشهم ونبْشِهم .

التاجر : وكيف يا حسون ؟ وماذا اعتزمتَ أن تصنعَ لتدفعَ عنا
هذا البلاء ؟

حسون [بعد فكرة قصيرة] : إسمْعْ يا أبى ! فى هذه الغرفة صُنْدوق مملوءٌ
من ثيابِ المغارِبة وأسلحتِهم فاتبعونى . أُدخلوا من
فورِكم فاخلعوا ثيابكم هذه وخُذوا من الصُندُوقِ ما شئتم
من ثيابِ المغارِبَةِ وتَزَيَّوْا بِزِىّ القومِ ثم نخرجُ فنختلطُ
بهم أو ندعهم وسبيلهم ونأخذ سبيلا غيره .

ابن حيون : هو لاشك سبيل الفِرار .

حسون [مبتسما] : هو ذاك يابنَ حيون : السرعةَ، السرعةَ [ثم ملتفتا الى
الأميرة] أدخلى يا أميرة، أسرعى، أسرعى لا يضيعَنَّ الوقتُ
فإن الجنودَ فى طلبنا .

[يدخل الأربعة الحجرة ثم يخرجون فى الزى
المغربى و يكون الجنود قد دخلوا وهم يقولون]

الجنود [داخل المنزل لبعضهم] : فتشوا، انبشوا .

الأربعة [خارجين قائلين] : فتّشوا، انبشوا [و يكررون ذلك ثم ينسلون من المكان]

المنظر الثانى

« تحت أسوار السجن فى أغمات حيث ترى بثينة وحسون »

« وأبو الحسن وابن حيون على مقـربة من حارس السجن »

ابن حيون : ها نحنُ أولاءِ شارَفْنا أغمات، وهذه أيها الرِّفاق هى القلْعة التى شاءتِ الأقدارُ أن يسجَن فيها الملِك العظيم .

حسـون : يا لعجائبِ القـدرِ ! قريةٌ ظلّتِ القـرونَ الطوالَ مجهولةً مغمورةً أصبحتِ اليومَ تسافرُ اليها الظنونُ من كل مكان وتشتَغِلُ ممالكُ العرب بها و بنزيلِها العظيم وتشرف الأسماعُ لمطالعِ قوافيه و ينتظر الرواةُ مايقول فيه الشعراءُ من كلماتِ التوجّعِ ونَفَثاتِ الحنين .

بثينة [بعد إطراق واستعبار] : ياالقسوةِ القـدَر ! أهـذا قفصُ الأسَـد يابنَ حيون ؟ أههنا منْفى الملائك من عقائل بَنى عبّـاد؟ تبًّا لك يابنَ تاشـفين . ما كان أبخلَ جاهَك على الكِرام ، وما كان أكثَرك فى القُيود على الأحرار .

ابن حيون : صهْ أيتها الأميرة فهذا السجّان ينظرُ الينا وقد يُدخِل الريبة

فى نفسه أن يسمعَ منك مثلَ هذا الكلام .

حسون : كفكفِى الدمعَ يابثينة وأقلّى الجزعَ ولا تنسىْ أن وراء هذه الجُدران جروحا من الدهرِ لم يبق لها بلسمٌ سواكِ . فكونى المفاجأةَ الشافِية وآطلعِى عليها بابتسامِك الحُلوْ طلوعَ العافية .

السجان : مَن الرجال ؟ ما تبتغون ؟ متى كان حرمُ السجن موضعَ وقوف وهمْس ؟

حسون : نحنُ أيها السجان طائفة من آل الملك السجين وحاشيتِه، قد هزّنا الشوقُ إلى زيارته والسؤالِ عن أمرِه، فادخلْ فاستأذنْ لنا عليه .

السجان : أنسيتَ أيها الفتى أن هذه القلعةَ هي من السُّجونِ التى يُعيرها السلطانُ اهتمامَه فلا يدخُلها داخلٌ إلا بإذنه ولايخرجُ منها خارجٌ إلا بإذنِه، فهل بأيديكم جوازٌ يبيح لكم زيارةَ السجين ؟

ابن حيون : أنتَ تعلم يا أخى أن مولانا السلطانَ يعطِف على أسيرِه الكريم .

السجان [متهكما]: كلّ العطف ياسيدى .

ابن حيون : وأنتَ تعلم أن الملِك المعتمِد قد رُخّص له من أوّلِ يوم فى استصحابِ من يشاء من خواصهِ وذوى قرباه .

السجان : أعلمُ هذا أيها السيد .

ابن حيون : فكر إذن فى الأمرِ قليلا . فليس يضرُّك أن تُدخلنا إلى الملِك وتتْركَنا عنده ساعةً لعلنا نَشفى برؤيته وحديثه الشوقَ والصبابةَ [و يلق للحارس صرة ويقول] ومعَ ذلكَ فإليك هـذه الصرَّة خذْها وبلِّغنا الأرَب .

السجان [وهو يضع الصرة فى كمه] : ما هذا أيها السيد ؟

ابن حيون : هذا . قد لمستَه بيدِك ، هذا قد سمِعْت رنينَه بأذُنِك ، هذا يا أخى هو الذهَبُ مفْتاحُ الأبوابِ كلِّها إلا بابَ الجنـة .

الحارس : هذا كثير يا سيدى .

ابن حيون : بل هو قليلٌ يا أخى . ولك مثلُه عنـد خروجِنا من حضرة الملك .

السجان : لقد سألتمونى أمراً صعبًا أيها السـيد ... ومع ذلك ... فما فى دخولكم من بأْس . تفضّلوا يا سادة أُدخلوا .

المنظر الثالث

« فى سجن أغمات حيث يرى ابن عباد بين أمه وزوجه وسائر أولاده »
« وحاشيته ، وقد شاعت آية البؤس والتعاسة فى وجوه الجميع ، اليوم »
« يوم عيد وقد جلس ابن عباد يتلقى تحية العيد وكلهم صامت خاشع ... »

ابن عباد [مناجيا نفسه] :

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسرورا
فساءك العيدُ فى "أغمات" مأسورا
ترى بناتك فى الأطمارِ جائعةً
يَغزِلْنَ للناسِ، ما يملكنَ قِطْميرا
برزْن نحوَك للتسليم خاشعةً
أبصارهُنَّ حسيراتٍ مكاسيرا
يطأْن فى الطين والأقدامُ حافيةٌ
كأنها لم تطأْ مِسْكا وكافورا
من عاش بعدَك فى مُلك يُسرُّ به
فإنما عاش بالأحلام مَغْرورا

الرميكية[للملك] : الأميراتُ بين يديْك أيها الملِك أتيْن يهنِّئنَك بالعيد .

الملـــك : يامرْحبًا بهن، ولا مرْحبا بالعيد ولا أهلا به ...

عيـد ! بأيةِ حالٍ عدتَ يا عيـد ؟ إذهبْ فأنتَ على السجين حرام .

الملك[لنفسه] : لكن لا يابنَ عباد! بعضَ هذا الجزع، وتجلدْ رحمةً بهذه الحمائم الموثَقةِ و رفْقا بهذه الملائكة المسجونَة .

الملك [الى بناته] : العيد يا أخواتِ بثينة يوم يجمعُنا بأختِكُن .

إحدى الأميرات : والعيدُ أيضا أيهـا الملك يوم يرُد الله عليـك مُلْكك فتدخلَ أشبيليةَ عليك التاجُ مُؤتلقا .

أميرة أخرى : بل العيـدُ يا أبي يوم تدخل الأندلسَ فتتنقَّلُ فى ربوعه وممالِكه تنقُّلَ الشمس من دارٍ إلى دار .

الملـــك : تقبَّل الله منكنَّ يا عبّاديّات ورحِمنى .

إحدى الأميرات : هوّنْ عليك يا أبي فلم يدمْ فى النّعيم والبؤْس قوْم .

الملـــك : لقـد هوّن الصبرُ الحوادثَ عندى يابنتاه إلا حادثةً أصبحَ القلبُ جريحا لا يقْوى على حمِلها .

الأمـيرة : وما تلك يا أبتِ .

الملـــك : أختُك بثينـة واحتجابُها الذى طال . وانقطاعُ الأخبـارِ عن مصيرِها .

الرميكيـة : لا تيأسْ من رحمةِ الله أيها الملكُ وانتظر فرَجا يأتى به من

فضله وكرمه فهذا قلبي يحدّثني، وقلّما كذبتْ قلوبُ الأمّهات، أنّ بثينةَ قد وُجدتْ وأنها بخيرٍ وأمان .

الملك [باكيا متضرعا] : اللهمّ اسمع من أمَتِكَ الرميكية وتقبلْ مِنها وأَدخلْ علينا السرور ولو ساعةً فإن عهدَنا به عهدٌ طويل .

[الأميرات يتهامسن]

الرميكية : ضجة ؟

أميرة : حركة !

أخرى : نقل أقدام !

الملك : أنظُرى يارميكية من الداخلون ؟ فإن عيْنى أصبحتْ لا تحقّقُ الأشباح .

الرميكية : سلّم اللهُ عيْنيْك يامولاى وأقرّهُما بِلقاء بُثينة .

[وفي هذه الأثناء يثب مقلاص الى الباب ويرجع مع]
[القادمين بنبأ أوب الأميرة صائحة قائلة ...] .

مقلاص : سيدتى بثينة! أميرتى، يا مولاتاه يا فرحتا .

الملك : ربِّ ما أرْحمك ماذا أرى ؟ ماذا أسمع ؟ ما هذا الطيبُ الذكّى ؟ إنى أجِدُ رِيحَ بثينة .

الرميكية : بشراكَ ياقلبُ هذه فَلْذتُك رُدَّت إليك [وملتفتة الى الملك] سيّدى مليكى أنظرْ كيف استجابَ الله لنا، هذه بُثينة مقبلة .

الملك : أجل! أيتها الملكة أقبلت الدنيا وعادَ الزمان .

إحدى الأميرات : بثينة ! أختى ! ما أعظمَ إحسانَك يارب .

المــلك : بنيتى . بنيتى . تعالَىْ املئى ذراعىَّ كما كنتِ تختبئين فيهما طفلة صغيرة .

[تطرح بثينة على صدر والدها وتقول] .

بثينــة : أبى ، سيدى ، ملكى ، لا بأس عليك يا ملكَ العرب .

المــلك : ولا عليكِ يا ابنتى ، ثِقى بالله وأمّلى وجهه الكريم .

بثينــة : الصبرُ منكَ تعلمناهُ يا مِلكَ الصابرين .

المــلك : والجدّةُ يا بثينة أنسيتها ؟ أما بِك اليها شوْق؟ أما لها منْك قُبْــلة ؟

ثينة [وتقوم لجدتها] : جدّتى ، سيدتى ، ملكتى : شهد اللهُ ماخلا القلبُ منك ساعة وما وُجِدتُ فى مَضيقٍ فذكرتُك إلا انقلبَ فضاء ولا أظن الله سبحانه وتعالى أنقذنى من البلاء وردّنى الى أسرتى و ردّ أسرتى الىّ إلا ببركة رِضاكِ أطال الله عمرَك يا جدّة .

[ثم ترتمى بثينة فى أحضان العبادية جدّتها وهى محاطة بأخواتها الأميرات تقبلهن و يقبلنها حتى [illegible] ت اللوعة وأخذها أبواها بينهما وانتظمت من الأسرة الملكية حلقة . وهناك أقبل الملك على ابنته بالحديث فقال] .

المــلك : خبريني كيف اختُطفتِ يا بثينة وما حديث اختفائك ؟ حدّثينى ليطمئن قلبى فقد كان احتجابُك فى غليانِ الفتنةِ ،

وعند احتدام الفِتن يُذال المصونُ ويهون العزيز وتقعُ الفُجاءات .

بثينــة : ولكن الله سلَّم يا أكرمَ الآباء .

المــلك : حدِّثينا إذن حديثَك يا بثينة .

بثينــة : حديثى يا أبتِ عجيبٌ ، محزنٌ ، سارٌّ ، مبكٍ ، مضحكٌ ، حافلٌ بعجائب القدَرِ ومدهشاتِ القضاء .

الأميرات : حدِّثينا إياهُ يا أختَ أسرعى .

الرميكيـة : قُصِّى علينا يا بنتاه قِصَّتك .

المــلك : خبريني الخبَرَ يا بثينة .

بثينــة : نظرتُ اليك يا أبى يومَ هجوم المغاربة على أشبيلية فرأيتُك تقاتِلُ وحيداً قليــلَ العونِ والمساعِد وكأن أشبيليــةَ تحتكَ العــرينُ وكأنك الأسَــدُ يحمى عرينَه شبرًا شِــبرًا ، فقلتُ فى نفسى : علامَ تعلَّمتُ الضربَ بالسيف وعلامَ كنت أركضُ جيادَ الخيــلِ فى سهولِ الأندلسِ وحُزونه إذا أنا لم أقضِ حقَّ وطنى ولم أحمِ ظهــرَ أبى فى هــذا اليــوم العصيب ، ثم جعلتُ على وجهى لِثاما وتقلدتُ سيفاً وامتطيتُ جوادا وخرجتُ من القصر فلحقتُ بك ، فلم أزل أقاتل بجانبك وأحامى عنك حتى امتدَّتْ الىَّ يد من حديد فاقتلعتْنى من سرجى فأُغمى علىَّ ثم انتبهتُ فاذا أنا فى دارِ رجل من قوّاد المغرب .

الملك [مغضبا] : وماذا لقِيتِ من المغربى الخشِن ؟

بثينــــة : لم ألقَ إلا خيرا يا أبى فقــد كان الرجل دِيِّنا وتقيًّا ، أخذَ ما علىّ من الحُلىّ .

المـــلك : يا له من دِيِّنٍ تقىّ .

بثينــــة : ... وتركنى فلبثتُ فى دارِه أياما طريحةَ الفِــراشِ لا أذوق طعاماً ولا أطعمُ رُقادا ، إلا ما كان من سَــكراتِ الحُمّى ، الى أن سخّرت لى العناية هذا الشيخَ الجليل [وتشير الى أبى الحسن] فلم أدرِ كيف نُقلتُ الى دارِه وهى لا تقِلُّ رِفْعة عن قديم دُورِنا ولا تقصر بَشاشة نعْمةٍ عن زائل قصورنا .

الملك [فى قلق وغضب ، مشيرا الى حسون] : وهذا الشابُّ من يكونُ يابثينة؟

بثينــــة : هــذا حسون ابنُ هذا الشيخ الجليلِ التاجرِ أبى الحسن ، وله عنْــدنا أيادٍ يذكرُها مِثلُك فى الكرام فقــد قاتلَ الثوارَ فى قُرطبة مع أخى الظــافر رحمةُ الله عليه ، وأبلى فى وقْعــة الزّلاقة بلاءً كان له خطره وأثرُه فى ذلك الفتح المبين .

ابن حيون [متدخلا فى الحديث] : وقد جُرِحَ حسون يومئذٍ جُرحا بليغًا فحُملَ الى دارِه فــا بلَغها حتى بعثَ اليك أيهــا الملك بالصاعقة ذلك الجواد الأشقر فركبتَه والوطيسُ حامٍ والحربُ مجنونة فكان ميمونَ الناصية ، من صوتِه نصرتَ ، وفى ركابه غَلَبتَ وظهــرتَ .

الملك [مفكرا مهتما] : الصاعقة؟ فرس الباز بن الأشهب لِصِّ الأندلس؟

ابن حيون : أجل أيها الملك، وقد كان تحتك فى وقعة الدهر بين الفرنجة والمسلمين وكان رابع فرس قُدِّم لك يومئذٍ وأنت كلما هَلَك تحتكَ فرس ركبتَ غيره .

العبادية : أعرفتَ محدِّثكَ هذا يا مولاى ؟

الملك : كيفَ أجهلُه أو أنساه، هـذا ابنُ حيون الذى زارَنا فى أشبيلية ونصحَ لنا فلم نَسمعْ منه، فالحمد لله الذى جمعنا به حتى نَستأنفَ شكر إحسانه .

ابن حيون : أطال الله بقاءك يا مولاى وأعانَك على هذه الشـدّة وردّك الى ديارِك وردّ ديارَك اليك .

الملك : وأنتَ ياحسون فقد ذُكر لى بلاؤك ووصفتَ عندى كثيرا بمحاسن الصفاتِ ومكارِم الأخلاق .

حسون : مدّ الله حياتَك يا مولاى وظلّلك برعايتِه وأمانِه .

بثينـة : إيذن لى يا أبى أن أعترفَ فى مجلسك بأنى كنتُ فى بعض أيام تنكُّرى أجتمعُ بهـذا الشاب النبيل فلا أجدُ إلا أدبًا حسنا، وعلما جمًّا، وخُلقا فاضلا، وشمائلَ قد لا توجد فى أبناءِ الملوك .

المـلك : أتذكرين يا بثينة كيفَ كنتُ معكِ ضدّ القاضى ابنِ أدهم حين جاءنى يخطُبكِ للأمير، سيرى بنِ أبى بكر .

بثينـــة : أذكر ذلك يا أبي ولا أنسى لك فضلك ما حييتُ .

المـــلك : إعلمى إذن يا بنية أن الأوان قد آن وأن الإسلام لا دير فيه ولا رهبانية، وأن السجن قد يحتمِلُه الطفلُ وقد يُطيقه الكهل ولكنه يرهقُ الشبابَ ويزهقه فلن نرضى لك أن تشاطرينا هذا المنزل الخَشِن وهذه العِيشة الجافيةَ وإن قلبى ليحدثنى بأن ألفةً روحيّة قد انعقدَتْ بينـك وبين هـذا الشاب النبيل .

حسون [متدخلا] : أيأذن لى الملك إن عرضتُ أن قوْله الكريم إنما يُعرِبُ عما أكن لسيدتى الأميرةِ من الحبِّ والإجلال وإنى أجدُ أقصى التّشريف وغايةَ السـعادة أن يأذن لى الملك فى أن أخطبَ سيدتى بثينةَ اليه .

الملك [ملتفتا الى بثينة] : وأنتِ ماذا تقولين يا بثينة ؟

«الأميرة تغضى حياءً وتسكت»

المـــلك : منَ الصمْتِ كلام .

الملك [الى أبو الحسن] : وأنتَ يا أبا الحسن ماذا ترى ؟

ابوالحسن : ما يرى الملك أفضلُ . فيا شئتَ فمرْنا يا مولاى ؟

الملك [الى الرميكية] : والملِكةُ ما رأيها ؟

الملـــكة : قد أمرتَ يامولاى بما فيـه الخيرُ جعله الله زَواجا مَقْروناً بالسعادةِ واليُمْن .

ابن حيون : أيأذنُ الملك لى أنا الآخر بالكلام ؟

الملك : تكلمْ يابن حيون فقد عرفتُ مودّتك وإخلاصك، وتبينتُ نُصحَك واهتمامَك، ولو لم يكن من احسانِك إلىّ والى أسرتى إلا تجشمُ هذه الرحلة من أشبيلية الى أغمات لكفى فى باب المرُوءة والوفاء .

ابن حيون : لا شكرَ على واجبٍ يا مولاى . وقد طوّقتنى الساعةَ منّةً لا يَنزِعُها من عُنق الموتُ بما رسمتَ من بناءِ هذا الفتى الماجدِ الباسلِ بهذه الأميرة التى لم يلدِ الملوكُ أجملَ ولا أكمَلَ منها : والآن بقى لى ملتمسٌ أرجو أن يُجيبَنى الملكُ اليه .

الملك : اقترحْ يابن حيون تجِد ملّبيا مجيبا فيماتبلغه قدرةُ ملكٍ مخلوع .

[يخرج ابن حيون جرابا كان قد شدّه على وسطه ثم يفتحه و ينثره عند قدمى الملك فتنتثر اللآلىء واليواقيت] .

الملكة : جواهر !

الأميرات : لآلئ! يواقيت!

مقلاص : يالك من كنزٍ ثمينٍ غالٍ .

الملك [وهو ينحنى على الكنز] : ومن أينَ لك يا بنَ حيون كلُّ هذا المالِ؟ لمثلُ هذا الكنز لا يكون إلا ذخيرةَ مِلكٍ وابنِ مُلوك .

ابن حيون : هو كما تقول يا مولاى، فهذا الكنزُ كان لملكٍ ووارثِ

ملوك، فساقته العناية إلىّ، واليوم قد هلك أصحابُه و بادُوا فأصبح لى وحْدي أتصرَّف به كيف أشاءُ ، وبالأمس قوّمتُ هذه الجواهر بما يقربُ من ألفِ ألف دينار وأنا مقسّمٌ هذا المال ثلاثة أقسام : ثُلُثٌ تأخذه أنتَ يامولاى فتستعينُ بهِ على ما أنتَ فيه من الشدّة، وثلثٌ يأخذه حسون وزوجتُه فيعيشانِ به رغدا، والثُلُثُ الثالثُ يكون لى ولأبى الحسن التاجر هذا [مشيرا إلى أبى الحسن] نؤسسُ به تجارةً ونعقدُ بيننا شركةً نتحدَّى بها تجاراتِ الفرنجة فى الأندلس .

أبو الحسن : ... الله أكبرُ أنتَ واللهِ هو المغربى الذى دخل علىّ دارى وما كنت يومئذٍ إلا متنكرا مُحسناً للتنكُّر فأسوتَ جُرْحى وحفظتَ علىّ دارى واستنقذْتنى من عوادى البؤس والفاقَة ، والآن تردُّ علىّ تجارتى وتشاطِرُنى كرائم مالِك ، فبأى لسانٍ أؤدّى شكرَ إحسانِك .

ابن حيون : بل آشكُرِ الله يا أخى فإنى لم أُعِنك بمالى ولكن أعنتُك بماله ولا أجدُنى صنعْتُ يومئذٍ إلا واجبا ولا قضيْتُ إلا ديناً علىّ للصداقَة القديمة وللوّد الصحيح .

المسلك : لكن ما عساى أصنعُ يابن حيون بهذه الثَّروةِ وأنا كما ترانى صيْد فى قيْد، وأسدٌ فى صفَد، وحىٌّ فى قبْر، ودنيا فى شِبْر إنها لهِبة مشكورةٌ وان كانتْ والحِرمانُ سواء .

ابن حيون : لقد أراحَ الله بالكَ من هـذه الناحيةِ يا مولاى وأذهَبَ عنْك الحزْن ... أما يسرُّك يا مولاى أن تَنتقلَ من هـذه القلْعةِ المظلمةِ الرطبة الى منزلٍ بظاهرِ المدينةِ جديدِ البناءِ حسنِ الأثاثِ تُحيطُ به الأشجارُ من كل جانب ، فتنزِلَه وقد طرحتَ هذه القيود فتستقبل الرّاحة والحرّيةَ وتُمتعَ بالعُزلةِ التى هامَ بها العقلاءُ فى كل زمان .

الملك : ومن لى بهذا الذى تصفُ يابنَ حيون ؟

ابن حيون : بل هو أمرٌ قـد تمَّ يا مولاى فقدْ فُرِغ من شرائه وتأثيثه وتهيئتِه لنزولِك به فى أهلِك وعيالِك ، وأما النُّقْلة فغـدًا أو بعدَه إن شاءَ الله .

الملك : وابنُ تاشفين ... ؟

ابن حيون : هو الذى أمر أن يكون كلُّ ذلك وقد تذكر كلمتكَ المشهورةَ التى سارتْ مثلا فى قيمِ الأندلس : إذ سئلت أىّ المفزعيْن أحبُّ اليك : ملك الأسبان أم سـلطان المغرب فأجبتَ (رعْىُ الجمال ولا رعْىُ الخنازير) فأمر أن يحمل اليك فى المنزلِ الجديدِ بعيران من نجائبِ إبلِهِ لترعاهما له فى خميلةِ الدارِ الجـديدة .

الملك [فى اطراق] : الآن تذكرتُ . لقد سئلتُ مرة فى مجلس الحكم إن كان لابدّ لى أن أخضعَ لسلطان أو أدينَ لملكٍ بالطاعة

فأى الملكين أفضل وأى السلطانين أختار : سلطان المغرب أم ملك الأسبان؟ فأجبتُ : (أرعى الجمال عند أمير المسلمين ولا أرعى الخنازير لملك الأسبان) وأظن أن عبارتى هــذه نُقلتْ يومذاك إلى ابن تاشفين فأعجبته ووجدها شريفة.

بثينــة : ولكن المكافأة كانت غيرَ شريفة يا أبى .

المـلك : تريدين يا بثينة أن تقولى إنّ مروءة السلطان لم تزد على أن جعلنى راعيًا لجماله بعد ما سلبَ نعْمتى واغتصبَ مُلْكى ونفانى أنا وأسرتى فى أغمات .

الرميكيـة : هـذا جهدُ الرجُلِ فى المروءة يا مولاى وهـذه غايةُ كَرَمه فلا تكلفه فوقَ قدْرةِ باعه ولا تسألْه ما ليسَ فى طِباعه .

الملك [لابن حيون] : ولكن قل لى يابنَ حيون من أخذ لنـا هذا التافهَ القليلَ من ذلك السلطان الشحيح ؟ ومن ذا الذى اجتهد لنـا وصَنع كلّ هـذا حتى غيّر رأىَ السلطان وصرَفه عن العُنْف إلى اللُّطْف ؟

بثينــة : هو لاشك ابنُ حيون يا مولاى .

ابن حيون : ما اجتهدتُ ولا صنعتُ شيئا ولكن المـالَ صنَع .
[ويشير الى الجواهر] .

المـلك : سنذكر لك هذه المهمّة الكبرى يابنَ حيون .

بثينــة : وتلك المهمّةُ الصغرى أتذكرها للسلطانِ يا مولاى، فقـد تسمّحَ فنقلكَ من هذه القَلْعة إلى دار غيرها فى أغمات .

المــلك : [ويبتسم ابتسامة تهكم] : أعيشُ فيهـا حرًّا طليقا بيْن أربعـةِ جدران وأرعى لَه فيها الجمال .

بثينـــة : أنتَ الذى رعيتَ لله فى أشبيليه قوما شيَّدوا حضارَة الإسلام وشعْبا عزيزا كريمًا طالما ناضلَ دونَ عرينه وصَبَرَ على عَداوةِ الفرنجة وتألُّبهم عليهِ القرونَ الطوال .

ستار الختام

تمييز

تمهيد

زمن الرواية : القرن السادس قبل الميلاد

مكان الرواية : مصر [منفيس : عاصمة مصر .
صا الحجر : مقرّ البلاط .]

فارس/سوس : عاصمة الفرس .

أشخاص الرواية :

أمازيس : فرعون مصر .
بسامتيك : ابنُ أمازيس وولى العهد .
نفريت : ابنة أمازيس .
نتيتاس : ابنة فرعون أبرياس المقتول .
قمبيز : ملك الفرس .
تاسو : حارس فرعون .
تئى : وصيفة الملكة نتيتاس .
فانيس : كان قائداً فى الجيش المصرى ثم التحق بالجيش الفارسى .

رجال الوفد الفارسى .

رجال البلاط الفرعونى .

قواد ـ جند : من الفرس .

ساحر ـ راقصات ـ أقزام ،
نوب ـ حجاب ـ خدم] مصريون .

الفصل الأول

المنظر الأول

« بالقرب من غرفة فرعون أمازيس الخاصة — »
« تاسو حارس فرعون — الأميرة نفريت ابنة الملك »

تاسو : نفريت ؟

نفريت : تاسو ها هنا ؟

تاسو : وهل أُرى إلا هنا ؟

أحومُ حول صنمى وحول هذى القَدَمِ

نفريت [وتنظر إلى رجلها] :

حول رجلى أنا ؟

تاسو : أجل حول هذا الشُّهْدِ والزُّبْدِ والنميرِ الصافى

ما بكِ يا نفريتُ ما هذا الأسى ؟

ما بالُ عينيكِ تريدانِ البكا ؟

نفريت : تسألنى ما بى ألم تعلم بما

جرى ويجرى من بخائع القضا

تاســو : ماذا جرى ؟ ماذا لقيتِ ملكتي

من القضاء؟ مُهْجتي لكِ الفِدا

نفريت : كيف لقد كان حسابي أننا بخِطْبة الفُرْس تحطَّمنا معا

تاســو : إذن فهــذا الغــمّ من جرّائهـا

وأنتِ تخشَيْنَ الرحيلَ والنوى

نفريت : وأنتَ يا تاسو ألــم تحزنْ ؟

تاســو : أنــا ! أحزنُ يا سلطانةَ الفُرْس أنا؟

لقد ودِدْتُ لو مَلَكتِ كلَّ ما

دبَّ على الأرض وطار في السما

نفريت : وفُرْقتي تاســو ألم تحزنْ لهــا ؟

تاســو : ولِــمْ وفي الفرس يكون الملتقى

نفريت : في فارسٍ ! في قصرزوجي نلتقي !

يا عجبــا ماذا تقــولُ يا فــتى؟

تاســو : لِمَ لا أليسَ في القصورِ سَعَة ؟ نحن هناكَ مثلُ مانحن هنا

نفريت : هذا الغَباءُ منــكَ تاسو عجبٌ ليس المكانانِ على حدٍ سَوا

هنا أبي إذا بكَيْتُ رقَّ لي وإن شفعتُ لكَ عنده عفا

تاســو : وثَمَّ ؟

نفريت : وحشٌ في إهاب بَشَــرٍ يقتُــلُ من يلْقى

تاســو : أمون نجِّنا !

وماذا اعتزمت ؟

نفريت : اعتزمت البقاء بمصرَ وفي ظلِّ هذى الحُجَرْ

و بالقُرْب منكَ ومن والدىَّ ومن إخوتى وذوىَّ الأُخر
و بين وصيفاتىَ المُشْفِقاتِ ومن لاذ بى من بنات الأُسر
تاسو : ولكن تُرى كيف تجرى الأمورُ اذا علمتْ فارسٌ بالخبر
وقيل لقمبيزَ فرعونُ خالَف وابنةُ فرعونَ لم تأتمر
نفريت : ليجر بما شاء تاسو القضاء ليجر بما شاء تاسو القَدَر
لتُخْسَفْ بقوم عليها البلادُ ليستأخرِ النيلُ أو ينفَجِرْ!
فأما أنا فسأبقى هنا و إن غَضبَتْ فارسٌ والنمِرْ
فما الفرسُ لى بالصحاب الكرام
ولا لىَ فى مُلْكهم من وَطَرْ

[تدخل الأميرة نتيتاس]

نفريت : من المُفاجى (نتيتا) ؟
نتيتاس : نفريتُ، تاسو سلامُ
نفريتُ أصغى لقولى فلى إليك كلامُ
نفريت : تكلمى واقتصدى
نتيتاس : ولم أزل مقتصده
نفريت : أتيتنى شامتةً
نتيتاس : لا بل أتيتُ مُسْعِدَه
آمون قد مدّ إليك والى الوادى يده
وقد كفى مصرَ البلاء والخطوبَ المُرْعِدَه
وكفَّ عن ربوعنا نارَ المجوس الموقَده

نفريت : وكيف بنتيناس ماذا ما الخبرْ ؟

كيف جرى غيرَ مجاريه القدَرْ ؟

تاسو : ما الأمر يا سيدتى !

نتيناس : وأىُّ شأنٍ فيه لَكْ

إن الذى عندى لا يُقال إلا للملكْ

نفريت : عجِّلى إذن ، قابلى أبى ، أسرعى الخطى ، اذهبى اذهبى
واسأليه ما ، شئتِ واطلبى

نتيناس : ما ذاك ما ذا تقولين فكِّرى يا نَفْرَتُ
ما جئتُ أطلبُ مالًا ولا لهذا حضرتُ
ولا بشأنك يا بنتَ آمزيس افتكرتُ

نفريت : ففيمَ إذن جئتِ يانتيتاسُ وفى أى شأن نقلتِ القدَمْ ؟

نتيتاس : أتيتُ لمصلحة الآخرين وجئتُ لشأنٍ جليل العِظَمْ
أتيتُ لأفدى بنفسى البلادَ وأدفعَ عن مصرَ شرَّ العَجَمْ
فإنك إن ترفضى يزحفوا كزحف الذئاب ونحن الغَنَمْ
فأين أبوك ؟

نفريت : تُلاقينَهُ هنالك فى حجرات الصَّنَمْ

نتيتاس : سأمضى إليه

نفريت [بتهكم] اذهبى افدى البلادَ

نتيتاس : نعم أنا أفدى بلادى نعم

[تخرج]

نفريت : يا ويحها قد ذهبتْ دعنيَ تاسو واذهبِ

[يخرج تاسو] :

« يدخل فرعون الى غرفته الخاصة وهي حجرة صغيرة أرضيتها من الخشب »
« الملون وفيها بضعة كراسي خفيفة الوزن لطيفة الصنع وفي زواياها الأربع »
« تماثيل للآلهة المصرية ، فرعون أمازيس وابنه نفريت مقبلة عليه »

نفريت : سلامٌ ياضُحى الشمس ويا غُرّةَ آبيس
ويا حاميَ سايس ويا حارسَ منفيس

فرعون : سلامٌ شبهَ هاتور سلامٌ شبهَ إيزيس

نفريت : أبي بل نادني يا بنتَ فرعونَ أمازيس

فرعون : تعالَيْ أقبلي يا بنتَ فرعونَ أمازيس
وفي أيّ جليل أو صغير يا تُرَى جئْت
تعالَيْ ياابْنَتي قولي سَلي فرعون ما شئْت

نفريت : أبي كُنْ لي فقد أظلمت الدنيا بعينَيَّا

فرعون : سأجْلُو ظُلمةَ الدنيا وأمحوها بكفَّيَّا
[تغرورق عيناها بالدموع]
بِنْتَاه

نفريت : ربَّاهُ أبِي

فرعون : ما للأميرةِ باكيَه ؟

هَلَّا ادّخرتِ لمصْرعي هذى الدموع الغاليَه

نفريت : لا بل تعيشُ أبي وتبْقَى في ظلالِ العافيه
أبتِ تهيَّأَ كلُّ شيءٍ للنَّوَى المُترَاميه
فغدًا تضُمنيَ القصورُ بل القبورُ الجافيه

فى ألفِ جاريةٍ لقمـــبيزٍ هنـاكَ وجاريـه
من كل مُرسَلةٍ هنـا لكَ كالبهيمـةِ ساليَـه
فبـأىِّ قلـبٍ يـا مليـكُ تزُفُّـنى للطاغيَـهْ
أدرِكْ فتاتَك قد ضعُفــتُ عن احتمالِ الداهيَه

[تدخل نتيتاس على فرعون أمازيس فتخرج نفريت]

فرعون : مَن أرى؟ إنه لحظٌّ عظيمٌ نتتاسٌ بنت الفراعين عندى
نتيتاس : التحايا لعرشِ مصرَ المُفدّى من أبى ساكنِ السماءِ وجدّى
فرعون : وسلامُ الذى على عرشِ مصرٍ لا تؤدينه ؟
نتيتاس : وكيف أؤدّى؟
ليس بينَ ابنـةٍ وساقِ أبيها غصة الموتِ من سلامٍ وردٍّ
إن حقدى عليك دَيْنٌ وبِرٌّ ربّ لا يَذهبِ العقوقُ بحقدى
فرعون : احملى الحقدَ لى أو اطّرحيه وتمنَّىْ علىّ جاهى ورِفدى
اسألى تسألى أباك
نتيتاس : معـاذ الـد مِ فرعونُ ليس دنياكَ قصدى
فرعون : فيمَ قد جئتنِى إذن ؟
نتيتاس : فى حقـوقٍ لديارى وواجبٍ نحو مَهدى
كلَّ عامٍ صبيةٌ من بنات الـشـعبِ تُختارُ للفداء فتفدى
تنزِلُ النيـلَ غيرَ عائفـةٍ ما فيه للموتِ من حياضٍ ووِرْد

سمحتْ بالحياةِ فى غير سأمٍ

وسَخَتْ بالشباب فى غيرِ زُهدِ

تبتغى الخصْبَ والرخاءَ وتحتا لُ لعيشٍ بنعمةِ النيلِ رَغدِ

سقتِ الناسَ بعدَها لم تقُلْ قو لَ الأنانىّ: يهلكُ الناسُ بعدى

فرعون : قد عرفنا فهل تريدينَ منا أن تكونى التى نزُف ونُهدى

نتيتاس : تلك مدفوعةٌ يقدِّمُها الكُهَّانُ

لكننى تقدّمتُ وحدى

[مستمرة] : جئتُ أفدى وطنى من سيفِ قمبيزَ ونارِه

جئتُ أفدى وطنى من دَنَس الفتحِ وعارِه

فرعون : ما ذا تقولين فيمَ جئتِ ؟ قمبيزٌ؟ الفتحُ؟ مصر؟ فارسْ؟

نتيتاس : نفريتُ تأبى المسيرَ هبْ لى مكانَها منك يا أمازسْ

فرعون : أنتِ التى تذهبين ؟

نتيتاس : لم لا ؟

فرعون : هذا هو النُّبلُ يا نتاتِسْ

بخٍ بخٍ ، بنتَ أخى

نتيتاس [فى آستنكار] : أنتَ يا قاتلُ ، عمِّى ؟ ؟

لا ... أبى يا أبى وأمِّى

فرعون : لا تدفعى نَتِيتَ بى ولا تَهِيجى غَضَبى

نتيتاس [كالمستهزئة] : تقتُلُنى مثلَ أبى!

[تظهر نفريت بالباب]

فرعون : من ذا الآن ؟ نفريت ، هيا ادخلى　　لا تقف الأقمارُ بالبابِ

نفريت : تحيةُ الشمس لسارعِ أبى　　تحيةُ المعبودِ آمونِ

فرعون : أتيت لِوَفْقِ الأمر نفرتُ أقبلى
تعالىْ أُنَبِّئْكِ الجليلَ تعالِى

نفريت : أبى لا جليلَ اليوم إلا مُصيبتِى

فرعون : ولكنها قد آذنتْ بزوال

نفريت : وكيف وأنّى ؟

فرعون : أنظرى مَنْ بمجلسى　　وأىُّ رسولٍ للسماءِ حِيالِى
إلهٌ لعَمرى فى قميص أميرةٍ　　سعى لك يحبو عونَه وسعى لى

نفريت : نتيتاسُ أختى ؟

نتيتاس [لنفسها]　أختُها ما أصنَّها　　متى كان بيتى مجرمينَ وآلِى

نفريت [لأبيها بعد أن سمعت جوابها] :
أبى أهذا تجمعُ اليومَ بيننا　　وما لابْنَةِ المُلْكِ القديم ومالِى

فرعون : لقد بعثتْها الشمسُ من عرشِ مجدها
شعاعَ هدى من حَيْرةٍ وضلالِ
تُزَفُّ إلى قمبيزَ فى موضع ابنتِى
وفى موكبٍ من وَفْدِه ورجالِى

نفريت : نتيتاس

فرعون : قولى بنتَ فرعون

نتيتاس : أعْفِهـا

نفريت : ولِـمْ

نتيتاس : ذاك عهدٌ يا أمـيرةُ خالى
فـلا يستوِى المـُلكُ القشيبُ جـلالُه
وآخـرُ مخـلوعُ الجـلالةِ بالى

نفريت : أحقٌّ نتيتا ما روَى الملكُ

نتيتاس : ما روَى أبوك صدًى صوتى ورجْعُ مقالى

نفريت : رويدًا نتـيتاَ راجعى الرشـدَ إنّمـا
تُضحّين يا أخـتى بأنفس غالى
تُضحّين بالدنيا الجميلةِ والصِّبا وهذا الفضاءِ السافرِ المُتَلالى
أحقٌّ عقدتِ العزمَ ؟

نتيتاس : بعد رويّة وأقنعتُ نفسى بعدَ طول نضال
وَمالىَ لا أعطِى الحيَاةَ إذا دعتْ بلادى ، حياتى للبلادِ ومالِى

ستـار

المنظر الثانى

«حجرة عظيمة فى قصر فرعون — وفد من الفرس ينتظر رسول»
«الملك أمازيس ، هنا وهناك فى الحجرة نفر من حاشية فرعون»

رئيس الوفد : لقد جُلتمُ فى بلدةِ العجلِ جَوْلةً
وما بَرِحتْ بالزائرينَ تُجابُ
فكيف وجدتم قوم فرعون ؟
قباذ : أمةٌ
إذا هىَ قيستْ بالشعوبِ عُجابُ
لهم مثلُ ما للأُسدِ بالجنسِ عِزّةٌ
ضوارى الفلا عندَ الأسودِ كلابُ
هُم الشهْبُ والناسُ الجنادلُ والحصى
وتِبرُ الثَّرَى والعالمُون تُرابُ
وكلُّ الذى صاغوا من الفنِّ آيةٌ
وكلُّ الذى قالوا هُدًى وصَوابُ

الرئيس : خطبْنا اليهـم أُمس بنتَ مليكهِم
فما كان إلا الاحتقارَ جـوابُ
وأشـفق أهـلوها وقالـوا حمـامةٌ
دعاها الى الوَكْرِ السحيقِ عُقابُ
[ثم يعرض ببصره رجال القصر من المصريين]
تأمّل (قباذُ) القومَ وانظر وجوهَهم
وجـوهٌ عليهـا للهموم سَحابُ
ألستَ تراهُم كلّمـا نقّـلوا الخُطى
لهم جيئةٌ من ريبةٍ وذهابُ
قباذ : ولكنهم ما قصّروا عن ضيافة
طعـامٌ ونُزْلٌ طيّبٌ وشـرابُ
وخمرٌ فِنيقيٌّ بأيدى سُقاتِها لها نفحةٌ مِسكيّةٌ وحبابُ
وماذا علينـا أن تضيقَ وجوهُهم
إذا لم تَضـق ساحٌ لهم ورحابُ

«وعلى أثر ذلك يخاطب رجل آخر من الوفد صديقا له»
«فى ناحية أخرى من الحجرة وكان عائدا هو أيضا من المدينة»

الرجل : زفيروس؛ من أينَ ؟

زفيروس : من جولة بمنفيس

الأول : كيف وجدت البلدْ ؟

وكيف احتقارهمُ للغريب ... إذا قام فى شأنه أو قعد
وكيف عيونهمُ حوله ... إذا حملته احتمال الرمد
زفيروس : وجدتُ وجوهًا عليها النعيمُ ... ودُنيا على جانبيها الرَّغَدْ
وسوقًا تُفض وسوقًا تُقامُ ... وخلقًا يروحُ وخلقًا يفد
وشعبًا على خُطةٍ فى الحياةِ ... ونَظْمٍ به فى الشعوب انفرد
ولم أرَ مثلَ صناعاتهم ... سُمُوًّا وبُعدًا على المنتقِد
ولا مثلَ أخلاقهم مبلغًا ... من الفضل أو من خلال الرَّشَد
إذا مرَّ يافِعهم فى الطريق ... بشيخٍ تنحَّى له أو سجَدْ
الأول : تباركتِ النارُ، كلتَ المديحَ ... لمصرَ جُزافًا ولم تقتصِدْ
زفيروس : أخى ما الذى أنت ناعٍ علىَّ ... وما قلتُ إلا الذى أعتقد

الأول [مبتسما] :
لقد سَحَرتْ مِصرُ الفارسىَّ ... ويا طالما نفثتْ فى العُقَد

ولكنْ زفيروس كيف الجنودُ
وكيف الحديدُ وكيف الزَّرَدْ

وهل كنتَ تلقاهُمُ فى الطريق
وتنظُرُ أظفارَهم واللِّبَدْ

زفيروس : أخى ما رأيتُ بمصرَ الجنودَ ... ولم يأخذِ العينَ منهم أحد
سوى فتيةٍ من جنود القصورِ ... وضباطِها فى الثياب الجُدُدْ

يروحون في الخُوَذِ اللامعات
ويغدون في الذهب المتّقد

الأول : إذن هو مُلكٌ بلا حائط رقيق الأواسي ضعيف العَمَد
خلا الوكرُ من صرخات العُقاب
ونامت عن الغاب عين الأسد
أولئك لا في حماة الديار ولا في العديد ولا في العُدَدْ
طواويس في عرصات القصور
تروقُ تهاويلُها من شهد
ولا يُعجبنّك سلمٌ يرفّ وخيرٌ يفيضُ ومالٌ لُبَدْ
وآثارُ فنٍّ تروعُ العقولَ وأجسادُ موتى تعيش الأبد
فما أنتَ راءٍ سوى جنّةٍ هي الخُلْدُ أو طيفُه في الخلد
يهُبُّ عليها غدًا عاصفٌ من الفرس أنّى تمشّى حصد

ثالث منهم : صدقتَ أخا الفُرسِ قلتَ الصواب
غدًا يعصفُ الفُرسُ أو بعد غد

أحدهم لآخر : أعلمتَ ماذا يُرَدَّدُ في القصرِ وماذا يقالُ همسًا ووحْيا

الثاني : ما يقولون هاتِ قل
آخر : كيف صدتَ السرَّ في القصر كيف صدتَ النّجيّا
هاتِ قل ما بأرض مصرَ عجيبٌ
مصرُ دنيا وسائرُ الأرض دُنيا

الأول : هم يقولون إن بنتَ أمازيـ
سَ عروسَ المليك تأبى المُضيّا

الثاني : هازلٌ أنتَ ؟

الأول : بل سمعتُ حديثًا إن يكُن مُفترًى فماذا عليّا؟

آخر : إنه يَهْـذِى دعوهُ كاذبٌ لا تسمعوه
ما الذي زخرَف

الثالث : ألقى كِذبةَ الأجيال فوهُ
يزعم المَلْكةَ نفريت ابنةَ الملْكِ أمازسْ
ترفُضُ السيرَ مع الوفدِ إلى أقطارِ فارسْ

آخر : ما خطْبُه ما يدّعى إمض بنا لا تسمع
يقول فرعونُ مِصرا لم يرض قمبيز صِهْرا

الثاني : مَنْ أمازيس ما الأميرةُ ما مصـ
ـرُ أفي الأرض من بقمبيزَ يهزا

آخر : أهذا خبرٌ يُروى غبيٌّ أنتَ واللّـ
ـه أتحتَ القُبةِ الزرقاءِ من يسخَرُ بالشاهِ

الأول : اعزبوا ما لكم ولى قلّلُوا الشتمَ والسَّخَرْ
ما الذي قد أتيتُه؟ ناقلُ الكفرِ ما كفر!
خبرٌ قيلَ قد يصحُّ وقد يكذِب الخبرْ

أحدهم : يا صحبُ كيف تُرى تَقضون ليلَكمُ
وكيف نومُكمُ فى هـذه الدار

آخـر : أمّا أنا فإذا استلقيتُ طوّفَ بى
شتّى الخيالاتِ من سحرٍ وسحّارِ

وأنت ؟

الأوّل : يغشى الكرى عينى فيصرفُهُ
عنها خيـالُ تماسيحٍ وأثوار
من التّوابيتِ حولى كلُّ منتقلٍ
بغـير رجـلٍ ولا ساقـينِ دوّار
يُجيلُ من خلفِها الأمواتُ أعينَهم
كأنها فى الدُّجَى أحداقُ أنمارِ
ولا تزال بىَ الأرواحُ طائفةٌ مناجياتٍ بألغازٍ وأسرارِ

آخـر : أمّا أنا فإذا ما جئتُ مُضطجعى
عوّذتُ نفسىَ قبـلَ النوم بالنارِ
فلا يطوفُ من الأرواح بى شَبَحٌ
من خَيِّرِينَ وإن جلّوا وأشرار

آخـر : هيّا اسمعوا ماذا رأيتُ أمسِ

آخـر : ما ذاك ؟

الأوّل : صَـــهْ تكلّمـوا بهمسِ

رأيتُ عصفوراً برأسِ إنسِ	أقبلَ حتى صار عند رأسي

فما ملكتُ عندَ ذاك حسّي

آخـر : ثُمَّ ؟

الأوّل : صحـوتُ فوجدتُ نفسي	منطرحا أغط فوق كرسي

آخـر : وأنا

ثان : أنتَ ما رأيتَ ؟

الأوّل : أعجَبا	مما رأى صاحبكم وأغربا

رأيتُ آبيسَ أتى مضاجعي	فهـزّها بقــرنهِ وقلّبـا

ثم رأيتُ

الثـاني : ما رأيتَ ؟

الأوّل : حـدقا	تقلّبتْ في الليل تحكي اللّهبا

آخـر : ثُمَّ ؟

الأوّل : وقال العجل أنتم فارسٌ ؟	قلتُ نعم فقال لي لا مرحباً

آخر في دهشة : يا عجبا. ألعجلُ قـدْ	كلّمـه يا عجبـا

[يدخل تاسو حارس فرعون] :

تاسو : أيها الوفـدُ سـلامٌ لكُمُ	بنتُ فرعونَ ستأتي بعدَ حينْ

نتلقّاكم بما يزكو بكم	من تحايا وتجيبُ الخاطبينْ

رئيس الوفد : أيها السّـيد تاسـو	أدنُ منا مرحبا بكْ

غبتَ عنا زمنًا حتـى اغتممنا لغيابكْ

لم تَسَلْ عنا ولم تبْعثْ رسولًا من صِحابِكْ

تاسو : يا كبيرَ الوفد هذا العطفُ قد أثَّرَ فِيَّا
أنتَ لا تجهلُ مِن أنظمةِ الدِّيوانِ شيَّا
شرَفُ الخدمةِ لا يجعلُ وفتى بيدَيَّا

فارسى [لآخر بصوت منخفض] :
تاسُو ؟! ومن تاسُو؟

الآخر : فتًى في القصرِ مرمُوقٌ جميلْ
نَدْمانُ فرعونَ وصاحبُه وحارسُه النبيلْ
ويَميلُ فرعونٌ إليْه وبنتُه أيضًا تَميلْ

[حارسان يدخلان فيصيح أحدهما] :

الأوّل : الملْكُ فرعونُ سَارِعْ
الثانى يردّد : الملْكُ فرعونُ سَارِعْ

« يدخل الملك والأميرة نتيتاس وكبار الكهنة »
« المصريين فيجلس الملك والأميرة ويقف تاسو »
« وراء الملك » فينهض رئيس الوفد ويقول »

رئيس الوفد [إلى فرعون] :

بركاتُ السماءِ فرعونَ مصرَا
وسلامٌ من طاهِلِ الأرض كِسرى
رُسُلُ قمبيزَ نحن لم نألُ إحسا
نَكَ يومًا ولا اهتمامَك شكرَا

قد خطبْنا إليكَ زنبقةَ الوا
دِى وأعْلَى عقائِلِ النيلِ قدرًا
نحمِلُ الشامَ إن أردتَ صداقًا
ونسوقُ العراقَ إن شئت مَهْرًا
ونُزَجِّى الكنُوزَ من قيِّمِ اليا
قوتِ والدُّرِّ والزُّمُرّدِ تترَى
إنها فارسٌ وإنا لنرجو
أن سترْضَى بها حليفًا وصِهْرًا

فرعون أمازيس [إلى تاسو] :

قُمْ أجِبْ عنِّىَ الدهاقينَ تاسُو

تاسو : سيدى من أكونُ! مولاىَ، عُذْرا

نتيتاس : أبَتِ أعْفِهِ

ثم إلى تاسو: مكانكَ تاسُو أنا بالفصل فى مصيرِىَ أحْرَى

نتيتاس [إلى الوفد الفارسى] :

مرحبًا وفدَ فارسٍ رسُلَ قمبيزَ مرحبًا
قد تأخرتُ عنكمُ وأطلتُ التحجُّبا
ونهانى مُطَبِّبى فسمعتُ المطبِّبا
خبَّأونى لِوَعْكَةٍ ومن البردِ يُخْتَبا
لم يرَ الناسُ صاحبًا كالعوافى مُحَبَّبا

رئيس الوفد : اشكرى الله يا ابنتى واذكرى فضل ماحبا
كم سألنا بجاهنا بالذى طمان النبا

أمازيس [إلى تاسو بصوت منخفض] :

مالها تاسُ أطنبتْ ولذا الشيخ أطنبا
تركا خطبةَ الزوا ج وقاما ليخطُبا

نتيتاس [بصوت منخفض وقد سمعت ما دار بينهما] :

ما الذى ساء والدِى من كلامى وأغضبا
ما لفرعونَ ساخطًا ولتاسُو مُقطّبا

فرعون [بصوت منخفض] :

اجعلى القصد يا ابنتى لكِ فى القولِ مذهبا

نتيتاس للوفد : قد دعوتم أبى لما يرفعُ البنتَ والأبا
إن فرعونَ كوكبٌ صاهرَ اليومَ كوكبا
اذكروا لى مُقامكم أترى كان طيبا
أيها الوفدُ قلما صاهرتْ مصرُ أجنبا
مرحبًا وفدَ فارسٍ

الملك [بصوت منخفض] : شبعَ الوفدُ مرحبا

نتيتاس : أنا إن عشتُ شِدتُ للنارِ بيتًا مطنبا
فى عيونِ الوهادِ مِنْ فارسٍ أو على الرُّبا
كلما لاحَ ضوؤه هزّتِ الأرضُ منكبا

رئيس الوفد : هلمى يا ركى يا نارْ على بنتِ الفراعين -

ويا فارسُ هاتوا الغارْ　　وجيئوا بالرياحين
وحيُّوا زوجةَ الجبّارْ　　على كل السلاطين

[ويثر الفرس الرياحين على الأميرة نتيتاس وهم يتغنون]

الكهنة المصريون يتغنون :

آمونُ قم شاركْ　　فرعونَ في العُرسِ
تعالَ طُف باركْ　　في ملكةِ الفُرسِ

* * *

نَحِّ الشياطينَ　　وانفِ العفاريتَ
واحرسْ بعينيْك　　موكبَ نفريتَ

* * *

آمونُ هيَّ اشتركْ　　في عُرسِ بنتِ الملِكْ
وقُم اليها كلِّلِ　　براحتيْكَ راسَها
واشهد بمصرَ واحتفِلِ　　بفارسٍ أعراسَها

ســتــار

المنظر الثالث

« بهو عظيم من القصر زين بالمصابيح البديعة الألوان المصنوعة من ورق »
« البردى وأغصان الزيتون ، وصففت الأزهار ... والرياحين هنا »
« وهناك . وفى ناحية من البهو جوقة العزف من حاملات القيثارة ، »
« والعود ، والناى ، والدف . يموج المكان بأعضاء الوفد الفارسى »
« فى ملابسهم الفارسية الفاخرة و برجال الحاشية وخدم القصر من »
« الحرس والكهنة كبارهم وصغارهم وفتيان النوبيين ، وقد وقف قهرمان »
« القصر يصرف الوصفاء والنـدل و يسخرهم فى شؤون الوليمة . وقد »
« مدّت الموائد الفخمة وجعلت عليها ألوان الطعام المختلفة من خراف »
« مشوية وباردة وبط صيد ، ومن سمك النيل ، ومن الحلوى بأنواعها ، »
« وسلال الفاكهة . ووضعت هنا وهناك أباريق الذهب والفضـة »
« المملوءة من عتيق الخمر . يجلس على المائدة فرعون أمازيس و بجانبيه »
« وأمامه كبار رجال الوفد الفارسى وعظماء رجال الكهنوت والدولة . »
« و ينتشر الآخرون على جنبات المائدة يتحادثون جماعات جماعات »

فارسى [لصاحبه] :

فيروزُ . أنظر ترى الخرافا   حُمْرًا لطافًا على الخوان
ذا سمكُ النيل فى الأوانِى   كأنه مِعصَمُ الغـوانى
وأعينٌ تلك فى جُفـونٍ   أم ذلك البطُّ فى الجفانِ

فيروز : ذكرتَ كلًّا ولم تُرجِّحْ — بخمر ساموسَ فى الدِّنانِ
ونخمرِ فينيقيا المصفَّى — كأنه ريقةُ الحِسانِ
فيروز : ونخمرِ مصرٍ فى قصرِ فرعو — نَ
ثالث : — تلك مجهولةُ المكانِ
الأوّل : فيروزُ ، دَعْنى خلِّنى — الخمرُ ليستْ دَيْدَنِى
من خمرِ آثينا وسا — موسٍ ومصرَ أغْنِنى
الأكلُ يا فيروزُ شغـ — ـلى وبه تفنُّنِى
تشربُ والبطنُ خلِى! — يا لَكَ من مُغَفَّلِ!
كُلْ هَنِيئًا فيروزُ كُلِ
هذا الخوان قد كَمَلْ — من كل جانبٍ حَمَلْ
هذا شُوِى هذا قُلِى
والبَطُّ فى الأَطباقِ — بطبَطَ فى الرقاقِ
من رأسهِ للأرجلِ
ثالث : وهـذه الإوَزُّ — رجْراجةٌ تهتَزُّ
قد طُيِّبت بالتابِلِ

فيروز [للأوّل] :
أخى كلانا قد صدَقْ — فما لنا لا نتَّفقْ
آكُلُ ما تأكُلُ من طعامِ — ونحتَسِى معًا من المُدام
الثالث : هذا لعَمرى مُحكَمُ الكلامِ

فرعون [الى رئيس الوفد] :

سيدى لو تقولُ لى كيفَ قمبيزُ والقدحْ

الرئيس : إن قمبيزَ سيدى ملِكٌ كله مَرَحْ

ليس تخلُو قصورُه من سرورٍ ومن فرَحْ

فارسى آخر : لكن له شُغلٌ عن الخمرِ بطُولِ غزوتِهْ

فرعون : أينَ تُرى يشربُها

الفارسى : يشربها فى خوذته

كعبده ابنِ أمَتِه

« ويخلع الفارسى خوذته ويصب فيها خمرا ويشرب »

« بعض صغار رجال الوفد الفارسى يتحادثون فيما بينهم »

أحدهم :

ليتَ شعرى فلستُ أدرى الى أىِّ بلاءٍ قمبيزُ يدفَعُ فارسْ

قد فتحنا الفضاء شرقاً وغرباً وملكناه من عُبابٍ ويابسْ

اتسعنا من الفتوح

آخر : يقيناً غيرَ أنا لم نفتكر بالحارسْ

خَلِّ «مانى» عنك السياسة دَعْهَا

خَلِّ عنك الفضولَ خَلِّ الوساوسْ

إن شرقَ البلاد ضيعةُ قمبيزَ وغربَ البلادِ حقلُ أمازسْ

سائسُ العالمين أسعدُ منه رجلٌ للحمار والبغل سائسْ

ثالث : انظر الحفلَ « بهارٌ » استخفته الكؤوسْ

رابع : وفــدُ قمبيزَ وهــذا ... مــلكُ مصــرٍ آمزيسْ
ذهبُ الأرضِ عليهــم ... غَرِقَتْ فيــه الطقــوسْ
ساسَــةُ الدنيا وكلٌّ ... غــيرَهم فيها مَســوسْ

الثاني : خَلِّنَا باللهِ من ســا ... سَ ودعْنا مِن يسـوس
لِمْ نَظَــلُّ الدهــرَ مَـرْءو ... سِيــنَ والغــيرُ الرئيس
لِمَ « مانى » لا أنا رذْ ... لٌ ولا أنتَ خســيس

الأوّل: كلُّ ما أعجبَ كسرى ... فهــو فى الفُــرسِ نفيسْ
كلَّ حينٍ حاكمٌ يمــشى علينا ويدوس
هكذا يختــلفُ الحــظُّ ســعودٌ ونُحــوس
إنَّ بعضَ النــاسِ أذنا ... بٌ لبعضٍ هُمْ رؤوس
منزلُ الأُسدِ الصحارَى ... وعلى المرْعَى التيــوس

الأوّل : لِمَ يا « مانى » يسُودُو ... نَ ونبقى لا نســود
ونُقَــادُ الدهرَ والآخــرُ يا « مانى » يقــود

آخــر : يا أخى نحنُ كلانا ... عاجِــزُ الــرأيِ بليــد
هــذه الدنيــا لِمَن ... يُقــدِمُ فيهـا أو يُرِيد
ســنَّةُ الكــونِ وما ... عن سنّةِ الكونِ مَحِيــد

آخــر : أنا يا « مانى » طموحٌ ... أنا لا أكتُمُ عنكَا
أنا فى الدنيــا وفى زينــتهــا أرغبُ منكَا
أنا أهــوَى سَــعةَ العيــش ولا أرضاهُ ضَنْكَا

الأوّل : إرضَ بمـا كانَ وما يكونُ أو فانْفَـلِق
وهيّ نشـربْ قَـدَحَيْـــنِ أو فَـهَيّ انطـلِق
أحدهم : ألقَـدَحَا . ألقَـدَحا الخمـرُ تَنفى التَّرَحَا
قمـرًا أرى أم فَلَكَا وشجـرًا أم قُـزحا (١)
وغادةً تَسـقِ أمِ الـظـبْيةَ أم شمس الضحى
وخـوذا على رؤو س فارسٍ أم الـرَّحَى
ألقَـدَحَا . القَـدَحَا هاتوا الشعاعَ المُفرحَا
هاتِ السَّنَا هاتِ القَبَسْ هاتِ الشَّذَا هاتِ النَّفَس
هاتِ سراجَ المِهـرجا ن هاتِ شمعةَ العُرُسْ
هاتِ ابنةَ الشعاعِ والـظـلِّ ابنةَ العَذْبِ السَّلِسْ

أحدهم [رئيس الوفد] :

مـولاى ألقِ السـمـعَ وابعـثِ النَّظَـرْ
ماذا تـرى ؟

الرئيس : أرى « بهـارًا » قد سَكِرْ
الأوّل : فتـاكَ غـنِّى وفـتـاىَ قـد شَـعَرْ

الرئيس : وما الـذى ضَـرّ ؟
الأوّل : صـدقتَ لا ضـررْ

(١) قوس قزح

الرئيس : ونحنُ ما نصنعُ ؟

الأوّل : شُربٌ وسَمَرْ

الرئيس : ونحنُ أيضًا بَشَرٌ وهُمْ بشَرْ
فليشربوا من هاهنا إلى السَّحَرْ

أحد الشبان : رئيسَ الوفدِ لا زلتَ ... لما يَرفعُ تُختارُ
ولا ساواكَ دهقانٌ ... ولا داناكَ أسوارُ
وغالَى بكَ قبيزٌ ... وحلّت جسمَك النّارُ

« يدخل وصيف من وصفاء القصر و بيده مومياء من الذهب »
« يعرضها على الضيفان ، ووراءه رجل يقول و يكرر ... »

المُوميا طُوفُوا بها ... واتّعِظوا بخَطْبِها
لا تسألوا ما هي مَنْ ؟ ... نكرَها طولُ الزّمنْ
هَيَّا كلوا هيّا اشربوا . ... هَيَّا اسمعوا هَيَّا اطربُوا
تمتّعُوا بالفانيهْ ... قبلَ الحياة الثانيَهْ
خُذوا المُدامَ الصّافِيهْ . ... قبلَ انكسارِ الآنيهْ

فارسي لآخر : خورشيدُ هذا هو البلاءُ ... كلُّ أحاديثِهِم فناء

خورشيد : روايةُ الموت حيث راحوا ... وقصةُ الموت حيث جاءُوا

[يقترب تاسو من نتيتاس فى ناحية أخرى من البهو و يقول]

تاسو : نتيتاسُ ألا كاسٌ ... ألاَ شكوى ألا عتْبُ
أيُنْسى فى سُويعاتٍ ... ويُطوَى ذلكَ الحُبُّ

نتيتاس : دع الحبَّ فلم يُخلق ... له من لا له قلبُ

تاسو : وما ذنبي ؟

نتيتاس : لقد أحسنتَ لكن لى أنا الذنبُ

أنا أحبَبْتُ عابثًا سادرَ القلب جافيا
يَعشَقُ الجاهَ والغِنَى لا يحبُّ الغوانِيَا

[مستمرّة] :

أنتَ كالنّعمةِ من قصرٍ لقصرِ
أنت كالنّحلةِ من زَهرٍ لزَهرِ

[مستمرّة] :

باعَدَت الأخلاقُ ما بيننا أينَ أخُو العهدِ من الناكثِ
لعبتَ بى فيما مَضَى عابثًا
فالعبْ بغيرى اليومَ كالعابثِ
أقسمْتَ لى فاذهب فأقسم لها
فأنتَ أهلُ القسمِ الحانثِ
أحببْتَ بنتَ الحىِّ حتى قضَى واليومَ أحببْتَ ابنةَ الوارثِ
كم مجلسٍ كان لنا ثالثٌ فيه وقد تَعْمَى عن الثالثِ

تاسو : ما هو مَنْ ؟

نتيتاس : الحبُّ يا مدّعِى والحبُّ حربُ الظالمِ العابثِ

[يعرض عنها تاسو ويبتعد]

نتيتاس [لنفسها] :

مضى الغادرُ لم يَشْعُرْ بما حمّلَنى الغدرُ
ولا رَق له نابٌ على جُرحى ولا ظفرُ
تكلمتُ فلم يسمع وأنّى يسمعُ الصخرُ

لقد غامرتُ فى تاسو وتاسو فى الهوى غمرُ
كم استشفيت بالسِّحْر فما عافانِيَ السِّحرُ
وكم ناديْتُ آبائى فما لبَّانِيَ النَّصرُ
وكم جئتُ إلى الصَّبرِ فما آوانِيَ الصَّبرُ
جـزاءُ المُعرِضِ التَّيَّا ه منك الصدُّ والكِبرُ
هَبِيهِ نَبَأت الدارُ به أو نزَحَ القبرُ
هَبِي معرفَةَ الغادِ رِ لم يأتِ بها الدهرُ
أقِلِّي شُغُلَ الفكرِ فقد أتعبَكِ الفكرُ
هَبِيهِ جرَت السِّنُّ عليه ومشَى العُمرُ
فلم يَبْقَ له نَهْىٌ على الغِيدِ ولا أمْرُ
ولم يبق له فى البا لِ تمثالٌ ولا ذِكْرُ

« مدعو من المصريين يشير إلى نفريت وهى متنكرة فى زى »
« يونانى و يقول لرجل بجانبه ... ... »

المدعو : مَن المرأة ؟

الآخر : مَن ؟

الأول : تلكَ تَرَاها مثلَ طاوُس
تَراها مع كاليـاس

الثانى : ومَن ؟

الأول : وارِث فانيس
أميرالجيش فى منْف وأسوانَ وسايِيس

الثانى : أجلْ تلكَ التى تظهـــرُ فى أغربِ ملبوسِ
فهـذا الوجـهُ مصريٌّ وهـذا الـزِّى سامُوسى

[رجل فارسى لآخر يدعى قباذ] :

الرجل : انظـر قبـاذُ ما تَرَى ؟

قباذ : أحسنَ شيءٍ منظـرَا
حـامـةٌ تُطـارِحُ الـشـجوَ حـاماً ذَكَرَا
يا ليـتَ أذْنى سمِـعَتْ مِنَ الحديثِ ما جَرَى

الأوّل : دعنىَ من ذِكرِ الهوَى إنّنِى مُذْكنتُ لمْ أعشَقْ ولمْ أُعشَقِ

قباذ [فى تهكم] :

وأنتَ كالناسِ امرُؤٌ عائشٌ تلك لعَمرِى عيشَةُ الأحمَقِ

الأوّل : قبـاذ قـد عرفتُـه ذلك تاسـو الحـارسُ
قباذ : الحمـد لله عـلى أنْ لم تحـزهُ فارِسُ
إذنْ لهـامَتْ كاعِبٌ بحبِّـه وعانِسُ

[تاسو يقترب من نفريت] :

نفريت : تاسو هنا ؟ هاتِ اسقنا

تاسو : لبَّيْـكِ يا ذاتَ البهاءْ لبَّيْـكِ يا بنـتَ السـماءْ
يا ليتَـنِي كنتُ الرّحيـقَ وليتَنِي كنتُ الإناءْ

[وبناولها قدحا] :

نفريت : تاسُ ، مِنْ أينَ ومَنْ كنتَ من الغيد تُحدِّثْ؟

تاسو : كنتُ أُجامِلُ الضيو فَ وأُلبِّي الملِكا
فعارضتني نيتاس في خلالِ ذلِكا

نفريت : وما الذي قلتَ لها تاسُ وما قالت لكا

تاسو : عادَت لذكرِ حبِّنا القديم وعطفَتْ على الهوَى الذَّميم
وطالَ العتابُ

نفريت : وطالَ السِّبابُ

تاسو : بحق الحبِّ نفريتُ أقِلِّي الشُّغلَ بالأُخرَى
ولا تُلقِي لناتيتاس لا بالّا ولا فكرا
غدًا تخلُو لنا مِصرُ غدًا يصفُو لنا القصرُ
غدًا ترحلُ لا أرجِعُها البَرُّ ولا البحرُ

نفريت : مالكَ تاسُو ولها خَلِّ الفتاةَ خَلِّهَا
للّه ما أعظمَها عِندى وما أجلَّها

قد أظهرَتْ أمسِ أمامي فضلَها ونُبْلَها

تاسو : ما فعلَتْ ؟

نفريت : ما أنتَ مَنْ؟ يَقدُرُ تاسُ فعلَها
ألم تصبر عن الوطن المُفدَّى وتسمحْ بالدّيارِ وبالشبابِ
وترضَ بأن تُزَفَّ غدًا مكاني إلى النمِر الأميرِ على الذئابِ

تاسو : صهِ نفريتُ صهْ لا يسمعونا فتلقَ مِصرُ أنواعَ العذابِ

« فى ضجة الوليمة يقف صاحبان هما : منا ، وأحامس ، ويتحادثان »
« صديقهما خوفو يقبل عليهما ثم القائد كالياس ... ... »

منا : أنظر أحامسُ

أحامس : ماذا؟

منا : فرعونَ بينَ صحابِهْ

أحامس : وما ترى من عجيبٍ؟ ماذا بفرعونَ ما به

منا : أنظر تجده إلهًا فى عبقرىّ ثيابِه

أحامس : لا تُلقِ بالًا إليه ولا إلى أذنابِه
غدًا يَصبُّ عليهم قمبيزُ سَوْطَ عذابِه

منا : أحامس ، استغفر لما قلتَه فالُ الشياطين ولا فالُكْ

أحامس : قد كنتَ مثلى يامنا ساخطا تلعنُ فرعون فما بالُكْ

[ثم مستمرًا] :

تأمَّلْ القصرَ منا وانظره أرضًا وسَمَا
أنظر ترى الإغريقَ فيه هُمْ لفيفُ العُظَما
أنظر تجدهم كُلَّهمُ يلقَّونَ العجما

منا : ماذا على فرعونَ إنْ رعاهمُ وقدّما
أليس للضيفِ على ضائفه أن يُكرَمَا

أحامس : وصاحبُ الدارِ إذنْ يموتُ جوعًا وظَمَا
وصاحبُ الدار إذنْ لا يتعدَّى السُّلمَا

خوفو : ماذا أثار الصاحبيْن لِمْ وفيمَ اختصَما

أحامس : كُنْ مُنْصِفًا إنْ رُمتَ يا خوفو تكون الحَكَمَا
تأمَّلِ القصرَ خوفو أفيهِ من مصرَ شيٌّ
أليسَ فرعونُ فيه كأنَّه أجنبيٌّ
فأينَ حفَّارُ مصرٍ وفنّه العبقريُّ
والجيشُ خوفو

خوفو : خُذ الحِذْرَ يامِنَا يا أحامِسْ
كالياسُ آتٍ إلينا

منا : ومَنْ ؟

خوفو : خليفة فانِسْ

أحامس : اليومَ كالياسُ وأمسِ فانِسُ
احتكرَ القيادةَ الأبالِسُ

[ويقبل عليهم كالياس]

فرعون أمازيس [لتاسو] :

أينَ أقزامىَ ؟ امضِ جِئْ بأقزامِىَ تاسُ

[يدخل الأقزام فى أزياء المهرجين ، فيقولون] :

تحيّاتٌ لفرعونَ سلامُ الشمسِ للملِكِ
سلامٌ قائدَ الخيْلِ سلامٌ حامِىَ الفُلْكِ

قهرمان القصر [للأقزام] :

هلمُّوا رقصةَ الحورِ إذا طُفْنَ بهاتورِ
سماءِ العزِّ والنُّورِ

أحد الأقزام : نحنُ القُزُم أنصافُ ناسْ
ناسٌ وبالشِّبْرِ تُقَاسْ

ثان : نحنُ الدمَى واللُّعَبْ بنا يتمُّ الطَّرَبْ

ثالث : هلُمُّوا رقصةَ الموتَى من الكهفِ إلى الكهْفِ
ودُورُوا كالتماثيل من الرَّفِّ إلى الرَّفِّ

آخر : ثِبِي جُثث على الجَدث ثِبِي ثِبِي
حَبْوَ الصّغارْ على اليدِ والرُّكبِ
هيَا قِفِي هيَا ازحَفِي هيَا العبِي
هنا الطعامْ هيَّا كُلِي هنا الشَّرابْ هيَّا اشْرَبِي

آخر : تعالَ يا دهقانْ أرْقُصْ معِي
وأنتَ يا «أسوار» قُمْ اطلعِ
واقْتَبِسا الأنوار من سارَعِ

الجميع : عِشْ يا ملكْ مع الزَّمَنْ
مُطَوِّقًا مِصرَ المِنَنْ
وذائدًا عن الوطَنْ

[ثم يكررون عش يا ملك وينصرفون]

فرعون أمازيس [إلى وجهاء الفرس] :

يا وُجهاءَ الفرس قالوا لكم مصرُ بلادُ السِّحرِ والسَّاحرِ
فرُبّما سرّكُمُ أنني أجيئكُم بالساحرِ القادرِ

وينادى : حوتيب

حوتيب : لبيكَ سارعْ

فرعون : تعالَ لَهُ الضُّيوفَا

حوتيب : سادتى إنىَ فى الكفِّ وفى الجبهةِ أقرا
أنا أقرَا لكَ حظًا أنا أقرَا لكَ عُمرَا
أنا الذى بسحرىَ المبينِ أستطلعُ المكتوبَ فى الجبين

فرعون [إلى تاسو] :
تاسُو اقتربْ

تاسو : لبيّكَ يا ساراعِ

فرعون : لِمْ أجلبُوا ما خَطْبُهم ما الدّاعى

[ضجة وهمس]

فرعون [مستمرًا] :
وفيمَ هذا الهَمْسُ والتّداعى

تاسو : مولاىَ إن الوفْدَ فى ارتياعِ

تاسو [فى أذن الملك] :
انقلبتْ عصيُّهم أفاعِى

فرعون : يا حتّيبَ من فتًى صناعِ

رئيس الوفد :
للّه درُّ السّاحرِ هذا من العباقرِ

حوتيب : أناةً وفدَ فارسَ لا تُراعُوا ولا تُحصُوا دُعاباتِى عليَّا
خُذُوا قضبانَكم وتأمّلُوها لقد عادَتْ كما كانتْ عِصيًّا

فرعون : حوتيبُ قد سرّ ضيو فى أن يروْا ويسمعوا

فـزدهُـمُ فعنـدك السـحرُ الغـريبُ الممتـعُ

حوتيب : فـرعون هـذا شـرفٌ يطـيرُ بى ويرفَـعُ
أصنعُ ما كان دَدَا السـاحرُ قبـلى يصـنَعُ

فـرعون : وما الـذى تصـنَعُ؟

حوتيب : جيـئونى بـرأسٍ يقطـعُ
فـإننى أردُّه بجسمِه وأُرجِـعُ
فمَنْ من الوفد برأ سـه إلىّ يَدفـعُ

رئيس الوفد [لرجاله] :

هـل منكمُ يا معشرَ الفـرسِ بَطَلْ
عن رأسِـه لسـاحرِ النيـلِ نَزَلْ

حوتيب : هاتوا الرءوس لا يخافَنَّ أحـدْ
فـكلُّ رأسٍ سـيُرَدُّ للجسـدْ

أحدهم : رأسىَ غـيرُ هـيِّنِ

ثانٍ : رأسى عمـودُ بـدنى

ثالث : رأسى لـدىَّ غـالى رأسىَ كلُّ مـالى

فـرعون : حوتيبُ ما من أحـدِ هان عليـه رأسُـهُ
أنظـر إليهم . كلهـم عزّتْ عليـهِ نفسُـه .
خلِّ حُـتيْبُ الناسَ واخـترْ غـيرَهـم للتجـربه

حوتيب : مُرْهمْ إذن أن يُحضروا إوَزّةً أو أرنبـه

فرعون [لتاسو] :

امض تاسو جىء حُتَيْبًا بإوزٍّ وأرَانب

«يخرج تاسو ثم يعود ببضع من الأوز والأرانب . فيقطع حوتيب رأس إوزة»

«و يقول : شال هبد شال هبد لايعجز السحر أحد يا رأس عد الى الجسد»

الفرس : تعالتْ قدرةُ النارِ

المصريون : تعالَ الربُّ آمونُ

فرعون : هىّ حتيبُ إمش مابينَ الصُّفُوفْ

وطالِع الجبْهاتِ واقرأ الكُفوفْ

حوتيب : برأسِ مَنْ أبدأُ مُرْنِىَ يا سارعْ

فرعون [مبتسما وملتفتا لتاسو] :

برأسِ تاسُو إقرَا فى جبينِه

وبيِّن المحجوبَ من شئُونِه

حوتيب [وهو يتأمل جبين تاسو] :

هــذا فتًى باطنُه جمادُ

ليس وراءَ رأسِه فؤادُ

رأسٌ عليه وَقف الجلّادُ

تاسو : إخسَأْ كذبتَ وضلّ سحْرُكْ

فرعون : ورأسى ياحُتيب ألا تراهُ؟

حوتيب : جَبينُكَ أعفنى مولاىَ منه

فرعون: تعــالَ حُتيب

حــوتيب: لا . هذا شديدٌ جبينُ الشمس تنبو العينُ عنه

يا عجبــا مــاذا أرى؟

فرعون: ماذا تــرَى

حــوتيب: دمٌ جَـــرَى

فرعون: دَمِي أنا ؟

حــوتيب: لا ســـيدى عُوفيتَ بل دَمُ الــورَى

تاســـو: إذن ليجــر كالمطــر ما هَمَّنــا دَمُ البَشَـــر

إذا ســـلِمْتَ يا مــلِكْ فليَهْلِكَنَّ مَن هَــلَكْ

كاهن لآخر [بصوت منخفض] :

إنّ هذا الغلامَ فيه قساوهْ

الآخـــر: قلتَ حقًّا وفيه أيضًا غباوَه

فرعون: وبعدُ ماذا ؟

حــوتيب: حربٌ عوانٌ يَشيبُ من هَوْلِها الزمانُ

فرعون: وهل أكونُ يا حُــتيْبُ فيها

حــوتيب: سِواكَ يا مولاىَ يَصْطَلِيها

فرعون: وابْنِي بسامًا يا حُــتيبُ ما تَرَى ؟

هــل يَشهَدُ الحربَ وهــل يراها

حـوتيب : سيدى ليتَ الأميرَ حاضِرٌ أنا لا أقرأُ إلا فى الجبين

[قهرمانة القصر تطيف بالعازفات والحسان وتقول] :

القهرمانة : قُمنَ إلى اللهو يا عذارَى وخُذنَ صَنْجًا وخُذنَ دُفَّا
واهتِفْنَ بالشِّعرِ والأغانِى واقطعنَ ليلَ الشبابِ قصفَا

* * *

وأنشِدْنَ مع القومِ نشيدَ الملِكِ العالى

[ينشد الجميع نشيد فرعون مع الرقص وآلات الطرب]

النشيد : فرعونُ أنتَ الرفيعُ أنتَ العظيمُ الشانِ
وأنتَ سدٌّ منيعُ من جارفِ الفيضانِ

* * *

وأنتَ كالصَّخرِ تحمِى من نكباتِ العواصفْ
مِن قاطعِ الطرقِ يأوِى إلى حِماكَ الخائفْ

* * *

وأنتَ من صخرِ طيبه حِصنٌ مشيدُ الجدارِ
يُؤوَى إليكَ ويُلْجَا إلى طلوعِ النهارِ

* * *

أنت اخضرارُ الرِّيفِ وأنتَ حُسنُ الرَّفيفِ
تردُّ بطشَ القوىِّ وفتكَهُ بالضعيفِ

« فرعون يغادر مكان الوليمة فينطلق »
« المدعوون على إثره ولا يبقى إلا نتيتاس »

نتيتاس [لنفسها] :

أفيقِى بنتَ فرعونٍ فما يَزْكو بكِ السُّكرُ

غـدًا تَذْرُو رياحُ الفر ... سِ من موتاكِ ما تذرُو
غدًا يُصبَغُ من شَطٍّ ... لشـطٍّ بالـدَّمِ النّهـرُ
غـدًا يُهْتَـكُ عن أربا ... بِكِ المحـرابُ والسـتْرُ
فما تاسو وفتيانٌ ... كتاسُـو فى الحمى كثْر
هـم النَّحلُ و إن هابُوا ... لقـائى وأنا الـزهرُ
يموجون بساحاتى ... ويزْهو بهـمُ القصـرُ
ولكن بيـنَ جنبيَّ ... هوًى أولَى به مِصـرُ

ســتـــار

الفصل الثانى

فى مدينة سوس الفارسية

« فى حجرة فارسية فخمة مفروشة بثمين الطنافس ومملوءة بالوسائد »
« من الحرير المختلف الألوان ، وقد زينت زواياها بالرياحين »
« الكريمة ، الملكة ووصيفتها تتى فى الحجرة المذكورة ... ... »

الوصيفة تتى [وهى تصلح رأس الملكة وتمشط شعرها] :

تباركَ الذى خلقْ أقولها ولا ملقْ
ذوائبٌ أم الدُّجَى ومفرِقٌ أم الفَلق ؟
غدائرٌ فى الكتفيـن أُسْدِلتْ وفى العُنُق
كأنها من الحريـر الأسود الخيط شُقَق
لم يَخْلُ جوُّ فارسٍ مُذ ضمَّها من العبق

الملكة : ما تصنعين ياتِتى
تتى : أُصلحُ مولاتى
الملكة : لمَنْ ؟
تتى : للزوج يا سيدتى

الملكة : لنِمر الفُرس الخشِنْ

تتى : هَبيهِ ذئبًا مَلْكتى أو نَمِراً أو كركدن
أليسَ للأزواج تلبَسُ النساءُ ما حَسُنْ

الملكة [ملتفتة إلى وصيفتها تتى] :

قلتِ حقا تتى فإن على المرأة للزوج أن تكون أمينة
وعليها ألا تُقَصِّرَ بشراً حيث تلقاه أو تُقصِّرَ زينه

تتى الوصيفة : بل تحلّىْ مليكتى والبَسِى حُلَّةَ البهاءْ
وافتِنى مَن بفارسٍ من رجالٍ ومن نساءْ
إن كسرَى وقومَه كلّهم فى الهوى سواءْ
أنتِ كالشمس فى الضحى فانشرى الحُسنَ والضياءْ
لا على القصرِ وحدَه بل على الأرضِ والسماءْ

الملكة : يا لكِ من وصيفةٍ مُمَلِّقَهْ
عارفةٍ بالجُملِ المُنمَّقَهْ

الوصيفة : لقد وضعتُ ذهبًا فى البوتقَه
ولم أصف بالطيب إلا زَنبقَه
وقلتُ عن شمس النهارِ

الملكة : مُشرقَه

« و يظهر على الملكة التفكير واشتغال البال بغأة »
« ثم تتغنى فى نفسها وهى مقبلة على المرآة تنظر فيها »

الملكة [فى نفسها] :

يا ظالمًا أحبُّه جهدالهوى وإن غدرْ
ومن هجرتُ وطنى لأجله حينَ هجَرْ
قلبُكَ لحمٌ ودمٌ مثلُ القلوب أم حَجَرْ
لم يتنصَّلْ مرةً مما جنى ولا اعتذَر
جسمٌ كسلسالِ الصّفا على فؤادٍ كالصَّخَرْ
وزَهَرٌ أنتَ وتلك النفسُ أفعى فى الزَّهَرْ
لم تجن يا تاسُو علىَّ إنما جنَى القَدَرْ
ذنبك لا يُغْفَر إلا أن قلبى قد غَفَرْ
إن غبتَ عن عينى فأنتَ فى سوانح الفِكَرْ
أراك كلما رأَيتُ طائريْنِ فى الشجَرْ
وكلما بدَتْ لىَ الشمسُ ولاح لى القَمرْ
وكلما جئتُ الرياضَ ووقفتُ بالغُدُرْ
وكلما ترنَّم الشّادى وحرّكَ الوتَرْ
وكلما دبَّتْ وراءَ الليل نسمةُ السَّحَرْ
ياليتَ شعرى كيفَ أنتَ ما تجيءُ ما تذَرْ
وكيف حُبك الجديدُ هل خَبا وهل كَبِرْ
وهل وَفيتَ أم غدرتَ بالعشيقات الأُخَرْ

الوصيفة : دَعِى النـاسىَ مولاتى وخلِّيك من الـسَّالِى
ولا يخطُـرْ لكِ النّـا كـــثُ للعهــد عـلى بالِ

نتيتاس : هبيـه ياتتّـا خانَ فمـالى لا أفى مـالِى
لـــه خُلْقٌ ولى خُلْقٌ ولكنْ خُلْقِىَ العـالى

تـــتى : هـوَ يا ملْكتى مثـا لٌ ولكنْ منَ الوَحَـلْ
كان يكفى لبُغضِهِ بعضُ ذاك الذى فعَـلْ

نتيتاس : أنا أفـــديهِ ياتِتّـا بحيـاتى وإن قتَـلْ

تـــتى : لـو كان معشوقِى أنـا
نتيتـاس : ما الذى كان يُـلاقِى ؟
تـــتى : آه لا أدرى

بالصَّفعِ أجزيهِ وبالرَّكْلِ أو
كنتُ أُريهِ النَّجمَ فى الظُّهر

نتيتاس : الحـبُّ فى ناحيــةْ وأنتِ ذى فى ناحيــةْ
ما هكذا الحبُّ تِتَـاَّ ما الحـبُّ إلا التضـحيه

[تسمع ضجة وصياح وحركة جنود وراء القصر وصوت استغاثة] :

يقول المستغيث :

العفــوَ يا كسرَى الصـفحَ يا سـلطانْ
أخـــــوكَ والنـارِ ومجــدِهـا ماخانْ

الملكة : إسمعي ياتِتَا ألم يأتِك الصو ... تُ ؟

تـتى [وتطل من نافذة] : أجَلْ ثَمَّ ضجَّـةٌ وعـويلُ

ثَمَّ خيلٌ وشُرطةٌ وسلاحٌ

الملكة : ليتَ شِعرِى مَن البرىء القتيلُ

تـتى: أقتيـلٌ يا بنتَ فرعونَ ؟

الملكة : لِـمْ لا ليس فى أرض فارسٍ مستحيلُ

ياتِتَـا نحنُ فى بـلدْ كلُّ قلب بـه جمَـدْ

الحىُّ فيـه رخيـصٌ والميْـتُ أرخَصُ منـه

هنا الميْتُ تُنفضُ منه الأكف وتنهىَ الشـرائعُ عن دفْنِـهِ

ويُطرَحُ ناحيـةً فى الفضاءِ على سَهْـلِهِ أو عـلى حَزنِـهِ

تروحُ الحـداءُ على رأسـه وتغـدُو الذئابُ على بطنِـهِ

تـتى: ويْحَهُـم ويْحَهُـم أمَا مِن النـاسِ هُـمُ؟

ذلَّتْ وهـانَتْ أُمـةٌ ميْتُهُـم لايُكرَمُ

الملكة [وهى مطلة] :

تِتَـا هـذا هـو الحـارسْ وهـذا مَنْ تُحبينـا

كذوقِكِ ياتِتَا لم يَعْلُ ذوقٌ أتمثـالٌ حبيبُـكِ أم إلـهُ

تـتى: ولو فوق الإله يُحَبُّ شىءٌ ويُكرَمُ لم يكُنْ أحدًا سـواهُ

تأمّلي كَتِفَيْـهِ تأمّلي مَنْكِبَيْهِ كأن صقرَيْنِ حطّا فَظَلّا شاربَيْه

الملكة : انتظرى لا بُدَّ لى أن أسأله

تـتى : لا تفعلِى مالَكِ مولاتى ولَهْ

الملكة : يأيّها الحارسُ

الحارس : لبَّيْـكِ

الملكة : مَنْ يقتلون اليومَ فى السّاحَهْ؟

الحارس : أختُ الملكْ: أتوسِيا

الملكة : أختُ الملكْ ؟

الحارس : أجـل هِيَا

اتُّهِمت ببُرديا

تـتى : مَن برديا؟

الملكة : أخو الملكْ! يقطع فى السـاحـة رأس بُرديا

يا أسفا عاوده جنونُه

تتى الوصيفة [وقد أطرقت الملكة لحظة مفكرة مغتمة] :

ما بكِ مولاتىَ ما غمّكِ ما هذا الأسى؟

الملكة : لا شىءَ بى لقدْ وهمتِ يا تِتا لا شىءَ لا

الوصيفة : بل أنتِ تكتمينَ غمًّا طافَ أو همًّا سرى

هلا ذكرتِ أننا غريبتان ها هنا

أنت لىَ الأهل ولكنى أنا لكِ الحمى

وما على الغريب إن جاءَ الغريبَ فاشتكى

الملكة : صدقت يا تتَا أنا وأنت فى الكرب سوَا
قد اجتمعنا بعد قُر بِ الدارِ فى دارِ النوَى

تتى : أينَ إذن تبسُّمٌ كالصبح من فيكِ يُرى

الملكة : لقد رأيتُ الهوْلَ والـ ـزّوْلَ وما هدَّ القُوَى

تتى : أضغاثُ أحلام وزو رٌ من تهاويلِ الكرى

الملكة : رأيتُ رؤيا يا تتا هل لكِ علمٌ بالرؤى؟

الوصيفة [بعد تفكير] :

أجلْ تذكّرتُ أجلْ عندىَ من ذاكَ شذا
قدكنتُ فى الصِّبَا على أبى أقُصُّ ما أرى

الملكة : رأيتُنى كأننى فى قصرِ آبائى بِصَا

الوصيفة : فى القصرِ من صا الحجرِ قصرِ الجلالِ والبَها

الملكة : رميتُ عينىَّ من الـ ـقصرِ إلى أقصى مدَى
رأيتُ واديًا كطو لِ البيدِ أو عرضِ الفلا
أصفر من شعابه بنفسجىّ المُنحنَى
إحمرَّ مثلَ قُزَح هناك واخضرَّ هنا
رأيتُ ليثًا أحمرَ الـ ـجلدةِ خشنًا كالصفا
فاغرَ فيه عن نيو بٍ مثل مشروع القَنا
انقضَّ كالصخرِ على الـ ـوادى فأقعَى فَسرنَا
ونظرَ النيلَ وقد عبَّ وماجَ وطغى

وخرجت منه التما   سيحُ فُـرادى وثُنَى
وأعْوَلت حتى لقـد   سـدّ عويلُها الفضا
فعُقِـرَ الليثُ فـلا   رِجْلًا رمى ولا يَـدا
وقـرَّ فى مكانِه   كأنه بعـضُ الدُّمَى

الوصيفة : ثمّ ؟

الملكة : رأيتُ حنشًا   ليسَ له مِصـرُ ثَرَى
لم تـرَ منفُ مثْلَه   ولا الصعيدُ قد رأى
كأنـه صاعقـةٌ   تحـدرتْ من السما
مشى إليـه كلُّ ذى   قوْسٍ وكلُّ ذى عصا

وخرج الكهانُ يتـلونَ الصلاة والـرُّقَى

الوصيفة : وما الذى حـلَّ بـه؟

الملكة : لم يُصبْ الوحشَ أذى

الوصيفة : حقّقْـتِيهِ سـيدتى؟

الملكة : حقّقْتُـه على الضُّحى

الوصيفة : فكيف كان ؟

الملكة : صـورة   تُشيبُ أرْؤُسَ النَّشَا
كأنه فانيسُ عيـنَيْنِ ووجهًا وقفَا
حـتى تعـوّذتُ بإيـزيسَ وآبائى العُـلى

الوصيفة : فانيسُ مَنْ ؟

الملكة : نسيتِه ؟ كيف نَسيتِ يا تِتَا

الخائنُ الذي إلى فارسَ من حينٍ أَتَى
يَشِي بمصرَ وأخا فُ أن يكونَ بي وشَى

الوصيفة : ما صنعَ الثعبانُ مو لاتي

الملكة : من النهرِ دنا

وفَحَّ ثمَّ دَسَّ في النهرِ لسانًا كاللَّظَى
فاحتجبَ النيلُ وعا دَ يبَسًا ما كانَ ما
واحترقتْ مدائنٌ بالضفتينِ وقُرَى

الوصيفة : والليثُ يا سيدتي؟

الملكة : بعد التهيبِ اجترَا

مشى على الوادي فهلْ رأيتِ عاصفًا جَرى؟
يقتلعُ اليابسَ والرَّطبَ ويفرِي ويَطَا
وكرَّ حتى غادرَ الواديَ قاعًا صفصفا
هو ذا الحُلْمُ فما تفسيرُه نبِّئيني يا تِتَا

الوصيفة [لنفسها مضطربة] : ماذا أقولُ؟

الوصيفة [للملكة] :

مَلْكتي لا تفزعي

الملكة : كيف تِتَا كيف لا أفزَعُ والحُلْمُ مَهولُ

ينفدُ النيلُ ويذوى شَطُّهُ
وتَغولُ الأهلَ والأوطانَ غُولُ

الوصيفة : رؤياك ياسيدتى من نفسها مسؤوله
نالتك من عَشاءِ أمسِ ثِقلَةٌ ووبَله

الملكة : ماذا أكلتُ مع قمبيزَ وما قُدِّم له؟

الوصيفة : كان العشاءُ ملكتى مائدةً محمَّله
أكلتِ ياسيدتى من أرنبٍ متبَّلَه
ثم أكلتِ من حَمَلْ وحَمَلُ الفُرسِ جَمَلْ

الملكة : ثمَّ؟

الوصيفة : جاءوا بالطيرِ فى الأطباقِ

الملكة : طيرُ مَنْ؟

الوصيفة : طيرُ فارسٍ والعراقِ

الملكة : ثمَّ ماذا؟

الوصيفة : ثم جاءوا بالسمكْ
فرأيتُ الملكَ فى الأكل انهمَكْ

الملكة : ثم ماذا؟

الوصيفة : لا أُعدُّ ماحضَرْ من لحومٍ وبقولٍ وخُضَرْ
ثم بالحلْوَى أتَوْا والفاكهه

الملكة : كيف كانت؟

الوصيفة : تشتهيها الآلهه

الملكة : خلَّطتِ تخليطَ العجوز يا تِتَا ... فما علاقةُ الطعام بالكَرَى

الوصيفة : الأكلُ قبلَ النومِ ثِقلٌ وأذى ... وربَّما جاء بأضغاث الرُّؤَى

الملكة [لنفسها] :

عرفتُ الآنَ رؤياىَ ... وما خلَّطَ أحلامى

وقد يُغريك بالأكلِ ... طُهاةُ الفُرس والشام

[ثم الى تتا] : تِتَا أينَ كنتِ ؟

الوصيفة : وراءَ الخَدَمْ

الملكة : وكيف عَددتِ علىّ اللُّقَمْ

الوصيفة : لبِثتُ هناكَ فما من يدٍ ... تفوتُ علىّ ولا مِن قَدَمْ

ولم يخفَ عنّىَ كيدٌ يطوفُ ... ولا وحىُ لحظٍ ولا همسُ فَمْ

أخافُ القصورَ وأخشَى السمومَ ... وما منزلُ السُّمِّ إلا الدَّسَمْ

الملكة : يا لكِ من رفيقه ... محسنةٍ شفيقهْ

مَرْحَى تِتَا كذا تِتَا ... فلتكنْ الصديقه

الوصيفة : سيدتى أخجلتِنى ... ليس بما جئتُ عَجَبْ

ما قمتُ يا سيدتى ... إلا ببعضِ ما وَجَبْ

الملكة : ولكن يا تِتَا ما أخطَرَ السُّم على بالِكْ

ولى فى فارس عامٌ ... فما فكّرتُ فى ذلكْ

الوصيفة : أرى قمبيزَ والفرسَ ... بمولاتىَ قد جُنُّوا

ولولا ذاك لم يخـلُ   من الـسـمِ لهـا ذهنُ

الملكة : ولِمْ لا نحـــذرُ السُّمَّ   أما في فارسٍ نحنُ

هنا الجلادُ والسيفُ   هنا السَّجانُ والسِّجْن

الوصيفة : وماذا ضَرَّ ما قلتِ   إذا لم يَجْنِ الجِنُّ

الملكة [بعد برهة تفكير] :

أرى قمبيزَ ذَلَّ ورَقَّ طبعا   بربِّك هل رأيتِ عليه حُبَّا

الوصيفة : أجلْ هو يقصرُ الخطوات مهلًا   وكان يَمُدُّها خَطْفًا ووَثْبَا

[ثم في تلعثم وتردد] :

سأسألُ فاحلمي عـني فإني   أموتُ ولا أراك عليَّ غضبَى

سؤالٌ ملكتي هل من جوابٍ

الملكة :   أدونَك يا نتا شيءٌ يُخَبَّا

الوصيفة : زعمْنَا أنَّ قمبيزًا مُحِبٌّ   فهل تجزينَه بالحبِّ حبّا

الملكة : أحبُّ أنا؟ ضَلَّ ما قد ظننتِ   وإن خلت ظنَّك لم يكذبِ

الوصيفة : ولِمْ لا ؟ وقمبيزُ لا بالقبيح   ولا بالدميم ولا بالغَبي

ولا هـو بالملِكِ البربريِّ   ولا الوحش ذي النَّاب والمِخلَبِ

ولكن فَتًى خيِّرٌ كالسحابِ   وضيءُ البشاشةِ كالكوكبِ

يزينُ السريرَ إذا احتـلَّه   وإن سار كان حُلَى الموكبِ

الملكة : صدقتِ تتا هو زينُ الشبابِ إلـهُ القنـا قمـرُ الغيهـبِ
إذا غُلِبَتْ فى القتالِ الملوكُ وفى السِّـلمِ عزَّ فـلم يُغْلَبِ
يُسيطِرُ كالشمسِ سلطانُهُ على مشرقِ الأرض والمغربِ
ولكن متى يا تِتَـا دُلِّهَتْ بنـاتُ الفراعين بالأجْنَبِ

وما نلتقِي في جلالِ الجدودِ ولا في العقيدةِ والمذهبِ
بَخٍ بَخْ تتا ألف مرحى تتا

الوصيفة : حنانَيْك عفواً ولا تغضبي
لقد قلتُ حقًّا وماذا عليَّ إذا قولَةُ الحقِّ لم تُعجبِ

« تنسحب الملكة إلى غرفة مجاورة ويدخل قمبيز ... ... »

قمبيز [يدخل وعليه أمارات الغضب] :
ماأرى من تتا؟ تتا أين مولا تُكِ فيمَ احتجابُها أين سارتْ
تتى [لنفسها]: ربِّ ماذا به وما هاج قمبيـز وما بالُ نفسِهِ اليوم ثارت
تتى [لقمبيز]: هى فى حجرة الملابس
قمبيز : لا بل هى قد جاءها النبَّا فتوارت
خبِّرينى من أبوها أيـرياسٌ أم أمازسْ
وبنفـريتَ تُسـمَّى أم تُسـمَّى بنتـاتس
إحذرى أن تكذبيني إحذرى سلطانَ فارس
تتى : سيدى ما هذه الأخبار كسرى من رواها
سيدى كيف اتهمتم ملكة الفرس النبيله

قمبيز : سأريها كيف تقادُ وتأتى لى ضئيله
في غدٍ تدخلُ مصراً بنتُ فرعونَ ذليله
وترى السيفَ مخُوفًا وترى النارَ مهوله
وترَى النيلَ دمًا والأرضَ جرْداءَ محُولَه
لا أناسٌ لا مواشٍ لا بناءٌ لا خميلَه

الوصيفة : سيدى صبراً تجدْ عاقبةَ الصبرِ جميلَه
سيدى لا تُصْغِ إلا لسَجَاياك النبيلَه

قمبيز : أنا لم أخلَق لبسطِ الكَفِّ أستجدى بخيلَه
أنا للسّيف وللرُّمح وإخضاعِ القَبيلَه
لا نِتَا . لا . إن بالملكةِ كبراً ومخيلَه

[ثم بسخرية] :

أنا من تُرْبٍ خَسيسٍ وهى من أرضٍ جليلَه
أنا للطِّينِ سليلٌ وهى للشمسِ سليلَه

الملكة [وهى راجعة] :

ما الصوتُ مَنْ تُكلّمينَ يا نِتَا ؟

الوصيفة : سيدتى . سيدىَ الملْكُ أتى

الملكة [ملتفتة] : الملْكُ جاء حجرتى ؟ كيفَ متَى ؟ ؟

[ثم ناهضة ومقبلة على الملك] :

الملكُ فى مقصورتِى يا مرحبا يا مرحبا

الملك [ويقبل على الملكة] :

سلامٌ ملكة الفُرس   وبنتَ العليَة الصِّيد

الملكة : سلامٌ سيدَ الأرض   سلامٌ حيدَر البيد

ومن دانَتْ له الدنيا   وألقَتْ بالمقاليد

[ثم مستمرة] : لم أتعوَّدْ أن أرى   مولايَ عندى فى الضُّحى

قبيز : خالفتُ نظمَ عادتى   وجئتُ فى شأنٍ دعَا

الملكة : مالَك كسرَى عابسًا   مالى أراكَ مُغضبا

الملك [ويصفق] :

أجل جِدُّ غضبانَ

الملكة : مِمَّ الغضَبْ ؟

الملك : رُوَيْدَكِ نفريتُ تدرى السَّبَبْ

الملكة [لنفسها] :

دعانِيَ باسمِىَ لم يَدْعُنِى   كمألوفِ عادتِه باللَّقَبْ

تُرَى لم يزَلْ جاهلاً أننى   أتيتُ لفارسَ باسمٍ كَذِبْ

قبيز [ملتفتا وراءه خارج الباب وينادى] :

فانيسُ . أَقبِلْ أُدنُ جِىءْ

الملكة [لنفسها] : فانيسُ ؟ لا . لا يدخُلِ

فانيسُ لا أجهلُه   ليس لمصرَ بالولِى

عدوُّ قومِى وبلا   دى كيف يُصفى الودَّ لِى

[ثم إلى قمبيز]: مولاى إنى ما فـرغـــتُ بعدُ من تجمّلى
فكيف أستقبل فى   هـذا اللبـاس المهمَل
[لنفسها] : يا ويلتــاه ما أرا   دَ باصطحاب الرجـلِ
إيــزيسُ ما بالىَ أحـــسستُ بشرٍّ مقبلِ
الملك : مالَـكِ يا مليكةُ لـم   تُـرَحِّبى وتَحفِـلى؟
مالَكِ أجفلت ؟

الملكة [مضطربة] : أنا ؟   لا سيدى لم أجفـلِ

الملك : إذَنْ هبى الإذن لفا   نيسَ دَعيه يدخـل
الملكة : لا بأسَ فى أن أراه عندى   إن كنتَ يا سيدى مُصرّا
لكن أأُنسيتَ أن فانيـــسَ خانَ بالأمسِ عهدَ مصرَا
وفَرّ منها ولستُ أدرى   ماذا دَعاه لأن يفـرّا
وكان فى الجيش ذا مكانٍ   وقادَ بـرًّا وقادَ بحـرَا
قمبيز : لكنه اليـومَ فى بـلادى   أجَلُّ مما ذكرتِ قدرَا
الملكة : وسـوفَ يجزيكمُ جحودا   كما جزى أهلَ مصرَ كُفرا
قمبيز : لقـد أتانى بكلِّ سـرٍّ   عن مُلْكِ مصرٍ لم يُخفِ سِرًّا
حتى الذى تكتُمين عنّى
[ثم ينادى] :   فانيس
فانيس :   مَلْكى لبيْـكَ عشـرَا
[ثم هو يدخل] :
سـلامُ الشمسِ من مصرَ   سـلامُ النـارِ من فارسْ
عـلى المَلْـكة نفـريتَ   أو المَلْـكة نيتـايسْ

الملكة [لنفسها] :

رماني النذلُ بالسهمِ سلامٌ لكَ يا فانيسْ

[ثم لفانيس] :

ويا مَن هو في الفُرسِ ومصرَ القائدُ الفارسْ

وفي القصرين من سوسٍ وسايِيسَ هو الحارسْ

فانيس : وماذا ضرّ يا بنتَ الموالي وإن تأبَيْ فيابنتَ الأعادي

أجلْ مولاتِيَ الإغريقُ قومي أحِبُّهُمُ ويونانٌ بلادي

هجرتُهما إلى مصرٍ صبيًّا لكَسْبِ معيشةٍ وطِلابِ زادِ

فصدتُ الرزقَ حتى صارَ عندي وجاوزَه إلى المجدِ اصطيادي

سهرتُ على اللواءِ بمصرَ جُهدي وفرعونٌ وقومُك في رقادِ

الملكة : كذبتَ فلم تكن إلا مسودًا

فانيس : فسوَّدَني ذكائِيَ واجتهادي

الملكة : أجيرًا كنت عند أبي وقومي

فانيس : فموَّلَني نشاطي واقتصادي

جعلتُ الأرضَ كالصحراءِ تحتي وكنتُ الليثَ من وادٍ لوادي

الملكة : أراكَ عليّ يا فانيسُ تجْرو أجَرَّأَكَ المليكُ على عنادي؟

ككلبٍ خَلْفَ سيّدِه تجرّا فواثَبَ رائحًا وسَطا بغادي

فانيس : بدأتِ أميرةَ الوادي بشتْمي وما أنا يا ابْنَةَ المقتولِ بادي

لقد عيّرتِني أني غريبٌ ولوعٌ بالسفارِ وبالرِّيادِ

الملكة : لقد هجمَ الوقاحُ على مكانى وأخشى أن يصيرَ إلى التمادى
[ثم للملك] : مولاىَ قِفْ فانيسَ عندَ حَدِّه أو رُدَّه لا تُلْجِنى لِرَدِّه
علمتَ حقدَه على قومى فلا تَدَعْه يَنفثُ فىَّ سُمَّ حقدِه
الملك : عَلامَ أُقصيه
الملكة : لأنه أتى يَمشى بنا ويفترى كعهدِه
الملك : فانيسُ جاءَ ناقلاً مُبلِّغا وليس ما جاءَ به من عندِه
[ثم مستمرًا] :
أراكِ نفريتُ غيرَ منصفة رُوَيْدَ لاشىءَ يوجبُ الغضبَا
كونى مكانى! ؟ ما كنتِ فاعلةً؟ إذن قلبتِ الزمانَ فانقلبَا
الملكة : لا سيدى إن للزمان يدًا قد ضربتْ كفَّ كلِّ مَن ضربَا
الملك : نفريتُ ثُرتِ على قَنبيس وما حفظتِ ولاءَهُ
ونسيتِ خدمتَه بمصرَ وما ذكرتِ بلاءَهُ
الملكة : لا سيدى لا . نَحِّه أنا لا أطيقُ لقاءَهُ
[ثم مستمرة] :
ما بكَ مولاىَ ما أثارَك ما أذكاك إنى أراكَ ملتهبَا
قمبيز : أثارَنى منكِ أن كذبتِ وذا فانيسُ قد جاء يفضحُ الكذبَا
[ثم مستمرًا] :
هلُمِّى الآن نفريتُ هلُمِّى يا نتيتاسُ
بأىِّ اسميكِ أدعوكِ
الملكة : بذا أو ذاكَ لا باسُ

فيا قمبيزُ لو دانَتْ لكَ الأيامُ والناسُ
فلنْ تستطيعَ أن تقهرَ نفساً حلَّها اليأسُ

قمبيز: أنتِ مملوءةٌ من اليأسِ منى

الملكة: أجلِ اليأسُ منكَ ملءُ ثيابي

فليكن

الملك: إننى سألت سؤالًا لم إذن هِبْتِنى وهِبْتِ جوابى
كيف أدعوكِ يا عروسُ؟

الملكة: بما شئتَ بشرِّ الأسماءِ والألقابِ
بالذى أنتَ أهلُه من بذاءٍ والذى أنتَ أهلُه من سبابِ

الملك: أنتِ لم تُذنبى بل الذنبُ ذنبى
أنا قد شئتُ أن تكونى ركابى

الملكة: ليس ماشئتَ أو أتيتَ غريباً
قد تكونُ المَها ركابَ الذئابِ

الملك: احْذَرى أيها الفتاةُ انفجارِى

الملكة: انفجرْ ما بِى انفجارُكَ ما بِى

الملك: جئتِ ذنبا تُعاقَبِينَ عليه كلُّ ذنبٍ رهينةٌ بالعقابِ

الوصيفة [بصوت منخفض]:

اكظمى الغيظَ يا أميرةُ

الملكة [وتشير الى قمبيز]:

بل يخرجُ من مَحجرىّ ومن محرابِى

الملك [لفانيس والوصيفة] :

انظُرَا واسمَعا تُحاوِلُ أن أبْـــــرحَ قصرى وأن أُفارِقَ بابِى

الوصيفة [للملكة بصوت منخفض] :

راجِعِى الحلمَ ملْكتِي سايرِيهِ   لاطِفيهِ لِينِى له فى الخطابِ
لا تهيجى به الجنونَ فيطغى   إنّــه آدمٌ بظُفــرٍ ونابِ

فانيس [همسا] :

أَخْسِنِى الرَّدَّ ملْكتِي واحفظِينا
إننـا ها هنـا ثلاثُ رقابِ

الملـكة : خِفتَ فانيسُ من عذابِ نهارٍ
كيفَ عرَّضتَ أنفُسًا للعذابِ
عجبٌ من خرابِ عمرِكَ تخشى
أنتَ من ساقَ أمّةً للخـرابِ

المـلك : بنتُ مَنْ أنتِ يا نتيتاسُ

الملـكة : بنتُ الـشـمسِ بنتُ العواهِلِ الأربابِ
والِدى فى السماءِ فهو إلهٌ

المـلك : فلماذا مَرَّغتِيـهِ فى الترابِ
قد نَبذتِ اسمَكِ الذى كان سمّا   كِ وجُبْتِ البلادَ باسمٍ كِذابِ

[ثم مستمرا] : نتيتـاسُ تمـرّدْتِ   فما أبقيْتِ لى صبرَا
وكلّمتُـكِ فى الذنبِ   فما أبديْتِ لى عُذرَا
وما أجـرأَ ما كنتِ   عـلى شتمِىَ ما أجرَا

فما غرَّك بالبأسِ وبالسلطانِ ما غرّا

الوصيفة [بصوت منخفض] :
خُذى فى اللِّين مولاتى

فانيس [همسا] : خُذى سيدتى الحذرَا
فقد تأخذُه النوبةُ حتى يحْرقَ القصرَا

قبيز : دَعى العزّةَ بالجنس نتيتاسُ دَعى الكبرَا
ولا تُلقِى على إحسانِىَ النسيانَ والكُفرَا
أما أحْببْتُكِ الحُبَ الذى أنتِ به أدْرَى
وفضَّلتُكِ فى القصرِ على البيضاءِ والسمرَا
وقدَّمتكِ فى الأزواجِ قبلَ الأختِ من كسرَى

الملكة : لقد كنتَ وراءَ الحُبِّ تُخفِى النَّاب والظفرَا
وما أفرحنى أنى تقدَّمتُ على الأسرَى
ولا أنكَ ترْعانِى وتنْسىَ النعجةَ الأخرَى

الملك : ملكةَ الفرسِ أمسِ

الملكة : واليوم

الملك : كلا لستِ أهلًا لصحبةِ المالكينَا

الملكة : أنا بنتُ الملوك أصْلُح للمُلْك جدودى تملَّكُوا العالمينَا

الملك : قد خُدعتُ الشهورَ ياابْنةَ فرعونَ ولولا فنسٌّ خدعتُ السِّنينَا

فانيس [لنفسه] :
أحمَدُ الله قد نجوتُ برأسى وأمنتُ المُهَوَّسَ المجنونَا

الملكة: ليس فانيسُ للأمانة أهلًا   إن من خانَ لم يخفْ أن يخونَا

الملك: ستَرَين العقابَ

الملكة: إنى تأهّبـــــتُ فهاتِ العذابَ هاتِ المنونَا

الملك: لا. فما هاهنا العقابُ ولكن

الملكة: أيْن ؟

الملك: فى حيثُ شئتُ لم تسألينَا

مصرُ أوْلى بأن أحاسِبَ فيها   وأُحلَّ العقـابَ بالخادعينَا

فى غد تدخلينَ مصرَ مع الجيـــــش

الملكة: أنا ؟ لا أرافقُ الغـاصبينا

الملك: بل تسيرينَ تحت راية فانيـــــسَ

وما تصحبـينَ إلا أمينَـا

الملكة: سيدى

الوصيفة: مليكتى دَعى العُنفَ

الملك: ماذا ؟

الملكة: كيفَ لقّبْتَ بالأمين الخؤونَا

فانيس [همسا]:

صانعى أيهــا الأميرة

الملكة: دَعْـنى

فانيس: اهْدَئى حاسنى عسى أن يلينَا

وصيفة : مَلكتى قال سيدى الملكُ الحــقَّ

الملكة : صَــهٍ أنت يا تتَــا تكذبيناَ

فانيس : سَــترَيْنَ النعيمَ تحتَ لوائى

الملكة : بل أرى البُؤسَ تحتَه والهُوناَ

الملك : وكأن الوجهين بانا من الوا دى

وزالا سهـولةً وحُــــزوناَ

أرسلُ السيلَ تارةً وأجيلُ الســـيفَ آناً وأشعلُ النارَ حينا

الملكة : عُدْ إلى الرُّشد ما جنتْ مصرُ يا قمـ

بـيزُ ما ذنبُ أهلهــا الآمنينَـا

[ثم مستمرة] :

أمـيرَ الفُــرس قلنـا كــلَّ شيء

ولم تقُــل الحقيقــةَ والصـــواباَ

الملك : أعندكِ منهما شيءٌ ؟

الملكة : ولم لا

الملك : إذَنْ قوليهما و زِنِى الخطاباَ

ذكرتِ الحربَ هل تخشينَ منها

الملكة : ولم لا وهى أجدرُ أن تُهاباَ

الملك : ولكنا ملوكَ الفــرس نغشَى مخاوفَهـا ونجعلُهــا لعـا باَ

أراكِ هدأتِ نا تيتاسُ روعًا

فانيس : وكان الرّشدُ فارقَها فثـاباَ

الملكة : ذكرتَ مليكَ فارسَ حربَ مصرٍ وأنسيتَ العوائقَ والصّعابا

سيَطْوِى الجيشُ نحوَ حياضِ مصرٍ
بحارَ الملح والّلجج العذابا

وأغبَى الناسِ منشِرُ حربٍ توقَّعَ أن يُصيبَ ولا يُصابا

ودونَ النيل

الملك : ماذا دونَ مصرٍ؟

الملكة : يجوبُ الجيشُ صحراءً يَبابا

ترى تيهًا تَجُرُّ الخيلُ فيه قوائمَها وتنسحِبُ انسحابا

يَضِلُّ الجيشُ هديتَه عليه ويُظمئُه ويوردُه السَّرابا

ترى جَلَدَ الجمالِ عليه يفنَى وتحسَبُها من اللَّهثِ الكلابا

الملك : لا تُراعى فما على الجيش بأسٌ كلُّ شيءٍ على الحدود تهيّا

قد وجدنا الجرارَ في مصرَ والما ءَ ولم نعدمِ الرجالَ السُّقيّا

فانيس : واشترينا الخفيرَ بالمالِ والحا رسَ والحامىَ الأمينَ القويّا

الملكة [لفانيس] :
كلّ هذا فعلتَه أنتَ يا نذ . لُ

فانيس : أجلْ ما أتيتُ أمرًا فريّا

إن قمبيزَ بى حفىٌّ وفرعو نُ أمازيس لم يكن بى حَفِيّا

الملكة : وابنُه ماجنَى عليك ومصرٌ؟

فانيس : جَنيا الطردَ والجحودَ عليّا

أنا كالسيف لم يَصُنِّى كَمِىٌّ قد رمانى فاعتضتُ عنه كَمِيًّا

الملكة : وجحدتَ الذى طعمتَ من النعمة

فانيس : لا . ماطعمتُ من ذاك شيًا

كنت كالسيف كلما كافئونى جعلوا السُّمَّ لى طعامًا ورِيًّا

الملكة [إلى قمبيز] :

وهبكَ بلغتَ يامولاىَ مصرًا

الملك : وماذا عندَ مصرَ

الملكة : تجىءُ غاباَ

ترى أُسدَ القتالِ عليه شتَّى تقلَّدت الصوارمَ والحرابَا

وثَمَّ ترى الفَيالقَ من رُماةٍ تكادُ قسِيُّهم تَرُدُ السحاباَ

إذا نظروا على زادٍ غرابًا أصابُوا بينَ عيْنَيْهِ الغراباَ

الملك [يبتسم مستهزئا] :

رُماةٌ ؟

[ثم إلى فانيس والوصيفة] :

حدِّثوها كيفَ أرمى

وكيفَ أصيبُ فى السُّحبِ العُقاباَ

الملكة : أأنتَ بجمعهم نُقَاسُ كسرَى

وأنتَ الموتُ حيثُ رَمَى أصاباَ

الملك : إذَنْ ماذا ؟

الملكة : أخافُ عليك جيشًا

كَرُكُومِ الحصى يُخْطى الحساباَ

وأخشى أن يقولَ النــاسُ زوجى
غــداةَ ذهابِــه نسِىَ الإيابا

الملك [لفانيس] :

فانيسُ صَفِّق و ناد   يامعشــرَ القُــوّاد

[يدخل الحرّاس والقوّاد]

قمبيز [للقائد ميجا صاحب الأخبار] :

ميجا تعالَ

ميــجا : لبَّيْـــكَ رَبِّى   لك التحيات والسجودُ

الملك [للملكة] :

يامَلْكةَ الفرسِ ذاكَ ميجا   يعــلمُ مايحشُــدُ الوجــودُ
خريطــةُ الأرضِ فى يديه   السفْنُ والخيــلُ والجنودُ

الملك [لميجا] : ميــجا تكلَّم ما حالُ مصرٍ   ما الجيشُ فى مصرَ ما الحدود

الملــكة : هاتِ ميجا قل تكلَّم

ميجا [فى اضطراب] : ملكَتِى

الملــكة : ما الذى تدرى عن الجيش المجيدْ

ميــجا : جيشُ مولاتىَ كالعهــدِ به   كاملُ العُدَّةِ موفورُ العديدْ

الملك [فى غضب] :

هاتِ ما عندكَ من أخبــارِه
واخْشَ أن تَنقُص واحْذَرْ أن تَزِيدْ

ميجا [مضطربا] :

يا إلهَ الفرسِ لا تبرَحْ فَمِى
وأَعِنِّى . كيف أُبدِى وأُعيد

[ثم للملكة] :

إن وردَ السلمِ من كثرتِهِ نسيَتْ أظفارَها فيه الأسود
واختلافُ الجُندِ فيما بينَهُمْ أخذَ البأسَ وإن أبقى الحديد
أصبح الجيش
[ويسكت قليلا]

الملك [لميجا] : تكلَّم

الملكة : قل أَبِنْ

ميجا : كالقطيعِ اختلفتْ فيه الجلود
حُشِرَ اليونانُ فى رايتهِ وتراغَى الزِّنجِ واندَسَّ العبيد
وغَدَا كُلُّ طريدٍ لم يجِدْ سببَ الرزقِ أتى الجيشَ يصيد

الملكة [لنفسها] : والخيلُ يا ميجا هناك ؟

ميجا : قليلةٌ فى جَيشِ مصرَ قليلةُ الفرسانِ

الملكة : أسفًا على الفتيانِ أينَ حماسُهم قتَلَ النعيمُ حميَّةَ الفتيانِ

الملك [ملتفتا الى ميجا] :

مليكةُ الفرس ميجا قد اكتفَتْ ببيانِك
خُذ مرازبةَ الفرسِ وامْضِ ميجا لشانِك

نتيتاس : قمبيزُ ما شئتَ فاصنع إنِّى أراك مُصمِّرًا
تُغيرُ أنتَ وتغزو ويحفظ الله مصرا

قمبيز : وفارسٌ يا ابنَةَ النيل ما لِفارسَ ذِكْرُ

نتيتاس : لا أيها الملك مالِي في غيرِ مهديَ فكرُ

قمبيز : نتيتاسُ اسمعي أنتِ تُسيئين إلى مصرَا
غدًا يهلِكُ أهلُوها وتُمسي تحتَهم قبرا

نتيتاس : وقاها منكَ آمونُ ولا اسطعتَ لها ضَرّا

قمبيز : هذا التَّجنِّي كثيرُ هذا لعمري الغرورُ
لقد تحمَّلَ صدري ما لا تُطيقُ الصُّدورُ

[ثم مستمرا] : كفا عَبَثًا بسلطاني وبأسي كفى ما كان يا نتيتاسُ منكِ
غدًا يتحدّثُ الرُّكبانُ عني ويروي الناسُ ما يروون عنك
كذبْتِ عليّ يا ابْنَةَ أبرياسٍ حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي

أنا قمبيز بنُ كسرى أنا جبار الوجودِ
وأنا النارُ أصولي وبنو النار جدودي
ويل فرعونَ ومصر من جنودي وبنودي

قمبيز [لنفسه] : رباهُ ويحي ويحَ لي رباهُ مالي لا أعي

رباهُ ناراهُ ما الذي أجِدُ
كأنما النارُ فيَّ تتقدُ

يا نارُ كوني لي أو رمادًا كُنْ عوني

[ثم إلى نتيتاس] : انتظري البطش يا بنتَ فرعون

أنا قمبيز بنُ كسرى أنا وحشٌ أنا غولْ
لستُ بالعجل أبالى وعلى النار أبولْ

قمبيز [لنفسه] : قد رجع الصفيرُ لى يا ليته لم يرجع
ما بالُ عينى أظلمتْ ما بالُ ساقى جمدتْ
أين الطبيبُ أزْدَشِرْ ؟

[ويغشاه الصرع]

الملكة [بعد أن يأتى الطبيب] :

هذا الطبيبُ قد حضرْ

[يدخل الطبيب و يطلب نقله]

الملكة [تدنو منه فى حنو وعطف وتقول] :

يا ويحَ زوجى ويحَه هاجَ وعاده الصَرَعْ
يا نارُ كونى حوله أدركْهُ يا آمون رَع

[يخرجون به]

فانيس : ألان نتيتاسُ تعالَىْ إلى الهُدَى
تعالَىْ إلى الرأى الصوابِ تعالِى
نتيتاسُ أنتِ اليومَ ملكةُ فارِس
بلغتِ الذُّرَا من سُؤْددٍ وجلالِ

الملكة : ولكنْ أبى فانيسُ لاتنسَ ما أبى
وجَدِّى وأنى بنتُ أصيدَ عالِى

فانيس : ولكن ألم يخلعْ أباكِ أمازِسٌ
ويفتِكْ به في ثورةٍ وقتالِ
ويجلسْ على كرسيّ مصرَ مكانَه
ويخلُفُه في جاهٍ أفادَ ومالِ
الملكة : أجلْ قد خُلِعنا مُلكَنا وتصرَّفَتْ
بنا سوقةٌ من جُندنا وموالي
فانيس : إذَنْ فدَعي قمبيزَ يثأرْ لزوجه
ويضربْ بيُمْنَى أو يُصِبْ بشِمال
دعيهِ يعاقب سارقَ التاج مثلما
يُعاقَبُ في منفيسَ لصُّ لآلي
الملكة : تأمّلْ وحقِّق من تخاطبُ يافتَى
فانيس : أخاطِبُ عقلًا من وراء جَمالِ
لقد قلتُ قولًا ليسَ يأباهُ عاقلٌ
فلا تنظريني واسمعي لمقالي
الملكة : ولكن أمامي صورةٌ من خيانةٍ
فانيس : ومالَكِ يا بنتَ الملوكِ ومالي
الملكة : وأنتِ بِتَا ماذا تريْنَ ؟
الوصيفة : خيانةَ وأطماعَ فُؤادٍ ولؤمَ رجال

الملكة : فديتُك من مصريّةٍ

الوصيفة : بل أنا الفِدَى لسيدتى من قدوةٍ ومثالِ

الملكة [لفانيس] :

أتسمعُ كلبَ الصيد؟

فانيس : حمقاءُ غِرّةٌ وما لىَ أُلْقِي للحماقةِ بالِى

الملكة : عمّى لك يا فانيسُ وامشِ بلا عصًا
ودونَ دليلٍ فى رءوسِ جبالِ

فانيس : لكَ الشكرُ مولاتى

الملكة : لكَ الويلُ من فتًى فإنكَ من معنَى المُروءة خالى
أأُوطِئُ خيلَ الفرسِ مهدى وملعبى
وتربةَ آبائى ومنزلَ آلِى
وأشعِلُ نارَ الفُرسِ فى أيكةِ الصّبا
وما بوّأتْنى من رُبًى وظِلالِ
وأغمدُ سيفَ الفُرسِ فى صدرِ أمةٍ
نمَتْنِى وتنْمِى أُسْرتِى وعيالِى

إذَنْ لا أوَى جَدِّى السماء ولا أبى
ولا جَلَّ عَمِّى أو تبارَكَ خالِى
وأفضلُ منى كلُّ ذاتِ مُلاءةٍ
وراء حُقولٍ أو وراءَ تلالِ

تَهُشُّ على شاةٍ وتحمِلُ جَرَّةً
وتَمْشِي على الوادى بغيرِ نِعالِ

[يدخل قمبيز ثم الحاجب و يقول] :

إله الفُرس

الملك : ماذا ؟

الحاجب : ثَمَّ رُسُلٌ أتوا من مصرَ بالنَّبأ العظيم

الملك : وما يقولون ؟

الحاجب : يقولون أمازيسُ هلك

الملك : ثُمَّ ؟

الحاجب : يقولون ابنُهُ بسامتيك قد مَلَك

الملكة [لنفسها] :

مِصرُ ... ... رُسُلٌ ؟ ليتَ شعرى ما الخبَرْ
وطَنِي يا رَبِّ لا مَسَّ بِشَرْ

قمبيز الملك [ملتفتا للملكة والوصيفة] :

يا مَلْكَةَ الفُرسِ أصْغِى ويا نِتَا هل سمعتِ
قد ماتَ فرعونُ مصرِ

الملكة والوصيفة [بصوت واحد] :

تعيشُ مِصرُ وتَبقَى

ستار

الفصل الثالث

المنظر الأول

«الأميرة تقربت على ضفاف النيل تشكو إليه وتنتحر بأن تلق بنفسها فيه»

ويحى لقد أودَتْ بىَ الأنانيه
عِشتُ فما أحببْتُ إلا ذاتيَه
ولا افتكرتُ بسوَى لذَّاتيه
حتى قذفتُ وطنى فى الهاويه
ألنيل . ألنيلُ بجنبى هاهيَه
أمواجُه تهتِفُ بى مناديه

+ + +

يا نيلُ يا قوام كلِّ شئ
ومانحَ الحياةِ كلَّ حىّ
هىِّ اغسلِ الذنبَ العظيم هىّ

ثم تلق نفسها

المنظر الثانى

فى منفيس

« جماعة من المصريين والمصريات يتحادثون ويتذاكرون »
« بغى قمبيز وجنوده وبعض ما أصاب الناس من المصائب »
« من جراء الفتح الفارسى — فى ساحة من ساحات منفيس »

أحد الرجال [لزميل له] :

تعال يا (باطا) قل لى بالله
كيف ترى الحُكَّامَ كيف ترى الظُّلما

باطا : أَصِخْ أَصِخْ يا داد اسمع وكن عونى
قمبيز فى الظلم بألف فرعون

[ثم لمجار]: وأنت يا مجار ماذا تقولينا

مجار : آمونُ ذو المَنّ يُبْقِى الفراعينا
الفُرسُ فى مِصرَ طغيانُهم قد زادْ
هُمْ صلبوا التمساحْ على ضِفاف الوادْ
وكلَّفوا العصفورْ يمشى مع الصيّاد

[تقبل امرأة مصرية عجوز]

فيقول أحدهم: وهذه دوباره

آخر : الشيخة الثرثاره

الأول : هلمّي يا دوبارا هاتي اذكرى الأخبارا

دوباره : لا تسألوني ما الخبر مصرُ ترى اليومَ العِبَر

لكن صَهٍ حذارِ لا يدرينّ دارِي

عارضَني الساعةَ في طريق

فتىً مليحُ الحسنِ والبريق

يسألها سائل: من الجنود؟

العجوز : لا ! من القوّادِ

عالي المكان ظاهرُ الميلاد

آخر : وما أتى ما فعلا؟

العجوز : عانقني وقبّلا

الأول : وأينَ؟ فوق فمِك الدُّرِّيّ

آخر : أو من على جبينك البدريّ

آخر : أو فوق خدٍّ مثلِ روثِ البغلِ

الأول : أو فوق ذقنٍ مثلِ كعبِ النّعلِ

العجوز : أهذه نجدتُكُم يا فتيَهْ

أهكذا تُحمَى بمصرَ النِّسوَه

يا أسفًا على القرونِ الخاليَه

يا أسفا على النفوسِ العاليَـه

[وتنصرف مغضبة مهرولة]

أحدهم [ويرى شخصا مقبلا]:

هذا أها، من أينَ جئْـــتَ ؟

ثانى : كيف أنتَ يا أهـا ؟

أهـا : من ضيعتى

الأول : وكيف هِى؟

أهـا : قـد لَقِيَتْ ما ساءَها

إوَزِّى كلّـه طـاحَ وبَطّى كلُّـه طـارا

وأخـتى خُطِفت مِـنى وزوجى جُـلِّلَتْ عارا

الجماعة : إذن لقـد آن أن نثُـور نَطْـرُد قمبيزَ والجنـودا

الغابُ فى شِقوةٍ وبُؤسٍ فما الذى يُمسِك الأسودا

أحدالجماعة : خذوا حِذركم أقبل الطاغِيَه مع الوزراء وفى الحاشِيَه

وذا السيّفُ فى يدِ جلّادِه يُسَلُّ على الأرْؤُسِ العاليَه

آخـر : تـلك مصائبٌ وقـدْ صُبَّتْ على هـذا البـلَدْ

امضُوا بِنـا امضوا بِنـا لاَ يسمَعنّا أحَـــدْ

« ينصرف المصريون و يدخل قمبيز فى وزرائه وقواده »

« ثم يقبـل جنود يسوقون أسرى من النـوب ... »

قمبـيز : ماذا يَسُـوقُ الجنـودُ مِنِ الوجـوهُ السـودُ؟

هــذى عفـاريتُ

وزير : لا . بل مـولاى هـذى قـرودُ

قبـيز : لكنّهم حيثُ دارتْ رَحَى القتـال أُسـودُ

بـلَوْتُهـم فى القتـالِ لـمـا حَـوَتْنَـا الحـدودُ

قائـد : النـوبُ جُنـدٌ بِسَامًا

قائد آخر: بل هـم أشَـدُّ جنـوده

وأثبتُ الجيشِ يـومَ الـــقتـالِ تحـتَ بنـودِه

قبـيز : ياجُنْدُ حُلُّوا عن الأسرى وثاقَهُمُ

خَلُّوا عن السُّودِ قد أعتقتُ أقرانى

ويابنى النُّوبِ مُلْكى لن يضيقَ بكم

من شاءَ فليبقَ فى مُلْكى وسلطانى

والجيشُ دارُكمُ إن كان يُعْجِبُكُمْ

أن تَلْحَقوا بمُشاتِى أو بفـرْسانى

الأسرى النوب :

يا بنِي النـوب هَـلُمّ رقصةَ الحربِ لكسرَى

سـيِّدُ الأرضِ عفَا عـنّـا فما نحنُ بأسرَى

« ثم يفك وثاقهم فيرقصون رقصة الحرب و ينشدون »

النّـوبُ جيـلْ ، حُـرٌّ أصيـلْ ، يقضِى الديـونْ

نحنُ الأسـودْ ، حُمْـر الجلودْ ، حُمْـر العيـونْ

لنا لِبَدْ ، من الزَّرَدْ ، هى الحصونْ
نغشَى القتالْ ، ولا نُبالْ ، طعمَ المنونْ

نحن شعوبٌ وشِيَعْ ورَاءَ أسوانَ نَقَعْ
عروشُنا من الجريدْ تيجانُنا من الوَدَعْ

نحن قبيلَ الشُّلُكِ فى العنجريبِ نَتَّكِى
والصيدَ نَهْوَى والقَنَص ونَطَّلِى بالوَدَكِ

للحربِ نمشِى الهروله نبعثُ فيها الجلجله
ممزوجةً بالوَلوَله

[وبعد الفروغ من الرقص يقبل عليهم قمبيز ويقول] :

قمبيز : زِه يا جُنودْ زِه يا أسودْ

[كبير النوب لخازن الملك] :

زِه زِه هاتِ النقودْ

[يدفع الخازن اليهم مالا فيأخذونه وينصرفون]
[يتراءى فرسان ثلاثة] :

قمبيز : مَن الغُبار ؟
وزير : رُسُلُ
قمبيز : ما ذا إلينا حَمَلُوا
قائد : وها همُو ترَجَّلُوا

[يقف الفرسان بحضرة الملك]

قمبيز : ماذا وراء الرُّسُلِ

أحدهم : الدعوات للملك

قمبيز : ماذا لديكم ما الخبرْ؟

أحدهم : حوادثٌ ذاتُ خطَرْ

قمبيز : حوادثُ؟ قل أخا الهيجا تكلَّم

الرسول : بسامَتِيكُ يا مولاىَ خانَا

الوزير الأكبر :

بَسامتيك خان ؟

الرسول : أجل أميرى

قمبيز : وكيف؟ وما أتى؟

الرسول : بنقض الأمانا

قمبيز : وما برهانُكم

الرسول : كُتُبٌ ورُسْل يُشيرُ بها القُرَى آناً فآنا

قمبيز : وهل وجدتْ دعايتُه سميعا وهل حلّتْ من الوادى مكانا

الرسول : أجابت دعوةَ المخلوعِ مُدنٌ ومدنٌ ما جعلنَ لذاكَ شانَا

قمبيز : وأين فرعونُ ابْنَمَا

الرسول : فى منف يغدو ويروح

حُرٌّ كما شئتَ له بين القصور والصُّروح

من معبد لمعبد ومن ضريح لضريح

وحوله كهّانُ منفيس يحُثُّونَ المسُوح

وكلُّهم مُشيرُه

الوزير الأكبر : بئسَ المُشيرُ والنَّصوحْ

آخــر : من لم يكن كاهنًا فى مِصرَ أو ملِكاً
ولا تراه لهـــذا أو لِذَا تَبَعَـا
فلا تقيسَنَّ فى هــذى البـلاد به
إلَّا المــواشىَ والأحجـارَ والسَّلَمَا

قمــبيز : وزرائى ودَهَاقِينِى انظروا انظروا ذلك فرعون «ابْسَمَا»

الوزير الأكبر :
يدفعُ القــوَّادُ والجنــدُ بهِ وهو فى القيدِ يجُرُّ الأدْهَمَا

قائــد : كادَ فرعونُ من استكباره أنفُهُ يدفَعُ فى أنف السما

[فرعون يقف بين يدى قمبيز فى عظمة و إباء واستكبار]

قمــبيز : بسامتيـــك

فرعون : قمبـــيز

قمــبيز : أتدعــو باسمــه المَــلْكا

فرعون : غدًا تَفقِدُكَ الفُرسُ ويخْلُو عرشُها منكا
ومُلْكٌ قد مضَى عنّى سيمضى فى غدٍ عنكا

[قمبيز يدخل فى الغضب شيئا فشيئا] :

قمــبيز : وهذا الفتح يا فرعو ن ؟

فرعون : عدوان و إجــرامُ
أما عنــدَك يا قمبيـــــزُ للنكبةِ إكرام

قمــبيز : عفوتُ عنكَ أمسِ يــــا ابْسَامَا فلم ترْعَ الوفَا

فرعون : يا عجبَـا يا عجبَـا عبدٌ عن الربِّ عفَـا

قمبيز [هائجا] : خــذُوه بالخنــاجر سلُّوا لسانَ الفــاجر

فرعون [في عظمة وصبر وثبات] :

هاتوا سيوفَ الفُرس هاتُوا القَنا

هاتوا المُدَى هاتوا حبَالَ الحديد

لا تحْسَبُوني بشرًا بائدًا فرعونُ حيٌّ خالدٌ لا يبيدْ

قمبيز : إذن خذوه بعيدًا صُبُّوا عليه الحديدًا

« يأخذه الجند ويخرجون به »

[يدنو وزير شيخ من قمبيز ويقول له] :

القائد : مولايَ تلك غضبةُ المقهورِ ونزوةُ الضرغامةِ المأسورِ

مولايَ بالنارِ بقُدس النورِ اغفر لهذا الصارمِ المكسور

فإنه ضحيةُ الأمور

قمبيز [صائحا بالجند وهم ذاهبون بفرعون بسما] :

إذن رُدّوا الأسيرَ إليَّ رُدّوا فإنّا ما انتهينا منه بعدُ

« يرجع الجند بفرعون ويقفونه أمام قمبيز »

قمبيز : تعالَ فرعونُ ابْسَما تعالَ منى ناحيه

لقد عفوتُ مرةً وقد تكونُ الثانيه

فرعون : لا مرحبًا أمس ولا اليومَ بعفوِ الطاغيه

قمبيز : تأمل هل لبستَ اليومَ ذلًا وكنتَ تجرّ أمس الذيلَ تيها

فرعون : كذا الدنيا تُغيِّرُ يابنَ كسرَى نخففْها إنها لا خيرَ فيها

وهبك قهرتني أقهرتَ مصرًا

قمبيز : أجلْ ووضعت سيفي في بنيها

وبعدَ غدٍ أطوِّقها بنارٍ تطوفُ على البلادِ وما يليها
وتجعل من هياكلها رَمادًا وتُنزِلُ فى الأزقةِ مُتْرَفيها
وتدعَكُ فى ترابِ الذل أنفا
يطولُ على النجومِ ويزدريها

فرعون: رويدَك يابنَ كسرَى قف تمهَّلْ
فعادةُ مصرَ تقهرُ قاهريها

قمبيز: رويدَك أنت يا فرعونُ إنى
إذا حطّمتُ مصرَ فمن يَقيها

أليستْ فارسٌ والأرضُ تحتى
وأمرى فى الجنوبِ وفى الشّمالِ
وقد غطّتْ فضاءَ الأرضِ خيلى
وهبّتْ فى السهولِ وفى الجبالِ

فرعون: شمختَ بخيلك يا فارسىُّ فماذا صنعتَ بخيلِ القدرْ
تأمّل مكانى وما حلّ بى ألم تتّعِظ بى ألم تزدجرْ

قمبيز: ما أنت يا مخدوع
فرعون: فرعونُ ابنَما
قمبيز: بل أنت مأسورٌ عليك قيودُ

وغدًا ينوبُ عن القصورِ ورحْبِها
سجنٌ يضيقُ ومنزلٌ مسدودُ
وتُدَسُّ في الأجداثِ غيرَ محنَّطٍ
يلهو بهيكلك البِلى والدُّودُ

فرعون : قمبيز

قمبيز : فرعونُ إنْمَا صلِّ ابتهل
واهتف لعلَّ العجل عنك يذودُ
أنظر إلى أينَ انحططتَ

فرعون : كذبتَ لَمْ
ينحطَّ للشرفِ الرفيعِ عمودُ
إن الجواهرَ في التراب جواهرٌ
والأسد في قفص الحديد أسودُ

قبيز : سنرى هلّموا يا جنودُ أسيرَكم
عودُوا به من حيثُ جئتُم عودوا

قبيز [مستمرا] :
وأينَ نفريتُ ابنةُ الكذّابِ قد آن أن ينالها عقابي

الوزير الأكبر :
نفريتُ من مَخافة الحسابِ ألقتْ بنفسِها إلى العُبابِ
وذهبتْ

قبيز [ويضحك ضحكة جنونية] :
لكن بلا إياب

[تحضر نتيتاس وتقول] :

نتيتاس : قمبيزُ؟

قمبيز : نيتيتَاسُ ؟

نتيتاس : أجَلْ

قمبيز : وماذا أتَى بِكْ ؟

نتيتاس : أتيتُ أنقذُ قومى ومَوطنى من عذَابِكْ

قمبيز : والزوجُ يا نتتاسُ ؟

نتيتاس : وأنقِذُ الزوجَ أيضا

قمبيز [ساخرا] : ومِمَّ ؟

نتيتاس : من شدةِ البلاء وغضبِ الأرض والسماءِ

قمبيز [فى غضب] :

إذهبى يابنتَ فرعونَ اذهبى

اعزُبى يا حيَّةَ النيل اعزُبى

فانيس : تأخرى سيدتى لا تعرِضى لغضَبه

قمبيز : فانيسُ أنت ها هنا

فانيس : مولاىَ لِى لم ينتبه

نتيتاس [متهكمة] : مولاكَ كم تخدعُهُ

مولاكَ كم تسخَرُ به

قمبيز [الى قوّاده] : أحقٌّ هوَ بى يهزأ

[ثم الى فانيس] : أحقٌّ أنتَ بى تسخَرْ

وفى الأحلام تبدو لى وهذا الوجه لى يظهرْ

وقد يصفرُّ كالليمو نِ أو يحمرُّ كالبنجر

[ويهجم عليه بالخنجر]

فانيس : أميرى سيّدى ملْكِى

قمبيز [ويطعنه بالخنجر] : أغِثْهُ أيها الخنْجَرْ

[ضجة فى صفوف المصريين]

أحدهم : قد هَلك الواشى

آخر : قد هلك الخائنْ

كافاه قمبيز شرَّ المكافاةِ

فانيس [بعد أن يضربه قمبيز بالخنجر] :

آهِ من الخنجرِ ما أحرَّهُ آهِ من الحِمام ما أمرَّهُ

[لقمبيز] : قمبيزُ شلّتْ يمينُكْ ولا أفاقَ جُنونُكْ

[لنفسه] : ويحى أرى عينى تَغيمُ وساعتى

تدنو وأشعرُ بانقطاعِ فؤادى

الذنبُ لِى أنا قد خرجتُ لفارسٍ

ومنحتُ مجنونًا هناك وِدادى

فانيسُ أنت نشأت جُنديا فمُتْ
كالجند والق مصارعَ القـوّادِ
سيانِ حينَ تُحطُّ فى جوف الثرى
مـوتُ الفِراش وموتةُ الجـلادِ
يا نفسُ لم أحمـلْ عليـكِ دَنيّـةً
لاقِى المنيّـةَ بالضـمير الهـادى
يونانُ تغفـرُ لى وآلهـتى بهـا
سَهِـرَتْ عيونُهُـم على أولادى
قد خُنتُ مصرَ وخُنتُ ساداتى بها
لكننى ما خنتُ قـط بـلادى

أصوات [من جانب المصريين] :

فانيسُ لا عـلم لَهُ بمـا جَـرَى
قـد قتلـوا أولاده وما درى

[تظهر الجند يدفعون فتى فيقول قمبيز]

قمـبيز : وهذا الفتى مَنْ ولِمْ سُقتموه إلىّ
جندى : فتًى فى النّواحى يَرُودْ
قمبيز : وما كان يأتى ؟
الجندى : يُثـيرُ البـلاد
ويُغـرِى القُوَى باغتيالِ الجُنودْ
قمبيز : تنحّوْا به فاقطعوا رأسَه عساهُ لأمثالها لا يعـودْ

نتيتاس [تسمع وهى متراجعة فجأة فتنظر فيستوقفها المنظر فتقول] :

مـا ذا رأيتُ ومـا ذا … سمعتُ ؟ مَن يدفعـونا
مَن ذا إلى النار ساقوا … مَن أوْرَدُوه الأتونا
تاسُو؟ أجلْ هـو تاسُو … أتـوْا بـه المجنـونا
قسَـا الجنـودُ عليـه … والجُنْـدُ لا يرحمـونَا

ما بالُه عـرف الـوفاء … وكيف ثابَ إلى الرّشاد
ربىّ . أأشفُعُ فيه؟ لا … لا كيف أمنعُهُ الجهادْ
لا . لن تحولَ شفاعتى … بين الضّحيـةِ والبـلادْ

هـذه ميتـةُ عِـزٍّ … إمـضِ تاسُو بسـلامِ
قد صفحنا لك عن ذا … كَ التّجـنّى والأثـامِ
لا تمُت بالكاسِ والطّا … سِ ولكن بالحُسَامِ
سـرّنى أنـك تقضِى … لِحِمَـى حـقَّ الذِّمامِ

وشـفانى أنك الـذّا … ئدُ عن مِصرَ المحامِى
زُلْ لتبـقَ كودادى … مُتْ لتحيـا كغرامِى

[ثم تتراجع وتقول] :

والان إلى طيبةٍ والصعيدْ … لحشر الدُّعاة وحشْد الجُنود
وقهْـرِ العـدوِّ و إرغامِه … وقذْفِ المغيرِ وراء الحدودْ

[وتخرج]

[يستجمع تاسو و يقول ، وكأنما سمع ما قالت نتيتاس] :

عفت نتتاس فيا مرحبا … بك اليوم يا موت من زائرِ

قمبيز [إلى وزرائه] :

ما الـــرأى يا وزرائى　　فإننى لســتُ أدرِى
ماذا بأبْنـاءِ مِصــرٍ　　من اختيـالٍ وكِبْرِ

قائـد : نحن بنـو الشيطان　　وهـم بنـو الإنسـان
ثانٍ : والناسُ من طينِ السَّكَكْ　　وهـم سُـلالةُ المَـلَكْ
قمبيز : أبيٌّ لعمرى فرعونُ مِصر　　ويُشبِهـهُ قـومُه فى إباه
سأَدْعَكُ فى التربْ آنافَهم　　وأُلْصِقُ بالأرضِ تلك الجِباه
قائـد : سيّدى لا تُبـد رِفقـا　　وامض فى الأعنـاق دقّا
ثانٍ : واهـدِم الأبْراجَ هَـدْمًا　　واحرق الأجْرانَ حَرْقا
ثالث : ودَعِ الــوادىَ قاعًا　　واحلق الشَّطّيْنِ حلْقـا

قائد رابع [عالى السن] :

ســيدى بـل ترفّـق　　فهــو بالقـادر أليَــق

قمبيز [يضحك ضحكة جنونية] :

خُـذُوا يا قادةَ الفُـرسِ　　أخاكُم إنّـه جُنّـا
قائـد : أميرى خَـرِفَ الشـيخ　　فلُمْـه أو لُـمِ السِّنّا

قمبيز [يغمد خنجره فى القائد الشيخ و يقول] :

خُذْ طعنـةً فيهـا الشِّفا　　تَصرِفُ عنـكَ الخـرَفا

القائد [وهو يتلق الطعنة] :

يا ويحَه قد عادَه الجُنون　　بل أنا حين هِجتَهُ المجنون

قمبيز : وآبيسُ معبودُهم أين هُو؟
قائـد : هو العجلُ
ثانٍ : وهو الذى ألّهَوْا

وزير : ثَوَى العجلُ فى حُجراتِ الجلالِ

قائد : وقَـد نعَّمُـوه وقـد رَفَّهُـوا

الثانى : وليـس إلهًـا ولكنّما على الشَّعب كهّانُهُ مؤَّهُوا

أحد القائدين [لزميل له] :

هُمْ يعبدُونَ العجلَ يا أزْدشر

أزدشر : ونحن ؟ يالك من أحمق ثرثار

الأول : ألنَّـارُ إلهٌ لنا

أزدشر : ما الفرقُ بينَ العجلِ والنّارِ

الأول : أفيلسوفٌ أنتَ ؟

أزدشر : بل ملحدٌ

الأول : أنت؟ إذن عِشْ وامضِ بالعارِ

ما كانت النـارُ بمحتـاجةٍ إلى قليل الدِّينِ كفّارِ

قمبيز : وأين هو العجل ؟

قائد : فى قُبّـةٍ تليق لكسرى وآبائِه

قمبيز [مغضبا مثيرا] :

أمسكُوا الكلبَ خـذُوه ، أدِّبُوه

ما أبِى العجـلُ ، بل العجلُ أبوه

القائد : الــويل لى جُنّ

صديق له فى أذنه : ما جُنّ إلّا كا
فأنت ساوَيْتَ بالعجــلِ مولاكا

آخر له : أهكذا يا أحمقُ السلوكْ أهكذا يُخاطَبُ الملوكْ

[يؤتى بالعجل ، فيثور لرؤيته جنون قبيز]

قبــيز : والآن ماذا رأيتُمُ وما الــذى تُفتُــونا
وما الذى نحنُ بالعجـــــلِ يا تُـرَى صانعــونا

قائــد : يَصُبُّ كسرَى عليــه من البــلاءِ فُنُــونا

آخــر : عَلِّقْهُ بين الأرض والسماءِ واتركْهُ للغرْبان والحِـداءِ

آخــر : إدْفِنْــه فى الأرضِ حيًّــا وهِــلْ عليــه الــتُّرابا

الأوّل : إذبحْــه ذَبْحَ الخَــرُوفِ

الثانى : أخنُقْــه خَنــقَ الدَّجاجة

آخر [يتهكم] : إصْلبْــه فــوقَ عمُــودِ من هيكلِ المعبــودِ

وزير : إحرقْــهُ يامولاىَ بالنــارِ

قبــيز : إخْساً فهذا أعظَمُ العــارِ
ماذا يقولُ الناسُ عنا غدًا ألقوْا إلى النيرانِ بالفــارِ
قد دنَّسُوها وهى معبودُهم من جُثّــةِ العجلِ بأقــذارِ

[ويظهر الغضب على قبيز فيقول له قائل منهم] :

قائــد : مــولاىَ مــا ذاك فــارٌ بل ألفُ فــارٍ وفــارِ

آخر : يا سيّد الأرض أبشر رأىُ الوزيرِ أصابا
غداً يقولون بمنفيس تغدت النارُ بآبيس

قمبيز [مقتنعا ومقهقها] :

أجل غداً يُقالُ فى الأخبارِ العِجلُ قد باتَ طعامَ النّارِ

[ثم يقبل على أبيس ويخاطبه] :

إلهَ النيل لِمْ تغضَبُ لِمْ تَكسرُ جفنَيْكا
تأمّلْ شَبَحَ الموتِ أَلَمْ يبدُ لعينَيْكا
وهذا خنجرى الماضى فخُذه بينَ قرنيْكا

[ويطعنه ثم يتراجع خطوة ويقول] :

إلهى ما ترَى عينى خيالاتٌ وأشباحُ
وقتْلَى قد غدوْا حولى وقتلَى غيرُهم راحُوا
وجَرْحَى جذَبوا ثَوْبى وجرْحَى غيرُهم صاحُوا

هذى عواقبُ بغيى هذا القصاصُ المُتاحُ
لا بُدَّ من عدلِ يوم يرتدُّ فيه السلاحُ

قائد : ويحٌ لقمبيز

آخر : ويحَ له جُنّا

الأول : مَن يُقتلُ اليومَ مَن الشّقِى مِنّا

قمبيز [مستمرا] :

هذا أخى يصيحُ بى وتلك أختى تنتحِبْ

وآخــــرٌ يســـألُــنى أينَ دمى ؟ أينَ ؟ أجبْ

قائد آخر : هــــذا ضميرُه صَحـا هــذا ضميرُه انتبَــهْ

حـــتى رأى آثـامَــه ولـم يكُن لها أبَـهْ

آخرلنفسه : ثـارَ بـه ضميرُه

[ثم لزميل له همسا] :

وما الضــميرُ حيــدَرُ؟

حيدر [للزميل] :

ســريرةٌ تنــدَمُ أحـــيانًـا وحينًـا تـزجُـرُ

ويـرجـعُ النـاسُ لهـا إلا امـرؤٌ لا يشــعُرُ

الأول [رستم لحيدر] :

وأينَ مــنزلُ الضـــمــير ؟

حيــدر : موضِـعٌ من الجسَـدْ

أنظُــرْ . هنا يا رستَمُ الـــقلبُ وها هنـا الكبِـدْ

[ويشير إلى أعلى الصدر وأسفله و إلى ما بينهما (المعدة)]

[ثم مستمرا] :

وها هنـا الضمـيرُ بيــــن القلب والكِبْد قعـدْ

رستم : هنـا الـدَّجـاجُ والحمــــامُ هـا هنا بـلا عَـدَدْ

حيـدر : والبَـطُّ أيضًـا والإوَزُّ والحمـارُ والـوتَـدْ

وكُلُّ ما تَسرِقُ أو تخطَفُ من هـذا البـلد

رستم : حيـدَرُ هـل يُخْـتَرَعُ الـضميرُ أو هـل يُـزْدَرَدْ

وهـــل لــه حوصلةٌ وهـل له رِجـلٌ ويَـدْ

حيدر : يا أخى إنّ الضميرَ الـنّـفسُ أو بيتُ الشُّعورْ
وهو فيلٌ فى صدورٍ وهو فأرٌ فى صدورْ
وجبالٌ من حديدٍ أو جبالٌ من حريرْ
وسعيدُ الناسِ من لم يَشْكُ من وخزِ الضميرْ

قمبيز [يقوم هائجا وكأنما يفرّ من شبح شقيقه الذى قتله] :

ماذا بيَا ؟ ماذا بيَا هـذا شقيق بُرديا
هـذا شقيق برديا وخنجرى فى صدره
جئتَ أخى تجزى أخا كَ عن قبيح غدره

[ثم يزداد هياجا و يفرّ من شبح أخته التى قتلها] :

أتوسةُ أختى ألا تصفحين أتوسةُ زوجى ألا تغفرين

[ثم ينظر يمينا و يسارا وهو كالمجنون و يقول] :

آهِ لِيَهْ آهِ لِيَهْ ما هـذه الزّبانيَهْ
كَتيبةٌ بموضع وعسكرٌ فى ناحيَهْ
وأرؤسٌ بوَهْدةٍ وأرجلٌ برابيَهْ
كلٌ يصيحُ رُدَّ رو حى رُدَّ لى دمائيَهْ

قمبيز [مع الأشباح] :

ويلى من الماضى ومن أشباحه
هذى خيالاتُ الزمانِ الخالى
عجبُ العجائبِ ويحَ لى ماذا أرى
شبحٌ . أجلْ شَبحٌ وطيفُ خيال

شبحٌ كالمَلاكِ الروا — فى لِعينَىَّ يلوحْ
شبحٌ كالزنبقِ النا — عِمِ يَغدو ويروحْ
ظَهرَ الحسنُ عليه — وسرى الطيبُ يفوحْ

تمثالُ نيتيتاسَ حول مذاهبى — أحببْ بنيتيتاسَ والتمثالِ
ما بالهُ ألقى علىَّ سكينةً — وأراحَ وِجدانى وأنعمَ بالى
زوجاه نيتيتاسُ ملكةَ فارسٍ
مالِى حُرِمْتُ حنانَ قلبك مالِى
يا ليتنى لم أسمع الواشى ولم
أخرج خيالَك من قديم ضلالى
قد ساءَ حالِى فى غيابِك فارجعى
هيهاتَ بعدَك من يرقُّ لحالى

أأراك عندى والأمورُ رخيّةٌ
وأراكِ عند شدائد الأهوال
باللهِ يا طيفَ الحبيبةِ قلْ لها — خلفْتُ قمبيزاً بأسوأ حال

صِفنى لها تعِساً كما شاهدتنِى
قد عادنى صَرعى وجدَّ خَبالى
يا بنتَ مِصرَ ويا يتيمةَ تاجِها
عودى فِداؤكِ دُولتى ورجالى

[ثم مستمرا] : طابَ وِردُ الحِمامِ يا نفسُ هيَّا
خنجرى خنجرى إلىّ إليَّا

[ويطعن نفسه بالخنجر ويقع]

جماعة من الفرس :

يا فُرسُ يا قومَ كسرى النّازلينَ السّحابا
كسرى مضى للنارِ شُقُّوا عليه الثيابا
وحَطّمُوا فى ثَراهُ سيوفَكُم والحِرابا

[كبراء الفرس يتشاقون الثياب]

أحدهم لآخر :

هاتِ ثيابَكْ خُذ ثيابِى
تعالَ خُذ قميصى وأعطِنى قميصَكْ

[يمزق كلاهما قميص الآخر]

مصرى من الحاضرين [لآخر همسا] :

أنظر أخى الفُرسَ وما نابَهُمْ شَقُّوا على المجنون أثوابَهُمْ

الكهان [لجماعة المصريين] :

يأيها المرضَى اسجدُوا على دماءِ «آبس»
ويا أصحاءُ انهَلُوا من دَمِهِ المقَدَّسِ
يا لشقاءِ جَسَدٍ فى دمِهِ لم يغمَسِ

المصريون يتشاقون الثياب :

فارسي إلى آخر :

أنظُـرْ إلى أبنـاءِ مصـــــرَ فإنّ أمرَهُـمُ عُجابْ
أنظـر ألستَ تراهُـمُ شقُّوا على العجلِ الثيابْ

وزير فارسي [يخطب المصريين] :

أيّهـا الكُهّان من شتّى الرُّتَبْ
عَظُمَ الخطْبُ فما تُغْنِي الخُطَبْ
إن كسرى تغفرُ النـارُ له
كان فى مَصرعِ آبيس السَّبَبْ
أيّهـا الشَّعبُ

مصري لرفاقه : أميـلوا إسمعُـوا

كيف يُنْشِي المستبدّونَ الخُطَبْ

الوزير [مستمرا] :

قـد أتى قمبيزُ كسرَى ما أتَى
وهـو مدفوعٌ بسلطانِ الغَضَبْ

مصري [لأخيه بصوت منخفض] :

ليتَـه بالَ عـلى نيرانِكم بَوْلَةً تُطفِي لظَاهَا واللَّهَبْ

الخطيب الوزير :

نحن لا نُسـألُ عـن فَعْلَتِـه
قـد جَنَى الرأسُ فما ذَنْبُ الذَّنَبْ

أيّها الكُهّانُ قد حَلّ على ربّكم آبيسَ مقدورٌ غَلَبْ

[ثم ملتفتا للشعب قائلا] :

مالى أرى من جانب الشَّعْب
بوادرَ الفِتنةِ والشغبِ

قائد فارسي : ما أغضب الشاة من الجزارِ
حذارِ حِلمَ فارسٍ حَذارِ
لا تقِفُوا لسيفِها والنَّارِ

[تتفرق الجماعة هنا وهناك ويقف جماعة من المصريين فيقول أحدهم]

أحدهم [لزميل له] :

ماذا جرَى ؟

زميله : أما ترَى؟ على الثرَى هذا الدَّمَا

آخر : آبِسْ عُقِرْ آبِسْ نُحِرْ ساءَ الخبَرْ ما أشأمَا

الثاني : حامِي الحِمَى ما استَسْلمَا لكن سَمَا إلى السَّما

آخر : لقد وهمتَ يا أخِي أفِقْ وراجِعِ الرَّشَدْ
أبِيسُ فارق الوتَدْ وسارَ رحلةَ الأبَدْ

الأول : ألعمَى يا أخِي العمَى اترك الأرضَ والدَّمَا
وتأمَّلْ معى السَّمَا اتخذَ الحقَّ سُلَّمَا
هو هذا تبَسَّمَا وعلى الجمْعِ سَلَّمَا
وإلى الخُلْدِ قد سَمَا

الثاني : عجيبٌ شأنُ آبيس لآبيس جناحانِ
وهذا الرِّيشُ من درٍّ وياقوتٍ ومَرجانِ

وهــذا هــو يرعاك   بعينيــه ويرعانــى

آخر [لزميلين له] :

أنظر «أنى» إسمع «فتا»   أبيس بالفرس سخر
جنن قمبيز ولم   ينزل به حتى انتحر

شيوخ الكهان :

بوركت يا آبيس   يا صاحب المجد
يا موضع التقديس   ومنزل الحمد
سرك فى منفيس   وأنت فى الخلد

شبان الكهان :

أبيس سر للسماء   وانزل مع الخالدين
وخل تلك الدماء   تحاسب المعتدين
أنت سماء الجلال   حمى الديار الأمين
القرن كالشمس طال   وعز فى العالمين
يا صورة من فتاح   ومن سناه المبين
هذا شعاع الصباح   أم غرة فى الجبين

ستار الختام

مصرع كليوباترا

تمهيد

زمن الرواية : الأيام الأخيرة فى حياة كليوباترا حوالى سنة ٣٠ قبل الميلاد بين وقعة «أكتيوم» البحرية وانتحار كليوباترا .

مكانها : فى الإسكندرية وأرباضها .

أشخاصها :

(ا) الأشخاص التاريخية :

كليوباترا .
مارك أنطونيوس .
أكتافيوس قيصر .
قيصرون : ابن كليوباترا من يوليوس قيصر .

(ب) الأشخاص الموضوعة :

أنوبيس : الكاهن الأكبر .
زينون : أمين مكتبة قصر كليوباترا .
حابى .. } مساعدو زينون .
ديون ..
ليسياس

هيـــلانة : وصيفة كليوباترا وبينها وبين حابي غرام

شرميون : وصيفة أخرى .

أوروس : روماني في معية أنطونيوس وهو عبده وتابعه وصفيه .

أولمبوس : طبيب روماني في بلاط كليوباترا .

أنشـــو : مضحك الملكة .

غانمـــيز : ساقيها .

حـــبرا : عرافها .

أيـــاس : شاديها .

أخيـــل : قائد الأسطول المصري وربان أنطونياد سفينة كليوباترا .

بـــولا : شاعر .

أغا القصر

(حـ) النكرات المسرحيـة : جنود وقـوّاد مصريون ورومانيون . راقصات . عزاف .

الفصل الأول

المنظر الأول

« فى مكتبة قصر كليوباترا ـ حابى وديون وليسياس جلوس إلى »
« عملهم . يسمع جماعة من العامة خارج القصر ينشدون هذا النشيد »

يومُنا فى أكتيُوما ذكرُه فى الأرض سارْ
إسألوا أسطولَ روما هل أذقناه الدَّمار !

* * *

أحرز الأسطولُ نصرا هزَّ أعطافَ الدِّيار
شرفاً أسطولَ مصرا حُزْتَ غايات الفَخار

* * *

صارت الإسكندريه هى فى البحر المنار
ولها تاج البريه ولها عرش البحار

* * *

حابى : إسمع الشعبَ (دُيونُ) كيف يُوحون إليه
ملأ الجوَّ هُتافاً بحياتى قاتليْه

أثّر البهتانُ فيه وانطلى الزور عليه
يا له من بَبغّاء عقله فى أذنيه

ديون :

حابى ، سمعتُ كما سمعتَ وراعنى أن الرمِّيَّة تحتفى بالرامى
هتفوا بمن شرب الطِّلا فى تاجهم وأصار عرشَهمُ فراشَ غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئاً ولو استطاع مشى على الأهرام

حابى :

أتذكر يا ديون إذ انطلقنا إلى الميناء نلتمس الهواء
وكان البحرُ كالميْت المُسَجَّى وكان الليلُ للبيت الرداء

ديون :

نعم وهناك آنسنا سحابا وراء الليل جللت السماء
فقلت انظر ديونُ تَرَ الجوارى يَطأنَ الماء همساً والفضاء
وأقبلت البوارج بعد حين سوائبَ لا دليلَ ولا حُداء
رَجَعْنَ رجوعَ فُرصان أصابوا من الغزو الهزيمةَ والبلاء
فلم نسمعْ لملّاح هُتافاً يُبشرُ بالقدوم ولا نداء
ولم نَرَ فوق سارية سراجا ولا من ثُقْب نافذة ضياء

حابى : فماذا قلت ؟

ديون :

قــلت . ديونُ إنى   أرى الأسطولَ بالويْلات جاء
دخولُ الظافرين يكونُ صبحاً   ولا تُرَجّى مواكبُهم مَسَاء
فلما أصبح الصبحُ انتبهنا   نَرى الأسطولَ أَزْيَنَ ما تَراءى
تبرَّجَت البوارجُ بعد عُطْل   وهَزَّتْ فى ذوائبها اللواء
وردَّدَ فى المدينة أن روما   عفا أسطولُها ومضى هَبَاء
فضجّ الناسُ بالبُشْرَى وكدّوا   حناجرَهم هُتافاً أو دُعاء
هداك اللهُ من شَعب برىء   يُصَرِّفه الْمُضَلِّلُ كيف شاء

ليسياس [هامساً لحابى] :   [تدخل هيلانة]

حابى ، صهٍ قد ظهرتْ هيلانهْ   وأقبلت بالطلعــة الفتّانهْ
تَنفَحُ كالزّنبقــة الغَيْسـانهْ

حابى :

ليسياسُ ، أنهاك عن المجانهْ   هيـــلانةٌ فى القصر قَهْرمانهْ
لهـــا وقارٌ ولها مكانهْ

هيلانه : ســـلام لك يا حابى

حابى :   ســـلام لك هيـــلانه

هيلانه : أمرْتُ أن أقول للأمين   ستحضرُ المَلْكةُ بعد حين
فبلِّغ الأمرَ إلى زينون

حابى : سيدتىَّ سأفعلُ أمرَكما ممتثلُ
هيلانه: تَقرننى بربَّتى ! ذلك ما لا أقبَل
حابى : هيلان، أنت مَلْكتى وأنت وحدَك المَلَكْ
هيلانه: بل كيلبترا وحدَها لم يَحْوِ شمسيْن الفَلَكْ
إن أنت لم تُؤمنْ بها فلستَ لى ولستُ لك

[تخرج هيلانة ويدخل زينون من باب آخر فى هيئة تفكير واضطراب]

حابى : ذاتُ الجلالة سيدى قد آذنَتْنا بالزياره
زينون: هذه حجرتُها لا عدمَتْ طيبَ ريّاها ولا ضوءَ حُلاها
كل يوم تتجلى ساعة هاهنا كالشمس فى عز ضحاها
تدخُلُ الدارَ فتنسى مُلْكها بلقاء الكُتْبِ أو تنسى هواها
[محدثاً نفسه فى ركن قصى من أركان المكتبة] :
أما الشبابُ فقد بَعُدْ ذهب الشباب فلم يَعُدْ
ويحى أمن بعد السنيـ ن وقد مررن بلا عدد
أو بعد طول تجاربى ومكان علمى فى البلد
تَجْنى الحسانُ علىَّ ما لم تَجْنِ قبلُ على أحد ؟

ديون [هامساً إلى زميليه] :
حاب ، ليسياس ، أقسمُ أن زينونَ مغرَمُ

فضــح الشيخَ حبُّــه والهــوى ليس يُكتم

ليسياس: بمَن الشيــخُ مولَعٌ ليت شعــرى متيّم ؟

ديون : وبمَن جُــنَّ يا تُرى ؟

حابى [ضاحكا] : كلٌّ خاف سيُعلم

زينون [مستمراً فى حديث نفسه] :

مالى جننتُ فصرتُ أتَّــهم الشبابَ وأضطهــدْ

لم ألقَ رأساً فاحمــا إلا حَملتُ له الحســد

ووجدتُ لاعجَ غيرة بين الجوانح يتّقــد

فكأنّ ظلمةَ شَعــره فى مُقلتىّ هى الرّمــد

وكأنمــا سرَقت ذوا ئبُهُ شبابى المفتقَــد

ولو ان لى ولداً فما ت لما بكيت على الولد

حذَراً وخوفاً أن يكو نَ بها تعلّق أو وجَد

شكٌّ يعــذّب مهجتى إن الشكّ فى كَبَد

[يلتفت إلى حابى ويطيل إليه النظر ثم يناديه] :

حابى ، بــنىّ

[يأتى إليه حابى]

قل ولا تُخْفِ علىّ ، هل تُحبْ ؟

حابى : أحب ! من قال ؟

زينون: سمعتُ

حابى : من روى لك الكذب ؟

زينون: بُنىّ ، ليسَ بالفتى إذا أحبَّ من عَجَب
مَن لم يُحبَّ لم يُؤدِّ للشباب ما وجب

حابى [متهكما] :

لكن أأدعى الهوى وليس لى منهُ سببْ ؟

زينون: حابى ، بُنىّ لا تَرُغْ منَ السؤال بل أجب
لولا الهوى لم تَكُ فى ظل الشباب تكتئب
ما بال بشْرك انمحى ولونك الغضّ شحب ؟
وللدموع من مآ قيك تكاد تنسكب ؟

حابى [ساخراً] :

أفقْ زينونُ واصحُ من الغوانى أبعد الشيب تخدعُك النساء ؟

زينون [غاضباً] :

أتعلم يا غلام علىّ عشقاً ؟

حابى : دع الإنكار قد برح الخفاء

زينون: ومن أنباك ؟

حابى : أنت !

زينون وكيف ؟

حابى : تَهْــذِى فتفضحكَ الوساوسُ والهُذَاء

كمحموم يبوح وليس يدرى تكشَّفَ عن سرائره الغطاء

أَبَعدَ العطف والإشفاق يشقى بصحبتك الشباب الأبرياء؟

فكلُّ فتى رَأيت زعمت صبًّا يُخامرُه من الرُّقطاء داء ؟

وما كعَمَى الشيوخ إذا أحبُّوا وليس وراء غَيْرتهم بلاء

زينون [لنفسه] :

إلهى قد فُضحتُ وضَلَّ شيبى وضاعت حكمتى وخبا الذكاء

[لحابى] :

صدقتَ بُنىَّ بى داءٌ دخيلٌ وليس إلى الدواء لىَ اهتداء

علىَّ تلوَّت الأفعى ، فهلْ لى من الأفعى ونَكْزتها نَجاء؟

أرى ولَهاً وأحسبُهُ جنوناً كسانيهِ على الكِبَرِ القضاء

حابى : وتُعطَى حين تَلقاها ابتساماً وأنطنيوسُ يُعْطَى ما يشاء

صباحُهما مُغازلةٌ وصيدٌ وللأقداح والقُبَل المساء

أترضى أن يكون سريرُ مصر قوائمُهُ الدعارةُ والبَغاء ؟

أتهدمُ أمةً لتَشيدَ فرداً على أنقاضها ؟ بئس البناء!

أبى ، شيخى ، اجترأت عليك فاصفح
فلم أك أجترى لولا الوفاء

لقد آن التكاشفُ والتواصى بما توحى الكرامةُ والإباء
تعالَ إلى جماعتنا ، فإنّا جنود الحق يجمعنا لواء
شبابٌ نحن يعوزنا شيوخ بهم فى المدلهمّة يُستضاء

زينون: كفى ، إنى نفضتُ يدىّ منها ومزّقتَ عن بصيرتىَ الغشاء

حابى : أبى زينونُ قد بحُثُ من السر بمكنونى
وما غيرُك زينون على السر بمأمون

[يشير إلى ديون وليسياس] :

أخى ، هذا أثينىٌّ وخلّى ذاك مقْدونى
كلا الخلّين للحق كما أدعوه يدعونى
كلا الخلّين ذو جَدٍّ بأرض النيل مدفون
فليْسا فى هوى مصر وفى طاعتها دونى
فدينا الوطنَ الغالىَ بالجنس وبالدين
ولم نصبر على حكم لروميَّةَ ملعون
ولسنا حزبَ أكتافٍ ولسنا حزب أنطُون
ولا نخضَعُ للبأس ولا نُخْدع باللين

ولم يَبقَ على الوُدِّ لروما غيرُ زينون

زينون: معاذ الله ، عُدُّونى من العصبة عُدُّونى

كساك اللهُ يا روما لباسَ الذلّ والهُون

حابى : أبى ، أنت الطبيبُ وكُلُّ داء له فى صَيْدليّتك الدواء

فَهىَّ لها ابنَ ساعته وعجِّلْ يُعَجَّلْ فى السماء لك الجزاء

لعل سمومَك الزُّعْفَ المواضى من الأفعى وفتنتها شفاء

[يدخل جندى من حرس الملكة معلنا قدومها]

الحارس : الملكة !

زينون [كأنما يفيق من حلم] :

الملكهْ ! لاَ بَرِحَتْ مُمَلَّكهْ !

ودام مجدُ المملكهْ !

[تدخل كليوباترا ومن ورائها ابنها قيصرون بين وصيفتيها شرميون وهيلانة ومن ورائهن أنتو مضحك الملكة وأغا القيصر]

الملكة: تحيّتى لأُمناء المكتبه وشيخهم أعلى الشيوخ مرتبه

زينون : سلام السَّموات فى مجدها على رَبَّة التاج ذات الجلالْ

تمنيتُ رأسين لا واحداً إذا مَسَّت الأرضَ هامُ الرجالْ

أطاطىءُ رأساً لمجد النبوغ وأخْفضُ رأساً لمجد الجمال

حابى . ديون . ليسياس [يتلفت بعضهم إلى بعض أسفا] :

أنشو [للوصيفتين وقيصرون] :

أما يُغنيهِ عن رأسيـ ـن رأسٌ فيه وجهان ؟

فحيناً هو مصريٌّ وحيناً هو يونَاني
وفي مجلس يوليوسَ وأنطونيوس رُوماني
وإن لاقى أغا القصر فنوبيٌّ وسوداني

[يدخل الكاهن أنوبيس من باب مقابل]

الملكة: كاهنَ المُلْكِ سلامٌ لا عَدِمنا بركاتِكْ
صلِّ من أجلي ولا تنـ ـس صغاري في صلاتك

أنوبيس: رَبَّةَ النيل التَّحيا تُ الزَّكيَّاتُ لذاتِك
حَرَسَتْ تاجَكِ إيزيـ ـسُ ومدَّتْ في حياتك

الملكة: هُوَ ذا ابني قيصرونُ يتلقَّى نفحاتِك

الكاهن [لنفسه] :

إيزيسُ كيف أُصلي على ابن يوليوسَ قيصرْ ؟
أبوه عالٍ ولكنْ فرعونُ أعلى وأكبر

[يسمع هتاف من خارج القصر وجماعة ترتل نشيد النصر السالف في أكتيوم]

الملكة [عابسة] :

كاهنَ المُلْك ، سادتي ، هل سمعتمْ رَنَّةَ الصوتِ في جوانب قصري؟

أنوبيس : هم رعايا مليكتي

الملكة : ليت شعري

ألخيرٍ تجمَّعوا أم لشرٍّ ؟

شرميون:

الجماهيرُ يا مليكةُ بالشـــطّ يموجون فى حُبورٍ و بِشْرِ

سَرّهم ما لقيت فى أكتيوم من ظهور على العدو ونصر

لا يقولون أو يُعيدون إلا نبأً بات فى المدينة يسرِى

الملكة :

يالإفْك الرجال ! ماذا أذاعوا كذبٌ مارَوَوْا صُراحٌ لَعَمرى

أىّ نصر لقيتُ حتى أقاموا ألسُنَ الناس فى مديحى وشكرى ؟

ظَفَر فى فم الأمانىّ حلو ليت منه لنا قُلامةَ ظُفْر

وغداً يعلمُ الحقيقة قومى ليس شىء على الشعوب بسِرّ

شرميون:

ربّةَ التاج ذلك الصُّنع صُنعى أنا وحدى وذلك المكرُ مكرى

كثرتْ أمس فى الإياب الأقاويـ لُ وظَنَّ الظنونَ من ليس يَدرى

فأذعتُ الذى أذعتُ عن النصـ ـرِ وأسمعتُ كلَّ كوخ وقصر

خفتُ فى خاطرى عليك الجماهيـ ـر وأشفقتُ من عدًى لك كُثْر

فاغفرى جُرْأتى ، فيارُبَّ ذنب يتعب العذر فيه مهّدْتِ عذرى

الملكة :

شرميونُ ، اهدَئى فما أنت إلا مَلَكٌ صيغ من حنان وبرّ

أنت لى خادمٌ ولكن كما أنا فى المُلمّات أهلُ قُرْبى وصهر

إنما الخادمُ الوفىُّ من الأهـ ـل وأدنى فى حال عسر ويسر

إسمعى الآن كيف كان بلائى وانظرى كيف فى الشدائد صبرى
أيها السادة اسمعوا خبرَ الحر ب وأمرَ القتال فيها وأمرى
واقتحامى العُبابَ والبحرُ يطغى والجوارى به على الدمّ تجرى
بين أنطونيو وأكتاف يومٌ عبقرىٌّ يسيرُ فى كل عصر
أخذتْ فيه كلُّ ذات شراع أُهبةَ الحرب واستعدّتْ لشر
لاترى فى المجال غيرَ سَبُوح مقبل مدبر مكر مفرّ
وترى الفُلك فى مُطاردة الفُلْ ك كنَسر أراد شرًّا بنسر
وتخال الدُّخانَ فى جَنَبات الـ ـجو جُنحاً من ظلمة الليل يسرى
ودَوِىُّ الرياح فى كل لُجّ هزَجَ الرَّعْد أو صياحَ الهزَبْر
وترى الماء . منه عودُ سرير لغريق ، ومنهُ أحْناءُ قبر
يغسلُ الجرحَ شرَّ مَن غسَل الجر حَ ويأسو من الحياة ويبْرى
كنت فى مركبى وبين جنودى أَزِنُ الحربَ والأمور بفكرى
قلت روما تصدّعت فترى شَط راً من القوم فى عداوة شطر
بَطَلاها تقاسَما الفُلكَ والجيـ شَ وشبَّا الوغى ببحر وبرّ
وإذا فرّقَ الرُّعاة اختلافٌ علّموا هاربَ الذئاب التّجرّى
فتأملتُ حالتىّ مليّا وتدبرت أمر صحوى وسكرى
وتبيّنتُ أن روما إذا زا لت عن البحر لم يَسُدْ فيه غيرى

كنت فى عاصف، سللتُ شراعى ... منه فانسلَّت البوارجُ إثرى
خلصت من رَحى القتال وممّا ... يلحق السُّفْن من دمار وأسْر
فنسيتُ الهوى ونُصرة أنطو ... نيوسَ حتى غدرتُه شرَّ غدر
علمَ الله قد خذلتُ حبيبى ... وأبا صبيتى وعونى وذُخرى
والذى ضيَّع العروشَ وضحّى ... فى سبيلى بألف قُطْر وقطر
موقفٌ يُعجب العلا كنتُ فيه ... بنتَ مصرٍ وكنتُ مَلكةَ مصر

[ملتفتة إلى زينون] :

زينونُ . فصّلتُ الخبرْ ... عن القتال والسفرْ
وقلتُ عن إيابى ... وخُطة انسحابى
ماليس يعلمُ البلدْ ... ولا درى به أحدْ
فهل لديك الآنا ... مايَجلبُ السُّلوانا
من الأمالى المُسْليهْ ... والصحُف المُلْهِيهْ

زينون: عندىَ يا مولاتى ... روائعُ الآيَات
تسعون ألف سِفْر ... قد كُتبتْ بالتبر
من كل رَقٍّ عجبِ ... فى العلم أو فى الأدبِ
قيصرُ أنطونيو وهب ... لنا مناجمَ الذهبْ
وكلَّ غال مدَّخرْ ... من الجواهر الأُخَرْ

أسلابه من حربه وطَعنــهِ وضربه
هــديةٌ من قيــصر لبَــلدة الإسكندر

أنتو : إذا كانت الكتْبُ فى شرعكم نظيرَ الجواهر كُفْءَ النُّضارْ
فإنى الغنىّ بدُرّ القــواقــع حين يرصّعُ تبر العُقار
وما الكتْبُ قوتى ولا منزلى فما أنا سوسٌ ولا أنا فار

الملكة : حكيمٌ لعمرى على جهله ظريفُ الحديث لطيفُ الحوار

زينون [منيظا] :

ولكنها حكمةُ السائماتِ وفلسفةٌ غيرُ بنت اختبار
وكلتاهما لا تَعَدّى الشعورَ بحُبّ البقاء وخوف الدمار

أنتو : رويدك مولاىَ بعضَ السّباب فليس السّبابُ سبيلَ الكبار
هَبِ الليلَ طال فقطّعتَه بدَرْسٍ وأصبحتَ تفنى النهار
وأقبلت بالكتب تطوى الطّوالَ وتَنشرُ فى إثرهنّ القصار
وَزِدتَ على الأرض علمَ السماء كبارَ كواكبها والصغار
إذا ما نَفقتَ ومات الحمارُ أبينك فرقٌ وبين الحمار ؟

زينون [غاضباً] :
ماذا تقول السيده ؟

الملكة [ضاحكة] : واحــدةٌ بواحــده

أبي أُنُوبِيسُ ، أرجو

أنوبيس : بـل تَأمُرِينَ مُطاعـهْ

الملكة [مشيرة إلى باب محراب مفتوح ومتجهة إليه] :

هـذا مُقـامُ صلاتى وهيكلى الضـراعهْ

ولى خطايا كثـيره لا تَبرَحُ البـالَ ساعه

فادخلْ وصـلِّ لأجلى فمنك تُرجَى الشَّفاعه

[يدخلان المحراب ويتبعهم الحاضرون ما عدا حابى وديون وليـياس]

ديون [متهكما] :

إسكندريةُ صرت رَفرَفَ معبد من كلِّ ناحيـة عليـه سـتارُ

اختَصَّ آلهـةُ الجلال بسرّه وتفرَّدَ الكُهَّان والأحبـار

ما خَطبُهم حابى ، وماذا بَيَّتوا

ليـياس : ما هذه الألغاز والأسرار ؟

حابى :

أرأيتَ وقعةَ أُكتيوم وماجرى فيهـا وكيف تصرَّفَ المقدار!

ليسياس، إنك قد سمعت حديثَها كالسحر فى الآذان حين يُدار

تبدو الخيانةُ فيه وهى أمانةٌ ويُرى الثباتُ عليه وهو فرار

وعلمت كيف نجت وكيف انفض عن أنطونيُو أسطولُهـا الغـدَّار

ليبياس :

واليوم حابى،أين أنطونيو وما فعلت بفَلِّ جيوشه الأقدار ؟
قل لى : أحيٌّ فى البلاد مشرَّدٌ هو أم له قــبرٌ بمصر يُزار ؟

حابى :

ليبياس ، تسألنى تجاهلَ عارف

ليبياس :

بل جاهلٍ لم تأته الأخبار

حابى :

لم تأت حتى جاء فى آثارها للحبِّ أجنحــةٌ بهن يُطار
ويقال بل أخذتهُ تحت شراعها ونجا به فُلْكٌ لها محصار
تجرى الرياحُ بما تشاءُ قلوعُه ويســيرُ فى طاعاته التيار
ويُقالُ غضبانٌ عليها عاتبٌ ويُقالُ بل حَنِقُ الفؤادِ مُثار
وعلى صفاء العاشقينِ سحابة وعلى سلام الصاحبيْنِ غُبار
آلَى وأقسم لا يُرى فى قصرها حتى يُقوَّمَ مجدُه المنْهار
إن البلاء أجلُّ من ألّا يُرَى

ديون :

عجبٌ أتخفَى فى الهشيم النار؟

حابى :

أنطونيو منا بأقرب نُكْنَة يدعو من الرومان من يختار
ويُعِدُّ أُهبتَه ليوم حاسم فى البر يُغْسلُ عنه فيه العار
ويكون ميدانَ الرحى ومَدارَها تلك التلالُ وهذه الأسوار

فهناك خاتمةُ الصِّراع وموقف   إما الـذُّمارُ بهِ وإما العـار

[يسمع صوت أنوبيس من داخل المحراب مرتلا هذا النشيد] :

إيزيسُ ذاتَ الحجابْ   مالـــكةَ العالمــينْ
شعبُك لاقَى العـذابْ   من عَبث الظالمـــينْ

***

يا من خفضنا الجبـاه   لعــزِّها ساجـدينْ
صُغنا إليك الصـلاهْ   من أدمع النـادمينْ

ســتـــار

المنظر الثانى

«فى إحدى غرف القصر الملكى ورحى الحرب دائرة بين أكتافيوس وأنطنيوس على أسوار الإسكندرية — حابى فى الغرفة حيث تدخل عليه هيلانة »

هيلانة : أتدْخُل حابى مَقاصيرَها ؟ بلغتَ من الُجرْأة المنتَهى
ستعلَمُ أمرَكَ ذاتُ الجلالـ ـة
حابى : بل أمرت أن ترانى هنـا
هيلانة : عجبت لهـــا ولتدبيرها كذلك قد أمرتنى أنا
إذن هى تجمعنا يا جُحُودُ وتَجزيكَ عن سَخَطٍ بالرضى
حابى : هِيلانةُ خَلِّيك من ذكرها حديثُ الأفاعى طويل المدَى
هيلانة : رُويدَك حابى لقد أحسنَتْ فالى أراك أسأتَ الجزَا ؟
حابى : هـلانةُ ، يا طيبَها خَلْوةً وإن قَلَّ فى ظلِّها المُلتَقَى
تَعالىْ هلانةُ نُعطِ الغرامَ عنانَ الحديث ونَشكُ الجوَى
أنيلى يدىَّ يَديْك اللّتين نعيمىَ بينهما والشقـا
هَلمَّ هـلانةُ

هيلانة: حابى أراكَ بِكُنْهِ الأمور قليلَ الهُدَى
من القصر لا تَلتمسْ خَلْوةً وإن هو من كلّ حسّ خلا
سماء القصور لها أُذنان وأرضُ القصور بعينٍ ترى

حابى: هلانةُ لا تقطعى نَشْوَتى بقُرْبك أو حُلُمى باللِّقا
أمهما تخيَّلْتُ صَفْوَ الحياة خلقتِ على جانبيْه القَذَى؟

هيلانه: حنانَكَ حابىَّ لا تتهمْ ولا تَرمنى بعُقوق الهوى
ولُذْ بالأناة فإن الأناةَ صَديقُ الصّواب عدوُّ الخطا
فلو كنت وحدكَ شُغلَ الفؤاد لهان البلاء وقلَّ العَنا
ولكن حقوقُ كلوباترة

حابى: وأىُّ حُقوق لها تُدَّعى

[تدخل كليوباترة]

كليوباترا: حُقوقُ الولاية ياذا الغلامُ حُقوقُ الرِّعاية ياذا الفتى
وصبرى عليك لأجل الفتاة

حابى [مأخوذاً] : إلهى لقد سمعتْ ما جرى

الملكة: وسدِّى المسامعَ حُباً بها وأنت تُعينُ علىَّ العدا
وتُرسلُ فى العَرش هُجْرَ الكلام وتُخْفى الحفيظةَ لى والقِلى
ولكنْ لننسَ الذى قد مضى فشلُكَ تاب ومثلى عَفا

دع النَّود عن مصرَ لى إننى أنا السيفُ والآخرون العصا
ولا تُطع الفتْيةَ العابثين أُسودَ الكلام نَعامَ الوَغى

[يدخل أنوبيس]

[إلى أنوبيس]

أبى : قد أتيت

أنوبيس: سلامٌ عليْكِ شُعاعَ المدائن نورَ القرى

الملكة : أبى قد تَلاَقَى هنا العاشقان وكان بتدبيرىَ الملتقى
فباركْ فتاتى وباركْ فتاكَ وكفكفْ هواه إذا ماغلا

أنوبيس: حياتك حابى كنيسيَّةٌ يشاكلُ أوَّلُها المنتهى
مقيَّدة باليقين القَنوع وما أمرَ القلبُ أو ما نهى

الملكة : كزَهر المقاصير لم ينتفحْ بطول الأديم وعرض الثرى

أنوبيس: وتحسبُ فى الكتب علم الحياة وما منهُ فى الكتب إلاّ شَذَا

حابى : لعلّ كذى الشك فى حرصه يَقيس الطريقَ ويُحصى الخُطا
أرى راكبَ الشك ملءَ المجال طويل العنان بعيد المدَى
ولو شَكَكتُ فى السراج الفَراشُ لكان سلاماً عليها السَّنا

أنوبيس: ولكن تَمرُّ على ما تراه تُجاوزُه نحو ما لا يُرى
وهذا الملاكُ [مشيراً إلى هيلانة]
كمولاتهِ طليق الإرادة حُرُّ الحجَى

تمشّى على جَنَبَات الحيـاة كما يتمشى شُـعاع الضُّحى
يخوض الوحول ويغشى الحلى ويأوى الحضيضَ ويعلو الذُّرا
ويخترقُ العَرَصاتِ الفساح وينفُذ من ضَيِّقات الكُوَى
ويرتعُ بين أنوف الأسود ويلعب بين عيون الظِّبا .

الملكة: ولكنهُ طاهرٌ حيث طافَ نقيُّ الذُّيول عفيف الخُطا
أبى قد نسينا حديث القتال فمنذ الصباح تدور الرحى
وجيش الحليف وجيش العدو بظهر المدينة رهن الوغى
هنالك يُقضى مصيرُ البلاد فإما البقاء وإما الفنا
ومن عجب كاد يمضى النهارُ وما من رسول ولا من نَبا

[يدخل جندى من جنود أنطونيو منهوكا يعلوه الغبار]

الجندى: سيدتى جئتُك بالأخبار لقدجرت بسعدك الجوارى
انتصرت جنودُنا الضَّوارى تحت لواء البطل المغْوَار
قيصرُ أنطونيو على آثارى

الملكة: يا فرحا ما أعْظمَ البشاره ! حلَّت على أُكتافيو الخَساره
«وأكتيومُ» قد أخذنا ثاره خُذ يا رسولُ هذه البُشارهْ

[تمنحه بدرة من الذهب فيخرج من باب وتدخل شرميون من باب]

شرميون : سيــدتى يا طـربا سـيدتى يـا فـرحا !
دارتْ عـلى أكـتافيُو وجيش أكتافيُو الرحى

هيلانه : مَلْكَتي هل تسمعين

[يسمع صوت بوق وهتاف من بعيد]

الملكة: [منصتة] صوت بوق وهتاف

[تقوم الملكة إلى النافذة وترهف أذنيها وعينيها]

هو والله نشيدي والمغنُّون جنودي
والخواريقُ التي تخـ ـفُقُ من بُعْد بنودي
ولديْها فارسٌ مُلـ ـتثم شاكي الحديد
يتراءى في عنان الـ ـجَوِّ كالبُرْج المَشيد
هو أنطنيوسُ ذُخْري وطَريفي وتليدي

[إلى شرميون وهيلانه]

أيها البنتان هذي ليلةُ العيد السعيد
صَلِّيا مثلَ صَلاتي واسجُدا مثلَ سجُودي

[يسجد الثلاثة لحظة . ثم تنهض الملكة أولا وتتجه نحو النافذة]

هو ذا أنطونيو من جانب الميناء أقْبَلْ
هيكلٌ يحمله من صافنات الخيل هيكل
البُرْداءُ الأرْجُوانيُّ على عطفيْه مُسبل
مَبسِمٌ يضحكُ من تحـ ـت جبين يتهلَّل
هو ذا يدنو

شرميون : أتى والله

هيـلانة : مـــولاتى تـــرجَّـــل

الملكة [تبتدر الباب]

أيها البنتان هـــذى ليـــلةُ العيـد السعيد

[أنوبيس هامساً لحابى] :

حابى، أحيطَ القصرُ بالذئاب وبى من السُّخط عليهم ما بى

[للملكة] :

سيدتى تأذنُ فى انسحابى ؟ وتأذنين مَلْكتى لحابى

الملكة [ضاحكة] :

إلى الأفاعى ؟

أنوبيس : لا إلى المحراب

الملكة : رَأيكما فى المُكْث والذهاب

[يخرجان ويدخل أنطونيو وحاشيته وقواده وتابعه أوروس . أنطونيو يقبل على الملكة ماداً يديه]

أنطونيو : إلهتى !

الملكة : قيصرى !

أنطونيو : سلطانى !

الملكة : ملكى !

أنطونيو: عندى لك اليومَ يا دُنياى أخبارُ

الملكة : عجِّلْ فديتُكَ

أنطونيو : لا ، لا بدَّ من ثمن

الملكة : كرائمُ المال ؟

أنطونيو : ما للمـال مقدارُ

[يمد إليها جبينه فى ضراعة]

رُدِّى على هامتى الغارَ الذى سُلبتْ فقُبلةٌ منك تَعلوهـا هى الغارُ

[تقبـله]

كليوباترا:

اليومَ تَعلمُ رُوما أن ضَرَّتهـا تُقَـلِّدُ الغارَ مَن تَهوَى وتختار

واليومَ تعلمُ روما أن فارسَها جيش بمفرده فى الرَّوْع جَرَّار

أنطونيوسيدى. هل نحن فى حُلُمٍ؟ أسالمٌ أنت ؟ لا أسرٌ ولاعار ؟

أنطونيو :

أسْرٌ؟ وَهمت كليوباترا أتَظْفَرُ بى أيدى الكُماة وفى كَفِّى أظفـار

لو قلت قتْلٌ لكان القولُ أشْبَهَ بى كأسُ المنايا على الأبطال دَوَّار

الحربُ تَعلمُ والأيامُ تَشهدُ لى أنى شديدٌ على الأقران جبّار

لو كنت شاهدتنى والحربُ جارفةٌ والصفُّ تحتى بعد الصفِّ ينهار

قد جُنَّ تحتى جوادى فهو عاصفةٌ وجُنَّ نَصْلى بكفى فهو إعصار

رأيت حملة صدق غيرَ كاذبة لاالسَّيْلُ يحملُها يوماً ولاالنار

لما صَدمتُ جناحيهم وقلبهمُ عن الخيام ومن أوكارهم طاروا

وماوجَدتُ لأكتافيو وقادته ريحاً ، ولم أتبيّنْ أيةً ساروا

ومالت الشمسُ أو كادتْ فراجَعَنى | شوقٌ إليك قديمُ الداء سوّار
حتى رَجَعتُ ولو أنى طَردتُهمُ | لبات أكتافُ عندى وانقضى الثار

كليوباترا :

تركتَهم لغد ! هذى مجازفةٌ | غدٌ غيوبٌ وأسرارٌ وأقدار

[مخاطبة أوروس]

أوروسُ ، أنت بفنّ ال | قتال أعلَمُ منّى
الحربُ فَنُّك أورو | سُ والسياسةُ فنى
إن كان « مَرْكُ » إلها | فأنت فى الحرب جِنّى
فكنْ بحقّك عَونى | وقلْ لقيصرَ عنى
إن المنى لم تُقصّرْ | بل قَصَّرَ المتمنى
فلو صَبَرتم قليلا | وسرتُم فى تأنى
أرحتُمونى وروما | من الخصام المعنّى

أوروس: سيدتى لم تقصدى | لمّا عذلت سيدى
عَجّلت فى الحُكم على | مالم تَرى وتَشهدى
لقد حَملنا حملة | كمثلها لم يُعهَد
استنفدتْ بأسَ القنا | وقُوّةَ المُهنّد
فكان لا بد لنا | نرجى القتال للغد

أنطونيو: كلوباترا دعينا من تجنيك كلوباترا
أتبكين على الصبر وقوم حُرموا الصبرا؟
وبي من صبرك الواهي جراح الأمس لم تبرا
لقد مَنَّيْتُ أسطولي لدى أسطولك النصرا
حليفٌ كنتُ أرجو أن سأشتدُّ به أزْرا
فعبَّا تحت أعلامـ ـك حتى زحما البحرا
وقد كانا الجناحيْن وقد كنتُ أنا النَّسرا
وأجرى الفُلْكَ أكتافيو فأجريتُ كما أجرى
صففْناها وأرسلْنا بها تقتحم الجسرا
كلانا مارَس الحربَ وعانى الكرَّ والفرَّا
فلما آذنتْنا الحر ب بالمعركة الكبرى
تسلَّلتِ بأسطولـ ـك من غمرتها الحرَّى
فقلتُ انسحبتْ ضعفاً وقال الناسُ بل غدرا
ولو كان لهم قلب كقلبي التمسوا العذرا

كليوباترا: أنطونيوسُ مَلكي أنطونيوسُ سيِّدي
ليس العُبوسُ سُنَّةً لوجهك الطَّلْق النَّدي
ولستَ من يغضبُ في ليل الشّراب والدَّد

ولست للكأس على شاربها بالمفسد
قلبك كنزُ الحب والـ ـرحمة والتودُّد
وكم حَقَدتَ ثم أصـ ـبحتَ كأن لم تحقد
ألستَ بالأمس وأمـ ـس لفتة لم تبعُد
وَهبتَ لى جريرتى والصفحُ نصف السُّؤدد
فاطْوِ معى حوادث الـ ـأمس ولا تُجَدِّد
وامض معى فى لَذَّة الـ ـيوم ودَعْ هَمَّ الغد

أنطونيو : كليوباترا بحبِّك من التأنيب خَلِّينا
لقد سُقتُ وقُوَّادى إليك النَّصْر فاجزينا
مُرِى بالكاس والطاس وبالنَّدمان يَسقينا
وبالقَصف وبالعزف وحُذَّاق المُغَنِّينا
وما طُيِّب ألواناً وما طاب رياحينا
وقولى الشعر عُلْوِيّاً كما كنت تقولينا
وأوحيه إلى شاديـ ـك يُلقيه فيُشجينا
غداً نستأنفُ الحرب ونطويها ميادينا

أنشو : ونَغشاها مَخامير ونلقاها مجانينا
كليوباترا: مُرْ بما شئتَ قيصرُ وأشِر كيف تأمرُ

لكَ قصرى وما حوى الـ ـقصــرُ كُلٌّ مُسخَّر
ليس شىءٌ وإن غـلا عن حبيب يُؤَخّـــر
لَتكونَنَّ ليــلةً آخرَ الدهر تُذكَرُ
لا نُبـالى إذا صَفتْ بعــدها ما يُكدِّر
تَحلُمُ الحُلْمَ لستَ تَـد رى بماذا يُفسَّـــر

[لوصفائها ووصيفاتها] :

البـدارَ البـدارَ يا وُصفائى ووصيفاتىَ البدارَ البدارا
قيصرٌ قيصرٌ هو الآمرُ النـا هى على القـصر فليكنْ ماأشارا
هو يبغى وليمـةً فاصنعوها وانسقوها كما اشتهى واختارا
أطلعوا هذه الشموعَ شُموساً تَـذَرُ الليـلَ بالعَشىِّ نهـارا
وأعدُّوا الخوانَ قد حُمِّل الألـ ـوان شـتَّى وجُلِّلَ الأزهـارا
واجمعوا بالمُـدام شَمْلَ النَّدامَى وأديروا الكؤوس والأوتارا
واجعـلوها وليمـة وبسـاطاً يتبـارى خلاعــةً ووقارا
مصرُ إن أوْلمتْ سَمتْ بالأغانى درجات وأسمت الأشـعارا
لا تَسيروا على ولائم روما سَرَفاً فى الفُسـوق واستهتارا
كلما أولمتْ أساءتْ إلى العقـ ـل وجَرَّتْ على الحضارة عارا
ولقـــد تجعـلُ النمِّارَ نَداما ها وأسْد العَرينةِ السُّمَّارا

قائد روماني [لزميله غاضباً] :

أتسمعُ ما تقول عَدوٌّ روما   قد اجترأَتْ على روما البَغيُّ

أَتحت لوائها وبجانبيْها   يخوضُ الحربَ من روما كَميٌّ ؟

الآخر :

غداً تَلقى وإن غداً قريبٌ   عقاباً فى البلاد له دَوِيُّ

الأول [لأنطونيوس فى عتب وغضب] :

أَميرىَ أَنطونيو أَفى الحق أَننا   نَبيتُ سكارَى والعدو مُبيِّتُ ؟

[ينظر اليه أنطونيو نظرة طويلة ثم ينصرف عنه إلى كليوباترا فيهمس القائد] :

أَلا إنه ليسَ له ما وراءه   غرامُك حيٌّ فيه والمجدُ ميِّتُ

ستار

الفصل الثانى

«فى حجرة الولائم بالقصر الملكى ، حيث ترى كليوباترا ووصيفتاها هيلانة»
«وشرميون ،وأنطنيوس،وأوروس،وبضعة من القواد الرومان،وأولمبوس»
«طبيب الملكة، وأنشو مضحكها، وغانميز ساقيها،وحاجب يعلن أسماء القادمين»

أنطونيو: قياماً نَشرب الخمرا   على حُبِّ كلوباترا

كليوباترا: على حُبك أنطونيو   على الجيش على مصرا

قائد رومانى : على روما

كليوباترا: دَعــوا روما   ولا تُجروا لها ذِكْرا

فما أنطونيو منها   وإن كان ابنَها البِكْرا

ولكنْ تحت أعلامى   يَقودُ البرَّ والبحرا

القائد : أحقٌّ ماركُ أنطونيو   س من روميَّة تَبرا ؟

[تنظر اليه كليوباترا فيقرأ فى عينيها ما تريد]

أنطونيو : أجلْ أَتبعُ مولاتى   ولا أعصِى لها أمرا

كليوباترا: على حُبكَ أنطونيو

أنطونيو : ثلاثاً أربعاً عَشرا

أنشو : وإن شئتَ فعشرينَ إلى ما فوقها سُكْرا
وإن شئتَ من الدنيا وصَلْنا السُّكْرَ للأخرى

قائد رومانى [لزملائه همساً] :

دَعُوا أنطونيو إنى أرى السُّكْرَ به أزرَى
لقد كان الفتى الفَطْنَ فصار الحَدَثَ الغِرّا

قائد آخر [همساً] :

سنلبثُ ساعةً نحتالُ حتى إذا سُلّتْ عُقولهمُ انسللنَا
فما المُتَدلّهِ السِّكّيرُ أهلا لتنصُرَه السيوفُ إذا استُلِلْنا

الحاجب :
أياسُ المُغَنّى وجَوْقَةُ العُزّافِ
وراقصاتُ القصرِ

[يدخلون]

كليوباترا: أهلاً بوفدِ الآلهةْ أهلِ الفنونِ النابِهةْ

الحاجب : الشيخُ زَيْنون
رُبّانُ أنطونْياد [يدخلان]

أنطونيو: ماذا عن الأُسطول منـ ـكَ يا أخيلُ نَعلمُ ؟
هل خَمَدتْ فتنتُه أو لم تزَلْ تَضَرّمُ ؟

أخيل : مولاىَ إن البحرَ يُخ في سِرّه ويكتُم
وما نواه فى غد مثلُ غدٍ مُستبهم
فلا أقولُ مُقدِمٌ ولا أقولُ مُحجِم
ولا أقول ينبرى للحرب أو يستسلم

كليوباترا: أخيلُ ، دَعْنا من غد إن غداً تَوَهُّمُ
أخيلُ ، ما العيشُ سوى ساعةِ صفوٍ تُغنَم
فلا تَكنْ كداخلٍ على الندامَى يلطِم
أتيْتَهم مُنادماً لم تأتهم لِيَندموا
اليوم شُربٌ

زينون : وغداً حربٌ

غانميز : كلامٌ مُحكَمَ !

الحاجب : بُولا الشاعرْ حَبْرا الساحرْ

كليوباترا [ضاحكة] :
حبْرا ، أعندكَ سِحرٌ يَشُل طاغوتَ رُوما ؟
ويجْعَلُ الناسَ فيها حِجارةً ورُسوما ؟

[القواد الرومانيون يدمدمون]

أنطونيو : سيدتى لا تجرحى فُؤَّادى ولا تَنالى بالأذى أجنادى
وقلِّلى السُّخط على بلادى

كليوباترا : أنطونيو ما أنت رومانيٌّ ألم تقل إنك لى جنديٌّ ؟

أنطونيو : بلى ، وددت أنى مصريٌّ وأننى تابعُك الوفيُّ

ما فى سوى رضاك لى مُضىُّ

أنشو : تلك والله قضيّهْ أصبح الراعى رَعيّهْ

حَكم الحبُّ على قيـــصرَ والحبُّ بليّهْ

صار كالشعب وساوَى هَمَجَ الإسكندريهْ !

أنطونيو : حبرا ، تَكلمْ ألا عجيبهْ ؟ من سحر منْف أو سحر طيبهْ

حبرا : إلهَ الحرب سامحنى فإنى غُلبتُ على أبا السنى الغضاب

همُ لا يجلسون على غناء ولا يتحدثون على شراب !

كليوباترا : ولكنْ قيصرٌ يدعوك حبرا وقيصرُ لا يُردُّ بلا جواب

وأنت الكاهنُ العرافُ فانظر أغيرُ السحر شىءٌ فى الجراب

حبرا : إذا ما شئت مولاتى فإنى أطالع فى الكفوف وفى الكتاب

كليوباترا : أُدْنُ من قيصرَ حبرا وانظرِ الكفّين واقرا

أنطونيو : تعالَ حبرا وقلّبْ يَدىَّ يُمنىَ ليُسرى

لعل أسرارَ كفى كواشفٌ لك سِرا

[يتقدم حبرا ويمعن فى كف أنطونيوس]

ألا ترَى لى بقاء ؟ ألا ترَى لىَ عُمرا ؟

حبرا : يا عَجَبَ الفال ! مولا ي أعجبُ الناس أمرا
حياتُه بيديْه والناسُ يَحيَوْن قسْرا
إن شئتَ عشتَ نهارا أو شئتَ عُمّرْت دهرا

[قائد روماني إلى زملائه همساً] :

لو كنتُ منه قريباً لقلتُ في أُذن حبرا
حياتُه في يَدَيْه أم في يَدىْ كيلوباترا !!

كليوباترا : تعالَ الآنَ سَلْ كَفِّى وبَيِّن ما الذى تُخفى

[يتقدم حبرا إليها ويمسك يدها بعناية وشغف] .

حبرا : يا لك كفّاً كنقىِّ العاج ناعمةٍ كَخَمَلِ الدّيباجِ
لامِسُها من الجحيم ناجى !

[ضحك]

تفدى الأكُفُّ كلُّها يمينا بيضاءَ حمراءَ ترفُّ لِينا
كما أظلّ الشّفقُ النّسْرينا

أنطونيو [ضاحكا] :

سمعتِ حبرا مَلِكتى كيف ابتكرْ كلّف أن يَصنعَ سِحراً فشعَرْ

بولا الشاعر : السحرُ والشعرُ سواءٌ في الأثرْ

كليوباترا : لقد أعجبكَ الشعرُ وراقتْكَ معانيهِ
وما سَرّكَ أنطونيو سُرورى كلُّه فيه
فما تأمر في حبرا بأى البر أجزيه ؟

حبرا [لأنطونيو] :

جائزتى يا سيّدى تقبيلُ هذه اليد !

أنطونيو [ضاحكا] :

قبِّل ولاتترَدَّدِ

[يقبل يديها بين إقدام وإحجام] :

حبرا : عَجَبٌ عينىَ لا تَقـ وَى على هـذا الضياء
هذه كفٌّ إلهٍ جاء فى زىِّ النساء

كليوباترا : خَلّنى من زُخْرُف المد ح ومن زور الثناء
ما وراءَ اليد يا عرَّ افُ من غَيْب القضاء ؟
أحضيضٌ يوىَ الآ خِرُ — قل لى — أم سماء؟
خاتَمُ الأيام أوْلىَ باهتمام العظماء

حبرا : ملْكتى يومُك فى الأيّـ ـام منشور اللواء
نَابِهُ الصبح كيوم الشمـ ـس عُلْوىٌّ المساء
خَطَر العـز عليه ومشى فيه الإباء
ثم يَتْلوه بقاء لم يُطاوِلْه بقاء

أنشو [لزينون] :

رأيتَ الشعرَ قد أجدَى فـماذا قلتَ يا فار ؟

زينون : إلهتى ومَلاكى كُفِّى المُهَرِّجَ عنى

قد نال منى ولولا نادِيك ما نال منى

أنشو : سيدتى عبدُك أنشو قد صدقْ
الفارُ فى مَكتبة القصر نطق
يقول إن أسرقْ فزينونُ سَرق !
هَمِّىَ فى الجلدِ وهَمُّه الورق
يَسطو على آثار كلِّ من سبق !

أنطونيو : إنى أرى أنشو وأمثالَه زادوا على زينونَ فى الجُرْأهْ
يا وَيْحَ للشيخ على فضله أصبح فى مَجلسهم هُزْأهْ

أنشو : هَبوه فى الدرس بحراً هبوه فى العلم أُمّه
لا يَخلُقُ العلمُ نفساً ولا يُنبِّه همّه
كم عالم فى يد الجا هلين مُلقَى الأَزِمّه

كليوباترا: أقلِّ المَزحَ يا أنشو وأرسلْه بمقدار
فلولا الجهلُ ما رُحتَ تَقيسُ اللَّيثَ بالفار

زينون : يا سماء احفظى ويا أرض صونى
أظهرتْ عَطفَها على زينون !

كليوباترا: يا غانميز هات النبيذ
هات اسقنى واسق الحبيب
واسق الملا

بولا الشاعر : بنتُ الدِّنانْ أمُّ الزمانْ
خبَّـأها في قَبْـوه
ساقي «مِنَا»

لونُ الفَرَحْ حنَّا القَدَحْ
سِرُّ السرورْ صَفوُ الحياهْ
قُوتُ المُنَى

كليوباترا: قيصرُ ، ذي سُلافةُ الفيوم
تُنْمَى إلى عَقائل الكروم
مخبوءة من عهد مصرائيم
قد عُمِّرت كعُمُر النجوم
دِنانُ مصرٍ لا دِنانُ الروم

القواد الروم [يدمدمون ويتهامسون] :

قائد : قولوا يا رومانيّونا تحيا روما

آخر : تحيا

ثالث : تحيا

أنشو [ضاحكا] : تحيا الخمر يحيا السُّكْرُ

القواد : تحيا روما

جماعة من المصريين : تحيا مصرُ

أنطونيو : أيها الشادى أياسُ بلغ السُّكْرُ مَداهْ
غَنِّنى شعرَ مَلاكى غننى شعرَ الإله
أنا لا أطرَبُ حتى أسمعَ «الحبُّ الحياه»

أياس [مغنيا] :

أنا أنطونيو وأنطونيو أنا ما لرُوحيْنا عن الحب غنىَ
غَنِّنا فى الشوق أو غَنِّ بنا نحن فى الحب حديثٌ بعدنا

رَجَّعتْ عن شَجْوِنا الريحُ الحنونْ وبعينيْنا بكَى المُزْنُ الهَتونْ
وبَعثنا من نُفاثاتِ الشُّجونْ فى حواشى الليل بَرقاً وسَنَى

خَبِّرى يا كأسُ واشهدْ يا وتَرْ واروِ يا ليلُ وحدِّثْ ياسحرْ
هل جَنيْنا من رُبا الأنس السَّمَرْ ورشفنا من دَواليها المُنَى

الحياةُ الحبُّ والحبُّ الحياهْ هو من سَرْحتها سرُّ النَّواه
وعلى صحْرائها مَرَّتْ يداهْ فجرتْ ماءً وظلًّا وجَنَى

نحن شعرٌ وأغانٍّ غدا بهوانا راكبُ البيد حدا

وبنا الملاحُ فى اليمّ شدا   وبكَى الطيرُ وغَنَّى مَوْهنا

من يكن فى الحب ضحى بالكرى   أو بمسفوح من الدمع جرى
نحن قرّبنا له مُلْكَ الثرى   ولَقينا الموتَ فيه هيّنا

فى الهوى لم نألُ جُهدَ المؤثر   وذهبنا مَثلاً فى الأعصُر
هو أعطى الحبَّ تاجىْ قيصر   لم لا أعطى الهوى تاجىْ مِنَا

* * *

صوت : مرحى مرحى يحيا الفنُّ
آخر : يحيا الشعرُ
ثالث : يحيا اللحنُ

[تقوم كليوباترا الى شرفة فيتبعها أنطونيوس]

قائد رومانى [لزميل من زملائه هامساً] :

هلّا نظرتَ إلى الأميرة ؟ إنها   سكْرى تعثّرُ فى خليع عذارها

آخر : وتأملّ المفتونَ كيف جرى على   آثارها وانجرَّ فى تيارها

آخر [لزملائه حيث يسمعه أورروس وألمبوس] :

وانظرْ إلى أورروسَ فى تردّده   يأبى الْهتافَ معنا لمولده

أولمبوس [ساخراً] :

أورروسُ ملِكٌ يومه ملِكٌ غدهْ   فتى تَضجُّ الحربُ من مُهنَّدهْ
ويَشتهى الأبطالُ فضلَ سُؤدده   قد راعنى فَناؤه فى سيده

بنفســـه وقومه ومولده ... يَغلو غُلوَّ الـكلب فى تودده
يُقَيَّدُ الـكلب وراء مرصَده ... فيحرسُ الدارَ على مُقَيِّده

أورروس :

تلك الدُّعابةُ يا طبيبُ ثقيلة ... لحذار ثم حَذارِ من تَـكرارها
لولا الوليمةُ والشَّرابُ وحُرْمة ... لأميرة الوادى السعيد ودارها
لنَزعتُ من أقصى لَهاتك مُضْغَة ... كثُرَتْ على الأبطال فى استهتارها

أولمبوس :

أورروس !

أورروس :

أولمبوسُ صَهْ بَرِحَ الخفا ... ورأيتَ نفسكَ فى مَفَاضح عارها
ماذا خَبأتَ من السُّموم للْـكة ... غفَلَت عن الأفعى ولؤم جوارها ؟
إلّا تـكنْ علمتْ فإنك عندنا ... جاسوسُ أكتافيو على أسرارها
مازلتَ منذ وفدتَ تُطلعُه على ... أخبار قيصر أو على أخبارها
إنا رجالَ الحرب ليس يفوتُنا ... لحظُ العيون ولا خَفِىُّ حوارها

[أولمبوس يحاول أن يتكلم فيمسك به قائد رومانى ويهمس اليه] :

أقْصِرْ أخى إن الجماعةَ عَربدت ... فإذا لَججْتَ لَفَتَّ من أنظارها
إسلمْ بنفسك فى الظلام ولا تُثِرْ ... ريباً أخافُ عليكَ غِبَّ مَثارها
إنى لأخشى الـكأس أن تجرى دَماً ... فتُصيبَ شيئاً من رَشاش عُقارها

أولمبوس [لنفسه وهو ينسل إلى الخارج] :

أوروسُ أنطونيوا احسابكماغداً   روما الأبيَّةُ لم تنمْ عن ثارها

[يخرج]

أنطونيو [من أقصى البهو] :

أما للرقص هيـــلا   نةُ فى ليلتنا حصَّهْ ؟

ألا نَجْمَعُ بين الكا   س والنغْمةوالرقصه؟

فهذى فرصة الأنس   وقد لاترجع الفرصه

هيلانة : الراقصاتُ يَقُمْنا   الراقصاتُ يَثِبنا

ولا يدعن افتتانا   ولا يقصِّرن فنا

[تقوم الراقصات ، برقصة مصرية]

أنطونيو [قادماً] :

مرحى مرحى   يحيا الفن

صوت : يحيا الرقصُ

آخـــر : يحيا الحسنُ

أنطونيو :

قد انتصف الليلُ أو فوقَ ذاك   وآذنَتَـا بالمضىِّ الدُّجى

ودونَ الخيـام سُرى ساعة   وعند الصباح تَدورُ الرحى

فهل تَأذنين لنـا يا مَلاكُ   فلا بد من سِنةٍ من كرى

ولستُ أقولُ مَـلاكى الوداعَ   ولـكن أقول إلى الملتقى

كليوباترا :

مكانَك قيصـرُ لا تَذهبَنّ   ولا تبْرح القصرَ أهلكْ أسَى

أنطونيو :

ذَرِينى أُعَبِّئْ للقتال كتائبى فلى فى غد شأنان فى البر والبحر
ذرينى أهيِّئْ للأحاديث فى غد فإن غداً يومٌ سيبقى على الدهر
ذرينى أزِدْ تاجيْكِ غارَ وقائعى وأقرن بشعبانىْ جلالهما نَسرى
ولستُ أخافُ الدارعينَ وإنما أخافُ فُجاءات الخيانة والغدر
وليس كمِينَ الحرب ما أنا هائبٌ ولكن كمِينَ الغدر فى ظُلمة الصدر

[لأخيل] :

فياقائدَ الأسطول هل من مَكيدة تُدبَّر لى خَلفَ الشِّراع وما أدرى؟

كليوباترا :

إمضِ إلى الهيجاء أنـ ـطونيو كما يَمضى الأسدْ
إن الأسود فى اللبَدْ دونك فى هذا الزَّرَدْ

إمضِ إلى المجد ولا يُقعدْك شُغلٌ فى البلد
المجدُ لا يَسألُ عن صاحبة ولا وَلَد
أنت لروما فى غد وقيصرونُ بعد غد
والشرقُ سلطانى الذى إكليلُهُ لىَ انعقَد
ياليْثُ سِرْ، يانسرُ طِرْ عُدْ ظافراً أو لا تَعُد

ستار

الفصل الثالث

« معبد فى الاسكندرية ، يقسم جداره المسرح الى قسمين »
« القسم الأصغر خارج المعبد وتنهض فيه شجرة باسقة ؛ »
« والقسم الأكبر داخله وتظهر فيه حجرة الكاهن الأكبر »
« أنوبيس وعلى جدرانها رفوف نسقت عليها حقاق »
« وقوارير ؛ وهنا وهناك صرر وصناديق يشف بعضها عما »
« فيه من أفاع وحيات — باب خلفى يؤدى إلى المعبد »
« ونافذة جانبية تطل على الفضاء » .

[فى حجرة الكاهن أنوبيس]

أنوبيس [يناجى نفسه] :

يقولون أنوبيسُ وَلُوعٌ بأفاعيهِ
ومشغوفٌ بثعبان من الوادى يُربِّيه
وفى ناديه حيَّات من الجن تُناجيه
ولو ذاقوا هوى العلم كما ذقتُ فَنوا فيه
ألا يا رُب خدَّاع من الناس تُلاقيه

يَعيبُ السُّمَّ فى الأفعى وكلُّ السم فى فيه !

[يخرج من الباب الخلفى]

* * *

[خارج الهيكل — تحت الشجرة — أنطونيوس وأوروس]

أنطونيوس: أوروس إنى جَهدتُ مَشيا ومسّنى الضرُّ والكَلالُ

قل بنا نَسترحْ قليلا . من قبل أن يَدهَمَ الرجال

[يجلس أنطونيوس منهوكا على حجر فتأخذه الذكرى] :

أوروسُ، ماذا دهانى؟ حتى نَسيتُ مكانى

أتيتُ ما هَدّ مجدى وحَطَّ رفعةَ شانى

جللتُ نفسى بعار يبقى بقاء الزمان

لما حَمَلتُ جوادى على الفرار ازدرانى

وضجَّ منىَ سيفى وضجَّ منى سنانى

ووَدّت الأرض تحتى لو طُهِّرَتْ من عيانى

أنا الذى كان أمضى من الحديد جنانى

الشرقُ يَدرى نزالى والغربُ يدرى طعانى

كانَ الملوكُ عبيدى فصرتُ عبدَ الحسان

ولستُ أوّلَ حُرٍّ استعبدته الغوانى

[يسكت لحظة ثم يستمر] :

ولم أرَ كالحرب استراح قتيلُها وأفضى إلى القَيد الأسيرُ المُقيَّد

ولكن شقيٌّ الحرب والمُصطلى بها

إذا انفضّت الحربُ الطريدُ المُشرَّد

ولولا اختلافُ الحرب بالناس لم يَهُنْ

عزيزٌ ولم ينزلْ على القيدْ سيدٌ

أوروس :

وقارَكَ قيصرُ لا تجزعنَّ وخلِّ المقاديرَ تجرى المدَى

تلَقَّ الهزيمةَ ثَبْتَ الجنَان كما كنت تلقى الفُتوحَ العُلا

فما أنتَ أوّلُ نجم أضاء ولا أنت آخرُ نجم خبا

وقد ينزِلُ الشمسُ بعدَ الصعود وتَسقَمُ بعد اعتدال الضُّحى

ويا ربَّ غارٍ عَراه الجُفوفُ على هامةٍ قد علاها البلى

أمالك أنطونيو أُسْوة بيوليوسَ قيصرَ أين انتهى؟

رأيتك والحربُ تَبلو الكُماةَ فأشهدُ كُنتَ إلهَ الوغى

وقد كانَ سيفُكَ غُولَ السيوف وكانت قَنَاتُك غولَ القنا

وكنتَ إذا الموتُ أفضَى إليك تحدَّيتَه فانثنى القَهقَرى

وكان جنودُكَ شَر الجنود عليكَ وخيرُهمُ للعدا

فخانت أساطيلُ أمَّلتَها وجيشٌ عقَدتَ عليه الرجا

وخُلِّفتَ فى عَسكر كالنِّعاج كثير الثُّغاءِ قليل الغَنا
فمن يائس مات قبل القتال ومن خائن فرَّ قبل اللقا

أنطونيو :

إذنْ لم أكن فى الوغى بالجبان ولاخُنتُ أوروسُ عَهدَ الهوى ؟
وتشهدُ أنىَ أنطونيوس وأنى ابنُ روما وأنى الفتى ؟
فإن عشتُ عشتُ نَقِىَّ الجبين وإن متُّ متُّ كريم الثنا

[يرى أنطونيو شبحاً فيسأل أوروس مبهوتاً]

أنطونيو : أوروسُ !

أوروس: مولاىَ

أنطونيو: تأمل من ترى ؟

أوروس: هذا أولمبوسُ وقد حَثَّ الخُطا

أنطونيو : تُرَى إلى أين ؟ ومن أين أتى ؟

أوروس: ها هو سارٍ نحونا ها قد دَنا

[يظهر أولمبوس]

أولمبوس: تحيةٌ قيصرُ

أنطونيو : بل أنطونيو لاغير بل قُل الشَّريد المُقتَنَى
لاتخدعونى قادراً أوعاجزاً كفى غروراً بالولايات كفى

أولمبوس: مولاى

أنطونيو :

لستُ اليومَ مَوْلَى أحدٍ أكتافيو السِّيدُ والعبدُ أنا

مررت بالقصر فكيف ناسُه؟ هل عن كلـوباترا أولمبوسُ نَبا؟
صرِّحْ أَبِنْ، قُل غَدرتْ، قل جَدّدتْ بقيصر الثالث دُولةَ الهوى
قد صَنعتْ بي عند حاجة الوغى ما لم يكنْ يصنعهُ بيَ العدا
أسطولُها إلى مراسيه أوَى وجيشُها ألقى السلاحَ ونجا

أولمبوس : مولاى أعْفنى

أنطونيو: تـكلمْ لا تخفْ إنى أرى عليك رَوْعَةَ الأسى

أولمبوس:

مولاى مهلاً فى الظنون واتَّئد إن من الظن اتهاماً وأذى
أنت على مالكَ من مُروءة رميْتَ بالغدر أحب مَن وفى

أنطونيو : ماذا تقول ؟

أولمبوس : كيلوباترا انتحرت بطعنة الخنجر فى صدر الضحى

أنطونيو :

يا للسماء ! انتحرتْ ! أين؟أَبِنْ ولمْ ؟ وكيف كان ذاك ؟ ومتى؟

أولمبوس :

مَرَرْتُ بالقصر ضُحَى اليوم فلم أجدْ له نَظْما ولا حُسناً يُرى
بَدا لعينيَّ خَلاءً موحشا غيرَ عويل ها هنا ، وها هنا

أنطونيو :

انتحرتْ ! يا للخبرْ ! ويا لقسوة القدر !

إن الأمورَ انتقلتْ من خَطر إلى خَطر
ما غَدرتْ وإنما أنا الذى بها غدر
واخَجْلَتَا من قولهم انتحرتْ وما انتحر !
إذهب أولمبوسُ ودعــنى والهمومَ والكدر
ما بجراحات القلو ب للأطبّاء بَصَر

[يذهب أولمبوس]

[لروما] :

روما حنانَك واغفرى لفتاك أوّاه منك وآه ما أقساك !
روما سلامٌ من طريد شارد فى الأرض وطّنَ نفسَه لهلاك
اليومَ يَلْقى الموتَ لم يهتِف به ناعٍ ولا ضَجّتْ عليه بواكى
إن الذى أعطاك سُلطانَ الثرى لم تنعمى لرُفاته بــثَراك
إن الذى بالأمس زِنتِ جَبينَه بالغار عَقّك جُهدَه وعصاك
يارُبَّ تاج فى جبينك زاهر عَطّلتْ منه مَفارقَ الأملاك
الأمّهاتُ قلوبُهنّ رقيقــةٌ ما بالُ قلبك لم يَلنْ لفتاك !
أعْرَضْتِ غَضْبى فى الحياة فرحمةً لا تحرمينى فى الممات رضاك
إنْ كان موتى كلَّ ما تبغينــه فهناك ! هأنذا أموتُ ، هناك !
يا أمُّ ، عُذرُك فى اتهام بُنُوّتى بادٍ وعُذرىَ فى العُقوق كذاك
لولا الجمالُ وفتنة من سحره ما حَلَّ فى قلبى هوى لسواك

صفحاً كلوباترا فربَّتَ زَلَّةٍ قد كنت تغتفرين حين أراكِ
لما لقيتُك فى الجمال وعزِّه قَهرتْ قُوای الظافراتِ قُواك
فنسيتُ فى ناديك ذكْرَ وَقائعی وسَلوْتُ أيامى بيوم لقاك
سجدَتْ لأعلامى الصَّوارمُ والقَنا وأبَى مُهنَّدُ لحظك الفتَّاك
قدتُ الجحافلَ والبوارجَ قادراً مالى ضُعفتُ فقادنى جَفناك ؟
أخرجتِ أمرىَ واختيارىَ من يدى وتَركتنى نفساً بغير مِلاك
خلتُ السلامةَ فى نَواك فذُقتُها فإذا الكوارثُ كُلهنّ نَواك
عاديتُ قومى فى هواك وأضرمتْ روما علىَّ الحربَ من جَرّاك
وشَرَدْتُ فى شرق البلاد وجَدَّ فى طلبى عِداىَ بغربها وعِداك
أغدو على سيف العدوِّ وناره وأروحُ بين مكامن وشباك
وتَلمَّستْ نفسى السيوفُ ورامنى فى البر والبحر الكمىُّ الشاكى
كانت حياتى للرجال أليَّةً واليومَ هُنْت فأقسموا بهلاكى
ولقد ذهبتُ من الظنون مذاهباً فذَمَمْتُ عهدك واتَّهمتُ وفاك
حتى إذا حُمَّ القضاءُ وراعنى عُطِّلُ المقاصر من بهاء حُلاك
ضَحَّيتُ بالدنيا وقلت رخيصةٌ وبَذلتُ أيامى وقلتُ فداك

* * *

أما أنا إلهَ الحرب ما أنت صانعٌ … بهذا الحُطام المُستباح المُبعثَرِ ؟
لقد ذَلَّ من بعد امتناع كأنه … بقيةُ نَصْلٍ أو رُفاتُ غَضَنْفَرِ
صَدعتَ أكاليلي وحَطَّمت صارمي … وجَرَّدْتَنِي من أرجواني المُظَفَّرِ
ولم تألُنِي هدْماً وكنتَ بَنَيْتَنِي … بناءَ الصَّناعِ القادرِ المُتجبِّرِ
ملأتَ سبيلي بالهوى وصروفه … ومن يمشِ في أرض الهوى يتعثَّرِ
تنكَّرتَ حتى اخترتَ لي مِعْوَلَ الهوى … فليتَك لم تَغضبْ ولم تَتخيرِ

أوروسُ غلامي ، إن في النفس حاجةً

أوروس:

وعنديَ أقصى طاعة العبد فأمُرِ

أنطونيو :

أوروسُ أرى الدنيا بعينيَّ أظلمتْ … وكانت قديماً كالصباح المنوَّرِ
وضاقت بيَ الأرضُ الفضاءُ فكلُّها … سبيلُ طريدٍ ضائعِ الدَّمِ مُهْدَرِ
غَويتُ وأوْفَى بي على الحُفرة الهوى … نَفَفتُ ، ومن يركبْ شَفا الجُرْفِ يُذْعَرِ
قُشَعريرةُ الخوف اعترَتْنِي ولم تكنْ … إذا ما اقشعرَّتْ تحتيَ الأرضُ تعتري
مُلئتُ من الأحداث رُعباً فضُمَّني … إليك وقَرِّبْ من إزارك مِئْزَرِي
أرى الموتَ ممدودَ اليدين كمُنقذ … لمِثْلِيَ من غَرْقَى الحياة مُسَخَّرِ
دعاني ، ولو أني على النفس مُشْفِقٌ … مَدَدْتُ إليه الكفَّ لم أتأخَّرِ
أروسُ ، أرى الماضي يُطيفُ خيالُه … وتَعرِضُ لي أحلامُهُ في التذكُّرِ

ذكرتُ بروما أربُعى وملاعبى وأين ضِفافُ النيل من شَطّ تيبْر؟
وأيامَ يَدْعونى الهوى فأُجيبه وينفخ في البُوق المنادى فأنبَرى
فَتَنْتُ الغوانى بُرْهةً وفتنَّنى ولكننى عن سُؤدَدٍ لم أقصِّر
فهمّةُ قلبى فى شرابٍ وصَبْوةٍ وهمّةُ نفسى فى عَلاء ومَفْخَر
أروسُ تواقفنا على كلّ غَمْرة وكل مجال ثائر النَّقْع أكْدَر
وفى مِهْرجان الفاتحين وعُرسهم وتحت لواء أو على عُود منبْر
فالتْ بنا الدنيا فصِرْنا بموْقف شديدٍ على الأبطال بالذل مُشعر
نرى الأرضَ فيه والسماء تناهتا إلى فلكٍ نحْس الجهات مُسمَّر
فكيف مُقامى يا أروسُ على الأذى وصبرى على العيش الذليل المكدَّر!

أروس :

أجلْ قيصرُ اعتضْنا من العزّ ذلةً ومن حلْية الأعلام عُطْل التنكُّر
فُهنَّا كأنقاض الحصون على الثرى وَضِعنا عليه كالقنا المتكسِّر
نَهيمُ كأبناء السبيل وطالما أخَفْنا سبيلَ العاهل المتكبِّر
وما مَنزلُ الأبطال إلا رَحَى الوَغَى إذا هى دارتْ أو رواقُ المُعسكر

أنطونيو : فماذا ترى أوروس؟

أروس : رأيُكَ أوّلٌ وعندك تُرجَى نظْرة الصدق فانظر

لقد عشتُ ظلّاً لا أرى غيرَ ما ترَى ولا خيرَ فى الرأى التَّبيع المُسَيَّر

أنطونيو :

أروس، أنا الأعمى وأنت هى العصا فخُذْ بزمام العاجز المُتحيِّر

أروس :

أرى ما يراه العاجزون إذا جرى على النفس مَحتوم القضاء المُقدَّر

أنطونيو :

وماذا يقولُ العاجزون إذا ابتُلوا؟

أروس : يقولون حُكمُ الله يا نفسُ فاصبرى

أنطونيو :

أروسُ، يقومُ العاثرون وقلّما يُقالُ عِثارُ الكوكب المُتغوِّر

أروسُ، ألم تفهمْ؟ هو الذلُّ فاشفنِى بضربَةِ سَيْف أو بطعنَة خنْجَر

فإنك حرٌّ إن فعلتَ وفائز بسيفى وأثوابى ودِرْعى ومِغْفَرى

أوروس :

مَعاذ خلال البرِّ مولاى! أعْفنى فليس يدى تقْوى ولا السيفُ يجترى

وأنت الذى لو بيعَ بالروح وُدُّه ومالى سوى روحى تقدَّمت أشترى

لآلهة الرومان أشكوكَ قيصرى ظَلمتَ فلم تُنصفْ ولائى وتَقْدُر

أتجعلُ فى الميزان حُبِّى وطاعتى وشتّى عروضٍ من ثيابٍ وجَوْهر؟

لقد جادلي بالسيف والدِّرع قيصرُ

[يطعن نفسه بخنجره]

وجُدتُ بأيام الحياة لقيصر

أنطونيو :

أوروسُ عفواً قد ذهبتَ ضحيةً وجَنَى عليك تَرَدّدِى الممقوتُ
فعلمتَ منى كيف يجبنُ قيصرٌ وعلمتُ منك العبدُ كيف يموتُ

[يطعن أنطونيو نفسه فيخر على الأرض جريحا]

[ينتقل المشهد إلى داخل المعبد حيث يدخل أنوبيس إلى حجرته ويناجى أفاعيه]

أنوبيس :

هلمَّ لكُنَّ بنـــات التلال وجنَّ الخرائب من صالحِجَرْ
تبدَّلَ من حولكُنَّ المكانُ وأين القفـارُ وأين الحُجَرْ
يدُ العلم وهى حديديةٌ حَوَتكن من جَنَبات الحُفَرْ
وجاءت بكُنَّ إلى حُجرتى أسارَى القوارير رَهْنَ الصُّرَر
أرابِيَ الناس فى أمركنّ وصرتُ حديثَهُمُ والسَّمَر
وقيل أنوبيسُ حاوٍ تسيلُ إليه الأفاعى إذا ما صَفَر
وما فتنى بجُلودٍ لَكُنّ مُرَقَّشَةٍ كإهاب النمِر
ولا بهيــاكلَ مثل العصىّ من اللحم لا من فروع الشجر
ولا برءوس كَدَقِّ الحصا ولا بعيون كَوَقْدِ الشَّرَر

ولكن أزاولُ علم السموم وعلمُ السموم جليلُ الخَطر
لقد كان لي في مُعاناته تجاريبُ أنفقتُ فيها العُمُر
إلى أن نجحتُ ، نعم قد نجحتُ وعاقبة الصابرين الظَّفَر
فكم قد شَفيتُ بطبِّ اللّديـغَ وأيقظتُ من نَزْعِه المُحتَضَر
فقيل إلهٌ أعاد الحياةَ إلى الميت أو خدْنُ جنٍّ سَحر
صَنعتُ من السم ترياقَه وقد يختفي النفعُ تحت الضرر
وأنتُنَّ والناسُ قد تلتقون ففيكُنَّ شرٌّ وفي الناس شر

[يدخل حابي خلسة]

أنوبيس [مستمراً] :

وتقتلَ عُمْىَ عيونِ السلاح ويقتلُ قاتلهُم عن بصر
لسانُ ابن آدمَ أو نابكنّ كلا السائلَيْن لعابُ القدر

حابي : سلامٌ أبت

أنوبيس: حابي ؟ سلامٌ لكَ يا حابي
حابي : أمشغولٌ أبي اليومَ بذات القَرْن والناب
وأنطونيوس مهزومٌ وأكتافيو على الباب ؟

أنوبيس[باستخفاف وهو يشير إلى أفعى] :

حابي ، تقهقر ناحيةْ تلك الخبيثةُ داهيةْ

[يتقهقر حابي قليلا بينما يلهو الكاهن أنوبيس بالحقاق والقوارير]

تلك القوارير وذى الحقاق غوث إلى مستنجد يساق
لكل سم عندها ترياق

حابى : أبتى ، من للرعيه من لأوطانى الشقيه ؟
خل حياتك فى الأسفاط واشعر بالرزيه
بعد حين تملأ الوادى الأفاعى البشريه
أبتى نحن من اليوم عبيد القيصريه
أدن أذنيك على قد سهما من أذنيه
واسمع البوق تجد من أحرف الرق دويه

أنوبيس : حابى ، تقبل هذه القنينه واقبض عليها بيد ضنينه
فإنها ذخيرة ثمينه !

حابى [لنفسه] :

يا للسماء لأبى ! تراه يستهزئ بى ؟
ويح له ، عساه جن أو لعله نبى
أوحت له السماء علم غيبها المحجب
يعلم من يلدغ من رقطاء أو من عقرب
لأحملن حقه مثل تميمة الصبى
يا لك شيخاً طيباً يأتى بكل طيب !

[مخاطباً أنوبيس الكاهن] :

ربعَ الحمَى أبى فكيـ ف للحمَى لم تغضَب ؟
دع الأفاعى واشتغلْ بالأفعُوانِ الأجنب
الوطنُ المَلدوغُ أو لَى اليومَ بالمُطَبِّب

أنوبيس : وأين كنت يا فتى وأين فتيان الحمَى ؟
وأين فُرسانُ المَقَا ل هل مَضَوْا إلى الوغى ؟
أدرتُمُ وجوهَكم ساعةَ دارت الرحى
تركتم أنطونيو سَ وحدَه يَلْقَى العدا
من أجلكم سلَّ الحُسا مَ وإلى الحرب مشى
ما كان ضرَّكم لو الـ تففتم على اللوا ؟
أبعد أن حلَّ على النـ يـل وواديه القضا
ولم يَجِدْ من شيبه ولا شبابه فِدا
أتيتَ تَدعونى كما تدعو العجائز السَّما
الرأىُ ليس نافعاً إذا أوانُه مضى

[يدخل جند من حرس الملكة] :

الجندى : مولاى ، ذاتُ الجلالة

أنوبيس : الملكةُ الآن عندى ؟

[تدخل كليوباترا فى حاشيتها]

كليوباترا : تحيـــةً يا أبت

أنوبيس : سيـــدتى فى حُجْرتى

مُرى بما شـــئت يكنْ وإن تحـــدَّى قدْرتى

كليوباترا :

أبى ، أعلمتَ أن الجيشَ ولَّى وأن بوارجى أبَت المضيَّا

أنوبيس :

علمتُ وكان ذلك فى حسابى وذا حابى به أفضى إليـّا

كليوباترا :

وهل نبّاك عن أنطونيوسٍ وكيف جرتْ هزيمتُه عليّا

وما أدرى أأردوْه قتيلا صباح اليوم أو أخذوه حيًّا؟

أبى ذهب الحليفُ فكنْ حليفى فقد أصبحت لا أجدُ الوليّا

أبى خفتُ الحوادثَ

أنوبيس : لا تُراعى لَباةُ النيل ليس تخافُ شيّا

كليوباترا :

أبى لا العزلَ خفتُ ولا المنايا ولكن أن يَسيروا بى سَبيّا

أيوطأ بالمناسم تاجُ مصرٍ وثمّ شعرةٌ فى مَفْرقيّا ؟

أنوبيس [باستخفاف] :

لتأت المقاديرُ أو فلْتذَرْ تعالىْ كلوبترا ألقِ النظرْ

كليوباترا :

أفاعٍ ؟ أبى ، نَحِّها ، أخْفها ؟ أعوذُ بإيزيسَ من كلِّ شرْ

فماذا تريدُ بإحرازهنَّ وهل يقْتنى عاقلٌ ما يضرْ ؟

أنوبيس :

أتيتُ بهنّ لدرس السُّموم ولم أخْلُ فى علمها من نظر

أداوى بها أو بترياقها محبَّ الحياة أو المنتحر

كليوباترا [كأنما تحدث نفسها] :

محب الحياة أو المنتحر !

كَفى أيها الشيخ ! بل هات زدْ فما بىَ خوفٌ ولا بى خَوَرْ

وإن تكُ بى خشيةٌ فى النساء فلى جُرْأةُ الملكات الكُبر

تكلّمْ فليست سمومُ الأراقـم فى الخُبث دون سُموم البشر

فياربُّ صفوٍ سَقَيْتُ الرجالَ فلما ترَوَّوْا سقوْنى الكدر

أنوبيس :

قصارٌ وهُن سهامُ المنون وليس يَعيب السهامَ القصَرْ

تَمَسُّ الفريسةَ مسّ السنان وتمضى مَضاءَ الحسام الذَّكَر

وكلُّ الذى لمستْ مَقتَلٌ ولو أنشبت نابَها فى ظُفُر

إذا جرحتْ لم تَقُمْ عن دم كذلك يجرح سهمُ القدر

وماتتُهـــا لا يُحسُّ المنونَ كمَن ماتَ في النوم لا يُحتضَر

كليوباترا [مرددة قوله فى صوت خافت] :

وماتتُها لا يُحسُّ المنون كمن مات فى النوم لا يُحتضر!

ولكن أبي هل يُصانُ الجمال؟

أنوبيس : نعم لا يَحولُ ولا ينـدثر

كليوباترا: وهل يَطفأُ اللون ؟

أنوبيس : لا بل يُضيء كما رفَّ بعد القطاف الزَّهَر

كليوباترا :

وهل يُبطلُ الموتُ سحرَ الجفون ويبلي الفتورَ ويُفني الحَوَرْ

أنوبيس :

كعهد العيون بطَيْف الكرى إذا الجفنُ ناء به فانكسر

كليوباترا : أبي ، والشفاهُ ؟

أنوبيس : لواقي الذُّبول كما احتضر الأقحوانُ النَّضِر

وما الموت أقسى عليها فما ولا قُبلةٌ من عوادي الكِبَر

كليوباترا: وما عضَّةُ الناب ؟

أنوبيس : وَخْزٌ أخفُّ وأهونُ من وَخَزات الإبر

كليوباترا: وما شَبَحُ الموت ؟

أنوبيس : ماذا أقولُ ؟

كليوباترا: تُمثلهُ لى كأنْ قد حَضَر

أنوبيس :

زَعَمتِ ابنتى الموتَ شخصاً يُحَسُّ وعَظَّمت من خَطْبه ما صَغُر

وما هو إلا انطفاءُ الحياة وعَصْفُ الردَى بسراج العُمُر

وليس له صُورةٌ فى العيون على قُبْح صُورته فى الفكر

إذا جاء كان بغَيضَ الوجوه وإن جىءَ كان حبيبَ الصُوَر

كليوباترا :

إذن هذه الرُّقْطُ فى ذمتى فصُنْها وأحسنْ عليها السهر

وأقسمْ لتأت إلىّ بهن ولو أن دونى الظُّبا والسُّمُر

أنوبيس :

يميناً بإيزيسَ أحملهُن إليك، ولو فى سلال الخُضَر

إذا بات فى خطر تاجُ مصرَ سبقتُ إليك بهنّ الخطر

كليوباترا :

أتجعلُ لى يا أبى آيةً أميزُ الرسولَ بها إن حضر؟

أنوبيس :

هو التين أبعَثُ حابى به وبالرُّقط بين غُصون الثمر

* * *

ابنتى ذلك محرا بى ادخليه للصَّلاهْ

واسكُبى الدمعَ عسى أن يَقْبَل الدمعَ الإله

هو ذو المُلْك الذى يبـ ـقى ويفنى ما سواه

[خارج الهيكل — ثلاثة جنود رومانية]

الجندى الأول : تحيا روما يحيا قيصرْ

الجندى الثاني : روما العُظمى أبداً تنصَرْ

الجندى الثالث : ما ذاك ؟ ما فوق الطريق ؟ما أرى؟

هيــــلا رفيقَّ معى لننظرا

الأول : هناك مقتولان ضَرّجا الثرى

الثاني : نعم أرى ثمَّ دما وخنجرا

وهيكلينْ من حياة أقفـرا

الثالث : جُبَّارُ يامُصرِّفَ الحروب بارِكْ لنا فى هذه الجيوب!

وابعث لنا بالذهب المحبوب

الأول : ياعَجَبَ الأقدار ! أنطونيوسُ ؟

الثاني : أنطونيو ! أجل وذا أورروس!

وأحسَب السيدَ مات بيدهْ ثم حذا العبدُ مثالَ سيِّده

لهفى على أنطونيو فى مرقِدهْ

[يئن انطونيو ثم يحرك رأسه ويتبين الجنود]

أنطونيو :

ويحى أحيٌّ أنا جريحٌ ؟ ماذا يُريدُ القضاءِ ماذا

جنودُ أكتاف أدركونى يا ليتنى متُّ قبل هذا

جندي :

لا بل جنودُك لكن خانوك حُباً لروما

آخر : وما نَسُوك عليهم تحت اللواء زعيما

ترمي بهم مَطلعَ الشمس أو تَؤُمُّ النجوما

أنطونيو : يا جندي صحابي ليس ذا وقتَ العتاب

اتركوني وعذابي

[يغمى عليه]

جندي : لهفي عليه دائه الإغماء وأوشكتْ تنْزفه الدماء

وليس إسعافٌ وليس ماءُ

آخر : هَلُمَّا احملاه هَلُمَّا احملا وجيئا بمولا كما الهيكلا

وأمضي فأُبلغُ أكتافيو الحديثَ أعرّفُه المنزلا

[في حجرة الكاهن — كليوباترا والكاهن والحاشية عائدين من المحراب]

كليوباترا : أبي دخلتُ ونفسي حَيْرَى الزمام حزينهْ

وقد تركتُ المُصَلَّى وملءُ قلبي سكينه

إن الصَّلاةَ على شدّ ة الزمانِ مُعينه

[يسمع صوت الجند من الخارج]

كليوباترا : ما تسمعون أصيخوا شرٌّ وهذا بريدُهْ

كان الضجيجُ بعيداً والآن يدنو بعيدُهْ

حابى : أسمعتم ا ضجةٌ صاخبهٌ وجريحٌ وجُنودٌ فى الطريقْ

ها هُم قد دخلوا الدار به

أنوبيس : دارُنا الشاطىءُ لا يأبَى الغريق

حابى : ها هُم قد حضروا

أنوبيس : يا مرْحباً أعدُوّاً كان أم كان الصديق

[يدخل الجنديان اللذان يحملان أنطونيوس]

كليوباترا :

ويحَ عيني ماذا ترى ؟ ومن المحـ ـمولُ كالسيف فى الأكفّ خضيبا ؟

أيها الجنـدُ ما بأيديكمُ اليو م ؟

جندى : جـريحٌ على الطريق أصيبـا

كليوباترا :

أفتدرون مَن حَمَلْتم ؟

جندى : حَمَلنا هَيكلا عَزَّ فى الرجال ضريبا

قد عرفناه خَيرَ من هزَّ رُمْحاً ونضا صارماً ولاقى الحُروبا

[تتأمل كليوباترا فى وجه الجريح]

كليوباترا :

آه أنطونيـو حبيبى أدركونى بطبيب

ما تَرَوْن الأرضَ ترَوَى من دَم الليث الصَّبيب

أبتى ، أين قـوى طبِّـكَ والسحرِ العجيب

هو في إغماءة الجرح فنبّهْه بطيب
هو ذا يفتحُ عينيه ويُصغي لنحيبي

أنوبيس [محاولا إسعاف الجريح] :

تلك أنفاسه توالَى وهذا   جسمه لا يزال غضاً رطيبا
هو دا قد تخلّجت شفتاه   وتهيّا لسانُه ليثوبا
أيها الملكةُ ارفُقي بجريح   بات تحت الرداء جُرحاً صبيبا
لا تناديه بالدموع مرارا   ربما ضرّ جرحَه أن يُجيبا

أنطونيو :

كيلُبترا ! عَجَبٌ ! أنت هنا !   لم تموتي .. هم إذنْ قد كذَبونْ

كليوباترا :

سيّدي روحي حياتي قيصري   أنت حيٌّ ؟

أنطونيو :   بعد حين لا أكون

كليوباترا :

من نعاني كَذِباً ! من قالها   لك !

أنطونيو :   أولمبوسُ النذلُ الخَؤون
مَرَّ فاستوقفتُه أسألُه   قال ماتت فتجرّعتُ المَنونْ

كليوباترا زوّديني قُبلةً   من ثناياك العِذاب الشَّبِماتْ
وأضيئي بسَناها مُقلةً   يُسْدِلُ الموتُ عليها الظُّلُماتْ

سيقولُ النـاسُ عنى فى غد　　من أولى الرحمة أو أهلِ الشَّمات:
بَطَـلٌ لم تَظفَـر الحـربُ به　　فى الهوى تحت لواء الحب مات

[يسلم الروح]

كليوباترا :

قد تداعى محْوَرُ الأر　　ض وميزانُ الشعوبِ
مـال كالشمس جمـالاً　　وَجـلالا فى الغـروب
أيهـا المجـروحُ لو تـد　　رى جُروحى ونُدوبى
أيهـا الذاهب قـد آ　　ن عن الدنيـا ذهوبى
أيهـا الخـالصُ وُدّاً　　ليس وُدّى بالمَشـوب
أيهـا الصـادق وعـداً　　ليس وعدى بالكذوب
عن قريب يَنطوى القبـ　　ـرُ علينـا عن قريب
كَلِّلوه بالـريـاحيــ　　ـن وبالغار الرطيب
واهتفـوا فى أذنيـه　　بأناشيـد الحروب

* * *

واحبيباه ، جاءه الموت فاستسـ　　ـلم لا يستطيع إلا ذهوبا
كان ما خفتُ أن يكون وحَلّتْ　　نَـكبة لم تفاجىء المنكوبا
[تستوى قائمة]
أيها الجندُ مات قيصرُ فابكوا　　معىَ السيدَ الجَسورَ الوَهوبا
شَبِّكوا ساعديْه من فوق صدر　　كان فى الرَّوع بالمنايا رحيبا

واعرضوا سيفَه على راحتيْه ... واركزوا الرمحَ من يديْه قريبا
لا بل امضوا لشأنكم جُندَ روما ... ودَعوني وسيفَ روما السَّليبا
أنا وحدي له ديارٌ وأهلٌ ... إن دعا دارَه ونادى النسيبا

[ينسحب الجنود]

ويحَ لي قد طلبتُ عند طباع الـ ... ـناس ما عزّ عندهم مطلوبا
خلَق الناسُ للقويّ المزايا ... وتجنّوْا على الضعيف الذنوبا
واحتفوْا في الحياة والموت بالغا ... لب فانظرْ هل عظَّموا مغلوبا
شيّعوا الشاةَ جيفةً بمُداهم ... واتّقوْا وهْو في الرِّمام الذّيبا

أنوبيس: الوقارَ الوقارَ يا لَبْأةَ النيـ ... ـل ولا تجعلي الزئيرَ النحيبا
وقِني الخُطوب في عزّة الملـ ... ـك وفي كبْره تُذلّ الخطوبا

[يدخل جندي من جنود أكتافيوس]

الجنـدي: قيصر أكتافيوسُ آتٍ ... يعودُ أنطونيوسَ قيصرْ
كليوباترا: قيصر! فرَّ الأسير منه ... مَنْ في حمى الموت ليس يُؤسَر

[يدخل أكتافيوس ومعه جنود]

أكتافيوس:

سلامٌ ملِكةَ الوادي ... سلامٌ كاهنَ المُلْك
يقولُ الناسُ أنطونيو ... هنا لم يَبتعدْ عنك

كليوباترا: نعم لم نفترقْ بعد ... وإن أمعن في ترْك

وهـذا الجسـد الفانى جَـلاءُ الرَّيب والشك

أكتافيوس :

إذن قد قُضىَ الأمرُ وصار الليثُ للهُـلْك

كلوباترةُ لا تَخشَىْ فلن آخذَه منك !

كليوباترا : أبى تهزأُ أم بالمَيْـــت أم بالموقف الضَّنك

إن اسطَعتَ على مالـــك من بَطش ومن فَتك

وما حَوْلك من خيـل وما تحتك من فُلْك

فخُذْه من يد الموت ومن عاجـزة تبـكى !

[يدنو جندى من جنود أكتافيوس ليتحقق موت أنطونيوس]

كليوباترا :

مكانَك يا عبدُ لا تَهتِكَنّ على سيد الهالكين القناع

تُريد لتكشفَ عنه الغطاء عسى تحته حيلةٌ أو خداع

عَبَثْتَ به وهو تحت الظِّبا لِـــبس مُلقَى السلاح قليلُ الدفاع

ولم تَحتشمْ بُقَعاً من دم عليهنّ تَحسُدُ مصرَ البقاع

رُوَيْدَك ، ما الموتُ مُستَبعَدٌ ولا هو مستغرَبٌ من شجاع

وإن التماوتَ فعلُ الثعالـــب ليس التماوتُ فعلَ السباع

أكتافيو :

أناتَك سيدتى إنـه فتى طاهرُ القلب حرُّ الطباع

أراد ليحتاطَ لي جُهدَه ويُخلصَ في خدمتي ما استطاع
تنحَّ أخا الجند ما أنت والميـــتَ الا يَقْرَبُ الشمسَ إلّا الشُعاع!
أتأذَنُ سيدتي أن أطيـــفَ بخدن الصّدام رفيق الصِّراع؟
ومن كنتُ تحت القنا ظلَّه ومن كان ظلّيَ تحت الشِّراع
وكنا نَشيد لروما الفَخارَ ونجْني لها الغارَ من كل قاع
ونأتي القلاعَ فنحتلها وإن بعُدَتْ كالنجوم القلاع
ونَركزُ في السهل أرْماحَ روما ونُطلعُ أعلامَها في اليَفاع؟
بإذنكِ؟

كليوباترا :

قيصرُ لا إذنَ لي أينهى ويأمر من لا يطاع؟
تصرَّف بجُثمانه كيف شئـــتَ فليس له اليومَ منك امتناع
وما جُثَّةُ الليث إلا لَقىً إذا النابُ طاحت أو الظُّفْرُ ضاع

[يتقدم أكتافيوس فيرفع القناع عن وجه أنطونيو]

أكتافيوس :

لقد حسَمَ الموتُ ما بيننا وفَضَّ اللَّجاجَ وفَضَّ النزاع
فمن حَقِّ اليومَ بل واجبٌ على أُقدِّسُهُ أن يُضاع
أُقبِّلُ ما قَبَّل الغارُ منـــكَ وأهتفُ: أنطونيوسُ الوَداع

ســـتــــار

الفصل الرابع

« في القصر الملكي ، في غرفة العرش ، غرفة مطلة على »
« البحر . كليوباترا متكئة على حافة الشرفة ، شرميون »
« وهيلانة في أقصى الحجرة تنهمر من عينيهما الدموع »

كليوباترا [كأنما تناجي نفسها] :

نام « مَرْكُو » ولم أَنَمْ   وتَفَــرَّدتُ بالألـم
ليت جُرحي كجُرحه   لَقِيَ المـوتَ فالتـأم
قاتَلَ اللهُ ماضيـاً   قَتـل المُفـرَدَ العَلَم
أنطوانُ انفُض الكرى   ساعةً وانقُل القَـدم
قم كأمس اغنَم الهوى   واشرب الراحَ بالنَّغم
وتَخَـيَّرْ على المُنَى   وتَمَتَّع من النِّعم
واغمرِ الأرضَ بالقنـا   وتَغَلَّبْ على الأمـم
وقُد الخيلَ في الوِهـا   دِ ووثباً إلى القِمَم
أيهـا العـين أبصري   إنمـا كنت في حُلُم !

[ملتفتة إلى شرميون] :

ياشرميون بلغنا موْقفاً حَرجا | لا الرأيُ ينفعنا فيه ولا الباسُ
لم يَبْقَ ثَقبُ رجاء كنت ألمحُه | إلَّا تَعرَّضَ حتى سدَّه الياسُ

[تلقى نظرة على الاسكندرية من الشرفة]

نجمى يُحدِّثنى بوشْكِ أُفوله | إسكندريةُ ، هل أقولُ وداعا ؟
وَشَّيْتُ بَرَّكِ جدولاً ونَخيلةً | وكسوْتُ بَحرَكِ عُدَّةً وشراعا
وأنا اللَّبُاةُ وقد ملأتُك غابةً | وأنا المَهاةُ وقد ملأتُك قاعا
قدخفتُ من بعدى عليكِ ممالكا | يُطلقْن فيك الفاتحين سباعا
يأتين زرعَك بالرِّياح عواصفاً | ويَجِئْن ضَرعَك بالذئاب جياعا
فإذا الحضارةُ بعد طول بنائها | قد دُكَّ رُكنُ بنائها وتداعى

شرميون :

بإيزيسَ سيدتى بالوَلاءِ | بطول التعاشُر والمُصطحَبْ
بمالى ببابكِ من خدمة | ومن صُحبة تُشبهان النَّسب
على أى وجهٍ أدرْتِ المصيرَ | وَقلَّبت رأيكِ فى المُنقَلب ؟
فهذا السكونُ يُثيرُ الشكوكَ | وهذا الهدوءُ يثيرُ الرِّيَب
وماذا اعتزمتِ؟ وماذا كتمتِ؟ | أبِينِى فما بيننا من حُجُب
ولى فى حياتك رأىٌ يُساقُ | وليس علىَّ إذا لم يُصِبْ

كليوباترا :

إذن فاذكرى أن خصمى العتيد يخاف انتحارى ويخشى الهرب

وليس الذى يَشتهى لى الحياةَ ولكن له فى حياتى أرَب

له فى غد مَوْكبُ الفاتحيـــن إذا أقبلوا فى جلال الغَلَب

يجُرُّون فى رومةَ الأرجوانَ وقد بَرَزَتْ فى الثياب القُضُب

وتزدانُ بالغار هاماتُهم إذا ارتفعت فى الخميس اللَّجِب

يحاولُ قيصرُ منى المُحالَ ويذهب فى غير وجه الطلب

يريدُ ليَعرضَنى فى غد على شعب روما كأنى سَلَب

ويفضحُ مصر وسلطانَها وتاجَ العصور وعرشَ الحقَب

لقد ساء تدبيرُ أكتافيوسَ ولم يَلْقَ من خُدعتى ما أحب!

[تسمع وطء أقدام]

ماذا وراء الباب ؟

شرميون :

حِسٌّ قادِم

هيلانة :

أجلْ دبيبُ حارس أو خادم

كليوباترا :

بل حارسٌ جافٍ من حَرَس القصر

مُعربدُ الخَطْوِ من نشوة النصر

لا تسعُ الأرضُ رجليْه من كِبرْ

شرميون :

مَلْكتى دَعى هذه الفِكَرْ

جندُ رومةٍ يَعْبُدُ البدَرْ

فى سبيلها يركبُ الغَرَرْ

كليوباترا :

شرميون صَهْ إنه حضَرْ

[يدخل حارس]

الملكة : ماذا وراء الجندى؟

الحارس : رسالة من عبد

هل تأذنين ؟

الملكة : أدِّ

الحارس : أيها المَلْكةُ قد جا ء إلى القصر غلامْ

فى ثياب الحقل خلو الشكل ممشوق القوام

جادل الحُرّاسَ فى حذ قٍ ورفق بالكلام

يَدّعى أن أباه كان عبداً للنّقام

ناله بستانُ تين من أياديك الجِسام

فهوَ يُهدى لك باكو رتَه فى كل عام

الملكة [هامسة] :

شرميونُ ذاك حابى وجَناه فى يمينهْ

جاءَ في الميقات يُهدى لىَ باكورةَ تينه

[للحارس]

ألا تَقْبلُ يا حـارس مني هذه البَدْره ؟

الحارس : بشكران وهيهات على الشكران لى قُدْرَه

الملكة : والآن لو تُحْضِرُ لى الفلاحا لعله يُحدث لى انشراحا

إنى نسيتُ البَسطَ والمزاحا

الحارس :

علىّ السمع والطاعه سآتيك به الساعه

[يخرج الحارس]

الملكة :

يا شرميونُ تعلّمى الدنيا ويا هيلانةُ اختبرى الزمانَ القاسى

إن التى حُرِستْ بأبطال الوغى باتت تُصانعُ سفْلَةَ الحراس

[يدخل حابي فى ثياب فلاح ومعه الحارس]

هيلانة [همسا] :

حابى ، نعم حابى وتلك نظرتهْ وهذه مشيَتُه وخَطرتُهْ

يا ليت شعرى ما تكونَ سلّتُهْ ؟

حابى : تحيـةٌ للمَلكهْ ونعمَةٌ وبَركهْ

ونفسُ عبدِها لها وكلُّ ماقد ملكه

سيدتى جئت إلى بحرك أُهدى سمكه

أحملُ تينا ولو اســــطعتُ حملت بملكه

حابى : سيدتى

الملكة:

أُدنُ فإنــه ابتعــدْ وقُلْ فما يسمعُ غيرنا أحدْ

حابى : سيدتى

الملكة:

حــابى ، أنوبيسُ اجتهدْ لنا وأنجز الغداة ما وعدْ !

يُريدُ أن يَشفينى مما أجد وأن يَقى بملكتى عارَ الأبد

جئتَ كما يأتى لوقته المَدد

وَفيْتَ لى حابى ولم تكنْ تَفى ضعِ السِّلالَ وانصرفْ لا بل قفِ

حتى ترى كيف يكونُ موقفى

[تلقى نظرة على السلال]

ما لى مُلئتُ من المنيَّــة رهبةً إن المنيةَ فى رقاب الناس

آسى الجراح جَزعتُ عند لقائه والنفسُ تجزعُ من لقاء الآسى

إنى طويتُ بساطَ كل مُدامة لم يبقَ إلا شربُ هذى الكاس

يا خادمىّ بل ابنتىّ تلطفا فى البحث حتى تأتيا بأياس

فعسى يُغنّينى نشيدَ الموت أو نغما أجود عليـه بالأنفاس

شرميون :

مَلْكتى نادى أياسا   إنه بالقُرب منك
هوفى المقصورة الأخـــرى مع الباكين يبكى
فكْره فيك ولا يَجــسُر أن يَسألَ عنك

الملكة :

ياوَيحَ صَحبى بَعد طول سرورهم   قعدوا إلى أحزانهم يبكونا
جيئى بهم ياشرميونُ لينظروا   جَلَدى فيَهدأ بعضُ ما يَجدونا

[تخرج شرميون]

كليوباترا [تنحنى على زنبقة فى أصيص] :

زَنبقةٌ فى الآنيــةْ   ضحيــّةُ الأنانيــةْ
جَنَتْ عليها غُرْبَةَ الأســـرالأكُفُّ الجانيهْ
وبُدِّلتْ من سَعة الــرَّبْوَة ضيقَ الباطيــه
يَسقونها من جَــرّة   بعد العيون الجاريه
يا جارتا شأنك لا   يُشبهُ إلا شانيــه
لم يبق من مُلكى العريـــضِ غيرُ دار خاويه
وكلُّنا ذابــلةٌ   عما قليـل ذاويـه
زال النعيم وفرغنا   من حيــاة فانيه

[ترجع شرميون ومعها أياس وأنشو وغيرهم]

الملكة [إلى أنشو] :

أنشو يَعِزُّ علىّ أنك ساهمٌ   يبدو عليك الهمُّ والتفكيرُ
أنشو ألا قَوْلٌ يَسُرُّ وضحكةٌ   إن السعيدَ الضاحكُ المسرورُ
قد كان أيسرُ ما صنعتَ يسرنى   أعَلَى سرورى اليوم أنت قدير؟

أنشو : سيدتى جرى بما   فيه سرورُك القدرْ
من لا تسرُّه السما   ءُ لا يسره البشرْ

الملكة: أياسُ، هل من صوت؟   غَنِّ نشيدَ الموت

[أياس يغنى هذا النشيد]

يا طيبَ وادى العدَمْ   من منزلٍ من منزل
لم تَمشِ فيه قدمْ   للعُذَّل وادٍ خَلِ
أنا فيه لحبيبى   وحبيبى فيه لى

* * *

يا موتُ ملْ بالشّراعْ   واحملْ جَريحَ الحياهْ
سرْ بالقلوع السِّراع   إلى شُطوط النجاه

* * *

شراعُك الفضّى   فى لُجّه التّبْرى
كالحُلْم فى الغَمض   يجرى ولا يجرى

* * *

في ظل ليل ساجْ أقسم لا يَسرى
مُغـلَّل الديباجْ مُطيَّب السِّتر

* * *

في يقظةٍ يَظهـرْ لي أم أرى حُلْمَا
فُلْكٌ من الجوهر يَختـرقُ الظَّلما

* * *

على الدجى لَمَّاح تحسَـبُهُ نجمـا
ليس به مـلّاح يسلُكه اليمّـا

* * *

أضوَى من الفجـر في ظُلمة الأسداف
من نفسه يجـرى لم يجُـره مجداف

* * *

مَدّ شراعَ النـورْ يا حُسنَ ما مدّا
كاللـؤلـؤ المنشور لـو ينفَـح النّـدّا

* * *

يا لكَ من زورقْ مَلّاحُه الأقـدارْ
ينجـو به المُغرَقْ من لُجة الأكـدار

[يدخل الحارس]

الملكة: ما وراء الحارس ؟

الحارس: الطا عة يا ذاتَ الجلالهْ

قائد يحملُ من قيصرَ أكتافو رسالهْ

الملكة: أدخله ، أدخلْ رسولَ قيصرْ

[يخرج الحارس ويدخل القائد]

القائد : قيصرُ العالى إلى سيدتى يهُدى التحيهْ

هو فى الشُّكنة بالقرب من الدار السنيه

يُظهرُ العَطفَ عليها وهى بالعَطف حَرِيّه

ويقولُ الأمرُ ما تأمُرُ فى الإسكندريه

ولها الوادى وما يحملُ مُلْكا ورعيّه

وبنوها يرثون الملكَ من روما الوصيه

وإذا حَلّت بروما وجدت روما حَفيّه

تتلقّاها كأعلى درة فى القيصريه

ما الذى تقترحُ الملكة ما تُملى عَليّه

لتقلْ سيدتى حاجتَها تُقْضَ العشيّه

كليوباترا [كأنما تناجى نفسها] :

وإذا حلت بروما وجدت روما حفيه!

تتلقاها كأعلى درة فى القيصريه!

[تضحك فى تهكم وألم]

أيها القائدُ أدّيْـ ـتَ فأحسنتَ الأداءْ
بَلّغنْ قيصر عنى كلَّ شكر ودُعاء
ثم زدْ أمنيةً قد بَقيتْ لى ورجاء
أنا لا أكتُمهُ ما سَرَّ من أمرى وساء
لىَ سرٌّ كاد عن نفـ ـسىَ يَزْويه الخفاء
صُنته عن صاحباتى وصحابى الأمناء
حبذا لو زارنى قيـ ـصرُ فى هذا المساء
وله الشكرُ إذا لم يأت أو إن هو جاء

القائد :

سأذكرُ مولاتى لمولاىَ قيصرٍ وأنقلُ ما أبديتِ من رَغَبات
ولِمْ لا يُلبِّى دعوةَ الحسن طائعاً ويسعى لهُ مستعجلَ الخطوات؟
وقد كان يوليوسٌ يقومُ ببابه ويَمْثُلُ أنطونيوسُ فى العَتَبات!

كليوباترا [بعظمة] :

أسأتَ أخا الرومان فهم إشارتى

القائد : إذن فَهِى لى تلك من هفَواتى

[يخرج القائد]

كليوباترا :

أرانى لم يُحسنْ إلىّ مُعاصرى ولم أجد الإنصافَ عند لداتى
فكيف إذا ما غيّبَ الموتُ ذادتى وبدّد أنصارى وفضّ حُماتى !
كأنى بعدى بالأحاديث سُلِّطت على سيرتى أو وُكِّلتْ بحياتى
وبالجيل بعد الجيل يَروى زخارفاً فمن زور أخبار وإفك رُواة
يقولون أُنثى أفنت العمرَ بالهوى بهيميّةُ اللـــذات والشهوات
فدا لغرامى بالرجال وحُسنهم غرامُ الغوانى أو هوى الملكات
فليس الغلامُ البارعُ الحسن فتنتى ولا الرائعُ الأجلاد والعضَلات
ولم يَسْتَثِرْ وَجدى من الروم فتيةٌ جُنونُ العذارى فتنةُ الخَفِرات
ولا كلُّ غصن من بنى مصرَ مائل يَطير إليه قلبُ كل فتـــاة
يموتون بى عشقاً ويَشقون بالهوى فكم من حياة فى يدى وممات
ولكن عشقتُ العبقريّةَ طفلةً وفى الغافلات البُلْه من سنواتى
كلفتُ بكهل أحرز الأرضَ سيفُه وحيزتْ له الدنيا من الجنبات
إذا هبّ من غرب البلاد تلفّتتْ بلادٌ بأقصى الشرق منذعرات
تَعثَّرَ حظى بعد طول سلامة وأقلع نجمى بعد طول ثبات
ومن يمش فى وَرد الأمور وشوكها يَعُدّ الخُطا أو يحسب العثرات

[تنظر إلى السلال]

يامرحباً بالسَّلَّهْ والرُّقُب المُطلَّهْ
الكافيــاتى الذِّلَّهْ

[ينسحب الجميع مطرقين ما عدا الملكة ووصيفتها وحابي]

كليوباترا :

أدخلى بى يا شرميون على طفـــلى أُودِّعْهمُ الوداع الرهيبا
فعساهم إذا تحجَّب صدرى وجدوا صَدركِ الحَفِيَّ الرحيبا

[لحابي وهيلانة]

ولدىَّ اهجرا القصورَ فإنى قد وجدتُ النعيمَ فيها غريبا
ولها ضجـــةٌ وفيها فُضولٌ يُرهقُ الحبَّ واشياً ورقيبا
خلّيــا عنكما المدائنَ يا ابْـــنىّ فضوضاؤها تُميت القلوبا
إن لى فى سهول طيبَةَ حقلًا طيِّبَ الماء والهواء خصيبا
غَرستْه يد الشبـــاب فأضحى وارفا كالشباب حُسناً وطيبا
ألِّف الحبُّ من نواحيه أيْكا جمع الطيرَ هاتفا ومُجيبا
يُسمعُ البُلْبُلُ العشيقةَ فيه وتُغنِّى الأليفــةُ العَنْدليبا
أفقٌ لا يُظلُّ إلا مُحبًّا وثــرى لا يُقِلُّ إلا حبيبا
إشربا من كرومه واسقياها صافىَ الحب والهوى المسكوبا
والعبـــا عند كلّ ماء غدير تريا المـــاءَ للحَباب لعيبا

وسلا الوردَ هل تَنفّسَ فى الور د وهل ناسم البعيدُ القريبا
أدرِكا لذةَ الشروق ولمّا تبلغ الشمسُ بالحياة الغروبا

[تخرج كليوباترا وشرميون]

حابي :

هيلانُ، هذا مقالُ النصح من مَلك فما تَرَيْن وما تَنْوِين هيلانا
هَلُمَّ طيبةَ نَنزلْ فى خمائلها ونَبْنِ مثلَ بناء الطير دُنيانا
كطائرَيْن على بحر وعاصفة قد آنسا من وراء الشّط بستانا
تداركتْنا أبرُّ المالكات به وأشرفُ الناس إحساساً ووجدانا

هيلانة :

حابي ، عرفتَ الحلال الطيّبات لها وكنتَ أمس أقلَّ الناس عرفانا

حابي :

خلِّ الجفاءَ حياتى إن ساعتَه مضتْ وهذا أوانُ السِّلم قد آنا
اللهُ يشهدُ أنى قد سدلتُ على ما كان من نَزَعات الرأى نسيانا
وأننى اليوم أبكيها وأندبُها ولا أقيسُ بها فى الطهر إنسانا
اليوم ضحّتْ وزكّاها الفداءُ كما زكّى المُقرِّبُ باسم الله قُربانا

هيلانة :

إن التى شب فى نَعمائها صغرى ونبّهتْ لى فى سُلطانها شانا
إن لم أمُتْ دونها أو لم أمت معها فما جَزَيْتُ عن الإحسان إحسانا

حابي :

والحبُّ هيلانَ؟ ماذا تصنعين به

هيلانة : إن الصداقة فوق الحب أحيانا

حابي أراها أزمعتْ وأرى الفجيعةَ واقعهْ
فاذهبْ فجئْ بأنوبسٍ فعسى يردُّ الفاجعه

حابي :

وسواءٌ أردَّها أم أبى ذلك القدر
فى غد أيها الملاَ كُ إلى طيبةَ السفر

[يخرج حابى]

هيلانة :

ويح حابى اعتقادهُ أن سأحيا فنلتقى
ليتنى نلت قُبلةً منه قبل التفرُّق

[تدخل كليوباترا وفى أثرها شرميون]

كليوباترا :

بروحى وإن لم تَبْقَ منى بقيَّةٌ صغارٌ ورائى ذُوَّقُ اليُتمِ نُوَّحُ
أذوبُ لبلواهم وأعلمُ أننى حملتُ عليهم ما يجلُّ ويفدَحُ
وقد أشتهى عيشَ الذليل لأجلهم فلا المجدُ يرضى لى ولا النُّبلُ يَسمَحُ
فصفحاً صغارى إن شقيتم بمصرعى وإني لأرجو أن تنضوا وتصفحوا

وَداعا صغارى صَيَّرَ الله يُتمكم إلى خير ما يكفى اليتامى ويُصلح

أطفتُ بكم والنومُ تسرى سناتُه على صفحات كالأهلَّة تَلمَحُ

وما منكُم فى الحَزِّ إلا حمامةٌ عليها طليلٌ ناعمُ الفرع أفيَح

تنامُ وما تدرى الكرى ماوراءه ولا الصبحُ فى ظلِّ الرُّبا كيف يُصبح

أتغدو على الدنيا كأمس طليقةً ضُحى اليوم أم يُغدَى عليها فتُذبَحُ ؟

[ملتفتة إلى هيلانة وشرميون] :

فيم هيلانةُ تبكيــــن وأنت شرميون

كفكفا الدمعَ فلا شـدّ ة إلا وتهـــون

واعلما بنتىَّ أن الـ بؤسَ والنعمى دُيون

[تركع أمام تمثال إيزيس]

اليومَ أقصرَ باطلى وضلالى وخلت كأحلام الكرى آمالى

وصحوتُ من لَعب الحياة ولهوها فوجدتُ للدنيا خُمَارَ زوال

وتلفّتتْ عينى فلا بمواكبى بصُرتْ ولا بكتائبى ورجالى

وطئتْ بساطى الحادثاتُ وأهرقتْ كأسى وفضَّتْ سامرى ونقالى

إيزيسُ ينبوع الحنان تعطّفى وتلقّى لضراعتى وسؤالى

أنت التى بكت الأحبَّةَ واشتكت قبل الأرامل لوعة الإرمال

إنى وقفتُ على رحابك فارحمى ذلَّ الملوك لمجدك المُتعالى

هل تأذنين بأن أعجِّل نُقْلتى وأحُثَّ عن دار الشقاء رحالى

وعُلاكِ ما أدعُ الحيــاةَ جبانةً أو ضيقَ ذَرْعٍ أو قطيعةَ قالى
إنى انتفعْتُ بعبقرىٍّ جمالها وتمتعتْ من عبقرىٍّ جمـالى
وجمعتُ بين شعورها وعواطفى وقَرَنتُ رَحْبَ خيالها بخيالى
ووجدتُها قد خلّدت أبطالَها فبسطْتُ سلطانى على الأبطال
بنتُ الحياة أنا وتَشهَدُ سيرتى ما كنتُ من أمى سوى تمثـال
منها تناولتُ الرياءَ وراثةً وأخذتُ كلَّ خديعة ومحال
وقسوْتُ قسوتَها ولنتُ كلينها واقتستُ فى صَدّى بها ووصالى
ولربما رَشَدتْ فسرتُ برُشدها وغَوَتْ فأغوتنى وضل ضلالى
ووجدتُها حباً يفيضُ ولذةً فجعلتُ لذّاتِ الهوى أشغالى
يومى بأيامٍ لكثرة ما مشت فيه الحيـــاة وليلتى بليالى
ولقد لَقيت من الحياة صَبيَّةً ما جل من بؤس ورقة حال
خلعتُ مُلكى طفلةً وشردتُ فى صدر الصبا ورأى المكارهَ آلى
شرعتْ علىّ السوْطَ فى كُتّابها واليومَ تضربُنى بدرس غالى
ياموتُ هل حَرَجٌ على مُستنجد بك أن يُسابقَ واقعَ الآجال
يومى أعجّــلهُ ولو لم أنتحرْ للقيتُ يوماً ما له من تالى

ياموتُ أنت أحبُّ أسراً فاسبقى لا تُعط روما والشيوخ عقالى
ياموتُ لا تُطلق بشاشة هيكلى واحفظْ ظواهرَ لمحتى وجلالى

ياموتُ طُفْ بالروح واسرقْها كما سرق الكرى عينَ الخلىّ السالى
حتى أموتَ كما حَييتُ كأننى بيتُ الخيال ودُميةُ المثّال
وكأن إغماضَ الجفون تناعسٌ وكأن رقدتىَ اضطجاعُ دلال
سرْ بى إلى أنطونيو فى نضرتى ورُواء جلبابى وزينة حالى

[تقوم إلى إحدى السلال فتكشف التين عن أفعى] :

هَلُمِّى الآن منقذتى هَلُمِّى وأهلا بالخلاص وقد سعى لى
شربتُ السم من فيك المُفدَّى بسلطانى وزدتُ عليه مالى
على نابيْك من زُرق المنايا شفاءُ النفس من سُود الليالى
وبعضُ السم ترْياقٌ لبعض وقد يَشفى العُضالُ من العُضال
دعوْتُ الراحةَ الكبرى فلبتْ فبُعداً للحيــاة وللنِّضال
هَلُمِّى عانقى أفعى قصــور بها شوقٌ إلى أفعى التلال
سَطتْ روما على مُلكى ولَصّتْ جــواهرَ أسرتى وحُلىَّ آلى
فرُمتُ الموتَ لم أجبنْ ولكن لعل جلالةَ يَحمى جـلالى
فلا تمشى على تاجى ولكن على جسد بيطن الأرض بالى
وقد علم البريّةُ أن تاجى نمتْه الشمسُ والأسرُ العوالى
يُطالبُنى به وطنٌ عزيزٌ وآباءٌ ودائعُهم غــوالى
أأدخلُ فى ثيـاب الذل روما وأُعرَضُ كالسبىِّ على الرجال ؟

وأُحدَج بالشماتة عن يمينى ... ويَعرض لى التهكمُ عن شمالى ؟
وألقَى فى النّدىِّ شيوخَ روما ... مكانُ التاج من فَرْقى خالى ؟
وأغشى السجن تاركةً ورائى ... قصورَ العزّ والغُرَفَ الحوالى ؟
وتحكمُ فىّ روما وهى خصمى ... وتُسرفُ فى العقوبة والنّكال
يَرانى فى الحبائل مُترَفوها ... وقد كان القياصرُ فى حبالى
إذن غيرُ الملوك أبى وجَدّى ... وغيرُ طرازهم عَمّى وخالى
سأنزلُ غيرَ هائبة إذا ما ... تلمّظت المنيّةُ للنزال
أموتُ كما حييتُ لعرش مصر ... وأبذُلُ دُونه عرشَ الجمال
حياةُ الذلّ تُدفعُ بالمنايا ... تَعالَىْ حَيّةَ الوادى تعالى

[تتناول الأفعى وتمهد لها من صدرها فتلدغها ثم ترميها الى السلة]

يا ابنتىْ وُدّى ... هَلُمّا ... زيّنانى ... ... للمنيهْ
غلّلانى ... طيّبانى ... بالأفاويهِ ... الزكيه
ألبسانى حُلّةً ... تمْ ... جبُ أنطونيو ... سنيه
من ثياب ... كنتُ فيها ... أتلقاه ... ... صبيه
ناولانى التاج ... تاجَ الشمـ ... ـس ... فى مُلْكِ ... البريه
وانثرا بين يدىْ عر ... شى ... الرياحين البهيه

[تموت بين وصيفتيها]

شرميون [تتناول من إحدى السلال أفعى] :

كلوبترا ويالهفى ... عليك يا كلوبترا

وصيفاتك في الدنيا وصيفاتك في الأخرى

[وتهد لها من صدرها فتلدغها وتموت]

هيلانة [تفعل ما فعلته شرميون] :

كلوبترا ذهبت اليو مَ بالدنيا كلوبترا

تعالَيْ أيها الأفعى أريحيني أنا الأخرى

[يدخل أنوبيس وحابي]

أنوبيس :

انسلّت المُهرةُ من قَيْدها وأفلت الطيرُ من الصائد !

حابي : هيلانَ ، يالهفا على الحبيبهْ على الجمال وعلى الشبيبهْ

على الفتاة الحُرَّة النجيبه

[يتحسس جسمها]

يا للحياة ما تني دبيبا أبي، تأمّلْ جسمَها الرطيبا

واسمعْ تجدْ لقلبها وجيبا

أنوبيس : حابي ، نسيتَ حُقّةَ النجاة

حابي : هيهات أعصيك أبي هيهات

إن أنسَ أشياءك أنسَ ذاتي !

[يخرج الحقة من جيبه]

خُذْها

أنوبيس : بل اسكبْ في فم الفتاة لعلها تصحو من السُّبات

[يشتغل حابي بإيقاظ هيلانة]

أنوبيس [على جثة كليوباترا] :

بنتى رجوتُك للضحية والفدا فوجدتُ عندكِ فوق ما أنا راجى

إن تُصبحى جسداً فنفسُك حرةٌ وعُلاكِ سالمةٌ و عرضُك ناجى

سيقولُ بعدكِ كلُّ جيلٍ مُنصف ذهبتْ ولكن فى سبيل التاج

[ثم يلتفت الى جثة شرميون] :

وأنت أيضاً شرميونُ جيفهْ مُتِّ ولكنْ ميتةً شريفهْ

ما أعظمَ المليكةَ والوصيفهْ !

حابي : أدنُ أبى ألق النظرْ يا للعجائب القدرْ !

أنوبيس: أحدث ترياق الأثرْ ؟

حابي : أنظرْ أبى ترياقك الـــمحسن ماذا منحا ؟

أنظرْ فهذا ملكى من رقدة الموت صحا

قد فتحَ العينيْن بعد اليأس من أن تُفتَحا

وهذه أنفاسُه ريحانُها قد نفحا

مولاى قد قرَّبْت من سعادتى ما نزحا

أنت الذى رددتَها رُوحاً وكانت شبَحا

يا قلبُ كيف لم تَطِرْ عن الضلوع فرحا

هيلانة : يا ويح لى ! ويحَ ليهْ هل صدّقتْنى عَينيهْ ؟

حابى أفى الدنيا أنا ؟

حابي : بل أنت دنياى هنا

هيلانة : منذا جنى عليه حتى بعثت حيه ؟

حابي : أبي الذي شفاك ياملاكي

أنوبيس: لا بل ملاك الحب قد شفاك

وأدمع الإخلاص من فتاك

هيلانة : أبي لقد مر على الموت وكنت من عذابه نجوت

علام حلت بينه وبيني ؟ الموت لا يذاق مرتين

[ترى جثة الملكة وهي تتلف]

رحماك آلهة الوادي ذهلت فلم أذكر مليكا وراء العرش مضطجعا

بالأمس، لا، لا بل اليوم التحقت به صرعت بالناقع الساري كما صرعا

لقد رحلنا عن الدنيا الغرور معاً مالي رجعت إلى الدنيا وما رجعا

ليت الطبيب الذي داوى فأخرجني إلى الحياة على الدنيا به طلعا

مليكتي، ربتي، صفحاً ومغفرة إن المروءة كانت أن نموت معا

الكاهن: بنيتي . . .

هيلانة : صه أبي ،

الكاهن: لا أنت واهمة

فلستما في ملاقاة الردى شرعا

وقفتُما موقفاً فى الخطْب مختلفاً لو جَرَّبتْ فيه غيرَ الموت ما نفعا

حابي : تعالى نَحْىَ فى الحقْل مع الطير كما تَحيـا
هَلُمّى الحبَّ هيـلا نة فالحُبُّ هو الدنيا
أبى دونك باركْنا وإن شئتَ فشاركْنا

أنوبيس : إذا فارقتُ محـرابى فمن يبكى على مصرا ؟
سأبقى ها هنا ابْنَىَّ إلى أن أقضىَ العُمرا
هَلُمَّا ابنىَّ باسم اللّـــه سيرا وابنيا الوكْرا
هلمـا جنةَ الوادى هلمـا طيبةَ الغـرَّا
لئن فرقنـا الدهرُ فقد تجمعُنا الذكرى

[يخرجان]

[يسمع صوت بوق]

أنوبيس : البوق دَوَّى قيصرُ أقبـلْ

[يدخل حارس]

الحارس : مـــولاى قيصر

[يتنحى عن الباب ويدخل قيصر وفى معيته الطبيب أولمبوس] :

أنوبيس :

ما يَبتغى قيصرُ من أسيرتهْ ؟ إن التى أعـدَّها لزينتـهْ
يَدخل روما وهى فى كتيبتهْ تَزيدُ فى مَوكبـه وقيمته
ماتتْ ولم تنزلْ على مشيئتهْ بُوركْ فى النيل وَفى عقيلتهْ

قيصر :

آلهةَ الرومان ، ماذا أرى ؟ امرأةٌ تَسخَرُ من قائدِ
قد أبطلَتْ كيْدى على ضعفها ولم تزلْ تَسْخَرُ بالكائد
فى الجسد الحىّ تمنَّيْتُها لم أبغها فى الجسد البائد

[يركع قيصر عند جثة كليوباترا]

أنوبيس [لنفسه] :

الحادثُ العجيبُ قيصرُ والطبيبُ
يَغدُرُها وعهدُه ببابها قريبُ

أكتافيو :

عجيبٌ يا طبيبُ أرى قتيلاً ولكن لا أرى أثَرَ الجراح !
أليست فى الفناء أرفَّ لوناً وأندَى من رياحين الصباح
فهل تدنو فتكشف كيف ماتتْ أبالسم الزُّعاف أم السلاح ؟

[يقترب أولمبوس وينحنى على صدر الملكة من الناحية التى رميت فيها الأفعى]

أولمبوس :

جبين مُشرقُ الغُرَّهْ ووجهٌ ضاحكٌ نَضْرَهْ
وعينان كأنّ المو ت فى جَفنَيْهما كَسْرَه
وهذا فُمها تبدو المنايا عنه مُفتَرَّه
ولكن قيصرُ ادنُ انظرْ هنا السرُّ هنا العِبره

فبين السَّحر والنحر كمثل الخدش من إبره
مكانُ الناب من صلٍّ شديد البأس والشِّرَّه

[تلدغه الأفعى]

إلهى ، قيصرى ، آه لقد مَسَّتْ يدى جَمَرَهْ
سرى السمُّ بأعضائى وعَمّتْ جسدى فَتْره
وجاءت سَكرَةُ الموت فلاصَحو... من السَّكْره

[ثم يسقط ميتاً]

أكتافيوس :

ويل النفوس منْ فُجَاءات القدرْ !
وويحَ ألمبوس بالأفعى عَثر

أنوبيس [لنفسه] :

قد وقع الحافرُ فيما قد حَفر

قيصر :

وَداعاً كلوبَترا إلى يوم نلتقى وَتنفضُ عنها الهامدين المقابرُ
محا الموتُ أسبابَ العداوة بيننا فلا الثأرُ ملحاحٌ ولا الحقدُ ثائر
وما استحدثت عندالكرام شَماتةً صُروفُ المنايا والجُدودُ العواثر
وداعا وإن نحن اقتتلنا وجَرَّدتْ حُسامَيْهما أوطانُنا والعشائر
تَحَدّيتنى بالموت حتى قهرتنى ومالى سلطانٌ على الموت قاهر
ترفَّعت عن قَيْدى ومُتِّ عزيزةً وأيدى المنايا للقيود كواسر

وأنت التى نازعت روما مكانها — وجرّت بناديك القيود القياصر
لعبت بأنطونيو وبوليوس حقبة — كما جاء بالمسحور أو راح ساحر
وما أنا إلا سيفُ رومةَ باتراً — أصيب به سيفٌ لرومةَ باتر
زجرتُ فلم أُسمَعْ فقاتلتُ مكرَهاً — وفى الحرب إن لم تردَع السِّلمَ زاجر
وأنطونيو صهرى الكريم بمثله — يُطاولُ أنسابَ الملوك المُصاهر
وَداعاً عروسَ الشرق كلَّ ولاية — وإن هزّت الدنيا لها الموتُ آخر

[يخرج أكتافيوس وحاشيته وتزف التحايا له من الأبواق والخناجر خارج القصر]

أنوبيس :

أكثرى أيها الذئاب عُواءً — وادّعى فى البلاد عزّاً وقهرا
أنشدى واهتفى وغَنّى وضِجّى — واسبحى فى الدماء ناباً وظُفرا
لا وإيزيسَ ما تملّكتِ إلا — وادياً من ضَياغم الغاب قفرا
قَسَماً ما فتحتمُ مصرَ لكنْ — قد فتحتم بها لرومةَ قبرا

ستار الختام

على بك الكبير

أو

دولة المماليك

تمهيد

زمن الرواية :

حوالى سنة ١٧٧٠ ميلادية .

مكانها :

الفسطاط والصالحية وعكا .

أشخاصها :

على بك الكبير :	حاكم مصر ، ويلقب بشيخ البلد .
محمد بك أبو الدهب	متبنى على بك والخارج عليه ومن أمراء المماليك
مراد بك	من أتباع على بك وأولاده .
ضاهر العمر	صاحب حصن عكا وحليف على بك .
مصطفى اليسرجى	« الجلاب »
آمال	إماء معروضات للبيع
شمس	
زكية	

عشاق	شاب شركسى مع الجلاب .
أم محمود	الماشطة والواسطة فى بيع الجوارى .
رزق الله الوكيل	وكيل على بك .
بشير بك	من أصحاب على بك .
عثمان بك	« « محمد بك .

قائد الأسطول الروسى فى عكا .

أمراء .

جواسيس .

قواد .

جنـــد .

فتيات .

أغوات .

خـــدم .

الفصل الأول

فى قصر على بك الكبير

«حجرة من القصر واسعة فخمة على الطراز الشرق مفروشة بنعيس الطنافس قد نثرت فيها الوسائد والصفف وزين سقفها بثريات الزجاج الملون المشكل وركزت فى زوايا أرضها الشمعدانات الكبيرة ..»

«جلس هناك فى انتظار على بك الكبير ، مصطفى اليسرجى (الجلاب) ومعه ثلاث فتيات شركسيات (آمال) و(شمس) و(زكية) وشاب شركسى اسمه عشاق من جنسهن وقرابتهن وأم محمود الماشطة»

زكية : يا أمَّ محمود تلك دنيا — وهكذا فلْتكُ القصورُ
وهكذا شمس فى الليالى — تنزل هالاتِها البدور
قصرٌ سماواتُه الثريا — وأرضه الوشىُ والحريرُ
أم محمود : ونحنُ ياشمس نحن بؤسٌ — بيوتُنا الجصُّ والحصيرُ
نُنْقَلُ من حُفرةٍ لِلَحْدِ — تساوت الدورُ والقبورُ
شمس : يا أم محمود خبّرينى — أهنا ينزلُ الأميرُ
أم محمود : أجل

شمس : ومن ذا وما يُسمَّى ؟

أم محمود : سلطان مصرٍ على الكبير

شمس : والطيبُ يا أمُّ لم تُشَمِّي النَّدُّ والمسكُ والعبيرُ

مصطفى: لا تعجبي هم ملوكُ مصرٍ دنياهمو الطيبُ والبخورُ

زكية : وما الأميرُ يا يسرجي ما له من العمرُ

مصطفى: قد جاوز الشبابَ إلاّ أنه كهلٌ نضر

أم محمود الماشطة :

ما بلدُ العزّ غير مصرٍ كيف طَعِمتُنَّ يا بناتُ

شمس : طعامُ شاهٍ طعامُ عُرسٍ لم يَروِ أمثالَه الرواةُ

ما القصرُ ما الفرشُ ما الأواني

ما الأكلُ ما الشربُ ما الطهاةُ

مصطفى: هذا هو المُلكُ مُلكُ مصر وهكذا الحظُّ والهباتُ

وأنتِ آمالُ ؟

آمال : خلِّياني ما تلك إلا خُزَعبلاتُ

القصرُ كوخي على جبال جلَّلَها الثلجُ والنباتُ

إذا عوى الذئبُ من مكانٍ أجابَه الكلبُ والرُّعاةُ

زكية : أجل حَنَنَّا للجبال الشيبِ وللشتاء القارس العصيب

وكلِّ راعٍ واقفٍ للذيب أمِنَ خوفَ الحَمَل الرعيب

تلمحه كالعلمِ المنصوبِ والوعل فى الجيئة والذهوب
والديدبان فى فم الدروب

مصطفى : بَخٍ بَخٍ مرحى يا كَوْمَةَ الشحمِ
يا جَــزْرَ بــلُّوطٍ لكن من اللحم

أم محمود : أعرفت يا جلاب أنك جئت بالحمـل الثقيل
عن تلك كان لنا غِنًى ما تلك إلا سقط فيل

مصطفى : يا أمَّ محمودَ اقصدى لــكل سلعةٍ ثمن
إن سَراةَ الناس فى مصرَ يحبون السِّمَنْ
وهـذه الكَوْمَةُ فيـهـا سِمَنٌ لكن حَسَنْ

[يسمع أذان العصر بصوت شجى من محراب فى دار الامارة فتلتفت شمس بأم محمود وتقول]

شمس : ما هـذه الرنة فى قبـة القصر
زكية : صوت من الجنة يهتف بالعصر
أم محمود : ما زالت السُّنَّة والبرّ فى مصر
يا رب أيدها بالعز والنصر

شمس لعشاق : قم غنّ يا عشّاق أغنيـة المعّاز
وناج بالأشواق _ أحبّة القوقاز

عشاق يغني: كوخ وراءَ الجبالِ مُكَلَّلٌ بالجليد
فديتُه لا أبالي بكل قصرٍ مَشيد
ما مرَّ يوما ببالي إلا بللتُ خدودي

* * *

يا منزل القوقازِ عِمْ من بعيد صباحا
لمعتَ لمعةَ بازي في الجوِّ سلَّ الجناحا
سلِّمْ على المعّاز إذا غدا أو راحا

* * *

وقل له يا راعي في الناي هات الأنينا
اسمع على البعد راعٍ صوتاً من الغائبينا
هل أنت للعهد راعٍ أم قد تركت الحنينا

« بعد صمت واطراق من الجميع »

أم محمود للبنات :

تعالين بنات الشر كس الغيدَ تعالَيْنَا

زكية : ولِمْ ؟ ماذا ؟

أم محمود: تعالَيْنَ تَزُدْكُنَّ يدي زَيْنَا
فلا أتركُ لا شَعْرا ولا خداً ولا عَيْنَا

أم محمود لشمس :

تعالى أيها الشقرا وهاتي شعرك التبرى
هَلُمِّي اقتربي مني وألقِ الرأسَ في حجري

غداً يأخذُك الشارى وما تدرينَ من يَشرى

أم محمود لآمال :

تعالَىْ أيها السمرا فان الخيرَ فى السُّمْر
أشَعــرٌ ذاك آمالُ أم الليلُ إذا يَسْرى
قضـاك اللهُ للوالى أو الحاكِم فى مصرِ

آمال فى غضب :

دعينى مرأةَ السوءِ دعينى بومَــةَ الشرِّ
قضـاك الله للجـوع وللسجنِ وللقبرِ

أم محمود لمصطفى :

ياسيدىالنخاسهذهضَبُعْ فارجعْبهالاتَشرهاولاتبعْ
إلا إذا ساوَمنا فيها سَبعْ

آمال الى صاحبتيها :

قوما إليهـا

شمس : وأنت ؟

آمال : لا ، لا أحب الفضولا
علىّ ثوب جمال ما احتاج يوماً ذيولا

شمس : ما الخطب مِمّ غضبتْ آمالُ ؟

زكية : مابالُها ساخطةً ما بالُ

أم محمود : غبيّةٌ ما عَرَفتْ ما المالُ

مصطفى همساً لشمس : شمسُ

شمس : يَسْرجي

مصطفى : انظري آمال ماذا غمَّها

ميلي إليها وخُذي فيما يُسرِّي همَّها

آمال : بل الحقُّ معي وحدي وأنتُنَّ الغبيَّات

سواءٌ نحنُ أم نحنُ نفوسٌ آدميات

أم محمود لزكية :

وأنت يا ضخمةُ يا بدينه يا محملا يخطُرُ بالمدينه

قومي إليَّ أقبلي للزينه رُزقت عمدة بلا قرينه

ثروته في داره دفينه يطلب منا امرأة سمينه

مصطفى : يا أمَّ محمودَ أرَى آمالَ جِدَّ مُغْضَبَه

هائجة صاخبة ثائرة مُقَطَّبَه

في وجهها تكاد تبدو نفسها المعذَّبه

مصطفى لآمال :

آمال بنتي استريحي وقللي التفكيرا

لا تحملي هم شيء دعي ليَ التدبيرا

عساي أغنم ملكا أو أستفيد أميرا

فتحكمين بمصر وتنزلين القصورا

مُلْكُ الجمال كبيرٌ زيديه مُلْكا كبيرا

صوني جمالك هذا عن أن يعيش فقيرا

آمال : يا أبى ما تريد بى أنت تلهو وتلعب
مَلَكَةٌ أو أميرةٌ أبهذا أُلقَّب
حُلُمٌ ثم ينقضى وأمانىٌّ تكذبُ
كيف تسمو إلى العلا ابنةٌ باعَها الأبُ
ثم مستمرة : أبى .. تاجر كما شئت وكيف أردت فاحتَرفِ
ولكن لا تَرُم ثمنى ولا فى هذه الغرَف
فبيعُ الجنس فاحشةٌ أليسَ كذلكَ اعترف
أبى ، شرف على فقر ولا فقر إلى الشرف

مصطفى لنفسه

يا مالُ ما فيكَ من سحرٍ ومن خطر
لقدْ نزلت بنا عن رتبة البشر

تاجرت بالجنس حتى صار محتقراً
عند الشعوب وما جنسى بمحتقرِ

ذهبتُ بالشركس الآساد أعرضهم
عرض الرعاة صغَارَ الشاءِ والبقر

لولاكَ ما بعتُ أطفالى ، فما كبدى
من الحديد ولا قلبى من الحجر

مصطفى يقبل على آمال :

طفلةٌ آمالُ أنت أنت ما تدرينَ شيَّا
هنا الدنيا ومُلكٌ لك فى الدنيا تهيَّا
آمال : خلِّ عنك المُلك والقهر ولا تذكر عليَّا
إن ما تصنعُ بى قد بغَّض الدنيا إليَّا

ثم لنفسها :

رَبِّ جنِّبني شبابَ ذا البلد لا يُصبني منهمو ربِّ أحد

لي أخٌ في أرض مصر باعه والدى لم يخش من بيع الولد

ركب الآفاق فرخاً ما له من جناح الأب والأم سند

فجعَ القريةَ فيه وسقَى أمَّه الثُّكلَ فماتت بالكمد

لستُ أنسى عبرات إثره قد جرَت شيَّعنه حتى ابتعد

وهو يومي بيدٍ من رقةٍ وأبي من غضبٍ يومي بيد

ربِّ ما صار إلى أينَ انتهى أهو في الخيل لواءٌ أم وتد

يوسف المسجودُ في مصر له أم من الجوع ليوسف سجدْ

زكية : وأين بنو السلطان ؟ لم لا نراهمو

أليس له ابن يغتدى ويروح

يرفُّ الشباب الغض من طيلسانه

وينفح ريحان الصبا ويفوح

شمس : فلا خير في دارٍ إذا لم يطف بها

نسيم شباب أو شعاع جمال

ولا خير في روضٍ بغير بهارةٍ

ولا خير في قاع بغير غزال

مصطفى : أجل له ابنٌ

شمس : ما اسمه ؟

مصطفى . محمد العالي النسب

شمس : لعله أبو الدهب ؟

زكية : لله ما أحلى اللقب
ففيه رنة الذهب

مصطفى : متبنّى الأمير والمتبنّو ... ن بهذى البلاد كالأبناء
نعتوه لنا فقالوا أميرٌ ... أريحىٌّ من صفوة الأمراء
تغدق الألسن المديح عليه ... وتفيض الشفاه حسن الثناء
مَلَكٌ سابقٌ إلى كلّ فضلٍ ... نابغ الغرس عبقريُّ البناء

ثم مستمراً : وأنت يا أم محمو ... د ما الذى تعلمينا ؟

أم محمود : محمدٌ ليس برًّا ... ولا وفيًّا أمينا
بالأمس عقَّ أباهُ ... فكان شرَّ البنينا
واليوم يشهر حرباً ... على الأمير زَبونا
وأما أخوه

زكية : كيف ؟ من؟ هل له أخ ؟

أم محمود : أجل ، وهو أيضاً لم يلده أبوه

زكية : إذن فعلٌّ والد النـــاس كلهم
وكل شبـــاب الضفتين بنوه
وكيف الفتى يا أم محمود، ما اسمه ؟

أم محمود : غلام وضىء المفرقين جواد
رأيتنّه مثلى تذكرنَ ساعة رأيناه

شمس : من ؟ ما اسم الأمير ؟

أم محمود : مرادُ

أم محمود لآمال :

هنـــاكِ آمال انتي هنـــاكِ

آمال : ما ذاكِ يا أم اذكرى ما ذاكِ

أم محمود : الحظ يا بنتـــاه قد أعطاك

عُشقت عشقاً سوفَ يُروى فى السِّيَر

عشقٌ له فى مصرَ والشرق خَطَرْ

وعاشق عالى السنـــاء كالقمر

آمال : يا أم محمود هُديت .. ما الخبر ؟

أم محمود : لقيتُ مراداً أمس

آمال : ماذا يهمنى ؟

أم محمود : عجيب ! ألا يعنى النساء مرادُ ؟

فتىً علمٌ فى مصر .. فى الشرق كله

نبيل كأبنـــاء الملوك جواد

يُحبُّ عَليًّا جهـــدَه ويُحبُّه

علىٌّ فبين السيدينْ وداد

كأنى به نال الولاية وانتهت

إليه أمورٌ فى غد وبلاد

يُحبُّك يا آمالُ حُبًّا مُبرِّحاً

على مثله ما انضمَّ قطُّ فؤاد

زكيـة : عرفتُه

آمال : ومن ؟

زكيـة : فتًى أمس إلى السوق حضَر
ذاكَ الخفيفُ كالقنا ة والوضيءُ كالقَمَر
أتى لنـا أمس فما اختص سواك بالنظر

آمـال : عرفتُه ذاكَ الوَقَاحُ فى دعابة الهـذرْ
ذاكَ الذى قلبَّنا أمس كتقليب الحُصُر

شمس : وكنت أنت قبلة الـ لحظ وموضع الفكَر

أم محمود : وأنت كنت وزكيـ ـة الحصـير المحتقَر

آمـال :أوذاك الذى تقولين يهوانى

أم محمود : أجل وهو أرفع الناس قدرا
هسِّ صهٍ هُس انظرا ها هو ذا قد حضرا

« يدخل مراد بك »
مراد بك عند الباب لنفسه :

ويحَ لى رب ما أرى أمُّ محمـ ـودَ إلهى وهذه آمالُ
هى فى القصر كيف جاءت إليه
كيف وافاه مصطفى المحتال
أتُراها قد حازها لعلىٍّ جبراً لجاه واحتواها المالُ
كيفَ هل بعدُ فى فؤاد علىٍّ
موضعٌ يحتوى عليه الجمالُ

ربِّ مالي أهابُها كلما قمتُ ومالي يُردِّني الإجلالُ
وأنا الذئبُ لم تُسلَّط على قلبي
مَهَاةٌ ولم يُسيطر غزالُ

ثم لأم محمود ومن معها :

سلامٌ أمَّ محمود سلامٌ يا بُنَيَّاتي

أم محمود : سلام لك مولاي

زكية : وعلويُّ التحيات

مراد بك ويشير الى آمال : أمُّ محمود مالها ما لتلك المحببه

أم محمود : مالها سيدي

مرادبك : انظري كيف تبدو مقطبه
لقيتني فلم تَقُم بلقائي مُرحِّبَه
مالها اليوم مثل عهدي بها أمس مُغْضَبه

أم محمود : سيدي قد ظلمتها إن بنتي مُهذَّبَه
غير أني وجدتُها مُذ بدا الصبح مُتعَبَه

شمس : معذرة ياسيدي لأختيَ المعذَّبَه
نحنُ النهارَ كلَّه كالسلع المقلَّبَه

مرادبك: مصطفى

مصطفى في ناحية وحده : سيدي

« لنفسه » : أهذا مراد؟

ويْحَه ما أضلَّه فيم جاء

مرادبك: مصطفى هل نسيتَ أنّا التقيْنَا
عند سوق الرقيق أمس مساءَ
مصطفى : سيدى ما نسيت واليوم نستأ
نف فى حجرة الأمير اللقاءَ

مرادبك: والتى اخترت من ظبائك

مصطفى : نرجيها إلى أن يرى الأمير الظباءَ

مرادبك: أتُرى ما تزالُ تأبى

مصطفى : أجل

مرادبك: ويحكَ هل يملكُ الرقيقُ الإباءَ

آمال : سيدى مَنْ عنيْتَ؟ قل لى بمن عَرَّضت؟

مرادبك: أعنى المليحة الحسناءَ

آمال : سيدى إننا حرائرُ ما زلنا

مرادبك: ولكن غداً تصرن إماءَ

آمال : وغدٌ سيدى عليه غطاءٌ
أترى عن غد كشفتَ الغطاءَ

مرادبك: قُمْ مصطفى، هذه الحسناء تُعجبنُى
أليس يكفيك فيها ألف دينار

مصطفى : ألفٌ ! قبلتُ

مرادبك: إذن تأتيك كاملة

فاخرج ببنتك واحملها إلى داري

آمال : أبى أبى أنت تمضى بى وتحملني

كالشاة! هذا لعمرى أعظم العار

مصطفى : آمال

آمال : قف أنت عبد المال يا أبتى

تُلقى البرىءَ لأجل المال فى النار

لا سيدى . لا أبى . لا تذكرا ثمناً

فلست مخلوقة للبائع الشارى

مصطفى لنفسه :

رباه أعظم من وجدى ومن شفقى

على ابنتى اليوم إعجابى وإكبارى

وأنتَ تعلم والأفعالُ شاهدةٌ

أن ابنتى حرّةٌ من نسل أحرار

يا ألفُ سحقاً ويا مالُ امض من سُبلى

قطعت منك أسبابى وأوطارى

ثم لآمال:

آمال هَيِّ اذكرى لى كيف أدفعه

ثم لنفسه: ماذا أقولُ فإنى لستُ بالدارى

آمـال : أبى أما نحن فى دار الأمير «على»
إنى لجارةُ حرٍّ مانع الجار
لا أبرح القصر إلا عن مشيئته
فحُكمُه هو فىّ النافذ الجارى
مراد بك : ويحَ لى قد رُددتُ أقبحَ ردٍّ
وأبَتْ أن تُجيبنى الحسناءُ
لمصطفى : سنرى من يفوز بالبنت يا وغد
لآمـال : ومن يقتنيك يا حمقـاءُ

« ويخرج مراد بك »

آمال لنفسها :

ما بالُ قلبى بمراد مُذْ تلاقينا اشتغل ؟
لعـلّنى أُحببتُه لا لا ، فمالى والرجُل
عساىَ قد هِمتُ به هـذا لعمرىَ الخبَل
خيـالُه فى فـكرتى فى كل سـاعةٍ مَثَلْ
مالى أُحسُّ لاعجـا بين الجوانح اشتعـل
إن فُتح البابُ يُرى أولَ إنسان دَخَـلْ
أو جىءَ بالزاد وجـدته بجانبى اكل
وإن شربتُ حضَر الماءَ فعلَّ ونَهـلْ
قد أخـذتْ صورتُه على مشاعرى السُّبل

وحيث سرتُ طاف بي ... وأينما حللتُ حلْ

أم محمود تنظر الى الباب وتقول :

أرى الأبوابَ قد فُتحت ... وأسمعُ وقع أقدام

مصطفى : علىٌّ جاءَ قُمنَ له ... بإجلال وإعظام

يدخل على بك وفي حاشيته رزق الوكيل . . الأغا مرجان . بعض الخدم

على بك : أضعنا نهارك يامصطفى ... أطلنا انتظارك لاعن جفا

مصطفى : بباب الأمير وليِّ النعَمْ ... يطيبُ الوقوفُ لأوفى الخدم

على بك [همسا لمصطفى] :

يا مصطفى قد بعتنى ... من سنوات ولدا

مصطفى : أجل صبي كان من ... أذكى الصغار محتدا

على بك : ما ارتبت فيه ساعة ... أن سيكون سيدا

مصطفى : عاش أبوه لا أرى ... أباه إلا أسدا

على بك : ولكنه لم يَدُر فى البلاد ... ولم يعرف الناس حتى فسَدْ

فسَلَّ الحسامَ وهزَّ القناةَ ... وأصبحَ عزريلَ هذا البَلَدْ

مصطفى : ذاكَ ذنبٌ لم أبعْهُ ... حنشٌ غيرى باعَه

بئسَ ما باعوكَ يا موْ ... لاىَ يا شؤمَ البضاعَه

على بك : وأين البنيات ؟

مصطفى : ها هُنَّ قمْ ... نَ وقاراً لمولاىَ في المجلس

على بك : تخـــير الحسن قبلى فكيف كيف اختيارى
على بك [لرزق] : يارزق ما أنت راء
رزق الوكيل : كذا تكون الجوارى
أم محمود : بل قل ثلاث شموسٍ تــنزلت فى نهــار

على بك [ممازحا] :

من أنتِ يا شرَّ وجهٍ ومن أحلَّك دارى ؟
أم محمود : أنا يا مولاى حُسْن الماشطه أنا فى أمر البنات الواسطه
ثم لنفسها : آه من لى بحيــاةٍ ثانيه ليتنى أرجع يوماً غانيه
ليتنى يا ليتنى يا ليتنى آه لو ينفع قولى : ليتنى!

[أم محمود . تأخذ يد شمس وتأتى بها] :
فهــذى كاسمها شمسٌ ولكن حُسْنُها أحسَنْ
على بك : تعــالَى اللهُ ما أبهى تعــالَى اللهُ ما أفْتَنْ
[ثم ترجع شمس وتأتى بزكية] :
أم محمود : وهذه زكية
على بك [معرضاً عنها ومشيراً الى آمال] :
وهذه الحوريه ؟
أم محمود : مهاة فداها الغيد من شركسية

لها سيرة عند الملوك تُدارُ

إذا برزت ودّ النهار قميصها

يُضيءُ به شمسَ الضحى فتغارُ

وإن نهضَتْ انثنى ودٌ قوامَها
نساءٌ طوالٌ حولهــا وقصارُ

لهــا مَبْسِمٌ فى الخليجُ لأهله
وعاشت لآلٍ فى الخليج صغــارُ

على بك : ما اسم هــذى الـ[illegible]ة ؟

أم محمود : آمالٌ الحسناء

على بك لآمال : آمال كيف ألفيتِ قصرى

آمال : جنة الله يا أمير على الأرض   و لم لا ألست سلطان مصر

على بك : وهذا الوشى والديبــا   ج ما موقعه منك ؟

وهانيــكَ المصابيحُ   من البلّورِ والسِّلْكِ

وهذا الخشبُ المصنو   عُ بالصندلِ والمسكِ

لقد طفتِ على فار   س والقوقاز والترك

وأدخلتِ قصور العز   والــثروة والملك

فهل أبصرت ما يشبه   هذا الصنع أو يحكى ؟

ثم مستمراً: وكل ما أبصرت فى   قصرىَ من صُنع البَلَد

فليس يعــلو الصانعَ   المصرىَّ فى الذوق أحد

آمال : لا عَجَبٌ مولاىَ يا طالما   قد بلغَ الفنُّ بمصر الكمال

على بك : لكن أرى القوقاز أعلى يداً   مَنْ غيره يصنعَ هذا الجمال؟

آمال : سيدى

مصطفى [همساً] :

حاذرى ابنتى قدّرى الموْ قفَ لا يخطر العُقوق ببالك

آمال : لا أبى ، خلِّنى أبحْ أشكُ بثِّى خَذَل الصبرُ قلبىَ المتهالك

آمال [لعلى بك] : سيدى

على بك : ما أرى ؟ دموع لآلٍ ذهبت فى الخدود شتى المسالك

مِمَّ تشكين يا ابنتى ما رواء الدمع ؟

آمال : لا شيء

على بك : بنيِّتى ما هنـــالك !

آمال : سيـدى ، غـيرُ شأننا بك أولى

هـذه السوق لم تلِق بجلالك

تُشترى النفسُ أو تُباع على الأر

ض ولم يرض فى السماء المالك

مصطفى : قلِّلى الهمَّ يا ابنتى والتَّشكى

وانظرى الحال وافكرى بمآلك

هذه السوق نعمةُ الوطن البا ئس منها

على بك : ونحنُ نعلم ذلك

أنا أيضاً مررت بالسوق يا آما

لُ ، حالى يا بنتُ من مثل حالك

قد وقفنا بهذه السوق نبغي دولا من ورائها وممالك

وقديماً كانت سبيلَ المعالي للماليك أو سبيلَ المهالك

علي بك [مستمراً] : لك الله يا آمال، أنت كبيرة

وكل كبير النفس سوف يسود

فداؤك نفسي هذه نفس حرة

وهذا إباء ما عليه مزيد

أتيت بما لم يأت فيما مضى لهم

ملوكٌ على عرش الكنانة صيد

شَرونا وباعونا صغاراً وفتية

كما بيع سودان بمصر عبيد

فما كان منا من رأى الرِّقَّ سُبَّةً

ومن قال عند البيع لست أريد

ثم مستمراً: الخطبُ غيرُ عظيم لا تحزنى يا فتاة

وكلٌّ جرح يُداوى إن عالجته الأساةُ

آمال : مولاى قالوا أُرزِقْتَ نفساً فضائلُ الصالحينَ فيها

بأىِّ دين تحوزُ رقِّي وتشترى البنت من أبيها

علي بك : أبوك ! ؟

آمال : أجل والدى

علي بك : مصطفى أأنت أبوها ؟

مصطفى : أجل سيدى

على بك : فماذا ترى ؟

مصطفى : فى يديك الفتـــاة

تصرّف لقد خرجتْ من يدى

على بك : دع البيْعَ يا مصطفى والشراءَ

وزوّج فتاتكَ أو فارددِ

مصطفى : بمَنْ ؟

على بك : بى

مصطفى : إلهى !

على بك : أجـل بى أنا

مصطفى : سمعتِ فتاتى اشكريه احمَدى

آمـال : علامَ أَجَرِّبتُه بعدُ ؟ لا سأعلمُ ما صاحبى فى غد

على بك : لم تقبلى الرق منذ حين يالك من حرة نبيله

والآن تخشينَ من زواج تمشينَ فى ظلّه ذليلَه

آمال

آمـال : مولاى

على بك : هاك قصرى سُوسيه بالنُّبل والفضيله

أم محمود : تحيـــةٌ للملـــكه من أَمة فى المملـكه

مصطفى : أُقبِّلُ ستَرَ مولاتى

آمـال : أبى ! أستغفـــر الله !

على بك : وأنت المَلكةُ اليومَ مُرى وانْهَى على الدار
وحُلِّيها حُلولَ الشمـ ـس فى أرجاء آذار
وكونى قُفْلَ أموالى وأذخارى وأسرارى
ولا يَهْمُمْك تَرْحَالى ولا تشغَلْك أسفارى
فللمغنم والصيد خروف الأسد الضارى
وللرفعة والمجد سفار القمر السارى

آمال : مولاىَ هاتها يداً قد طوّقتنى خيرَ يَدْ
هات أضَعْ فى راحتيْــك قُبَلاً بلا عَدَدْ

مصطفى : يا للجلال والخطَر ويا لتوفيق القَدَر
من البشيرُ بالخبَرْ إلى البيوت والأُسَرْ
حظٌّ لعمرى قد كَمَل فمن يُبلِّغ الجبَلْ
وكلَّ دارعٍ نَزَل على الشعاب والقُلَلْ
أنا ظفرنا بالأمل

أم محمود : قمن بنات الشركس للهـو والتأنُّس
زدنَ سرورَ المجلس برقصكُنَّ الخمس

شمس : عُشّاق ماذا أخرّك لِمْ لَمْ تجرِّدْ خنجرك
قم لاعب الغيدَ نَرَكْ كيفَ تخوضُ المعترك

عشاق : غدا يُعقدُ للوالى على الحسناء آمال
جبالَ الشركس اختالى بهذا النسب العالى

هلّلُوا الفرحَ الأكبر ... هلّلُوا رقصةَ الخنجر
غداً يمتلك الوادى ... من الحاضر والبادى
فمن طالب أفراح ... ومن شاهد أعياد
هلّلوا الفرح الأكبر ... هلّلوا رقصة الخنجر
غداً يبتهجُ العصرُ ... وتُمسى فرحا مصرُ
وتُجلى الشمسُ والبدرُ ... ويزهو بهما القصرُ
هلّلوا الفرح الأكبر ... هلّلوا رقصة الخنجر

هتاف خارج القصر :

لازلت منصور القنا ... يا أسد المعارك
أطعمتَنا سقيتَنا ... ياربِّ زدْ وبارك

علي بك : اسمعوا

رزق : ضجّةٌ

الأغامرجان: أجلْ وابتهالٌ ... ورجالٌ بسيدى يهتفونا

علي بك: من تُرَى الهاتفونَ رزقُ ويامرجانُ أُخرج فانظر مَن الصاخبونا

الأغا : عادةٌ تلك كل يوم خميس ... عندنا ألف جائع يطعمونا

علي بك : امض فاجعل فى كفّ كلّ فقير

ذهباً يطعمونَ منه البنينا

نفحةٌ من أميرة النيل مولاتك

آمال : بل منك سيّدَ المحسنينا

رزق : مولاي

علي بك : من ؟ أوَ رزقُ ذا ؟

رزق : كم ذا تجودُ وكم تَهَبْ

إن الخزانة أصْبَحَتْ بنداكَ كالجحر الخربْ

الفضّةُ انفضّتْ وما قد كان من ذهب ذَهَبْ

رمضان راحَ بنصفه والنصف راحَ به رجَبْ

علي بك : أجل نحنُ أطعمنا الفقيرولم يكُنْ

له في قصور المُترَفينَ طعام

ونحن سقينا ابن السبيل ولم يكن

يُبَلُّ له فوقَ الطريق أوامُ

ونحنُ حضَنّا اليُتمَ نمسحُ دمعهَ

وآواهُ منا محسنونَ كرامُ

ترى الزاد مبذولا وفي كل ساحة

يتامى قعودٌ حولَهُ وقيام

ونَبنى فركنٌ للثقافة والحجا

يُشَادُ وركنٌ للصلاة يُقامُ

ودارٌ يُواسَى البؤسُ فيها ومنزلٌ

تداوى جراحاتٌ به وسَقامُ

ونرفق بالعجماء نأسو جراحها — تُقات على ساحاتنا وتنامُ

على بك للاغا مرجان وهو بالباب .

مرجان ، خيرٌ

مرجان . سيدى «للسير»

على بك . أدخله ليس دونه ستور

الآمال : أميرى . . . داعى — يتسرُّ من أولادى

آمال لأم محمود .

. . . سعله — بالمهمات قد كثُر

أم محمود .

أم محمود . ملكتى — ما تريدين ما الخبرْ

آمال . . . شمس

شمس . لبيك ملكتى — دونك الشمس والقمر

آمال لزكية : أختُ

زكيـة : أفديك ملكتى — زاد فى شأنك القدر

آمال : جُلْنَ فى القصر جولةً — وتنقَّلْنَ فى الحُجَر

نحنُ فى الودِّ والصفا — ءِ كأمس الذى غبر

عشنَ ضيفاً علىَّ فى الـ — ـقصر ما امتدَّ بى العُمُرْ

« يخرجن مع مصطفى وعشاق .. ويدخل بشير بك فتتنحى آمال ناحية »
« من الحجرة تشرف من نافذة فيها على ساحة الدار »

علي بك : ماذا وراءك يا بشيرْ

بشير بك : شأنٌ سأعرضه خطيرْ

علي بك : قل

بشير بك : لا أقولُ لأنه شأنٌ يُسَرُّ إلى الأمير

علي بك يذهب ببشير بك الى ناحية أخرى من الحجرة :

علي بك : عجل وكاشفني بما بَلَغَتْ من الجدّ الأمور
والبوَرُّ

بشير بك : مَنْ ؟

علي بك : أبو الذهب

بشير بك : يأخذُ للشرّ الأُهَبْ
حاز الأقاليم إليه وتألف العرب
والغُزُّ في ركابه والشعبُ جذلانُ طَرِبْ
فلنرتحل فربما جُنَّ فعجل الطلب

علي بك : أرى الأزْمَةَ اشتدتْ وأبطا انفراجُها

بشير بك : فصبراً عساها آذنت بذهاب

علي بك : صَبَرت طويلا يا بشيرُ فما جلا
ولا ذلّلَ الصبرُ الجميلُ مُصابي

ولو أن رُزْئى بالغريب احتملتُه
ولكن بأهلى نكبتى وعذابى
يُطاردنى فى الأرض من دَبَّ فى يدى
ورُبِّىَ فى حجرى وشبَّ ببابى
ومن طلب الدنيا ببأسى وسطوتى
فلما حواها فى يديه سَطَا بى
ومَنْ عشتُ أبنيه وأعْمُرُ ركنَه
فصَيَّرَ هدمى شُغْلَه وخرابى
لقد آن أن أسعى وأن أدفع الأذى
بشيرُ امض هيِّءْ للرحيلِ ركابى
إلى كم قعودى عن عدوى وكيده
وهذا عدوى لا يملُّ طلابى
سأخرج نحوَ الشامِ فى قَلِّ شيعتى
فهيِّءْ جيادى وادع خيرَ صحابى

بشير بك: وماذا وراء الشام ؟

على بك : أُسْدٌ ضَراغِمٌ
أُلُوفٌ همو حولى لنُصْرة غابى
يزيد بهم جيشى وتقوى عشيرتى
ويشتد ظفرى فى القتال ونابى

الان فرشد ا

بشبربك أمضى يا ! أأمضى ؟

على بك . بل ابق انطر يا بشير

إذ: أما قضيت هذا المساء بقرب الأمير ه ماذا تضير

بشبربك: وليـــل غدٍ والذى بعده

وإن شئتَ فابقَ الليالى الكثير

ونحنُ فنمضى فنأتى العريش

ونبقى بها بانتظار الأمير

نُريغُ الجواسيس طولَ الطريق

ونهربُ من مُنكرٍ أو نكير

نُدركما أمس مستمهلا

كثير التوارى قليل الظهور

على بك : بل امض بنا سر بنا سر بنا

فما جَلَبَ الخيرَ مثلُ البكور

لألمال لا تجزعى أميرتى لابد لى من السفر

لقد دعت حادثة من الحوادث الكُبر

كيفَ رواجٌ وسفَرْ

مُزاحةٌ من القَدَر

أغيب شهراً واحدا فـــانتظرى

آمال : سأنتظر

على بك : ما أنتِ إلا مَلَكٌ نَهَى بقصرِى وأمر

في ذمة الله يا ربّة القصر

آمال : وأنتَ مولاىَ شُبِّحتَ بالنصر

على بك لرزق : سأصعد يا رزقُ نحوَ الصعيد لشغلٍ

رزق: ولِمْ لا صعودَ القمرْ

« ثم لنفسه: صُعودَ الدخان إلى ذروة إذا صار فيها امّحى واندثرْ

على بك : وما في الخزانة أو في القصور بأمر الأميرة فيه ائتمر

« لآمال: هكذا مصر كل يوم شئون شغلت مصر بالشئون الناسا

وكأن البلاد خيلُ جهاد كلَّ يوم تُبدِّل السُّواسَا

رزق الوكيل لنفسه :

لا رحلةٌ ، لا سَفَرٌ هذا لعمرىَ الهَرَبْ

وما الصعيد يقصدون بل إلى الشام الطلب

أما أنا فقد ملأت اليد من أبى الذهب

إذا الزمان بعلىٍّ بعد حين انقلَبْ

يجعلني محمد على خزائن الذهب

على بك : سلام على قصر الإمارة والغنى

وإيوان سلطانى ودست جلالى

ووالله ما فارقت مغناكَ عن قِلًى

ولا خطرت سلوى الأمور ببالى

وأعلمُ أنى عنك لا بدّ زائلٌ
وأنك منى لا محالة خـال
ولكن أُمورٌ قد جَرَتْ وحوادثٌ
بنقـلةِ دنيـا أو تبـدل خال
فخالفنى من كان عند إشارتى
يصول بجاهى أو يعيش بمـالى
وعقّ الذى ربيت فى حجر نعمتى
ووطّـأْتُ أكنافى له وظلالى
تألّف أصحابى وألّب شيعتى
علىّ وأغرى بالخروج رجالى
لقد جئت بابن ليس لى فكـأنما
أتيتُ بأفعى من سحيق تلال
تفرّق عنّى النـاسُ إلا بطانتى
ولم يبقَ حولى اليومَ غيرُ عيـالى
سأمضى وما عندى لهم إن تركتهم
سوى قوتِ أيام وخُبز ليالِ
وقد زَعَمَ الناسُ الغِـنَى فى خزانتى
أتى من حـرام تارةً وحـلالِ
وأُقسمُ لم تُحرز يمينىَ درهماً
من المـالِ إلا أنفقته شمالى

أسير. أجلْ أمضى نَعم فعسى السُّرى
تَروحُ بنَجْمى أو تَجى بهلالى
فما الدهر إلا حالةٌ ثم ضدُّها
والا ليالٍ بعدَهُنَّ ليالِ
وتلك التى أحبَبْت أول وهلة
وأشركتُ فى مُلْكٍ وشيكِ زوالِ
أعود إليها فى المواكبِ ظافراً
وفوقَ بالنصر المؤزَّرِ حالى
وأرجعُ حُراً تحتىَ النيلُ كله
وما من بنى عثمانَ فوقىَ والِ

[يخرج على بك ومعه بشير بك ورزق الوكيل ويبقى مرجان بالباب]
[تسمع ضجة وصرخة من امرأة أمام القصر تقول]

يا ربَّة القصر لامسَّك الضُّرُّ
هل عندكم غوث هل عنـدكم نصرُ
لحرةٍ فى وادْ ليس به حرُّ

آمال : مرجان ويحى هذه صيحة وامرأةٌ صارخة باكيه
مرجان أنظر

مرجان : هىَ ذى أقبلت مُعوِلةً صاخبةً شاكيه

[تدخل امرأة مقطوعة الأذن وصارخة]

آمال : ماذا دهى يا خاله أنتِ بشرِّ حاله

ذا الدمُ من أساله ؟

المرأة : جنودٌ وراء كبيرٍ لهم من الذين قد جرّدوا الخُلُقْ

أتَوْا دارنا فمضى نصفهم أزال العفاف ونصفٌ سرق

ومال على أذنى بعضهم بسكينه طمعاً فى الحلق

آمال تدفع الى مرجان صرة :

مرجان خذ ناول

مرجان : تعالَىْ خذى

آمال : لا بأس يا خالةُ لا باسُ

انتظرى عوْدَ علىٍّ غداً ففى غد يرتدعُ النـاسُ

« المرأة تأخذ الصرة وتصيح مولولة »

وأذْنى أينَ ألقاهـا مضَتْ آهـاً لها آهـا

ويا مَنْ عندهَ أذنى أما يكفيكَ قرطاها

« تسمع ضجة ثم تدخل فتاة مذعورة »

الفتـاة : سيدتى

آمـال : وأنت أيضاً

الفتـاة : رحمةً سيدتى

[illegible] : ما تشتكين يا [illegible]

[illegible] : [illegible] سيدتى

يذبحون إخوتى فى ساحة [illegible]

آمال : ويحَ لهم ماذا جَنَوْا ويحَ لهم

[illegible] : لا شىء

آمال : لا لا بُدَّ من داعٍ دعا

النفسُ لا تُقتَلُ يا أختُ سُدَى

الفتاة : صدقتِ يا أميرتى إلا هنا

لا ينزلُ الرأس بمصرَ جسداً

إلا نزولَ المرء فى بيتِ الكِرا

آمال : تذكَّرى قُولى لىَ الحق اصدُقى

الفتاة فى حياء : قد سرقَ الإخوة جحشَ الكُتخدا

آمال : سرْ امض مرجانُ مع الفتاة

واشفع لدى الحاكِمِ للجناةِ

« ينصرف مرجان مع الفتاة »

يدخل أغا آخر ويقول :

سيدتى

آمال : وأنتَ ما عندَك قُلْ

الأغا : ابنُ الأمير سيدى مرادُ

آمـال : ابنُ الأمير . ! هىِّ عَجِّلِ جئْ به
أكلُّهم لسيدى أولاد
أَدْخِل مراداً وائتنى بمصطفى
آمال لنفسها: أخافُ إن قلتُ أبى أن يعرفا

[يظهر مراد بك]

آمال لنفسها: ويحى وويحٌ لعلىٍّ ما أرى
إنى أرى الغَدْرَ على هذا الفتى
مراد بك: تحيـةٌ سيـدتى أتذكرينَ مَنْ أنا ؟
آمال : كل الذى أعرفه ابن الأميـر ههنا
مرادبك: أميرتى قد خدعوك ما علىٌّ لى أبا
ما أنا إلا صاحبٌ قدّمه وقـرّبا
آمال : يا عجباً !
مرادبك: ومـم يـا مالكة القلب العجبْ
وكلُّ ما فى الأمر أن ليسَ علىٌّ لى بأبْ
وليس ما يمنعُنى من أن أُحبَّ وأُحَبْ
آمال : تُحِبُّ أو تُحَبُّ قو لٌ لا يليقُ بالأدبْ
نسيتَ للقصرِ ولى ولأبيكَ ما وَجَبْ
مرادبك: قد عرفناك يا أميرتى إننا أمسِ التقينا فى معرض الجلاب

مرادمستمراً: ذهبت لأشرِى فاشترانى وباعنى

غـزالٌ بسهم المقلَتيْن رمانى

هَمَمْتُ ولـكن صاحبُ الصيْد ردَّنى

وصيَّر سلطان البلادِ مكانى

ولم يدر أنى فوق شأن محمدٍ

وشأن علىٍّ فى الرياسة شانى

إذا ما حوتنى كِفَّةٌ رجح الذى

رمى بىَ فى ميزانه لحوانى

وجاء علىٌّ فاشترى

آمـال : لست صادقاً بنىَ بىأمير للمكارم بان

مرادبك : وطار عن الوادى

وماذا يَعيبُه ألَمْ تُخلَق العِقبان للطيران

مراد بك يقترب منها :

آمـال لو تعرفينـا آمـال لو تعطفينـا

مصطفى بالباب وقد سمع كلامهما «لنفسه»:

أرى شبحَ الجريمةِ حامَ حولى

كما ناشَ الغريمَ الأفعوانُ

آمـال لمراد بك :

لا تدعُنى باسمى ولـكن نـــادنى باللقبِ

مرادُ هـذا هَوَسٌ قف عند حدِّ الأدب

مراد ما مقصورتى بمجلس لأجنبي
أخرج

مرادبك : على رسلكِ مولاتىَ

آمال : دعــنى . إذهب

مرادبك : بحقّ الحب مولاتى

آمال : ظلمتَ الحبّ يا بادر

فمـــا الحبُّ فُضولىٌّ ولا لصٌّ ولا فاجر

ولـكن معدن النبـل وكنز الخُلُق الطاهر

(تنحسر العمامة عن جبهة مراد بك فيظهر أثر [illegible])
(بجبينه كان قد أصابه في صغره ....)
مصطفى بعد أن يرى أثر الجرح وهو بالباب :

إلهى هذا جُرحه ذا مكانه
أما بان طولُ الدهر للجرحِ لائما

إلهى هذا الجرح فوقَ جبينه
مضَتْ سنواتٌ ما محَوْنَ العلائما

لقد بارز الصبيان بالسيف ناشئا
فصادفَ سيفاً خدّش الرأسَ صارما

إلهى أرى أشياءَ ثَمَّ مهولةً
وأشفقُ فيها من عقابك صارما

إلهى لا تجعله حقاً ومُرْ أكُن
بما أنا راءٍ من عذابك حالما
كفَى غضباً يا ربُّ حسب عقوبةً
وحاشاكَ لم تظلم ولم تَكُ ظالما
إلهى كانت هفوتى عن غَوايَةٍ
فتُبتُ فكن لى فيهما اليوم راحما

آمال لمصطفى :
وا أبتـــا

مصطفى : لبيْكِ آمالُ

آمال : إلىّ يا أبى

مصطفى : أحبِبْ بهذا الصوت أحببْ بالنداءِ أحبب

آمال : أبى

مصطفى : ابنتى أنتِ هنا ؟

آمال : تعالَ قِف بجانبى

مصطفى : لا بأس يا ابنتى عليـ ـك دونَ ناديك دمى

آمال : أبى لقد ديسَ العرينُ فى غيـــابِ الضيْـغَم

مصطفى : مَـنْ فى مقاصير الأمير ؟ ما أرى من الفَتى ؟

آمال : ذئبٌ بشكل آدم للصيـدِ فى الغـاب أتى

مصطفى [مهمها] :

خنجرى أين خنجرى اليومَ منى
يغسل العـــارَ والدنيّــةَ عنى

فعسى أن يُريحنى من صبىٍّ
عابثٍ ، أو يريحــه هو منى

هو يطغى بسنه سأريه
أننى الليث ساعدى هو سنى

آمال : أبتى ما تقول ؟ ماذا تلمستَ ؟

مصطفى : سلاحى

آمال : لا لا أبى لا تُرَعْنى

آمال [لمراد بك] :

يربك إلا حقنت الدماء

مرادبك : دمائى أنا أم دماء اللعين ؟

مصطفى : أتلعنُنى يا أضلَّ الشباب
أتلعننى يا أعقّ البنين

مرادبك : ولِمْ لا وما لكَ من حُرْمَةٍ

مصطفى : ستعلم ما حرمتى بعد حين
سأقلع عيناً سمت للبـاة
وأقطَعُ رجلاً مَشَتْ فى العَرين

آمال : كفى هوساً أيّهذا الأمير

مرادبك : أبى هَوَسٌ ملْكتى !

آمال : بل جنون

كفى جرأة

مرادبك : وعلامَ اجترأت ؟

آمال : على امرأةٍ تحفظ الغائبينْ

مصطفى : مراد لك الويل من سادرٍ وقاحِ اللسان وقاح الجبين

هتكتَ على الحزن محرابَهُ ودُسْتَ على عبرات الحزين

ولم تحتشم فى خطاب الشيوخ ولم ترج فيهم وقار السنين

مصطفى [لنفسه وهو يبحث عن خنجره] :

ربِّ ضلَّتْ يدى وحطِّمْ سلاحى

ربِّ لا تَقضِ أننى أقتل ابنى

مرادبك : سيسبق سيفى خنجر الشيخ

مصطفى : مرحباً

بسيفك من ماضى الحديد يمانى

فهاتِ مرادُ السيفَ هاتِ منيّتى

أرحْ من عذاب الحادثات جَنانى

مراد بك [وقد شهر سيفه] :

إلهىَ مالى قد غُلبتُ على يدى

وما بالُ سيفى إذ هممتُ عصانى

وما بال نفسي بعد طول جمودها
قد انفجرت من رحمةٍ وحنان

عَفَوْتُ فَسِلْ ياشيخُ مِلْ عنِّيَ انطلق
وعش ناعماً في غِبطةٍ وأمان

مصطفى: أميرىَ ذا رأسى تخذه بضربةٍ [يخرج مراد بك]
عسانى أرى هذا الضمير عسانى

مصطفى [لنفسه، ويتبع مراد بك]:
أأُنْبيه؟ لِمْ لا؟ لا. بل استأنِ مصطفى
أأذكرُ لابنى كيف خِسَّةُ شانى

آمال لنفسها: ويحَ لى ويحَ قد قسوتُ عليه
وتجاوزتُ فى العقوبة حَدِّى

ماالذى استوْجَبَ الأميروماأذنَب حتى رددتُه شرَّ ردٍّ

ويحَ قلبي يحبُّه كذبَ القلبُ
وبعداً لحبِّه ألفَ بُعْد

هو مستهترٌ عـــلى حجراتى
وتناسى أمانةَ الزوج عندى

لا. بل القلب شُغْلُه بمراد هو شغلى من الحياة وقصدى

ربِّ مالى أحِسُّ نحوَ مراد
شفقاً زائداً ولوعةَ وجد

وحناناً كأنه رقةُ العشق جرى فى دمى ولحمى وجلدى

صدق الأولون ألآن أدرى
كيف تجزى القلوبُ وداً بودّ
كيف قلبي تحبُّه كيف تهواهُ
بودّى لو تستفيق بودّى
عبثًا آمُر الفؤادَ وأنهى
وسدىً أستردُّ عقلى ورُشدى
كلّ نُصح يُقالُ للقلب فى التَّرك
وفى سلوة الهوَى غيرُ مُجد .

لم لا أشتهى مراداً وأهواه
ومالى أغالبُ الشوق جُهدى
ومرادٌ ألذُّ فى العين لمحاً
من سنا الصبح بعد ليلة سُهد

مَلكٌ جاء حجرتى يشرحُ الحبَّ
أفى الحقِّ أن يُجازَى بطَرد
لمَ لَمْ أتخذه فى حادث الدهر
نصيراً يرد عنى التعدى
لمَ لَمْ أتخذه بعد علىٍّ
ركن دنياى أو دِعامة مجدى

لا وربّ الجلال والحقّ «آمال»

ارجعى للصواب «آمال» جِدّى

أنت من أمةٍ تصون حمى الزوج

وتقضى حقوقه وتؤدى

ربِّ لا تجعل العَلاقةَ إلا

من سلامٍ إذا التقينا وردّ

رَبِّ إن البلاءَ منى قريبٌ

وأرى حُفرةً وأخشى التَّردِّى

رب لا تَقضِ أن أخون عليًّا

وأَعنِّى على الوفاء بعهدى

أنا حَيْرَى وأنت تهدى الحيارى

كيف أهوَى على هوى الزوج عندى

ثم مستمرة: لا لا رويدك يا آمال لا تثبى

على الأمير ولا تجزيه طغيانا

واحمى حمى الليثِ فى أيام غيبته

إن اللباة تحوط الغاب أحيانا

هبيه لم يخلع الدنيا عليك ولم

يُلبسكِ تاجاً ولم يُنزلك إيوانا

هبيه لم ينفجر قبل الزواج ولا
بعـد الزواج ولم ينهلّ إحسانا
هبيـه سافر فى شأن له جَلَلٍ
يبنى لدولتـه فى الأرض أركانا
أما هو الزوجُ يُرعى حقُّ غَيبته
وتَجعل الحرّة الفُضلى له شانا
لقد أقامَك فى محرابه مَـلَـكا
لا تجعلى المَلَكَ المهـدىّ شيطانا

سـتـار

الفصل الثانى

فى قلعة ضاهر العمر صاحب عكا

« فناء قليل الضوء مبنى من الحجر انتشرت المصاطب فى جوانبه »
« يطل من بعض جهاته على الميناء حيث يرسو الأسطول الروسي »
« في ناحية من فناء الدار بعض الجند يتحدثون ... ... »

أحد الجند: سمعتم الرعد ؟

آخر : سمعنا القعقعه

بربكم هل فى السماء مسبعه ؟
أم فى السماء وقعة ومعمعه

الأول : كجبل من الرخام انشقَّا
أو كالنحاس بالنحاس دُقَّا

الثاني : والبرقُ لمحةُ القبَسْ أو زفرةٌ حرّى النّفَس
أو كالدم القانى انبجس
شقَّ الظلامَ وخَفَقْ على مُلاءةِ الأُفُق

كأنه خيْطُ الشّفقْ

حبيش : ضرغام

ضرغام : ماذا يا حبيش ؟

حبيش : أَلعَمَى لك العَمَى

البرد زاد

ضرغام : صه أما في طوبة نحن أما

حبيش : ضرغام إني قد حسدت القوم في جهنما

ضرغام : اصعد إليهم إن أردت

حبيش : كيف ؟

ضرغام : هاك سلما

وانشد حماتي بينهم وطف بها مسلما

حبيش للاط: ملَّاط

ملاط : لَبَّيْكَ حُبَيْشُ

حبيش : قم أخي لك العَطَبْ

ملاط : وما الذي أصنع يا حبيش

حبيش : جئنا بحطب

ملاط : من أين؟

حبيش : قم خذ كلما لاقت يداك من خشب

ملاط : كيف أجُرّ الساق والبرد بأطرافي ذهب

كأننى مَيْتُ اليهود نُزِعتْ منه الرُّكب

حبيش : يالك برداً قارساً وزمهريراً لاذعا

لا الصوف فيه واقياً ولا الحرير نافعا

ضرغام : مـــــا الصوف ما الحرير لا لا أعطنا برادعا

حبيش : أنظر قَفا صاحِبنا كأنه بغل ذُبح

وانظر أهاتيك أنو فٌ فى الوجوه أم بلح ؟

كأن كل رجُل فى أذنيه قد جُرح

« تسمع فرقعة »

آخر : صوت ؟ !

ضرغام : أجل !

الأول : ما الصوت ؟

ضرغام . تلك فرقعه

الأول : وأين ؟

ضرغام : عند التركِ هل من موقعه ؟

[تسمع فرقعة ثانية]

حبيش : وذاك ؟

الأول : مدفعٌ وتلك بُندقه

اسمع !

ضرغام : وما ذلك !

الأول تلك طقطقه

أقدامُ خيل فى الفضاءِ مُطلقه

ملاط : ربِّى متى ينقضى البلاءْ وتنقضى الحربُ والشتاءْ

حبيش : ربِّى متى نَنْعم بالسِّلم متى
كم.ذا إلى كم نحنُ حربٌ وشتا

آخر : كم أنا كالفار شق من خندق لخندق
أصحو على المدفع أو على صفير البندق

حبيش : قل لنا يا خرابُ ما هذه الحالُ متى تنتهى وأينَ المصيرُ ؟
قدسئمنا القتال واشتاقت الزوج إلى زوجها وحنّ الصغير
وتركنا وراءنا الدور عزّ القمح فيها وقلّ فيها الشعير
وبنو ضاهرٍ شرابهمو العُنّاب والشّهد قوتهمْ والفطير

آخر : كل حين يجىء من مصر جيش
ينزل القدسَ أو يحلُّ الشآما
وأميرٌ يقاتلُ الترْكَ فى مصر
أتى شاهراً علينا الحُساما

نحنُ ما بينَ مصرَ والتركِ ضعنا
وَسَئمنَا الحيـاةَ والأياما
غنم نحن بين راع وذئبِ
أي هـذين جاع كنا طعاما

آخر : وغداً . .

حبيش : ما غدٌ ؟

الأول : بـلاءٌ عظيم

حبيش وآخرون : كيف ! ما ذاك ؟

الأول : إسألوا ضرغاما

ضرغام : العَمى للرجال ما تُبصرونَ الفُلك في البحر تُشبه الأعلاما

آخر : فلك من ؟

فُلْكُ قيصر الروس في البحر تَصُبُّ الردى وترمي الحماما
قِطع من جهنم راسياتٌ قعد الشرّ حولهنّ وقاما
وغداً ينزل الجنود فيحتلون هذى القلاع والآجاما

ملاحظ : إذن فأهـلا بغـدِ إن غـداً قد اقترب

آخر : كيف ! وماذا في غـد ؟

ملاحظ : فيـه كرائم السلَب
غـداً نفوز بالسلاح والملابس القُشُب

آخر : وما على الصدور من قلائدٍ ومن صُلُبْ

وعـادة الـروس يـنوءون بصـلبـان الـذهب

[يدخل ضاهر العمر ومعه حسين المصري]

ضاهر : وكيف حال الدار ؟

حسين : غابة الأسَل

أو هي وكر النسر في رأس الجبل

ضاهر : وسَهَرُ الدار على الضيف الأجل

حسين : تحفظه حفظ الجفون للمُقَل

ضاهر : والشام . كيف تجد الشام؟

حسين : نُزُلْ

يليق في جنة عدن للرُّسُل

أنهارها من لبنٍ ومن عسل لاشيء إلا في ذرا الشام كل

إن تخلُ من شيء فمن لحم الحَمَلْ

ضاهر [ويصفق] :

غضبانُ صعبُ يا عبوسُ يا نكد

صعب وغضبان : لبّيك مولاي اقترح أشرْ تجدْ

ضاهر : امضوا اجمعوا الحُملان من سوق البلد

وقدموها للضُّيوف منذُ غدْ

[ينسحب حسين والخادمان]

يدخل خادم ويقول :

مولايَ

ضاهر : ما ذا . . زائرٌ آخرٌ ؟

الخادم : لا سيدى ، بل هذه زائره

ضاهر : امرأةٌ أنثى ؟

الخادم : أجل سيدى

ضاهر : وما اسمها ؟

الخادم : لم ترض أن تذكره

ضاهر : هلْ صَرَّحَتْ منْ أينَ جاءتْ ؟

الخادم : أجَلْ منْ مصرَ مولایَ منَ القاهرهْ

ضاهر : وما سنها ؟

الخادم : غادةٌ فى الصبا تُشَبِّهُها الزنبق الطيِّبا
وقد لبسَتْ حلَّةً للسِّفار
وشالا كوشى الضحى مُذْهَبا
تريدُ تقابلُ ضيفَ الأمير

ضاهر : تريد عليّـاً إذن مرحبا

ثم لنفسه : إلهىَ أنثى لدارى سَعَتْ تريدُ عليّاً فما تطلبُ
تُرى امرأةٌ هىَ أم حيَّةٌ تُريدُ صديقىَ أم عقربُ

[يخرج ثم يعود بشمس]

شمس : سلامٌ لكَ مولاى

ضاهر : سلامٌ جارَةَ الدّار

فما أنْت وما تَبغينَ منْ ضَيْقٍ ومنْ جارى

شمس : رسولٌ أنا يامولاىَ قد جئتُ بأخبار

جرى فى مصرٍ الدهر بأحوال وأقدار

ضاهر : وما ذلك؟

شمس : لا أعطى سوى مولاى أسرارى

ضاهر : هيَّ تقدم فتِّش السيده

شمس: لا سيدى يَحسن أن تبعده

مُرْ لا يمدَّ الوحش نحوى يده

الخادم ويتقدم نحوها :

ماضرّ لو زحزحت الـ غـادة فضلَ البرقع

شمس : مالك يا وغد ولـ ـبرقع دع عنك دع

الخادم : عمّى لك ياعمرُ ما ذى غدا ةٌ لكنها أفعوان قَبَعْ

وتلك الجفون سلاح مضى وسهم أصاب وسيف قطع

وفى الصدر غدارةٌ ههنا وأخرى إلى جانبيْها تَقَعْ

وهذا القَوام كرمح الأمير إذا اهتز فى كفه أو لمع

أميري أأنزع منها السلاح

[يدخل علي بك]

علي بك بعد أن يسمع : سلاح الملاحة لا ينتزع

« ينسل ضاهر »

علي بك لشمس :

أهلا بشمسٍ بالرسولِ ومرحباً
بنسيمِ مصرَ ونفحة الأحبابِ

كيف الأحبّةُ «شمسُ» هاتِ خبّرى
قد طال بُعدى عنهمو وغيابى

كيف الديارُ وكيف قصرى هل تُرى
تركَ القواصدُ والصنائعُ بابى

أتراهمو قدّدرهم خدى وقد منعوا طعامى عنهمو وشرابى
وموائدى ياشمسُ كيف موائدى
والطاعمون بها وكيف رحابى ؟

شمس : مولاىَ طِبْ نفساً فبرّك لم يزل
يَجرى وخيرُك فى يدِ الطلّاب

علي بك : والناسُ شمسُ ؟

شمس : مع الأمير قلوبهم لكنْ سيوفهمُ مع الكذاب

الغُزُّ والأمراء حول ركابه

على بك : وكذاك كانوا أمسِ حول ركابى
والأزهر المعمور ؟

شمس : صادَ محمدٌ فيه الشيوخَ وعاد بالطلاّب

على بك : والشعبُ ؟

شمس : سالٍ يا أميرُ كعهده قد مالَ عن باب وقام بباب
والتركُ قد نصبوه بعدك هِرَّةً يتصيّدون بظفرها والناب

على بك : والقصرُ كيف القصرُ كيف صديقتى
وشريكتى فى شدتى ومُصابى ؟
أرأيتِ آمالا وكيف وجدتِها ؟

شمس : لم نفترق مولاى

على بك : منذ ذهابى ؟

شمس : عزمت علينا أن نقيمَ بقصرها
وتعطّفت وحَنَتْ على الأتراب

على بك : فوجدتها ياشمس

شمس : خيرَ عقيلةٍ وأجلَّ ربة منزل وحجاب
مَلأَتْ مكانكَ عِزَّةً ومهابةً
وكَسَتْ حمَاكَ جلالة المحراب

سَهرت على ذكرى الأمير وعهده

سَهَرَ اللبـاة على حريمِ الغـاب

لو كنتَ أمسِ ترى رأيتَ أبيـةً

غَضْبَى محاميةً عن الأحساب

على بك : غَضْبَى ؟ ومِمَّ وما جَرَى ماراعها ؟

شمس : من سـافل مُتهـافت دبّاب

على بك : ما ذاك شمس من الوقاحْ من الذى

نـقـل الخطى بمنازل الغيّاب

شمس لنفسها :

ربّاه ماذا قلتُ لمْ خبّرتهُ

على بك : قولى أجيبى ؟

شمس لنفسها : ربِّ كيفَ جوابى

شمس لعلى بك :

ذنبٌ فلا تجعله شغلك سيدى

إن القـذارة شـيمةُ الأذناب

على بك : من ذاك شمسُ ؟

شمس : مراد

على بك : ويح له ولى ويحى من الأتباع والأصحاب

أمرادُ يَصنعُ ذاكَ ماذا غرّه بخزانتى ما غرّه بثيـابى

والزوجُ شمس ؟

شمس : استعصمت فی دینها

ورَمَت بزائرها وراءَ البابِ

علی بك لنفسه :

یانفسُ قد خان مَنْ قلّدته ثِقَتی

وكان حولی لواءَ الصحبِ والآلِ

هذا أبو الدهب استولی علی شِیَعی

وحازَ دونیَ جاهی واحتوی مالی

والیوم هذا مرادٌ نال من شرفی

ما لا یمر لأعـــدائی علی بال

علی بك لشمس :

تعالَیْ نَجُلْ یا شمسُ فی دار ضاهرٍ

تعالَیْ نری الجیشَ الحلیفَ تعالی

فنحنُ اقتسمنا الحصنَ ثَمَّ عیالُهُ

علی كثرة اللاجی وثَمَّ عیالی

« یدخل حسین من باب ویدخل سعید من باب آخر »

سعید : حسین هنا ؟

حسین : من أری مَنْ سعید ؟

سعید : سلامٌ حسینُ

حسین : سلامٌ سعیدْ

سعيد : أأنت هنا لم تزلْ يا أخي تراقبُ في الشام حالَ الطريد؟

حسين : وكيف اقتحمت فِناءَ العرين
وجاوزت هذا الحصارَ الشديد؟

سعيد : بمالٍ بذلت هنا وهناك وبالمالِ يُعطى الفتى ما يريد

حسين : متى جئْتَ منْ مصْرَ؟

سعيد : هذا الصباح

حسين : ومن كان معك؟

سعيد : بغالُ البريد

حسين : وماذا بمصْرَ مِن الحادثات؟
وهل جدّ في أرضِ مصرٍ جديد؟

سعيد : حوادثُ مِصْرَ على حالِها
وأمس القريب كأمسِ البعيد

حسين : وكيفَ محمد؟

سعيد : خلّفته كما يشتهي وعلى ما نريد
قبولٌ يحرِّقُ قلبَ الحسود ودنيا تفيض وشأنٌ يزيد
لقد نزلَ الريفُ في راحتيه وحج إلى قدميْه الصعيد
ترَى الأمراءَ على بابهِ يقومون فيه قيامَ العبيد
وللفقهاءِ على دارِهِ صباحَ مساءَ زحامٌ شديد

حسين : إذن قُضِىَ الأمرُ مصرٌ لنـا

سعيد : أجل ملكُنا اليومَ فيها وطيـد

حسين : وكُتبي سعيد ؟ تجيء الأمير ؟

سعيد : أجل وهى موضعُ إعجـابه

يشيرُ بهـا فى أحاديثه ويَنشُرُها بينَ أصحـابه

ونحنُ كلانا على بالِه غـداً نتـلاقى على بابه

ونَطعم أطيبَ إحسانه ونلبَس أسبغَ أثوابه

حسين : وما أتيتَ يا أخى تصنعُ فى هـذا البلدْ

سعيد : ذلك سرّى يا حُسَيْن لا يقـالُ لأحـدْ

حسين : حَـذارِ أن تقول أو تفعـلَ شيئـا يُنتقَدْ

نحن بدارِ ضاهرٍ دارِ العـديد والعُـدَدْ

الجمع يقظـانٌ بهـا وإن ظننته رقَدْ

وكلُّ جاسوس هنـا عليـه عينٌ ورصَـدْ

وقد تظُنُّ ضاهراً مبتعداً وما بَعُـدْ

وضاهرٌ ليـلَ نهـار فى السلاح والزرَدْ

قد جعلَ الشام هى الغاب وطاف كالأسد

« ثم بعد فترة سكون »

سعيد : حسين !

حسين : ماذا يا سعيد قل سلِ

سعيد : أينَ تُرَى أصادفُ الآن على ؟

« يقبل على باك »

حسين : سعيدُ أبطِ التلفت هـذا الأميرُ مقبلا

يمشي الهوينا ويختـــالُ الأسدَ المستهلا

سعيد : حسينُ ما له أخي ما باله ترهّلا

لأمشينّ نحوهْ

حسين : لا يا أخي بل ابْقَ

سعيد : لا

حسين : إياك أن تقولَ ما يغضبه أو تفعلا

فهو مهيبٌ ههنـا كالليث في جوز الفلا

سعيد : لا تخشَ لا أكون إلا محسناً ومُجملا

ألم يكن أمس أمـــير البلد المبجّلا

علي بك لسعيد :

من المرء من أينَ من أرض مصر ؟

فهـذا اللبـاسُ لبـاسُ الوطن

سعيد : أجل مـليكي من رعاياكمو

علي بك : ومن مصرَ هذا اللسانُ الحسن

وما اسْمكَ ؟

سعيد لنفسه : ما همّه إسمي !

سعيد لعلي بك : سعيد

علي بك : سعيد تذكرتَ مَنْ أنتَ مَنْ ؟

سعيد لنفسه :

تذكّرنى عجبٌ كيفَ ذاكَ ا

ولم نجتمع مرة فى الزمَنْ

تُراهُ بىَ ارتابَ ظنَّ الظنونَ

تراه لِما كلَّفونى فَطِنْ

على بك : وكيف تركت بمصر الأمور ؟

سعيد : عواصفُ حولَ مراسى السُّفُنْ

وجوُّ الأمورمن الحادثات كثيرُ الغُيوم كثيرُ الدُّجَنْ

على بك : وكيف تركت الأمير الجديد ؟

سعيد : سقيمُ الولاية نكدُ الزَّمَنْ

على بك : ولِمْ يا فتى هل تولَّى الولىُّ

وخانَ منَ الشيعة المؤتَمَنْ

سعيد : أجل يا أميرُ ودبَّ الخلافُ

وثارَتْ هنا وهناك الفِتَنْ

على بك : حديثكَ يا صاحبى لا يُساغُ

ولا تطمئن إليهِ الأذن

عساك تبالغُ فيما تقول لعلَّكَ تخلُقُ ما لم يكُنْ

إذن لم يَخُنْ عهدىَ الأمراء ولم يقلب الترك ظهر المجن

ولم ينس أصحابَ الفقهاءِ أياديّ عنـدهمو والمننْ
ولا الشعب ملّ الأمير القـديم
ولا بالأمـير الجـديد افتتَنْ
بلغت المدى أيهذا الفتى رُوَيْدَ تأنّ رُوَيْدَ تأن
فما نحن فى فلوات الحجاز ولا نحن فى ربوات اليمن
ولكن على الشام فوق الطريق
تمرُّ الركابُ بنـا والسُّفن
وأخبارُ مصرَ وأحوالُها هنـا سمرٌ للقُرى والمدُنْ

سعيد : وكتب الثقات إلى سيـدى
على بك : وما هى من أرسل الكتب مَنْ ؟
سعيـد : كتابان من عمر الچركسى ومن حسنٍ
على بك : مَنْ ؟ صـديق حَسَنْ ؟
كتابان من مصر من صاحبيّ ؟
سعيـد : أجل سيدى
على بك : سوف أُغلى الثمن
وأين الكتابان ؟
سعيد : خذ سيدى
خذ النعش خذ من يدىّ الكفنْ

« وينقض عليه بخنجره ليقبض على بك على ساعده »

حسين لنفسه : أسفاه على سعيدٍ فما أدرى إلى أين ينتهى أين يُمسى

نحن سيانِ فى البلاء وأيدٍ طلبَتْ رأسه ستطلب رأسى
هو فى قبضة الأميرينْ لِمْ لا أتوارى أنسلُّ أنجو بنفسى

« ثم ينسل هاربا »

على بك : كيف تَرَى يا معتدى لقد وقعتَ فى يدى

يدخل ضاهر ويقول :

اتركه لى يا سيدى

اتركه لى فإنه فى دارى سطا بضيفى وسطا بجارى

على بك : مَن ؟ ضاهرٌ ؟ بالنفسِ أفدى ضاهرا
أكنتَ معنا يا أمير حاضرا

ضاهر : كنت عليك يا صديقى ساهرا
والآن أذهب يا أمير بصاحبى

على بك : أتريدُ تذهبُ بالأثيم العادى

ضاهر : لِمْ لا وفى دارى وبين عشيرتى
شهَرَ السلاحَ على أمير الوادى
دعنى أُحلّ به العقابَ وخلّنى
أمنع حمَى شرفى وحوضَ ودادى

سعيد فى ضراعة :

مولاى !

على بك : ما بكَ قُلْ ؟

سعيد : بمصرَ وحقّها

لا تُلق رأسي في يد الجلادِ

مولاىَ سيفُكَ بي أبرُّ فسُلَّهُ

إن شئت فاقتلني بسيف بلادي

ظاهر : حَسَنٌ قم انهض يا بنيَّ قم انطلق

فلقد طلبت الخير عند جواد

أنا قد وهبتُكَ للأمير وقد عفا

إن الأميرَ بكلِّ فضل بادي

علي بك : ألآنَ سعيد

سعيد : أميرىَ قُلْ؟

علي بك : تكلَّم أبِنْ نبِّنى مَنْ أمَرْ

ومن بَذَلَ المالَ بي مُغرياً وكيفَ أتاكَ جوازُ السَفَرْ

تكلم أبِنْ

سعيد : سيدى أعفنى فلا خير في أن يَذيعَ الخَبَرْ

علي بك : قل السرَّ لا تُخفِهِ لا تَخَفْ فسرُّك عند صديق العُمُرْ

أليسَ محمدٌ الجتري ؟ قل الصدق تأمن به كل شرْ

سعيد : مرادٌ أشار بقتلِ الأميرِ وغيرُ مرادٍ به لم يُشرْ

على بك : مرادٌ ؟

سعيد : أجل إنه المعتدى وما أنا إلا سلاحٌ شُهِرْ

على بك « ملتفتا بضاهر العمر » :

سمعتَ أخى مايقول الغلام عدوٌّ من الأهل ثانٍ ظَهَرْ

إذا مابغى الأهل والأقربونَ

فكيفَ مِن العالَمين الحذر

« يخرج الضاهر فيتغيب لحظة ثم يعود فيقول »

ضاهر : أميرىَ

على بك : مَنْ صاحبي ضاهرُ ؟

ضاهر : هنالك مولاىَ ضيْفٌ حَضَرْ

على بك : ومَنْ ؟

ضاهر : قائد الروس فى عكَّةٍ أيدخل مولاىَ أم ينتظر ؟

على بك : أميرٌ على البحر ماذا يقود ؟

ضاهر : بوارجَ للروسِ مثلَ الجُزُرْ

على بك : وماذا ترى أنت مرنى أشِرْ

ضاهر : تلاقيه فهو جليل الخَطَر

على بك : ألاقيه ؟

ضاهر : لِمَ لا وما فى اللقاءِ إذا ماسمحتَ به من ضَرَر

« يصفق الشيخ ضاهر فيدخل القائد الروسي محاطاً برجال »
« الشيخ ... ويخرج ضاهر وسعيد ورجال الشيخ »

القائد : التحياتُ للأمير

على بك : تحياتٌ وأهلا بسيدى الربّان

أدنُ خذْ مجلساً بجنبي تفضّل

القائد : عشت مولاى مولىَ الإحسان

نحن جاران ياأمير ولكن نحنُ فى منزلين يختلفان

أنتَ كالليث رابضا فى الصحارى

وأنا الحوت فى العباب مكانى

على بك : غيرَ أنى مُقيّد بخطوب حَبستْ همتى وردّت عنانى

القائد : لاتضق ياأمير ذلك أسطولى ...لال البحار نور الموانى

سُفُنُ القيصر العظيم قصورٌ لك إن شئتَ زُيّنت ومغان

على بك : أشكر القائد النبيل وإن لم يخف مافى خطابه من معان

مستمراً : أنافى دار ضاهر وهى دارى مع أعوانه وهم أعوانى

أنا فى دار مسلم عربىٍّ مانع الدار مُكرم الضيفان

أنا فى الدار أولٌ منذ هاجرت إليها وصاحبُ الدار ثان

القا... : ...بّنى ألى بمناهراً ونقلّه نجدةَ القيصر العظيم الشّان

لا ترومنّ بالعصا ملك [illegible] ... اللاتُ الحسام اليماني

كيفَ نبغى سريرَ مصرَ بشيخٍ

بدوى بصارم وحصان

على بك : بكريم من الرجال أبيٍّ عبقريِّ الوفاء والإحسان
فزن القول يا نبيل وأمسك لا تنل ذكر صاحبي بهوان

القائد : ما أهنتُ الصديق مولاىَ لكن
قلتُ أحسنْ تخيُّر الأعوان

على بك : ليست النجدةُ البوارجَ كالأعلام
تطوى اللُّجاج كالطوفان
لَيْسَتْ النجدةُ الحديدَ ولا النار
بأيدى المُشاة والفرسان
لَيْسَتْ النجدةُ اصطفافَ العوالى
والتفافَ العُروش والتيجان

ما النجدة الحق إلا صاحبٌ دمه
عند البلاءِ دمى أو ماله مالى
أخٌ قديمٌ كعرق التِّبر خُلّتُهُ
لم أُسْقَ من وُدِّه إلا بسَلسال
وعِرضُه عندىَ الغالى وإن بعُدَت
به الديارُ وعِرضى عنده الغالى

القائد : كصاحب الدار؟

علي بك : لم لا ضاهرُ رجلٌ
من المروءة لا عُطْلٌ ولا خال

« يقبل شمس »

القائد : والملك مولاى ملك الضفتين

علي بك : أجل
الملك يا قائد الأسطول آمالى

القائد : إذن فتلك سفينُ القيصر اضطجعت
على مراسخ من عكا وأميال

فاركب أميرىَ فيها وائت مصر غداً
فى الدارعين وفى الفولاذ والمال

لعلنا ندخل الوادى معاً وعسى
على لوائك يغزو التركَ أبطالى

علي بك : نمضى فنفتح مصراً ثم ندخلها
أمنيّة الدهر تأتى لى وتسعى لى

غداً أحلُّ بأعدائى العقاب على
ما استمر أو أمس من قهرى وإذلالى

« يدخل ضاهر »

علي بك لنفسه : رباه ماذا يقول المسلمون غداً
إن خنت قومى وأعمامى وأخوالى

يُقالُ في مشرق الدنيا ومغربها
فعلتُ فعْلَه نذل وابن أنذال

على بك [للقائد] : أجل سَمَوْتُ لملك النيل أطلبه
بهمتي وبإقدامي وأفعالي
لا أستعين على الأهل الغريب ولا
أرمي الذئابَ على غابي وأشبالي

القائد : مولاي تلك معانٍ تحتها كرمٌ
ليسَتْ لمن طلب الدنيا بأشغالِ

على بك : بُعداً وسُحقاً لعلياءِ الأمورِ إذا
لم ألتمسْها بخُلق فاضل عال
الموتُ في ثمرٍ ترقَى لتجنيَهُ
في سُلَّم من ثعابينٍ وأصلال

القائد : إذن أميرىَ فالأسطول منتظرى
والبحر يسأل عن شأنِ الأميرالِ

على بك بصوت منخفض :

إذهب فما أنتَ دارٍ ماغدٌ فعسى
يغيِّرُ الله من حال إلى حال

« ينصرف القائد ويشيعه ضاهر وأتباعه »

على بك لنفسه :

رباه ما بالي أبعدَ محمد وعقوقه أشقَى بكيدِ مرادِ

أنا صخرةُ الوادي يُراوحُ عاصفٌ
ركني ويبكُرُ عاصفٌ فيغادي
حَمَلَتْ كواهِلَ الخطوبَ كما حوَتْ
هوجَ الرياح مناكبُ الأطوادِ
ولقد تركتُ ورائيَ الوادي وما
بالضفّتَيْنِ فتًى يحوطُ الوادي
لم يبقَ في مصرٍ ومصرُ عزيزةٌ
من قائلٍ هذي البلادُ بلادي
الذئبُ يرتَعُ في الديار ويرتعي
والشعبُ يسرحُ كالقطيع الهادي
نقلَ الزمانُ زمامَه ورمى به
من فاتحٍ باغٍ لآخرَ عادي
ويحي فما وقف الرجالُ كموقفي
من ظلم أحبابٍ وكيد أعادي
فهناكَ في فسطاط مصرَ محمدٌ
يَجشِمُ العداوة لا يَمَلُّ طِرادي
حتى حوى بيدٍ مواكبَ دولتي
وحوى بأخرى طارفي وتِلادي
مالي محمدٌ الأثيمُ يكيدُ لي
ومرادٌ الباغي يدوس وسادي

عجبُ العجائب مصرُ صارت ضيعةً
لمحمدٍ ورفاقهِ الأوغادِ
ذئبٌ أتى الأتراكُ فى الوادى به
خلعوا عليه إمارةَ الآسادِ
وبقيتُ فى أرضِ الشآم مُشرَّداً
حيرانَ ليس لحيرتى من هاد
قد نمتُ عن حقى وتاركُ حقِّه
لاقى الخسارِ على الندامةِ غادِ
مالى قعدتُ وتركيا مقهورةٌ
والروس حولى يخطبون ودادى
أسطولهم بيدى وقائدهم معى
سأصيبُ جُندى عنده وَعتادى
لا يا علىُّ روَيْدَ فى الغضب اتئد
ما تلك خُطَّةُ حكمةٍ ورشاد
ماذا جنَتْ مصْرٌ علىَّ وأهلُها
إن الجناةَ علىَّ هُمْ أولادى
ماضرَّ مصرَ وضــرَّنى إن لم تكُن
مهدى وكان بغيرها ميلادى

بلدٌ رعانى فى الصبا وأحلّنى بعد الشباب مراتب القواد
ودخلتُه عبداً كيوسفَ مُشترىً
فاعتضتُ تيجاناً عن الأصفاد
لا يا علىُّ اسمع نُهاكَ ولا تُصِخ
لوساوسِ الشهواتِ والأحقاد
لا ترمِ بالروس الشداد جماعة
ضعفاء مهزولينَ غير شدادِ
لا تنس موضع مصر واذكر مالها
من أنعمٍ سلفَتْ وبيضٍ أياد
لا تنسَ ماذا ألفتْ من سامرٍ
لك فى الشبابِ وهيأت من ناد

شمس : أميرىَ

على بك : شمسُ سمعتِ النجىَّ ؟

شمس : أجل سيدى وعلمتُ الخبَرْ

على بك : فماذا ترَيْنَ ؟

شمس : أرى الخطبَ جلَّ وأنتَ عليه جليلُ الصَّبرْ
ومازدتُ علماً بعلم الأمير ولا خُلقه الأريحىّ العطِرْ
دع الروسَ لا تنتصرْ بالغريب وبالله بالأقربينَ انتصِرْ

علي بك : وأينَ همو شمس؟

شمس : هم فى يديْك وتحتَ لوائكُ مُر قل أشِر

أَصِغ لسجاياكَ فالخير فيكَ

علي بك : وليسَ يُقابَلُ إلا بشَرّ

أبو الدهب الغِرُّ بالترك لاذَ

وفى مصر فى غدِها ما افتكَرْ

وكم قد غزاها على رايتى وكم من سلاحٍ عليهم شَهَرْ

وكنا خطَطْنَا انتشال البلاد

وإنقاذها من عتُوّ التتَرَ

وأن نستقل بسلطانها ونُنهضها فى النواحى الأخَرْ

شمس : تركت ورائى ما تبتغى من العون والمدد المنتظَر

على بك : جموعٌ ؟

شمس : هناك على الصالحية جمعٌ كسربْ الجراد انتشَرْ

وينتظرون ركاب الأمير كمثلِ انتظارِ النبات المَطَر

« يعود ضاهر »

ضاهر : ضاهرٌ عند ظن مولاى فيه

على بك : مَنْ ؟ صديقِ أخى حليفىَ ضاهر ؟

ضاهر : قد سمعت الذي جرى ولمست الفضل والنبل والسجايا الطواهر

عِزوتى سيدى ونفسى ومالى

فى الذى شئتَ ما الذى أنتَ آمر

نحنُ إلفانِ يا أميرى على الأرضِ
وإلفان فى مُتون الضوامرْ
ومعى مدفعانِ من سلَب الترك
وتلٌّ من السيوف البواتر
والمواشى كثيرةٌ فى ضِياعى
والطريقُ الطويلُ بالخير عامر
كلُّ شيء كما تُحبُّ مُهيَّأ فمتى الظَّعنُ سيدى مُرْ نسافر

على بك : غداً الظعنُ يا أخى قُم تأهَّبْ
إنما الغُنمُ للخفيف المبادر
ضاهرُ اسمع هناك فى مصرَ

ضاهر : ماذا ؟

على بك : أُهبةٌ يا أخى وجيشٌ مناصر
من صحابى المُشردينَ وأتباعى ومن كل حافظ العهد ذاكر
إن جمعنا إليه جيشكَ سرْنا وأخذنا محمداً أخذَ قادر
وانتزعنا البلادَ من قبضة
الترك ومن كل فاسق الحكم سادر
آن أن نُنقذ البلادَ فماذا أنت راء

ضاهر : هلمَّ والجيشُ حاضر

علي بك : حاضرٌ ؟ فلنَسِرْ إذن

ضاهر : بعيون الله فى حفظه بأيمن طائرْ

ثم يصيح: عَرَبَ الشام تلكَ مصرُ دعتكم

جماعة من عرب الشام : ألفَ لبّيْكِ مصرُ لبّيْكَ ضاهر

ستار

الفصل الثالث

« الوقت بعد الغروب — في سرادق محمد بك ابو الدهب »
« بالصالحية حيث دارت رحى الحرب بينه وبين على بك . »
« فى الوجه محمد بك راقد على سرير وعثمان الجاسوس التركي »
« يكبس قدميه . فى أحد جوانب السرادق جماعة من البكوات »
« يتحدثون ويلعبون الشطرنج . و الجانب الآخر خادمان مصريان »
« مشغولان بتنظيف ملابس محمد بك ابو الدهب ... »

أحد الخادمين للآخر :

ولدى زعزوع أنصتْ أصغ للحقِّ المبين
نحن فى أيام جهلٍ وبلاءٍ وجنون
نحن فوضى من مراح الشاة للخدْر المصون
فى زبون من حروب الأهل فى إثر زبون
ورؤوسٌ فى الصوانى نُزِعَتْ منها العيون
وعزيزٌ هان ما كان ببالٍ أن يهون
أصبحَ الناسُ على الوادى بلا دنيا ودين
حركات كالسكونْ وحياةٌ كالمَنُون

وقَفَ الحاكمُ من كل رخيصٍ وثمين
مثلَ ما قد وقف الدائن من مال المَدين
وشريك الشعبِ فى كدِّ يديه والجبين
وشريكا فى الأوانى وشريكا فى الصحون

الآخر : يا شيخُ هـذا بـلدٌ أحمـالهُ بلا عـدد
من سلَفٍ وكُلَف ومن نكوسٍ وفِرد
وكلَّ يومٍ مطرٌ من الضرائب الجُدُد
وتـلِدُ الفردة ما لا يعلمون من ولد
على الحمار فِرْدَة وفِرْدَة على الوتد
وفردة على اللجام وهو حبل من مسد
وفردة على برادع الحصير واللبد

مستمراً : يا شيخ لى نعجةٌ غرامى وكل همى كانا إليها
الأول : ما صنعت، ما الذى دهاها
الثانى : قد ضربوا فردة عليها
فضقتُ ذرعاً بذاك حتى ذبحتُ شاتى وطفلتيها

الأول : ما قد دهاك دهانى ومثل شأنك شانى
أتيت طنطا لشغلى وكان تحتى أتانى
خرجتُ منها مع الليل مُسبلاً طيلسانى
فمرّ فوق طريقى من لا أرى ويرانى
أغاً عليه سلاح فى صورة الشيطان

فصاح بي قف ترجّل لقد سرقت أتاني

الثاني : وما جرى ؟

الأول : قلت له بل الأتان لي أنا

فقال ذاك أمس إلا أنها اليوم لنا

بل هي لي وحدي فدَعــها ليَ وامض من هنا

ثم رماني بيدٍ كأنها كفُّ النَّمر

ثم اعتلى ظهر الأتان

الثاني : ثم ؟

الأول : لكن لم يسر

حتى سمعت هدّةً وصرخةً من النَّهَر

وأبصَرَتْ عيني وراءَ الليل آية القَدَر

حمارتي تجبرتْ مثل تجبّر البشرْ

فأغرقت راكبها وغرقت على الأثر

مميش بك لعثمان باك [في تهكم واستهزاء] :

لقد رأيناك ضُحَى اليــوم تَمضي من الجبل

فوق حصان كالـغزال رقّةً وكالحمَلْ

عثمان بك [في غضب] :

كذبتمو قد كان تحـتي سيد الخيل « بطل »

لا حَمَلٌ ولا غزال هــو لكن الوعل

كالأفعوان فى الشعـــاب والشهاب فى القُلَلْ

تميش بك : وقد تمايلتَ على السر ج تمايلَ الثَّمِلْ

وقد تدلّى بطنك الضخمُ عليه وانسدل

كأنك المحمل والحصـــان تحتك الجمل

عثمان بك: تميش عِبت حصانى ولم تدع لى اعتبارا

هذا جزاؤك عندى خذ هاك منى عيارا

« ويطلق عليه غدارته »

محمد بك : عثمان

عثمان بك: ملكى

محمد بك : لا تُرَعْ قد كان من حزب على

كفيتنيه فتولّ اليوم ما كان يلى

هيوا احملوا جثته هيوا اذهبوا بالرجل

« يخرج به البكوات والخدم »

« عثمان الجاسوس وهو يكبس قدم محمد بك »

عثمان لنفسه : خدمتُه والله ما خدمتُ إلا دُولتى

كبّسته والله ما كبّست إلا حاجتى

خادمٌ تركيا أنا ما أنا خادم الغبى

كم من حرير فى نواحى صُدرتى وذهب

هاتيك ألقابى وتلـــك شُرُطى ورتبى

مما بلغتُ فى رضا اللـــه وطاعة النبى

وتحت أعلام السلا   طينِ السيوفِ القُضُب
أقمتُ في مصر سنيـــن أنزوى وأختبى
وأنا حيناً ماهنٌ   وأنت أحياناً صبى
أرمى أخاً على أخٍ   وأصدم ابناً بأب
لم آلُ حكم الغُزِّ   جُهد الباحث المنقِّب

« يفيق محمد بك ويتمطى ويتثاءب »

محمد بك : ماذا يقولون عنا   فى مصرَ يا عثمان ؟
عثمان : عهد الأميرِ رخاءٌ   وغبطةٌ وأمان
فمصرُ راضٍ بنوها   والناسُ فيها لسانُ
يقول إن أميرى   يحبه السلطان
محمد بك : والأمراءُ أمِنهم   مخالفٌ ، غضبانُ
عثمان : الأمراء جميعاً   ببابكم أعوان
لا يذكرون علياً   وبيته مذ بانوا
فما لغيرك صِيتٌ   ولا لغيرِكَ شان
محمد بك : صدقت هم حيث كـــان الجدُّ فى مصر كانوا

يقبل جندى ويقول لمحمد بك :

مولاى عندى أخبارُ سوءٍ   وقَفْنَ فى فىَّ فهو حائر

محمد بك : أنت رسولٌ ؟

الجندى : أجل

محمد بك : خبِّر بيِّنْ إلامَ القتال صائرْ ؟

الرُّسلُ لا يُسألونَ عما بعد المناعى ولا البشائر

الجندي : مولاىَ

محمد بك : ماذا ؟ عجِّل . تكلَّم

الجندى . دارتْ على جيشنا الدوائر

محمد بك : وما الذى كان من علىٍّ ؟

الجندى : أُعينَ فى أمره بضاهرْ

محمد بك : وفاز ؟

الجندي : فى أول التلاق بقوة الشام والعشائر

محمد بك : إذن هلكنا ؟

جندي آخر وهو داخل : لا يا أميرى بل أنتَ ناج بل أنتَ ظافر

محمد بك : من قال ذا ؟

الجندي : شاهدا عيانٍ

محمد بك : من أين ؟ ممَّن ؟

الجندي : من العساكر

« يدخل الجنديان ويتبعهما خدم يحملون صينية كبيرة »

الجندي : ها هما

محمد بك : مرحبا

الجنديان : عوافٍ حياةٌ

محمد بك : أوجزا

الجنديان : نحنُ موجزان المقالا

هُزِمَ الجيشُ صُبحَ أمس ولكن

عادَ نجمُ العدو ظهراً فالا

فحملنا عليه حملةَ صدقٍ وحوينا الرجال والأموالا

محمد بك لأحدهما :

زِدْ ، أبِنْ

الجندي : ما قَصَّرَ الجيشانِ ضربا وطِعانا

« يقبل البكوات »

محمد بك للجندي :

وأبو مَيْلَةَ(١) ؟

الجندي : غشَّى ساحةَ الحربِ دُخانا

أحد البكوات :

قد رأينا من هنا ظُلمتَه واللمعانا

وسمعنا من هنا رَجَّته والدَّوَرانا

---

(١) مدفع من صنع واختراع محمد بك أبو الدهب .

محمد بك : اختراعى مدفعى قد ظهر اليوم وبانا
ومُرادٌ ؟

الجندى : كان كالليث لحاظاً وجنانا
شد بالزأرة والوثبة فى الحرب قُوانا
كلما انهار حِصَانٌ تحته احتلَّ حصانا

محمد بك : ثم ؟

الجندى : رمى بنفسه على علىٍّ فى الرحى

محمد بك : ثم ؟

الجندى : تجالدا فلم يدعه حتى جُرحا

محمد بك : أين هو الآن

الجندى : على آثارنا على سرير لينٍّ مُظَلَّل
يخدمه الناسُ ويُعْنونَ به
كالولد الممَّهد المدلَّل

محمد بك همساً لعثمان :

عثمانُ هذا علَوى لاتنسَ رأسَه غداً

محمد بك للجندي :

تلك رؤوس شيعته . ومن سعى لنصرته . من بيته وعزوته

« يأخذ الجيش في العودة من ميدان القتال في أزياء شتي بين »
« الضجيج المتواصل من الطبل والزمر، وتقبل طائفة طائفة »
« فيمر بخيمة محمد بك، وكلما طاف به جماعة خرج اليهم »
« البيك فينثر عليهم الذهب وهو يقول »

محمد بك : خذوا خذوا خذوا خذوا إنى أنا أبو الذهبْ
خذوا املأوا أيديَكم من الشعاعِ المنسكِب

الجماعة : سلمت يا أبا الذهب وعشتَ تُعطى وتهَب
أخجل جودك السُحُبْ

الجيش والنظارة يهتفون معاً :

بنى الوادى قفوا حيّوا اللواء
وغطوا الأرضَ ورداً والسماء
رَجَوتُم من وراءِ الحرب نصراً
وهذا النصرُ بينَ يديْه جاءَ
هو الرمزُ المُقدسُ فاتبعوه وموتوا فى القتال له فداءَ
عليه ضجّةُ الفرح ابتهاجا بطلعته الحبيبة واحتفاءَ
كأن وراء هيكله خيالا
من الشهداء والجرحى تراءى

على قدم حيُّوا العَلَمْ
حيُّوا الشعار حيوا الفخار
رمز الوطن مجد الديارْ

أحد القواد القادمين :

سيدى فُزت بالمُنى هو ذا الجيش قد رجَعْ
وهَبَ الله نصرَهُ للمريدين والتَّبَع
وعلىٌّ وجيشه شبعَتْ منهما الضبُعْ
ليس يُدرى أمات أم فى يد الجُند قد وقع

محمد بك : أجل أرى الجيش اقتربْ نشوانَ بالغَ الأرَبْ
يرسل رنّةَ الطرَبْ

فريق من الجند يتغنون من خارج الخيمة :

سلمتَ يا أبا الدهبْ وعشتَ تُعطى وتَهَبْ
أخجل جودُكَ السحُبْ

جماعة أخرى من الجنود والنظارة يهتفون :

يا عسكر النيل بالسلامه يا عسكر النيل بالسلامه

ظفرت بالنصر كلَّ حينٍ وفُزتَ بالعزِّ والكرامَه
في يومِ سلمٍ وفي قتالٍ وفي رحيلٍ وفي إقامه
فما شهدت القتال إلّا رفعت للضفّتين هامه
أبليتُمو قادةً وجُنداً بوركَ في الجندِ والزعامَه
قد شيّد الله مجدَ مصرٍ والجيشُ من مجدها الدعامه

جماعة آخرون :

هلمَّ خيلَ الوطن تخايلي في الرسَن
اليوم أنت مطلقه حمحمةً وطقطقه

محمد بك ابو الدهب وينثر الذهب :

خذوا خذوا خذوا خذوا إني أنا أبو الدهب
خذوا املأوا أيديكم من الشعاعِ المنسكب

الجماعة : سلمت يا أبا الدهب وعشت تعطي وتهب
أخجل جودك السحب

أحد البكوات :

مليكي

محمد بك : ما جرى ؟

الأول : تأمّلْ أسيرْ

سيدي من عواهل الشامِ كهْلُ

محمد بك : من يسوقُ الرجالُ ضاهرٌ الشامىُّ
عانٍ عليه قيْدٌ وغُلُّ

« يدخل ضاهر يحوطه الجند »

محمد بك : ويحهم ذاك ضاهرٌ ما لجندى
قد غووْا ما لقادة الجند ضلُّوا
كثر الجندُ فى الحديد عليه
وهو كالليثِ فى الحديد يُدِلُّ

محمد بك ، ويتقدم منه :

ما أرى ضاهرٌ يُساقُ أسيراً
أنتَ من ذَاكَ يا أمير أجلُّ
أيها الجند ضاهرٌ صار لى ضيفا
خلُّوا سبيلَ ضيفىَ خلُّوا
من فلسطينَ أنتَ ضاهرُ أم من أرز لبنان أم لك الشام أصلُ ؟

ضاهر : كل هذا هناك مولاى أصل
واحدٌ يجمعُ الرجالَ وفصلُ
عربٌ كلنا ومنطقنا الفُصحى
وآباؤنا نِزارٌ وذُهلُ

محمد بك للجند :

ما صنعتم بسيفه ؟

أحد الجند : هو عندى

محمد بك : هاته فهو محْرمٌ لا يحلُّ

محمد بك ويناوله السيف :

خذ تقلّد والله ليس لهذا الظُّفر

إلا يدَ المصُور محلُّ

أنت خِـلٌّ للبائسين وفىٌّ وهو أيضاً لهم صديقٌ وخلُّ

ضاهر : لستُ أنسىَ لسيدى الفضلَ ماعشتُ

محمد بك : وهل فى رعاية الحق فضلُ

قد رددْنا على السموءل سيفاً

كان دونَ الوفاء أمسِ يُسَلُّ

ضاهر : كيف أمشى فى الشام أو فى سواها

ألبسُ العزَّ حين جارى يذلُّ

ذاك سيفى فأينَ إكرامُ ضيفى

مالىَ اليوم غيرَ ضيفىَ شُغْلُ

محمد بك : من ! علىٌّ ؟

ضاهر : أجل ومن كعلىٍّ ملكٌ ماله على الأرض مثلُ

سيدى قيلَ فى خلالِكَ برٌّ ليس يُحْصَى وفى سجاياك نبْلُ

قد تركت الأمير فى شدة الـ

ـكرب وغادرتُ جمعنا وهو فَلُّ

ما الذى أنتَ صانعٌ بعلىٍّ ؟

محمد بك : غايةُ الخيرِ فهو للخيرِ أهلُ

هو فى قصرِهِ كأمسِ المفدّى

بينَ أولاده الأميرُ الأجلُّ

ضاهر : أسرونى ولو بقيت طليقاً

محمد بك : ماالذى كنت صانعاً ؟

ضاهر : كنت تبلو

كيف أبنى اللواء حول حليفى

وأرمُّ الصفوفَ إذ تضمحِلُّ

محمد بك : بل ستبقى بمصر ضيفاً علينا

مصرُ دارٌ للأكرمينَ وأهلُ

ضاهر : ورجالى

محمد بك : سيلحقونك فيها لك عندى وللعشيرة نُزْلُ

ضاهر لنفسه :

ذلك الغدرُ والمماليك فيهم

من قديم الزمان غدرٌ وخَتْلُ

« يشير محمد بك الى جماعة من رجاله فيخرجون بضاهر »

« يقبل مراد في جماعة من الجند »

محمد بك : ما أرى ؟ ماترون ؟

أحد الحاضرين : هذا مرادٌ

محمد بك : هو ذا جرَّ ذيلَهُ إدْلالا

مرادبك: التحياتُ للأمير

محمد بك : مرادٌ مرحباً مرحباً تعالَ تعالا

مرادبك : ألف بشرى مولاى

محمد بك : أهلا وسهلا أدنُ منّى أعانق الرئبالا

« يعانقه »

مرادبك : قد بلغتَ الآمالَ

محمد بك : لم لا وما علقت إلا بسيفك الآمالا

كيف كان القتالُ؟ أينَ تركتَ الجيش ؟

مرادبك : خلفي مُظفراً مختالا

بعد حين يمرُّ من ههنا الجيشُ على سيدى رِعالا رعالا

محمد بك : وعليٌّ

تركتُهُ في يد الآسينَ قد ناءَ بالجراح ثقالا

بعد حين يأتى به الجندُ محمولا مُسجّى إذا استطاع انتقالا

« جماعة من الجند يتغنون خارج السرادق »

سلمت يا أبا الذهَبْ وعشتَ تُعطى وتَهَبْ
أخجل جودُك السُّحُبْ

« يخرج محمد بك فى جماعته لتحيتهم »

«فى هذه الأثناء يتقدم مصطفى اليسرجى جريحا من مراد بك زاحفا على الأرض»

مراد بك: يالعجائب الحياة ما أرى هذا اليسَرْجيّ

مصطفى اليسرجى: اليسرجِى مصطفى

مراد بك: أنتَ الذي برزتَ لى من ساعة

مصطفى: أجل لألقىَ من حُسامك الردى

مراد بك: لقد جُرحتَ من يدى لِمْ لَمْ تَمُتْ

مصطفى: إنى أحسُّ أجلى الآن دنا
مولاى لا تقطع حديثى وانتظرْ
عجائبُ الحياة فوقَ ما ترَى

مراد بك: وهل عجائبُ الحياة غيرما يجرى هنا الآن؟

مصطفى: أجل وما جرَى

مراد بك: فمُتْ إذن وأعفنى

مصطفى: لا بل أقمْ
واسمع فقد يُنجيك ما أروِى هنا

مراد بك: سرٌّ ؟

مصطفى : أجلْ وقد ينالُك الأذى

من أن أموت أنا والسرُّ معا

مراد بك: إذن فقم إبقَ تأخّر ساعةً قل ما لديكَ ثم مُت كيف تشا

مصطفى : أهكذا ربّاك جافٍ خَشِنٌ من المماليك مُضَيِّعُ الوفا

ليتك عشتَ راعياً في وطن مُهذبِ الفتية صالحِ النَّشا

مراد بك: دَع الفضولَ واحترس يا مصطفى

أنت غبيٌّ لستَ تدرى مَن أنا

أما كفاك أمسِ أن أخرتني أنا وقدمت علياً فاشترى

مصطفى : أنت تُحبُّها ؟

مراد بك : أجل

مصطفى : أنت

مراد بك : أجـل

مصطفى : حَذارِ يا مرادُ مَن هذا الهوَى

مراد بك مضطربا :

ولِمْ ؟ وما آمالُ ؟ أهْيَ من دمى ؟ أم هى لحمى

مصطفى : هى والله هُمَا

مراد بك : أختى ؟

مصطفى : أجل أختك

مراد بك: ياللى وللها من هول ما كنتُ عليه مُقْدما

مصطفى : مراد أنت فى صعيدٍ واحدٍ
ضربت بالسيف المُرِبّ والأبَا
مرادبك : ومن أبوها وأبى أنت ؟
مصطفى : أجل أنا الذى باعَ الفتاةَ والفتَى
أنا الشقىُّ بائعُ ابنيْه
مرادبك : أبى مابعتنا إلا لتدركَ الغنىَ
مصطفى : مراد أدركنى
مرادبك : فداك يا أبى
رُوحى وإن قلّت لك الروحُ فدىَ
مصطفى : أنظر مرادُ أنا فى النزع وما يُغنى المُفدُّون إذا النزعُ أتى
سُقتُ لك الرقَّ وسقتَ الموتَ لى
والرقُّ والموتُ على حَدٍّ سَوا
مرادبك : أُعفُ أبى عنى أتعفو يا أبى ؟
مصطفى : القلبُ عنك وعن السيفِ عَفَا
بل اعف أنت يامراد عن أب
باعَكَ طفلاً كبديعة الدُّمَى
مارحمَ الدمعَ بعينْيكَ ولا رقّ لذاك البُكى ولارثى
مراد بك: واأسفى وا ندمى أبى عليك قد غُمِى
أفق أبى تكلَّم

مصطفى : مراد ! لا يقوى فمي

« ويموت مصطفى »

مراد بك: ماتَ انتهَى ربِّ ارحمِ

« مراد بك يلقي عليه عباءته ويرجع باكيا »

تدخل آمال فيلمحها مراد بك ويقول لنفسه :

آمال أختيا أجلْ أجلْ هيا

لأكفينّهـــــا تلك الضواريا

آمال لنفسها :

مالَهُ مضطرباً يرمقُني بالرضا حيناً وحيناً بالغضَب

مابه ؟

مراد بك: آمال

آمال : مهلا سيدى ادعُني حينَ تُنادي باللقبْ

مرادبك: اسمعى آمال أختى

آمال لنفسها : أخته ؟

ربِّ من أينَ متى هذا النسَبْ

ثم لمراد بك :

كيفَ من نبّاك

مراد بك: نبّأنى أبي أنّنا يا أختُ من أمٍّ وأبْ

آمال : وأبی ؟ أينَ أبی ؟ أين مضی ؟

مراد بك: هو هذا جُثَّـة

آمال : مات أبی

مراد بك: احملی الجُثَّةَ يا أختُ معی هیَّ نحجُبْها هلمِّی نحجُب

آمال بعد أن تقف أمام الجثة وتتأملها :

حنانيْكَ ربِّی أبی رمةٌ يَمُرُّ عليها الترابُ الخشنْ

أبی كيف صرت وراءَ التراب

إلی جسد بالبِلَی مرتَهَنْ

أبی ما الأذنكْ قد أبطأَتْ وكنتَ إلیَّ سريعَ الأذُنْ

وما بالُ حظی مَنك الصدود وكان نصيبی اللقاءَ الحسَنْ

وأين يدٌ سمحةٌ طالما مسحتَ بها عبراتی الهُتُن

أحقٌّ أبی دهمتْكَ المنون

أجل وجَرَتْ فيك كبری السُنَنْ

ذهبت كما ذهب الأولون قتيل الحياة جريح الزمن

مراد أخی

مراد بك: أختُ لا تحزنی فماذا يَرُدُّ البكا والحزَنْ

آمال : أحقٌّ أخی أنه قد قضی وأنا فقدنا الندا والركُنْ

قضی فی معارك لم يجنها

غريب التراب غريب الوطن

ثم مخاطبة الجثة :

تمنّيت أني أقيكَ الردَى بنفسي ومن يدفعُ الموتَ مَنْ
وأجعل غُسلك ماء الشئون
وأصنَعُ من هُدب عيني الكفن
وأختطُّ بين حنايا الضلوع صوانا ولحداً لهذا البدَنَ
جُعلتُ الفدا لكَ مما دهاكَ ومِمَّن رَمَاكَ ومِمَّنْ طَعَنْ
وليتَ جراحَك بي يا أبي

مراد بك : رويدكِ أختُ أقلّي الشجن
ولا تكثري حسرات الصديق
ولا تُشمتي الكاشحَ المضطغنْ

آمال : وكيف مراد وهذا أبوك لَقىً في التراب كأن لم يكن

[يخرج مراد بك وآمال بالجثة]

[يؤتى بعلي بك مجروحا محمولا على سرير من جريد فيوضع في ناحية من الساحة]

علي بك لنفسه :

ويحي تفرَّقَ عسكري وخيامي
وطوَى الزمانُ وريبُه أعلامي
أحتالُ والأحداثُ تُفسدُ حيلتي
وأروم والأيام دون مرامي

لما طوَت مُلكَ الكنانة راحتى
لم يكفنى فطلبت مُلكَ الشام

صيّرتُ حربَ الترك وجهَ سياستى
حتى اقتنيتُ عداوة الأقوام

وكفرت إحسان الذين خدمتهم
حتى تجرّأ خادمى وغلامى

فى الصالحية مالَ صرحُ مطامعى
وكذاك ركُن بنايةِ الأوهام

النصرُ غابَ وكان طاف برايتى
حيناً وحام على شباةِ حسامى

وحُمِلت فى سُرُرِ الجريد ببلدةٍ
وطئتْ جواهرَ عرشها أقدامى

قد عشتُ بالدنيا العريضةِ حالماً
حتى انتبهتُ فلم أجد أحلامى

دنيا أردتُ من العروش حُطامَها
جعلَتْ سرير القشّ كلّ حُطامى

بالأمس جلّلت الترابَ مواكبي
والليومَ لا خلفي ولا قدامي
اليومَ أرسفُ في دمي وجراحتي
وغداً أجرُّ منيّتي وحمامي
أنا قد جعلتُ الغُزّ مهبط نعمتي
وخصَصْتهم بمنازل الإكرام
فلُدغتُ من صِلّينْ منهم عقّني
هذا وذاك أضاعَ حقّ ذمامي
وتتابعَ الأمراء في أثريهما
يستمرئون عداوتي وخصامي

« يقبل محمد بك ابو الذهب في حاشيته »

محمد بك ابو الذهب :

يا ويحَ لي ماذا جرى هذا أبي وسيدي
سيعلمُ المغُري به كيف عقابي في غدِ

« ويتظاهر بالأسف ويتقدم لملاقاة الجريح »

محمد بك ابو الذهب :

يا أسفا عَلى «علِي» يا أسفا على أبي وسيدي ومَوئلي
يا أسفا على الكريم المفضل

أحد البكوات همساً :

ماذا يقول ؟ سيدُه ! شلّت يده شلّت يده

على بك لمحمد بك :

محمد اسمعْ مراد غادرْ
اقضِ عليه وأنتَ قادرْ

محمد بك: لا بل تعيش سيدى ويديك تقتـله

سيدى انس اليوم وافكر فى غد

على بك : ليس للمغلوب غيرَ الذل غد

محمد بك : بل غداً تبرأ من جُرحك

على بك : لا قلما قام من الجرح الأسد

أحد الحاضرين همساً لآخر :

الذئبُ جرّب فى المُرَبِّى ظُفْرَه فأصابهُ
لا تحوِ دارُك أرقماً حتى تحطِّم نابه

على بك لمحمد بك :

محمد اطلب لى قليل ماءٍ إنى أحس حرقة الظماءِ

محمد بك : مولاى لا باس فداؤك النـاس

محمد بك لعثمان ويناوله حقاً :

عثمانُ جئْ بالشراب أغثْهُ بالعُنابِ

على بك : عجلْ وأطفِئْ لهيبى أسرع وخَفِّفْ عذابى

« يذهب عثمان ثم يعود بالماء »

علي بك لمحمد بك ويتأمل الكأس :

أغريتَ في الصبح بي عَقوراً   ما أنا من جرحه بصاحِ
والآن أرسلتَ كلبَ سوءٍ   يدُسُّ لي السُّمَّ في القَراح
وهكذا تجرحُ الأفاعي   وتُفرغُ السُّمَّ في الجراح

على بك لعثمان :

عثمانُ ما دسَسْتَ لي في الكاس
عُشْبَ القفار أم تُرابَ الماس
السم أحيانا طبيبٌ آس

« ويشرب »

محمد بك لعلي بك :

أبي وأميري   كفى سوء ظَنِّ

على بك :
محمدُ نَلْ كلَّ   ما شئتَ منّي
ومالي ألومُكَ   والسُّمُّ فنّي
أخذت الخيانة   والغدر عني

« محمد بك يعتمد في حاشيته فيختلط بالأمراء الآخرين »

علي بك وقد لمح آمال ومراد بك قادمين :

أرى ويحَ لي ماذا أرى ؟
توالَتْ جراحاتي وطالَ عذابي

مرادٌ وآمالٌ . عدوِّى وزوجتى

فيا زمنى هل من جديدٍ مصاب !

يُعذِّبُنى يا رب أنى أراهما

قد اختلطا من جيئةٍ وذهاب

إذن هى تهوى النذلَ وهو يحبها

إذن ليس ما خُبِّرتُهُ بكذابِ

إذن فمرادٌ لم يَثِبْ بىَ وحدَه

ولم يقتحم سترى ويَسطُ ببابى

ولكن أعارته الخبيثة نابها

وما فى ذراها من نقيع لعاب

أجلْ هَدَمَا عُشِّى معاً وتعاونا

على ثلم محرابى وهتك حجابى

آمال لنفسها :

إلهى أعنْ زوجى وبُلَّ جراحَه

فما باله مستوفزاً لعتابى

رمانى بعين قلّبت عن كراهة

وعن نظرات كالشَّرار غضاب

تُرى ظنَّ بى سوءاً تُرى ارتابَ فى أخى

ففكر فى جُرمى وكيف عقابى

له العذر في حال أضاعت صوابه

فإني أنا الأخرى أضعت صوابي

وتتقدم من علي بك :

سيدي مولاي

علي بك : من ؟ أنت ؟

آمال : أجل

علي بك : أعزبي عنيَّ خلّيني اعزُبي

الأقاويلُ إذن صادقةٌ الرواياتُ إذن لم تكذبِ

آمال : ما أذاعوا سيدي ما نقلوا ؟

علي بك : خبّروني امرأتي تعبَثُ بي

آمال : مع مَنْ أعبثُ، مَعْ هذا الفتى ؟

مع شقيقي وابن أمي وأبي

علي بك لمراد بك :

مراد

مرادبك: مولاي

علي بك : اعزُبِ لا بل تعالَ اقتربِ

مرادبك: أبي

علي بك : سؤالٌ يافتى أَصْغِ إليَّ أجب

مرادُ كنتَ لا ترى غيري فما غرَّكَ بي

أنتَ الذي اشتريتُه بفضتي وذهبي

ولم أقصّر معه عن واجب المؤدّب

مراد بك: مولایَ خلّنی إلی ضمیریَ المُعذب
أعفُ فأنتَ أهلهُ هبْ لی جرائمی هب

علی بك : مرادُ

مراد بك: مُرْ

علی بك : أوصیك خیراً بالملاك الطیِّب
أما تراها أصبحتْ من غیر زوجٍ وأب

ثم مستمراً : مرادُ بنیَّ أصخْ أصْغِ لی تعلمْ من الذاهبین استفد

مراد بك: تکلم أبی هات قل سیدی وبیّن کدأب بك سُبْلَ الرشَدْ

علی بك : بناء المالیك واهی الأساس وسلْطانهم مُضمحلُّ العمَدْ

وضیعتهم بعد طول الإباء عوی الذئب فیها وصاح الأسد
إذا فَسَدَ الخُلُقُ فی أمة فقل کلُّ شیء لهم قد فَسَد
وصاحبُکم ذَهَبَتْ نفسهُ فکلٌّ عنایته بالجَسَدْ
یحبُّ النساء ویهوی الطعام ویبنی القصورَ ویُغنی الولد
بفضل التعاون سُدنا البلاد ولولا تعاوُنُنا لم نَسدْ
إذا قام بانٍ إلی غایة تعثر بالهادم المجتهد
وأُولعَ بالعُصبة العاملینَ رجالٌ کسالیَ مُنوا بالحَسَد
فلم یَرَ واحدُهم همةً وفضلا لآخرَ إلا حقَد
یمیناً مرادُ لمَا فی البلاد سوَاكَ یلیقُ لحکم البلد
یَلُمُّ المالیكَ من فرقة ویوقظُ من حزمهم ما رقَدْ

ويُرجعُ للطاعة المارقينَ — ويكسرُ من شرّة المستبدْ

فثِبْ بالغبيّ غداً ثِبْ به — وقم أنتَ فاحمِ الحمى بعد غَدْ

« ويغمى عليه »

مرادبك: ويحَ للمجد حلّ بالماجد الموتُ وأخنى على الكريم الحِمامُ

رحمتاهُ له مضى وتولّى — واستردت جمالَها الأيامُ

آمال : مات ! لا يا مرادُ قل هو حيٌّ

قل أخي تلك ضجعةٌ ومنامُ

فرحي يا عليُّ ما أنتَ داءٌ — ما ألمّ بين ناظريْكَ يقامُ

فرحي مثل يوم نحرٍ عليهِ — من دم البر لمحة وابتسام

ضحت الحادثات فيه بكبش

لجمع الشرق فيهِ والإسلام

قد أُصبنا من العيون كلانا — أدركتني وأدركتك السهام

أحد البكوات لآخر :

أرأيتمْ أسمعتُم جرأةً — تلك يا ويحَ مراد ويحَ لهُ

ماله استهتر في موقفه — ومضى يفعلُ فعلَ السفلَهْ

أنظروا فهو عليها مُقبلٌ — وهي بالسمع إليه مُقبله

تركا المقتولَ لم يكترثا — لدمٍ من حوله قد جاءَنَهْ

أتُرى يطمع أن يخلُفَه — وهي هل تطلبُ زوجاً بدلَهْ

آمال وتلتفت نحوها :
مراد أخي

مراد بك: لبيك آمال

آمال : ما لنا رمتْنا عيونُ القوم من كلِّ جانب

وإنى لشكلى مرَّتين وما دَرَوْا
تولّى أبى عنّى ولم يبق صاحبى
مرادبك : كذاك فضولُ الناس شُغلٌ بحاضر
كما قد شغلناهم وشُغلٌ بغائب
ومن ألسُن تجرى بسوء وهَمُّها
فوائدُ عند الغير أو فى مصائب

آمال : صدقتَ مرادُ انظر تأمل فضولهم
لقد رمقونا بالعيونِ الشواغبِ
يَرَوْنَ عجيباً أننا ههنا معاً
وأنك تمشى يا أميرُ بجانبى
أحد البكوات يتقدم :
مرادُ من الحسناء؟
مرادبك : ما أنت ؟ ما الذى
يهمُّك من أمرِ الحسانِ الكواعبِ
« ثم لآمال :
أأبصرتِ يا أختُ الفضولَ
البك لنفسه : أخته عجيب فلم نعلم له من أقارب
« لمراد بك : وأينَ تُرى كانت ومن ذا أتى بها ؟
رواية غاوٍ أو مقَالةُ كاذبِ

« مراد بك يهم ويلطمه بيده لطمة شديدة »

آمال لمراد بك:

ترفق أخي ساعةً

البك لنفسه : تدعوه يا أخي إذ لم يكنْ فيما رواه بلاعب

مراد بك: تعلَّمْ إذن أن الفضولَ وقاحةٌ
وأن عقابي عنك ليسَ بعازب

البك : وأنت تعلَّمْ أن سيفي منيَّة وغدارتي محشوةٌ بالمعاطب

مراد بك: وقوسك ؟

البك : قوسي ليس يخطىء سهمها

مراد بك: ورمحك ؟

البك : مثل الأفعوان المواثب

مراد بك :

وقلبكَ إني لا أرى القلبَ حاضراً على أنه أمضى سلاح المحارب
وإلا فذا صدري فضع فيه ما تشا
وسدّد إليه ماضياتِ المضاربِ

البك : وكيف اجترائي سيدي وابنَ سيدي
معاذَ أياديكم معاذَ المواهب

مراد بك: إذنْ خلِّ شأنينا ولا تَشْتَغِلْ بنا
وطر في فضاء الأرضِ ذاتِ المناكب

آمال : مرادُ أخي

مراد بك: آمال هــذا محمدٌ

يلاحظنا في الجمع لحظَ المراقب

ولابدَّ مِنْ إنبائه بالذي جَرَى

آمال : وما ضرَّ سرٌ قابله كلُّه خاطب

محمد يقترب ويقول :

مراد أرى شَغْباً وأسمعُ ضجَّة بنيَّ أهذا موضعٌ للتصاخب

ونحن على موتٍ وحولَ جنازةٍ

وفي مأتمٍ فخمٍ وشيكِ المواكبِ

مراد !

مراد بك: أميري !

محمد بك : تلك والله ريبة

مراد بك: تفضل أميري واستمع ثم عاتب

محمد بك: أما هذه عرس الكبير فما أتى بها ههنا بين ازدحام المناكب

مراد بك: بلى يا أمــيري وهي أختيَ

محمد بك : أخته ! حنانيك ربي تلك إحدى العجائب

مراد بك: أجل سيدي أختي اجتمعنا من النوَى

على قدرٍ من صنعةِ اللهِ غالب

ولم ندر قبلَ اليوم أنا قرابةٌ وأنا التقينا في كريم المناصب

محمد بك: ومن قال للصنوين هذا ؟

مراد بك: أبوهما

محمد بك: وما هو ؟ مَنْ ؟

مراد بك: بعضُ التّجار الجوالب

محمد بك: وأينَ فأدعوه فأُعْلي محلَّه وأرفعه وابْنيه فوقَ الكواكب

مراد بك: تعيش وتبقى . . مات

محمد بك: مات أبوكما ؟

مراد بك: أجل . هو ذا يَدمَى وراء العصائب

محمد بك: جريح ؟

مراد بك: أجل لكن قَضى من جراحِه

محمد بك: قتيلٌ ؟

مراد بك: أجل ثاوٍ وراءَ السباسب

محمد بك: وما تصنعانِ الآنَ ؟

مراد بك: ما أنتَ آمرٌ

محمد بك: هنالكَ حراسى وثَمَّ ركائبي

خذها إلى الفُسطاط حتى تَجيء بها

إلى قصرِها محفوفةً بالرغائبِ

وبعد غد تجري على القصرِ نعمتي

ويأتيه برّي كالغيوثِ السواكب

آمال وهى منصرفة :
وداعاً أبى !

محمد بك : صبراً جميلا أميرتى
ولا تفعلى فعل البواكى النوادب

آمال : عفا اللهُ عنه كان شيخاً مصلِّياً
محبَّ اليتامى راغباً فى المثاوب
لقد طلب الدنيا بمصر فنالها
فولَّى إلى الأخرى وجوه المطالب

ستار الختام

الست هدى

تمهيد

زمن الرواية : سنة ١٨٩٠ م

مكان الرواية : حى الحنفى ـ القاهرة

أشخاص الرواية :

السـت هدى

السـت زينب : صديقتها

خديجة ⎤
أسماء ⎥ من فتيات الجيران
بهية ⎥
اقبال ⎦

عبد المنعم المحامى : زوج السـت هدى

حلمى : كاتبه

السيد العجيزى : من أعيان الريف وزوج آخر للسـت هدى

محمد أحمد عامر الشيخ الحلبى مصطفى النشاشقى	من أصدقاء «السيد العجيزى»

ألماز : أغا

رضوان : خادم

سلمان : مرابٍ

الفصل الأول

« فى دار صغيرة مؤلفة من : « مندرة » فى الطبقة السفلى ، ومن سلم يصعد منه إلى قاعة صغيرة ، وثلاث حجرات ... والمنزل مطل على مسجد « أبى الليف » بحى « السيدة زينب » ! ... » .

« الست هدى » وجارتها « زينب » فى إحدى الحجرات ... » .

الست هدى : كيفَ يا أختُ أنتِ؟...

زينب : نحن برَغْدٍ كلُّنا مابقيتِ أنتِ برَغْد

الست هدى : أنتِ يا «زينبُ» الوفيَّةُ بالعَهْد

زينب : ولِمْ لاَ أفِي وخَيْرُكِ عِندي ؟

نحن من أربعينَ عاما علىخيْرِ جوارٍ بين اثنتين وَوُدٍّ

الست هدى : لاَ ، بل ِالعهدُ لايزيدُ على العشرينَ . . .

خَلِّى حِسابَه ، لا تَعُدِّى ! .

اسمَعى زينبُ ، اسمعى يا صديقى.لك هذا الدبُّوس

زينب : لِي أنَا ؟...

الست هدى : بَعْدِي

أنا أعطيْتُ كلَّ صاحبةٍ شيئاً
وأنصفتُ في الوصيَّة جُهدِي
مايقولُ الجيرانُ «زينبُ» عني ؟

زينب : اترُكيهم ، لا تَحفلي بالردِّ

الست هدى : يقولون في أمري الكثيرَ وشغلُهم
حديثُ زواجي أوحديثُ طلاقِ
يقولون إني قد تزوجتُ تسعةً
وإنِّيَ واريتُ الترابَ رِفاقي

وما أنا «عِزْريلٌ» وليسَ بمالِهم
تزوجْتُ ، لكن كان ذاك بمَالِي

وتلكِ فَدَاديني الثلاثونَ كلّما
تولّى رجالٌ جئْنَنِي برِجالِ

فما أكثرَ عُشّاقي وما أكثر خُطّابي !..
ولولا المالُ ما جاءوا أذلاء إلى بابي ...
لستُ ما عشتُ ناسيهْ لستُ أسلُو حَياتِيَهْ
أول البختِ «مصطفى» «مصطفى» كان سَارِيَهْ

حـــينَ يمشى تظنُّه نخلةَ « المَرْج » ماشِيَهْ

رحمـةُ الله عليـــهِ لم يكن يطلبُ مالِى
تلكِ « أبعَادِيَّتِى » وَهْىَ جنونٌ للرِّجال
لم تـكن تخطر فى العـام له يوماً ببـالِ

لم يكن يَعنيهِ من ذَالِكِ سوى قبضِ الإجارهْ
جعـل الله تعـالى جنةَ الخُلد قَرارَهْ

ماتَ فكدتُ أموتُ حزناً وكانَ عمرى عشرينَ عاما
ثم تزوجتُ بعد خَمسٍ من ذا يرَى فعلتى حَراما؟!.

زينب : أجل! . تَعيشِينَ وتَدْفِنينا حتى تصيبى مِنهُمُ البنِيناَ

الست هدى : وزوجىَ الثانِى «عَلِى» ولم يَكنْ يصلُحُ لِى
يَالَيْتنِى لم أقبَـــلِ

ذاكَ ، لِمَا لى اختارَنِى واختـرْتُه لـمالِهِ
ما كان إلا مُفلِسًا وقَعْتُ فى حِبَالِهِ

يرحمُه الله ، وكان ذَا بَخَرْ
وكانَ إنْ يقعدْ وإنْ يقُمْ نَخَرْ
وإن مشَى تخرجُ أصواتٌ أُخرْ

يرحمه الله لقد عشنا معاً
من السنينَ الصاخباتِ أربعاً
ثم مضى لربِّه لا رجَعا

رحمةُ الله عليه جُنَّ بالنسل جُنونا
ثم لمّا مات، ما خلَّف لي إلاّ دُيُونا

وماتَ لم تبكهِ عُيونِي وكان عُمْرِي عشرينَ عَاماً
ثم تزوجتُ من سِواهُ من ذا يرى فعلتي حَراما؟!

زينب : أجل!.. تعيشين وتدفنينا حتى تُصيبي منهمُ البنينا

الست هدى : ولستُ أنسى زوجِيَ الرابعا
لا نافعاً كان ولا شافعا
قالوا: أديبٌ لم يروْا مثلَه ولقّبوه الكاتبَ البارعا
قد زيّنوه لِيَ، فاخترتُه مااخترتُ إلا عاطِلاً ضائعا

رائحٌ أكثرَ الزمان على الصُّحْف مُغْتدِي
يكتب اليومَ في «اللِّوا» وغداً في «المؤيَّد»
ليلَه أو نهارَه فارغ الجيبِ واليَدِ

ويُعجبُني عند المُباهاةِ قولُه:
بنيتُ فلانا أو هدمتُ فلانَا

وقد يُصبحُ المَبْنِيُّ أوضعَ منزلا
وقد يصبح المهدومُ أرفعَ شانا

رحمةُ الله عليه كان لا يحقِرِ مالاَ
كان إن أفلَس لا يسألني إلا ريالاَ

ثم تزوجتُ بيوزباشي « قُرْ »
نَهَى كما شاء هَوَاه وأمَرْ
لقد وَدِدْتُ أنه زوجُ العُمُرْ

لا عفا اللهُ عنه ، لا غفرَ اللهُ له ، لا ارتقى لرُتْبَةِ «صاغٍ»
لا عفا الله عنه ، قد كان لصًّا ، لم يُردْني لكن أراد «مَصَاغِي»

وطالما زَيّنَ لى أننى أبيعُ أو أرهَنُ أطيانى
من أجلِ «يوزباشى» ؟ لقد ضَلَّ ، لاَ
لا أشترى جيشا بفدّانِ

لحاهُ الله كان مُنَى فؤادى
وفاكهتى ورَيْحَانى وراحِى
وكنتُ أحبُّه ويحبُّ طيبى
ويحلمُ بالقِلادة والوِشَاحِ
وكان مُقامِراً شِرِّيبَ خمرٍ
يجىء البيتَ فى ضوء الصباحِ

يكادُ إذا تورَّطَ في قِمارٍ
يُقامِر بالنُّجوم وبالسِّلاحِ

عشنا ثلاثاً ثم افترقْنا وكان عُمرِي عشرين عاماً
طلَّقني فالتمستُ زوجاً من ذا يرى فَعْلَتِي حراماً؟!.

زينب : أجل تعيشينَ وتدفِنينا حتى تصيبي منهُمُ البَنِينا

الست هدى : وعشتُ عامينِ دون زوجٍ ثم تزوجتُ بالموظفْ
لم أنسَهُ منذ ماتَ يوما
ما كان أبْهَى !. ما كان أظْرفْ !..
كان خفيفاً وكان حُلْوًا
ومن نسيمِ الربيعِ ألطفْ !..

ما كنت أدرى إذا تولَّى
أجيبُه أم قفاهُ أنظفْ !..

يرحمه الله مات ما وجدوا
في جيبه غيرَ قِطعتَيْ ذهَبِ !..

وسُبحةٍ من خزانتي سُرِقت
كانت على الرفِّ من وفاةِ أبي
وسَّمت في دفْنه ومأتمهِ ولم أُضيِّق عليه في رَجبِ

رحمةُ الله عليـه كان «جَخَّاخاً» كبيرَا
كلَّ يوم يدعُ البيـــتَ رئيسًا أو وزيرا
ثم لا يرجعُ لِي إلاَّ كما كان صغـيرا

رحمـةُ الله عليه كان مشغولا بِطِينِي
كلَّ يوم بزبُونٍ أو بسمسارٍ يَجِيئنِي
وفدادِينِيَ عنـدِى هي فى الحفظِ كَدِينِي

ما كانَ فى وجْنَتِي يقبِّلُني بل همُّه فى يدِى يقبِّلهاَ
وعينُه فى خَوَاتِمِي أبداً يحدِّثُ النفس كيفَ ينْشِلُهاَ

ثم اقـترنتُ بفقـيهٍ عالمٍ فى البـلدِ
لا فى الشيوخِ القُدَماَ ولا الشيوخِ الجُدُدِ
كهلٌ أخُو خمسينَ لـكنْ فى نَشَاطِ الأَمْرَدِ

زينب : عرفْتُهُ ، ذاكَ الفقيهُ «الشيخُ عبدُ الصمدِ»
قد كانَ فى « الخُطِّ » وجيهاً ومُقَبَّلَ اليَدِ
وكل من مَرَّ به خاطَبَه بسَيِّدِى ! . . .

الست هدى : يرحمـه الله لقـد أدَّبنى
حتى عرفتُ كيف تخضَعُ النِّسَا ؟

زينب : أنْتِ ؟...

الست هدى : أجلْ !..أدَّبَنِي بيدِهِ ورجلهِ وبالعصَا

زينب : كيفَ ؟... مَتَى ؟

الست هدى : رأى غُباراً عالِقاً بجَبْهَتِي
ولم أكنْ أعلمُ من أينَ أَتَى ؟

فقالَ هذا التربُ من نافذةٍ
مَنْ كنتِ منها تنظرين يا تُرَى ؟..

وهاجَ حتى خِفتُ أن يقتُلَنِي
وشمَّر الذيلَ وجرَّد العَصا

وجاء بالنجَّار من ساعَتِه
سدَّ الشبابيكَ وسمَّر الكُوَى

فقلتُ يهْوَانِي وتلكِ غَيْرَةٌ
يا حبَّذا الزوجُ الغيورُ حبَّذا !..

وقبلَه لم أرَ من غارَ ولا
من ظَنَّ فى قلبى لغيرِهِ هَوَى

يرحمه الله لقد مات على
سَحْرِى ونحْرِى بعدَ ما صلَّى الضُّحى

مات ولم يرقُدْ له جَنْبٌ ولا
بدَتْ عليهِ عِلةٌ ولا اشْتَكَى

رحمة الله عليه لم يكنْ فمُه يذكرُ « أبعَادِيَّتِي »
وإذا ما جاءنى أو جئتُه لم يُقلِّبْ عينَه فى «صِيغَتِي»

لـكنه مُنذُ كنَّا ما حلَّ عقدةَ كيسِه
يفضِّل الأكلَ منْ غيـــرِ مالهِ وفُلوسِــه
كأنَّ الأزهرَ المعمورَ بيتى
هنالكَ «جرايةٌ» وهُنَا «جِرَايهْ»!.
خَلَّفَ الشيخُ من الأولاَدِ ما يملأُ حَارهْ !...
قُسِّمَتْ ثروتُه فيهِمْ فنَالَ الطِّفْل بَارهْ !...

عشتُ مع الشيخ نصفَ عامٍ
وكان عمـرى عشرين عاماَ
ومات فاختارنى سِـوَاهُ
من ذا يَرى فَعْلَتِى حرَاماَ ؟!...

زينب : أجل تعيشين وتدفنينا حتى تُصِيبِى منهمُ البنينا
الست هدى : أتذكرينَ بعـدَه من جاءَ بيْتى يَخْطُبُ؟!.
زينب : منْ ذَاكَ ؟ منْ ؟
الست هدى : أنْتِ الّتى جِئْتِ بهِ يا زَيْنَبُ!..

زينب : «مهْدِى» القاولُ الثَّرِى المْتَلِى مِنَ الذَّهبْ
الست هدى : قد ذَهَبَ اللهُ بهِ أَجَلْ!. إِلَى النَّارذهبْ!.

لم ينسَ أن يذكرَ «أبْعَادِيَّتى»
ما للغنىِّ ، ولطينى مَالهُ ؟!

ولم يكن عند الطعام يَسْتَحِي
يأكل مالِي ويعدُّ مَالَهُ !...

يرحمه الله وإن لم أر لَونَ قرشِهِ
عشتُ اثنتيْن معهُ لم أنتفعْ بفَرْشِهِ
لو لم يَمتْ لمتُّ منْ جَخْتِـــهِ وفَشِّـــهِ
كأنَّمَا تسرَّبتْ عمارةٌ في كِرْشِهِ
يَدِبُّ كالحلُّوفِ في خُرُوجِهِ من قَشِّهِ
وما استرحْت ليلةً من طَحْنِهِ ودَشِّهِ
ومن تِلالِ جيرِهِ وَمنْ جِبالِ «دبْشِهْ»
ظللتُ عامَيْن في بلاءٍ وكان عُمري عشرين عاماً

ومات « مهْدِي » فاعتضتُ عنْه
من ذا يرى فَعْلتي حرَاماً ؟!..

زينب : أجل تميشين وتدفنينا حتى تُصيبي منهمُ البَنينَا

الست هدى : ثم اقترنتُ بمُحامٍ عَاطِلِ
شِرِّيبِ خمْرٍ يحتسيها في الضُّحى
قَلَّتْ دعَاويهِ وقلَّ مَالُه
وأصْبَح الْمَكْتبُ منهقدْ خلا!..

عبد المنعم المحامى: « زوج الست هدى ، وهو سكران ، يصعد السلم » :

هدَى ، ضلالٌ ، أين أنتِ ياهدَى ؟
أين العَجُوزُ ؟ أين جدّتى هدَى ؟

الست هدى : وَانَــكَدَا « زَيْنبُ » واداهيَتَا
لقد أتى لم أَدْرِ من أيْنَ أتى ؟!.
يشْتِمُ فى السُّلَّم

زينب : خلِّيهِ دعى لاتفرِضيهِ غيرسكْرَانَ هذَى!.
رأيتُه ،

الست هدى : وكيف ؟

زينب : منْ تحْتُ وقدْ
كان من السقْف أطلّ وانحنى
وكانت الحارةُ منّا امتلأتْ فأرسل القىْءَ علينا ورمى!.

الست هدى : القىء ؟ ماذاَ قلتِ ؟

زينب : قلتُ ما رأتْ عينى ومامرّ على رَأْسى وَمَا

عبد المنعم : « وهو بالسلم »
هدى ، عجوزَ النَّحْس ، أنت قردةٌ
خطوطُك الوحلُ وكُحْلُك العَمَى

الست هدى : سمعتِ يا زَيْنبُ ؟

زينب : خلِّيهِ ، دعى
لا تفرِضيهِ غيْر سكْرانَ هذى
ومرةً جاءَ « أبَا الليف » ضُحًى
أذَّنَ فى الناس يُصلُّون العِشاَ
فضيحةٌ فى الخطِّ !

الست هدى : وَافضيحتنَا

زينب : ما شهدُوا فى « الحَنَفِّ » مثْلها

عبد المنعم : « وهو بالسلم »
هدى تَعَالىْ يا عتيقةُ اظْهَرِى
عندى لك النَّعْلُ وهذه العَصاَ

الست هدى : سمعت يا زينب ؟

زينب : خلِّيه ، دعى
لا تفرضيهِ غير سكران هذى

الست هدى : دعيهِ يهذى ما يشا غداً ترينَ زينبُ
فى غــدٍ لى وَله شأنٌ ، غداً يُؤَدَّبُ

زينب : ومَا الذى عــزمْتِ يَا حبيبتى أن تصْنَعى

الست هدى : أقذف فى القسمِ به وأشْتَكى وأدَّعى
إن رجال القسْم ، والنَّـائبَ والقاضى معى !..

«لزوجها»

لَتَنْدَمنَّ يا لُكَعْ يَا منْ يَقُومُ ويَقعْ

عبد المنعم : « وهو بالسلم »
ماذا سَمِعتُ ؟ صوتها ؟ أأنتِ بومتى هنا ؟!..
الآنَ ياجُمَّيْزَةَ « الخطّ» أُريكِ مَن أنَا ؟ ...

زينب : هُدَى ، حبيبَتى اسمِعى تعالىْ اهْربى مَعى ! ...

الست هدى : أَنَا ؟

زينب : اسمِعى ، دَعِيهِ ،

الست هدى : لاَ

زينب : دَعيهِ يا هُدى ، دَعِى ! ...
لا تُغضِبيهِ إنهُ مُمْتلىٌ ، ليس يَعى ! ...

عبد المنعم : « وهو بالسلم »
هدى ! . هدى ! أين هدى ؟
أين العَجُوزُ الباليهْ ؟ ...
أين مضيْتِ بومَتى ؟ أين ذهبْت خُفّى ؟
خداَّكِ ضِفْدِعْتَانِ قد أَسنَّتَا
وأُذُناكِ عقْرَبَانِ من قِنا

وحاجباكِ وَالخطوُط فيهمَا
كدُودتَيْنِ اكتَظّتا منَ الدِّما

وبينَ عينَيكِ نِفارٌ وجفَا
عَيْنٌ هناكَ خاصمتْ عيناً هنَا !..

الست هدى : دعِينى أُقطِّعْ عليهِ الحذَاء وأَجْزِ الوَقاحَ على ذنبهِ
دعينىَ أَضْرِبْهُ حتى يُفيـ
قَ فلابدَّ زينبُ من ضرْبهِ ! ..

زينب : قد جاءَ ... هَيَّ نتقى جنونَه وهَوَسَهْ
فى يمينِه العصاَ وفى الشِّمال المِكنَسهْ
سكرانُ يضربْ إذن لنهربْ هلمَّ زينبْ
هذهِ حجرةُ نومى أسرعى زينبُ فيهاَ
نحنُ يازينبُ لا نكبحُ سكرانَ سَفيهاَ

« تدخلان الحجرة ، وتستتران وراء الباب »

عبد المنعم : « وهو داخل يترنح »
هدى ذاتُ الفدادينِ هدى

الست هدى : فـكرٌ فى طينى

عبد المنعم : من لىَ بالزبرجدِ ؟ من لىَ بالزُّمُرُّدِ ؟
ياليتَ ذاكَ فى يدى ! ...

الست هدى : سمعتِ ؟ عبدُ المنعمِ قد هام فى خواتمى

« يجتاز « عبد المنعم » القاعة إلى حجرة نومه »

الست هدى : زينبُ انظرى ما الذى صنَعْ ؟

زينب : جاءَ حجرةً ثمَّ فاضْطَجعْ
فلندعْهُ فى النـــوم فلْندعْ
الآن أستودعك الله هُدى
محفُوظةً ،

الست هدى : لا تُهمليني زينبُ ! ...

« تخرج زينب »

« تسمع ضجة بالسلم ... »

الست هدى : ما الصوتُ ؟ . . . ما أسمعُ ؟ من يا تُرى ؟
ما هذه الضَّجَّة فى السُّلَّم ؟
هذا خطُوطى وكُحْلى وتلك صبغةُ شعرى
لم أنس حُمرةَ خدِّى لم أنس زينةَ صدْرى
وهذا الثوبُ ما أبهى !. وهذا الخُفُّ ما أحسنْ !.
ومنديلى على رأسىَ ما أحْلى ! .. وما أزْيَنْ !...
وهـذه خَواتمى بهـا يدِى مُرَصَّعهْ
وهـذه قلائدى فى لَبّتى مُلَمَّعهْ
اقترب الصوت وتلك أرجلُ
تدِبُّ عند البابِ ، مَنْ ؟

أصوات : هل ندخُلُ ؟؟

الست هدى : ادخُلْنَ ! .. أهلا وسهلا ومرْحباً بالحبائب

« تدخل أربع فتيات من بنات الجيران : « خديجة » و «أسماء » و « بهية » و « إقبال »

خديجة : صباح الخير يا عمةُ

الست هدى : صُبِّحْتُنَّ بالخيرِ

« خديجةُ » ابنتى هُنا ؟ هذا هو التفضُّلُ !..

خديجة : إنْ أنا بالعمَّةِ لم أسلْ ، فعمَّنْ أسألُ ؟..

الست هدى : أنتِ ابنتى ستأخُذينَ خاتَمِى الزُّمرُّدا !..

خديجة : اليوم يا عمةُ ؟ ..

الست هدى : لا ! ..

خديجة : متى إذن متى ؟ !

الست هدى : غدًا ! ..

من بعدِ موتى ،

خديجة : لا تموتى ، أنا عمتى الفِدا ! ..

الست هدى : « لأسماء »

: وأنت يا أسما إذا متُّ غدا
أخذْتِ هذا الخاتم الزبرجدا

أسماء : لا كان يا عمةُ عشتِ الأبدًا ! ..

اقبال : أسماء يا عمةُ مخطوبةٌ ،

الست هدى : لِمَنْ ؟

اقبال : لشيخ عمدةٍ في الصعيدْ !

الست هدى : حـــذارِ يا أسماء أنْ تَفْعَلِي

أسماء : أنا ؟ أبي يختارُ لي منْ يُريدْ !...

الست هدى : قُولِي لهُ : العُمْـــدَةُ جرَّبْتُهُ

أسماء : أقولُ ؟ مَنْ يسْمَعُ أوْ مَنْ يعِي ؟...

إن أبي صعبٌ ولا أجترِي

الست هدى : إذَنْ دَعِيني أنا أفعل ، دعِي !...

« لبهية »

وأنت يا ابنتِي ؟

بهية : خُطِبْتُ من زَمَنْ

الست هدى : مِنْ زَمَنٍ ؟ تبارَكَ الله ، لِمَنْ ؟...

بهية : لضابطٍ في الجيش !

الست هدى : ضابطٌ ؟

بهيه : أجلْ ! ...

الست هدى : أحْسَنْتِ ، أحْسَنْتِ ، تَخيَّرْتِ الرجلْ ! ...

بهية : ما اخترت يا عمَّتي ولـكنْ أبي وأُمِّي تخيَّرَا لِي !...

بناتُ مصر يُخطَبن لـكنْ لا يتناقَشْنَ في الرجالِ !...

نُبَاعُ يا عَمَّتي ونُشْرى ما نحن إلا عُروضُ مالِ !.

الست هدى : «لأسماء»
وكيف أختُك «بَنْبا»

أسماء : تقبِّلُ اليدَ

الست هدى عشتِ

أسماء : مخطوبةٌ هيَ أيضاً !...

الست هدى : ماذا تقولين بنتي ؟. .
مَنِ الكبيرةُ ؟ «بَنْبَا» أمِ الكبيرةُ أنتِ ؟...
عمرُكِ بالتَّخمين

أسماء : لستُ خالتي مُخمِّنَهْ
في رجبَ الّذي مضى أتممْتُ عشرين سَنَهْ

الست هدى : عشرون أنت يا ابْنَتي إذنْ فما عُمْري أنَا ؟

أسماء : ستُّون يا خالَةُ ؟

الست هدى : سَنَهْ لم أرَ مِنْكِ أرْعَنَا

أسماء : خمسون يا سيِّدتي ؟ !

الست هدى : كذبْتِ كِذْباً بَيِّناَ

أسماء : إذنْ ففي العشرينَ يَا خالةُ أنتِ وأنَا !

الست هدى : هـذا الحديثُ عَبَثٌ خُذِي بنا في غيْرِهِ !
كل امرئٍ داخلُها برزْقِهِ وعمرِهِ

خديجة : أُسكُتى أسماءُ خلِّى السنَّ ما هذا الفضُولْ ؟ ...
هى يا خالةُ حمقَى ليْس تدْرى مَاتقُولْ !...
أنتِ يا خالةُ فى وجهْك قد خُطَّ القبُولْ !...
لا مشيبٌ لا اصفرارٌ لاغُضونٌ لا ذُبُولْ !...

الست هدى : سمعتِ أسماءُ ؟ علِّميهاَ ما القَوْلُ ؟

خديجة : بل أَنْت عَلِّمينَا !...

الست هدى : صُنَّ جمالَ الوُجُوه صونًا فالسنُّ بالوجهِ لاالسِّنينَا !.

« يسمع صوت خارج الحجرة »

ماذاك عنــد الباب ؟ صوتُ رجلٍ ؟

القادم : سيدَتى! ... أَدخلُ ؟

الست هدى : « ألمـازُ » ، ادخُلِ ! ...
« أَلْمَاز »أَغَا ! ...

الأغا : سيِّدَتى ! ...

الست هدى : يا مرحبًا يامرحبَا ! ...

الأغا : أَرسَلَتنى حرمُ الباشاَ

الست هدى : أَعِدْ

الأغا : أرسلتْنى حرمُ الباشاَ إِليكِ

الست هدى : هذا أغا الباشاَ اقتربْ ماذا وراءَ القادمِ ؟

الأغا : أحمِــلُ يا سيِّدَتى تحية الهوَانِمِ !...

الست هدى : بالله « أَلْمَازُ » إلا جلستَ بالقُرْب مِنِّي
تُحِبُّ بُنِّيَ جَرِّب بُنَّ السَّراى وَبُنِّي

« تناوله قهوة »

ما للهوانم « أَلْمَـــازُ » ليس يسألن عَنى ؟!...

الأغا : نسيتِ يا سيِّدتى أمسِ ، أمَا كُنَّ هُنَا؟...
الست هدى : ومن أنا حتى تزورنى الشُّمُوسُ منْ أَنَا ؟ ! ...
الأغا : واليوم يا سيِّدتى أرسلْنَنِى بالمرْكَبَهْ
الست هدى : جئتَ إذنْ فى طَلَبى ؟
الأغا : أجلْ ، وتحتُ العَرَبَهْ
الست هدى : أَيَّتهُنَّ يا أغَا ؟
الأغا : « فيكتوريا »،ألْقُفلهْ ؟

ذاتُ الرَّفَارفِ الخفَا فِ والسُّتُور المسْدله ؟

ركوبةُ الهانمِ فى الأَعْيَــاد والمــواسم ؟
إلى السرايات مِنَ الإنشا إلى الهياتم ؟

الست هدى : « للفتيات »

«الجوانتى» هُنَاكَ « أسما » انظُرِيهِ
أُنْظُرِى يا « خـديجةُ » الفرَجيَّهْ

« وهى تلبس »

انظُرى « إقبالُ » ما أجمل هذى الفرجيَّا
انظُرى شالىَ « أسما » كيف حلَّى كتفيَّا

ثم انظرا هُناكَ يا بنتىَّ فوق الـكَنَبَهْ
مروَحةً من النعَامِ بيـــدٍ مُذهَبَهْ
وخلِّيَا هناكَ لى مروحةً
عاجاً وأخرى كلُّها من الصَّدفْ

خديجة : « همساً »
أسماء ! ...

أسماء : أختى ! ...

خديجة : أبيتٌ أم معملٌ من مراوحْ ؟ ! ...

أسماء : ما تصنَعينَ خالتى بهذه المراوحِ ؟ ! ...

الست هدى : أنا ابْنتى مولعةٌ بهاَ وبالرَّوَائحِ ! ..
ذكَّرتِنى « أسماء » لا تنسَى الوردَ —
على الرَّفِّ ولاَ اليَاسَمِين

أسماء : خالةُ ماذَا ؟

الست هدى : كلٌّ شىءْ عندِى

أسماء : أأنتِ سمانُ أم اللاورْدِى ؟

الست هدى : « أسماء » تعالَى انظرى
كيف ترَيْنَ رِجْلِيَا ؟ !
هذا الحذاء هل ترُى
يليق للفِكتورِيَا ؟ ! ...

أسماء : خـالة لا تُبـدِّ لى
هذا الحذاء « مملـكَهْ » ! ...

الست هدى : اللهُ يا بُنَيَّــتي
يطرح فيكِ البَرَكَهْ ! ...

« للآغا »

« ألمازُ » هيّ ننطلقْ طالَ وقوفُ العربَهْ
لا أحدٌ في الخُطّ إلاّ استوقفَتْه العرَبَهْ
لحــارة قائمــةٌ وحارةٌ مُنقَلِبَهْ

الأغا : سيدتي لا تخافي مركبتي لا تحزَنْ
الست هدى : «ألمازُ» أنتَ ظريفٌ ومركباتك عِـزٌّ

« للفتيات »

قد آن أن أجيبَ دعوةَ الأغا
هيّ ابنتيَّ هيّ ألبساني

« الفتيات يشتغلن بلباسها ... »

الست هدى : « لخديجة وأسماء »

أنت ابنتي وهذه فتاتي بناتُ جاراتي وصاحباتي
إذا حُرِمْتُ النسلَ هنّ بناتي

وكل ما فوقَ صَدْرِي وفي يدِي من «مصاغِ»
وكل شيْء ببيتي لكُنَّ بعد دماغي

ســـتــار

الفصل الثانى

« فى قاعة الدار »

« عبد المنعم يتناول طعام الفطور ... الست هدى »

« عبد المنعم ينادى حلمى الكاتب وهو تحت . . . »

عبد المنعم : حلمى ! . . . تعالَ ! . . .

حلمى : سيِّدى ! . . .

عبد المنعم : تعال يا ابنى إصْعدِ

« يحضر حلمى »

تعال قرِّبْ « شَلْتَةً » تعال هَهُنَا اقعُـدِ

صُبِّحْتَ بالخيرِ أهـلا

حلمى : يا صَبَّحَتكَ السعادة ؟ . . .

هذا الفَطور سيـدى بصحةٍ وعافيهْ ! . . .

عبد المنعم : تعال جرِّب هذه الصناعهْ

حلمى لقد أكلتُ الفول منذُ ساعهْ

عبد المنعم : تلك بضاعةٌ وذى بضاعَهْ

حلمى : « وهو يأكل »
الفول يا سيدى لذيذٌ

عبد المنعم : الفولُ من حارة النصارى
والعيش من مخبز الرمالى

الست هدى : والزيت من مَعْمل «البَدَارى»

عبد المنعم : البدارى ! ما تِلْك ؟ لا تِلْكَ سوقٌ
قد سمِعْنَا بها ، ولا تلك حارَهْ ! . . .

حلمى : وليمونُكِ يا هانمُ

الست هدى : كالشهْدِ وكالسُّكرْ

حلمى : ومن أين به جىء ؟

عبد المنعم : من الجنّة والكَوْثَرْ ! . . .

الفول يا حلمى لذيذٌ فكلْ
وخلِّ ما تسمع من دَشِّها
فما على الدنيا سوى أكلها
ولا على الأرض سوى فَرْشِها

كلْ ، كلْ ، ولا تُصغِ لها فإنها مُمَخْرِقَهْ
وكل شىء لم يكنْ قادرةٌ أن تخلقَهْ

الست هدى : لا أيها الفاضل ، لا ما أنا بالحاميَهْ ! . . .
أُثِير من شقْشقَةٍ زوبعةً فى آنيهْ ! . . .

حلمى : وما ذاك يا سيِّدى فى يديْك ؟

عبد المنعم : ألذُّ من اللّبن المزْبدِ
زبيبٌ ! ! . . .

حلمى : على الرِّيق ؟ ! . . .

عبد المنعم : لا يا غبيُّ ! . . .
على الفول ! . . .

حلمى : أفْطعُ يا سيِّدِى ! . . .

الست هدى : نحن ياحلْمى هلـكْنَا أصبحَ المنزل حانَهْ
صار لا يكفى المحامى كلَّ يومٍ «تجدانَهْ»!...

زينب : « لدى الباب »
العَوَافى ! ...

عبد المنعم : صوتٌ لدى الباب

الست هدى : هذى زينبُ جارتى ، تعالَىْ تعالِى
« لزوجها »
خبِّىءِ الخمرَ أخْفِ ما أنت فيه

عبد المنعم : دعْنَى ، دعْن ، ما لـكُنَّ ومالى ؟ . .

الست هدى : ادخُلى جارتى ادْخُلى ، هىَّ خُشِّى
« لزوجها » خبِّىءِ الخمر ! . . .

عبد المنعم : أتُرْكينى وَحالى

الست هدى : أدخُلى زينبُ ادْخُلى لا تَهابى

زينب : مَنْ هُنا ؟ قد سمعت صوت رجال ! . . .

الست هدى : الأفندى وسِكْرِتير الأفندى

ادخُلى ، لا غريبَ زينبُ عندى

زينب : الأفندى وتقولين ادخلى ؟

الست هدى : ادخلى ليس سواه ها هنا ؟ . . .

ما الذى تخشَين ياأخت ادخلى

زينب : لا ، دعينى ! . . . أنا لم أنْس العَصا

«زينب تنصرف مذعورة ، ويظهر «ألماز أغا» لدى الباب»

الماز أغا : صباح الخير يا هانمُ

الست هدى : مَن ؟ صُبِّحتَ بالخير

«لزوجها»

هذا أغا الباشا أتى وفيم جاء يا تُرى ؟ ...

إرم الزبيب من يديك فهو من أهل التُّقى

عبد المنعم : لينصرف لشأنه فما لَه وما لنا ؟ . . .

الست هدى : إرم الزبيب قلتُ

عبد المنعم : لا

الست هدى : يستهزئ الناس بنا

قم امض حلى بالزبيب ، بل به أمضى أنا

« تخبيء الزبيب ... فيدخل الأغا

الأغا : سيدتي ، عندكِ ناسٌ ؟

الست هدى : ماسوى زوجي هُنا

أغا : « للزوج »
عافيةً ياسيدي هذا فطورٌ أم غَدا؟...

عبد المنعم : اذنُ تفضَّل ، كلْ معي فولٌ لذيذٌ ياأغا

الأغا : بصحة يا سيدي أكلتُ من وقتٍ مضى

عبد المنعم : لا ، لا ، بل ادخُل ياأغَا ادخُل مكاناً غيرَ ذَا
هذا المكانُ قذرٌ خذيه ثَمَّ يا هُدَى

الأغا : ياحبَّذا المجلسُ لولاشُغُلٌ داعٍ لقضَّيتُ النهارَ هَهُنا

حلمي : وما الذي يشغُلكَ الآن ؟

عبد المنعم : ومايعنيك يا أحمقُ من شأنِ الأغا ؟
الأغواتُ تنقضِي أعمارُهم بين السَّرايات هناك وهنا

« همساً »
اتركه يمضي يا غَبي فلا أريدُه هُنا

حلمي « للأغا » : أنت ظريفٌ ياأخِي

الأغا : أنت الظريفُ لا أنا

« للمحامي »
مااسم أخينا؟

عبد المنعم : ذاكَ « حلمي » كاتبي

الأغا : السكرتير؟.... مَرْحَباً يامَرْحَبَا

والآنَ في حراسة الله

حلمي : انتظرْ ياسيدي ! ...

عبد المنعم : «همساً»
دعهُ ! . . .

حلمي : انتظرْ نَخْرُجْ معاَ

عبد المنعم : وأين ياحلمي؟

حلمي : أشيِّعُ الأغاَ

الأغا : لا سيدي بالله

حلمي : لا ،

الأغا : بل ابقَ !

حلمي : لا ! . . .

الأغا : لي كلمة ياسيِّدي أقولُها للهانِم

عبد المنعم : « مبتسما » اذهبي مع الأغا هُدى

الأغا : ياسيدي الهانمُ أختي. لا تخفْ

حلمي : أنظر إليه ما أخفَّه دماً ! . . .

عبد المنعم : إمضِي هدى هلُمّ شيِّعي الأغاَ
الأختُ ياهدى تشيع الأخا

« السيدة والأغا يخرجان »

الحمـــد لله على نعمتــــه زال العنا
أشربُها ؛ فلا هدى ولا الطواشيُّ هنا

لي ساعةٌ ما ذاقَها أنفي ولا ذاقَ فمي

« ويخرج الكأس من مخبئها بين قدميه »

حتى لَكِدتُ من ظَمى أشربها بقدمى

حرمت منها ساعةً وأنتَ كنتَ السببَا

سبحان من لم يُعطِك الفهمْ وأعطاكَ الغَبا

الآن تأتى هدى فكن فطناً حلمى وكن ثعلباً وكن حذرا

إن هدى ذئبةٌ

حلمى : علىَّ أَجِلْ

سوف ترى ما أكون ، سوف ترى

ما ذاك أولُ نصب جرَّبتَ فيه صبيَّك

عبد المنعم : احفظ لسانك حلمى فمالُ زوجىَ مالى

حلمى صهٍ هاهى ذى عائدةٌ

حلمى : من يفتحُ الحديث ؟ أنتَ أم أنا ؟

عبد المنعم : بل أنت ثم خلِّ لى تمامَه

حلمى : ولِمَ لا نقتحم النار معا

« تدخل هدى »

عبد المنعم : هدى

الست هدى : لقد كنتَ غليظاً جافياً

ولم تعظِّم الأغا

عبد المنعم : قد كنتُ مشغولا بلقمتى هدى

الست هدى : تعاقرُ الخمر ضُحى ! . . .

ولو رآكِ لجرتْ فضيحة

عبد المنعم : لكن مضى وما رأى ! . . .

حلمي : رأيتِ سيدي وكيف ساسَهُ وكيف دارَى واتَّقى ؟!
لأجل عينيكِ رمى الزبيب من يديهِ

الست هدى : ألرَّجْسَ رمى ! . .

عبد المنعم : الآن أَسمعِي يا هدى مسألة آن بها أن يُعتنى

الست هدى : وبمَ تريدُ أعتني ؟

عبد المنعم : بمكتبي ،

الست هدى : وما الذي له جرى ؟

عبد المنعم : يكادُ مكتبي يكون مقفلاً

الست هدى : ما ضرَّني أن يُقفلا ؟!..

حلمي : سيدتي المكتب «أبعادية» هل تتركانه سُدى ؟!
غَلَّته ألفان كلَّ سنةٍ

الست هدى : وكيف ذاك ؟ ومتى ؟

حلمي : بل زاد عن ذلك يا سيدتي
بالأمس ، من عامٍ مضى

الست هدى : وما الذي تريدُ أن أصنعَه ؟

حلمي : مُدِّي لزوجك اليدَا

الست هدى : وكيف ياحلمى ؟

حلمى نبيعُ الطينَ أو نرهنُه إلى مدى

الست هدى : طينى أنا أبيعُه ، أرهنُه ؟ ماذا تقول يافتى ؟ ..

حلمى : لقد عرضتُ صفقةً رابحةً

إن أُنقذ المكتب أنقذْنا الغنى

الست هدى : حلمى تعقَّل ! ..

حلمى : دعينى « المترُ »(١) أُغرق ديْنا

كنا نقيمُ الدعاوَى صارتْ تقامُ علينا

فى كل يوم يطلبون « المتر » بالقـدَم

ويلى عليك سـيدى ويلى عـلى معلِّمى

غدا ترِيْن سـيدى فى قفـص التُّهم

الست هدى : « لنفسها »

أتسمعـين يا هـدى ؟

إبكى هدى ، اندُبى ، الطِمى ! ..

غدا يقولون : هدى تزوجت بمجـرمِ

حلمى : المحامى عليه للنـاس دينٌ

تصلحُ الحالُ حين تخْلص منه

دَينُه أنت تقـدرين عليـه

مائتا ليرةٍ(٢) ؛ فأدِّيه عنه ! ..

(١) أى الأستاذ المحامى

(٢) الليرة الجنيه

الست هدى : أؤدى الدينْ ياحلمى ؟ ومن أين ؟

حلمى : من الطِّين

الست هدى : وماذا بعدُ يبقى لى إذا بعتُ فدادِينى ؟

« لنفسها »

لولا فداديني وغلاتُها ماطاف إنسان على بَابى

بهاتزوجتُ وفى قطنِها كفّنتُ أزواجِى وخُطَّابى

« لحلمى »

أنا أؤدى الدين عنه ، أنا

ما تستحى يا شَابُّ ما تخجلُ ؟

حلمى : ألستِ يا سيدتى زوجه والزوجُ عن صاحبها تحمِل

الست هدى : أحمل عن مستهترٍ يومَه وليلَه سكران لا يعقل ؟

« تنادى »

رضوان ! . . .

« يدخل رضوان »

رضوان : منْ ؟ « ستّى » ؟

الست هدى : « همساً » رضوان ! . . .

رضوان : مولاتِى ! . . .

الست هدى : اذهب على الفور أدعُ صديقاتى

« يخرج رضوان »

« عبد المنعم يتمشى مغضبا »

عبد المنعم : « لحلمى »
قد قلتَ ياحلمى الصواب إسمى هذا هو الصدق هدَى
مكتبىَ الثروةُ مكتبى الغنى لا مكتب إلا أنا

الست هدى : أنت ؟ لأنت حانة تنقلتْ وأنت برميل مشى
وأنت شىء فى الرجال ضائعٌ وعالةٌ على النسا

حلمى : سيدتى لا تشتمى سيدتى لا تغضبى
طينك قد تُرجمه قضيةٌ فى المكتب

عبد المنعم : إنىَ لم أخطبْكِ يا هدَى لفرط حسنِكْ
ولا تزوجتُك يا صغيرتى لسنكْ
ولا وقعتُ فى البلا ء لسوادِ عينِكْ

الست هدى : إذن لطينى بى تزوجت ؟

عبد المنعم : أجلْ لطينكْ ! ..

الست هدى : وأنا يا محامىَ الشوم ما اخترتُك للقبح والمحيا الدميم

عبد المنعم : هذر بيِّنٌ وقولٌ هراءٌ لِمْ إذن قد قبلْتِنى لك بعلا

الست هدى : ذكر الخاطبون فضلك عندى
فإذا أنت لست للفضل أهلا

عبد المنعم : إذن دعى الزبرجدا لى ودعى الزُّمرُّدا
وكلَّ ما حلِّيتِ منه الكفَّ والقلَّدا

الست هدى: : ولمْ ؟ قل لي : أمالُ أبيكَ هذا ؟
أأمك خلفتْ هذي الحُليا ؟

عبد المنعم : ألستُ الزوجَ ؟

الست هدى : لا ما أنت زوجٌ

عبد المنعم : فـا أنا ؟

الست هدى : بل طُفَيلِيٌّ عليًّا

عبد المنعم : هاتِ مصوغكِ !..

الست هدى : لا

عبد المنعم : إذن لابد لي من فلْق رأسِك

الست هدى : تضربني ؟ أهكذا يكون شكرُ الحسنَهْ ؟

« وتتناول عصا »

تضربُني أنـا التي تأكل زادي من سنهْ

عبد المنعم : حلمي !... تقدّمْ نحوها خذ العصا من كفها

حلمي اختطف منها العصا

حلمي : ما حاجتي بخطفها ؟
أما تراهـا كاللبـاة في مشار عُنفهـا

عبد المنعم : طِرْ ياجبان ، وانتزع من الخبيثة العصـا

حلمي : بل الجبانُ من يُجرّدُ العصـا على النّسا
تريد أن تأخذ بالقوة منها مالها ؟
فما لها لا تستميت في الدّفاع مالها ؟

الست هدى : يا ويلتا واخجلى وعارى لى رجلٌ بأذُنْ حمار
أضحوكةُ الجارةِ شغلُ الجار لم يُرَ إلا طالحاً فى الدار
ثيابُه كفُوطة الخمَّار تنضحُ بالليل وبالنَّهار

عبد المنعم : أتسمع حلمى كلام العجوز ؟ وماتقذفُ الرِّمَّةُ الباليهْ؟
أخذتُ عصاى لتأديبها فَجُرَّ عصاكَ وقفْ ناحيهْ

حلمى : رأيت رجالاً يضربون نساءهم
فشلَّت يمينى يوم تُضرب زينب(١)

« تدخل زينب ثائرة وراءها نساء من الحارة »

زينب : من قال تُضربُ زينبُ؟ من قالهاَ ؟ أنا أُضرَبُ ؟
: من قال ذلك ياهدَى ؟ لأريه كيف يؤدبُ ؟..

الست هدى : ما قالهاَ كاتب المحامى وإنما قالهاَ المحامى
زينب : إذنْ هو السِّكيِّر يا أُخْت
الست هدى : أجلْ

زينب : ماتستحى تقول ذاك يارجلْ؟
منذ متَى فارق وجهَك الخجلْ ؟

الست هدى : دافعى زينب عنى شاركينى ما أقاسى
منذ حينٍ أوعدَ السكِّيرُ أن يَفْلق راسى
إن أنا لم أعطه دُرِّى وياقوتى ومَاسى

---

(١) بيت قديم .

زينب : إذن دعينى هدى دعينى أُنزِلْ على زوجك انتقامى

عبد المنعم : حلمى تأملْ هـذه عصابةٌ

من خدم البيت ومن بعض النِّسا

قد نظرتْ فى البيت حتى جمعتْ سلاحهاَ من ههنا وههنا

زحَّافةٌ مكنسة مِغْرفة ونحن ما فى يدنا غيرُ العصا

حلمى تأهَّبْ إستعدَّ دافعِ

حلمى : قفْ أنت ، عن رأسك حامِ ، رافعِ ا.

أسامعٌ أم أنت غير سامعِ ؟

انظر إلى الزَّحافهْ تدور فى لطافهْ كعنق الزَّرافهْ

عبد المنعم : وتلك ؟

حلمى : تلك المِغْـرفة كالعقْرب المؤلَّفـهْ

النساء : « يضربن المحامى ويقلن »

اضْربْنـهُ حـتى يقـعْ

اضربْنـه ، خـذ يا لُـكَعْ

كيف ترى ؟ أين الوجـعْ ؟

عبد المنعم : أَجِرْنِىَ حلمى تعالَ احمِنى

حلمى : أنا ؟ خلِّنى ، خلِّنى ، أهربِ

علىَّ مِن اليوم لا تعتمد

فإنى استقلتُ من المكْتبِ

عبد المنعم : « لحلمى وهو منصرف » :

قف يا جبانُ تعالَ !... قلتُ

حلمى : لا تنتظرنى إنى استقلتُ

أنت تعرضت لذا إبق!...خذالزبرجداً..

وأنت كنت المعتدى أقم!... خذِالزمردا..

إنىَ مستعفٍ

عبد المنعم : والأجر ؟ ننساه ؟

حلمى : الأجر قد ضاَع يعوّض اللهُ !...

الست هدى : زينب تلك صخرةٌ بغير حسٍّ فاضربى

« تضربه »

أسما خديجةُ اضربا رضوانُ أدِّبْ أدِّبِ

هذاهوالفولُ فكلْ هذا الزبيب فاشربِ

خذمن يدىالزبرجدا خذْ من يدى الزُمرُّداَ

وخذْ إن اسطعْت اليدا

عبد المنعم : حسبى هُدى كفى كفانِى ضربا

قد كان هذاَ اليومُ لى مُخبَّا

سلّمتُ رايتى فكُفِّى الحربا

الست هدى : إن أنا خلّصْتكَ ماذا تصنعُ ؟

عبد المنعم : أذهبُ !...

الست هدى : ثم ؟ . . .
عبد المنعم : أبداً لا أرجعُ !..
الست هدى : اخْرجْ إذن وَلِّ القفا يا لُـكعُ

قف يا محامِى لِى استمعْ — واسمعنَ يا مَنْ هَهُنا
النـــذلُ قد ردَّ الطلاق لمشيئـــتى أنـا

« تخرج عقد زواجها »

عصمتى منكَ فى يدى — شهدتْ لى الوثائقُ
إمض يا نذلُ لا تمُدْ — إنكَ اليوم طالقُ !..

ســـتـــار

الفصل الثالث

« بحجرة بالطبقة العليا من دار المرحومة
« الست هدى » . «السيد العجيزى » من أعيان
الريف وزوج المرحومة « الست هدى »

العجيزى : « لنفسه »

المالُ صار يا عجوزُ مالِى
وأصبحَ البيتُ وما حوَى لِى
من بَعْدِ عشْرةٍ من الرِّجال

نَعم رجال كثيرٌ ماتوا بحسرةٍ مَالِكْ
كنتُ الموفّقَ وحدى لما ظفرْتُ بذَلكْ

الطين فى « بَنها » كما قيلَ لِى
من أجوَدِ الأطيانِ فى الناحيهْ
وفى الضواحِى ياعجيزِى ابتهجْ
ما قيمةُ الفدان فى الضاحيهْ ؟

والبيتُ مِلكٌ قيِّمٌ وإن مشى فيه القِدمْ
مُهَنْدَمٌ مُنَوَّرٌ من رأسه إلى القَدمْ
بأيسر البياضِ والترميمِ يحيَا من عَدَمْ

ما قيمة البيت يا عجيزتي
وما يساوي إن بيع يوما ؟

قد قيل لي هي ألفٌ
وقيل ألفٌ ونصفُ

والفرشُ شيءٌ حسنٌ الفرشُ لا بأس بهِ
لا بدَّ من تنجيدهِ لا بدَّ لي من قلبهِ

الكَنَبَاتُ خشبٌ زانٌ وسنديانُ
قيِّمَةٌ يبدو على صانِعِها الإتقانُ

وهذه سَجادةٌ نادرةٌ ذاتُ ثمنْ
وهذه أخرى عليها قد تقادَمَ الزمنْ

وصيغةُ العجوزِ والحليُّ
أين تُرى موضعُها الخفيُّ ؟
أسألُ « رضوانَ » فمالي غيرُه من مُرْشدِ

« ينادي »

رِضوان ! . . .

رضوان : من ذاكَ يناديني ، أأنت سيدى ؟

العجيزى : رضوان أنتَ صادقٌ تعالَ «رضوان» اصعدِ!

« يحضر »

رضوانُ قل ياوَلَدى أين مكان الصيغَةِ ؟

فى أى موضع تُرى جواهرُ الميِّتَةِ ؟

رضوان : « مَصَاغُهَا» ياسيدى ليسَ هنا

العجيزى : أيْنَ إذَنْ ؟

رضوان : فى منزلِ الباشا « صفَرْ »

قد ذهب الأغا به فى عُلْبةِ

العجيزى : منذُ متَى ؟

رضوان : من نحو شهرٍ قد غَبَرْ

العجيزى : فى المرضِ الأخيرِ ؟

رضوان : فى أوَّلهِ

العجيزى : وأين كنتَ ؟

رضوان : كنتُ فى بعضِ السفَرْ

العجيزى : أمانَةٌ ثم تُرَدُّ

رضوان : سيِّدى أعلم منِّى بالدخائلِ الأخَرْ

العجيزى : وكنت أنت حاضراً ؟

رضوان : أجلْ حضرتُ يومَ ذاكَ ، وخدمْتُ منْ حَضَر

« صوت من الطبقة السفلى »

يا صاحبَ المنزلِ

العجيزى : مَنْ

الصوت : ثلاثةٌ محمدٌ وعامرٌ وأحمدُ

جئنا نراكَ ساعةً فقُلْ لنا

تنزلُ أم نحنُ إليكَ نصعَدُ

العجيزى : قد حللتم بداركمْ اصعدوا عِندِيَ اصعَدُوا

« لرضوان »

رضوان أجلسْهم هنا وحيِّهم حتّى أجى

وجِئْهُمُ بقهوةٍ من عَرَبانَ «القهوَجى»

« الثلاثة يصعدون »

رضوان : تفضلوُا ياسادَتى الآن يأتى سيِّدى

« ويخرج »

محمد : ثروة ضخمة

أحمد : وخَيْرٌ كثيرٌ

محمد : كلُّ هذا إلى العجيزىِّ آلاَ

أصبحَ الكلبُ بعد أن كانَ يمشى

ينفضُ الجيبَ أكثرَ الناسِ مالاَ

أحمد : و « المصاغُ » « المصاغُ » بالروح أفديه

فماذَا من لؤلؤ وزبرجدْ !؟.

محمد : وهل نسيتَ يا أخى خاتمهَا الزمرُّدَا ؟!

فهم يقولون يساوى مائةً وأزْيَدَا !

أحمد : قد ارتدَى المغفلُ الحريرَا

محمد : واتخذ الشاهِىَّ والكشميرَا

أحمد : إذا مشى حسبته أمِيرَا

وحذاؤه ، أرأيته ؟

محمد : لا ، كيف ، كيف حذاؤهُ !

أحمد : تسبيك رقته ويأخذ ناظريك بهاؤهُ ! . . .

والحزام الحزام ، رقعة كشميرٍ تمنيت أن أكفَّن فيها

وكم وكم من قيِّمٍ قد اقتنى بعد السَّعهْ

ذاكَ الحمارُ تحتُ مثلُ الشمعة الملمَّعهْ

محمد : لا ياأخى الحمار شىءٌ من شهور أربعهْ

قد اشتريتُه له وكنتُ فى السوق معهْ

إن زاد شىء فاللجامُ أو يكون « البردعهْ »

أحمد : الطين ياعامرُ الطين عجبْ !...

الطين أبعاديَّة من الذهبْ

والبيت ياسيدى محمدْ البيت فخم البِنا مُشَيَّدْ

محمد : كم ياتُرى الأرض والمبانى ؟

أحمد : ألف ذراعٍ وقيل أزيدْ ! . . .

محمد : عامرُ لِمْ سكتَّ لِمْ وما ابتلاك بالبَكَمْ ؟ !

عامر : صهْ فى غدٍ أستأجرُ الطينَ

محمد : وكيف وبِكَم ؟

عامر : ذاك فنِّى

أحمد : مذ كان يُستأجَر الطين

عامر : أجل تلك صنعتى يا عزيزى

فى غد تكتب الشروط وأمضى

نحو « بنها » أحتلُّ طينَ « العجيزى »

محمد : ما كالعجيزى رجلٌ يَدْرى اغْتنامَ الفرصِ

إنَّ « هدى » دجاجةٌ باضت لهُ فى القفَصِ

أحمد : وقد رأيتَ كيف كان دفنُها

قد دُفنت مثل فقيراتِ النِّسا

عامر : لا ياأخى ظلمته إن الذى قام على المأتم والدفن الأغا

جاء من الباشا ومن زوجَتِه

أخرجها « خرجة » عزٍّ وغنى

« يدخل العجيزى فيقول : »

العجيزى : يا مرحبا بالأحباب يا مرحباً بالصِّحاب
: كذا أُنْسَى، كذا أُجفَى كذا عنّىَ لا يُسألْ ؟

محمد : بنــا شــوق ولــكنّا نرى المشغول لا يُشْغَلْ

أحمد : ياعجــيزىُّ عــزاءَ مرّةً أخرى عزاء
أنتَ قد أحسنتَ واللهِ وأظهرتَ الوفاء
مثل ما قد دُفنت ما دَفَن القومُ النِّساء

محمد : وما الذى أنفقتَ ؟

العجيزى : خمّنْ ، قلْ على التوَهُّمِ ؟

محمد : أمِائةً ؟

العجيزى : فى الدفن ثم مثلَها فى المأتَمِ

« زائر ينادى من تحت »

يا صاحبَ البيتِ !...

العجيزى : « لنفسه » قد صار لى بيتُ

الزائر : يبقى لنــا الحىُّ ويُرحَمُ الميْتُ

العجيزى : « لنفسه »
: يرحمكِ اللهُ هدى خيرُك هــذا عَمَّنِي

الزائر : تهانِئِي يا عجيزى لقد وَرِثْتَ جَليلا
تهانِئِي يا صـديقى قد نِلْتَ خيراً جزيلا

العجيزي : مَنْ ؟

الزائر : « مصطفى النّشَاشِيّ »

العجيزي : أجئتَني بعُلبتِي ؟

الزائر : أجل ! ...

العجيزي : تعالَ اصعَدْ بِهَا إصعَدْ ، معِي أحبّتِي

الزائر : معي الفقيهُ الحلبي

العجيزي : يا مَرحباً بهِ ، اصعدَا

« للحاضرين »

ذاكَ فقيهٌ من سبيل دينه عَلَى هـــدى

أتعرفون الشيْخَ ؟

أحمد : قل عامرْ

عامر : سَلْ مُحمدًا

محمد : فى « الزينَبِيِّ » قد سمعناهُ يرُجُّ المسْجـــدا

ذاكَ الفقيهُ ليس بعدَهُ أحَدْ لكنّه عندى مُزوِّرُ البَلَدْ

كم حلَّ بالفتوَى و بالفَتوَى عقَدْ

أحمد : ياحلبىُّ أنتَ حبلُ المشنقه

كم لك فى الحارات من معلَّقهْ

لم يخل بيت لك من مطلَّقهْ

« يدخل النشاشي والشيخ »

العجيزى : هذا هوَ الشيخُ أتى يا مرحباً يا مرحباَ

« للحاضرين »

اســتقبلوه وقِفُوا بين يديْهِ أدَباَ

« لرضوان »

البنُّ يا رضوانُ

الشيخ الحلبى : لا .. شيئاً من الـكراويَةْ

العجيزى : اذهبْ جىء الشيخَ بهـا عاطرةً وصافيَةْ

النشاشقى : « همساً فى أذن العجيزى ، ويناوله العلبة : »

هذا النَّشُوقُ من نَشوق المُفْتِي

يليقُ للوَارث زوجِ السِّتِّ

آخر : « ينادى من تحت »

صاحبَ البيتِ

العجيزى : سيدِى

الزائر : عمْ صبَاحاً أنا عبدُ اللطيف شيخُ الحاره

العجيزى : مرحبًا مرحبًا تعالَ تفضّلْ

« للحاضرين »

رجلٌ لا يَرَى ثيَابَ الجارَه

الشيخ : « عند وصوله »

ولـكن أنا ما قَدْرِى ؟ وهـذَا مجلسٌ عالِ

العجيزى : « همسا »
تعالَ ، ما يقولُون ؟

الشيخ : صنوفَ القِيلِ والقَالِ

يعزُّونَكَ بالمَيْتِ يهنُّونَكَ بالمَالِ
« وهو ينظر إلى جوانب البيت »

تعالَى اللهُ ماأبْهَى !... تعالى اللهُ ماأوسعْ !...
مكان الأنسِ والبَسْطِ وبيْتُ النسوةِ الأربعْ
يرحمُها الله لقد كانت ملاكا محسناَ
ولم تقابلْ رجلاً فى بيتِها إلّا أَنَا
فَكَمْ طعِمتُ وشربتُ وكُسِيتُ ههنا
البيت لما اشترتْه كان أبى شيخَ حاره
ولم تزلْ كلّ عام تُجِيل فيه العماره

العجيزى : وأنْتَ ؟ . .

الشيخ : كنت ابن خمسٍ فلست أذكرُ شيًّا
إلا ليالِيَ عُرْسٍ لعبتُ فيها صَبِيًّا
لم يدخلِ البيتَ زوجٌ وفارَقَ البيتَ حَيًّا

العجيزى : إذن فعمرُ البيت ستون سنَه

الشيخ : ومن يقولُ مائةً ماغَبَنهْ
فهم يقولون « الفرنسِي[١] » سكَنَهْ

العجيزى : إذن فلقبوه بالعتيقِ

أحد الحاضرين : والأرض والموقع يا صديقى ؟
آخر : البيت كله على الطريقِ

الشيخ : بل منزلٌ مباركٌ تسكنه فى عافيهْ
يكفيه ما حلَّ عليه من جلالِ الناحيهْ
فأنت بين الحنفِىِّ[٢] والبتول الزاكيهْ[٣]

لاتنس مَن جارُكْ إنك جارُ (الحنفِى)
الحاضرون : وكلنا خادمه وكلُّنا فى الكَنفِ

آخر : « يزعق من السلم ويقول : »
ياعجيزى ياصديقى

العجيزى : « فى اضطراب لنفسه »
ذاك داودُ المغنِّى
ربما خلَّط حتىٰ
أضحك المجلس منى

(١) المراد بالفرنسى نابليون . (٢) السلطان الحنفى رضى الله عنه .
(٣) السيدة زينب رضى الله عنها .

داود : « من تحت »

أيها الوارث قل لي

أألعزَّى أم أُهنِّي ؟

العجيزي : « للحاضرين »

ذاكَ داودُ المغنِّي

قد أتى يسألُ عنِّي

داود : لقد أتيتُ ومعي حميدهْ لكي أريها دارَك الجديده

العجيزي : « لنفسه »

الويلُ لي الويلُ لي حميدةٌ في منزلي

كيف أواري خجلي ؟ !

العجيزي : « للحاضرين »

أتسمعون ؟ معه زوجتُه

أحد الحاضرين : وما لداودٍ وللتفرجِ

آخر : أصعِدْه ، دعه ياعجيزيُّ يَجي

العجيزي : لا ومقام (الحنفيّ) ان يجِي

آخر : قابلْه لا تُضع عليه سعيَه ليس على أمثالِه من حرَج

العجيزي : لا ، ان يطأ لي عَتَبَهْ سوف أُريه أدبَهْ

« وينزل فيصرف « داود » ويعود »

زائر آخر : « يصيح من تحت »

الزائر : سيدى ! سيدى ! . . . أأنتَ هنا ؟

العجيزى : مَنْ ؟

الزائر : أنا سلمانُ ياعجيزى أأصْعَدْ ؟

العجيزى : « لنفسه »

ذاكَ سـلمانُ جاء يطلبُ بالدين
وقد جُن أمسِ حتى تهدَّدْ

أحد الحاضرين : سلمانُ مَنْ ؟

مصطفى : تجهـلُه ؟ ذاكَ مُرابى الناحيهْ
استرجَعَ الخمسينَ منى بعد شهرَيْن مِيَهْ

محمد : مُسْلمٌ ؟

مصطفى : وابنُ مسلمٍ ولَه جَـدٌّ بقلب الصعيد شيخٌ ولىُّ
لم يدَع لليهودِ فى « الخط » رزقا
ليس فى « الخط » غيره ربَوِىٌّ

يا يهودَ الأرضِ قد أصبحَ يشقىْ العالَمون
من بنى الإسلامِ سلمانٌ ومنكم « سالمون »

محمد : « همسا » وماله والعجيزى وما الذى جاء يصنعْ ؟

أحمد : أليست الزوجُ ماتتْ فالوارث اليوم يدفعْ

العجيزى : سلمانُ يا إخوانُ لمْ يأتِ لديْن أو سندْ

عامر : وما يضير الدينُ لم يخلُ من الدينِ أحدْ

العجيزى : لا ، بل علاقتى به علاقةٌ من البلدْ
آباؤه كانوا وآبائى شيوخاً وعُمَدْ

محمد : نادِ إذنْ يصعدْ فلا بأس فى
مجيئه

العجيزى : سلمانُ سلمانُ
تعال سلمانُ فما ههنا إلا أحباء وإخوانُ

« يدخل سلمان ويقول للعجيزى »

سلمان : قيل لى عنك مطلقُ البطنِ شاكٍ
كيف ياسيدى العجيزىُّ حالُكْ ؟

العجيزى : أحمدُ الله قد تعافَيتُ فاجلس
«همسا»
لا تخفْ ، فى غدٍ يوافيك مالُكْ

سلمان : أمامَكَ شهران حتى تفيقَ
وتهدا فلِمْ لا تمدُّ الأجلْ ؟ ! . .
وتدفعُ خمسين فوقَ الحساب
إذا الإرثُ من كل وجه كَمَل ؟!.
دواتى علىَّ وفيها اليراعُ وأنتَ بخير وهذا السندْ
فخذ فضع اسْمَكَ

العجيزى : سِرٌ فى الرواقِ لا يطلعَنَّ علينا أحد

« ينصرفان »

محمد : قددخَلا فى الرُّواقسرًّا وفاز بالوارثِ المُرَابى

أحمد : و بين هذا وذا حسابٌ و يعلم الله بالحسَابِ

« يعودان »

سلمان : « همسا لمصطفى »

يامصطفى يانشوق

لبَّيْكَ سلمانُ أهلا

سلمان : لى كِلمةٌ فادْنُ منى لا تنسَ، دينُك حَلاَّ

العجيزى : ماذا يقول المرابى ؟ وما أسرَّ إليكا ؟

مصطفى : يريد منى نَشوقًا مما رَأى فى يَدَيْكا

الحلبى : الحق أنه نَشُوقٌ طيبٌ

مصطفى : وفيهِ يا فقيهُ عرقُ العنبرِ

الباشوات كلهم قد أقبلوا عليه والمفتى وشيخُ الأزهرِ

وسيدات « الخط » من حين إلى

آخر يبعثن الأغا فيشترى

عامر : « فى سخرية »

السيدات ؟ أأنثى

على النَّشوق تطوفُ ؟

مصطفى : لمْ لا ؟ أما هُنّ خلقٌ أما لَهُنّ أنوفُ ؟

لا تنس يا عامر ! . . .

عامر : ماذا مصطفى ؟

مصطفى : لا تنس ياأخى أعزّ الناسِ

أُمك كانت من غَرَامها به تأخذُه مِنّى بالأكياسِ

عامر : أمى أنا يا رجلاً لا يستحى نشاشِقىّ يذكر المخدّره

« يتناول كل من مصطفى وعامر عصاه »

مصطفى : وأى عارٍ بالنشوق إنما

العارُ كل العار شغْل السمسره

شيخ الحارة : خذوا العَصا من « عامر » و« مصطفى »

إنى أخافُ أن تكون « مَجزَرَه »

عامر : دعوهُ لى لابد من تحطيمه

مصطفى : خلّوه لى لابد أن أُكَسّرَه

العجيزى : وحرمة الميْتةِ تنسيانها وحق بيتى لاتراعيانه

غدا يقال عنكما قد سخرا من العجيزىّ ومن ضيفانِهْ

مصطفى : تلك العصا طرحتها ياسيدى حُبًّا بِكَا

عامر : وأنا أيضا قد رميت بالعصا لأجلكا

« صوت من الخارج: »

دستوركم يا أهلَ هذا المنزل

العجيزى : مَن ؟ . .

الصوت . الأغا ! . .

العجيزى : ألماز أغا ؟ .. تفضَّلِ

الأغا : « يدخل باكيا مولولا ... ويقول : »

آهِ على صديقتى آهِ عليكِ يا «هدى»

قد خُرِّب البيتُ فليتَ لك عينا فترى !

أين جَبينٌ كان كالـــبدر سناءً وسَنا ؟

وأين « أهلاً » كلمّا جئت وأين «مرحَبا» ؟

وأين ما قد كان لِى عندكِ من طيب اللِّقَا ؟

وأين صوتٌ كان كالسحرِ ينادِى يا أغَا ! . .

العجيزى : ماذا دهاكَ سيدى هَوِّن عليكَ يا أغا ! . .

الأغا : «مستمرا» قد ذهب البيتُ ، لبيتِ الله وحدَه البَقَا

قد ذهبَ المال ، فسبحانَ الذى له الغِنَى ! . .

العجيزى : أفِقْ تجلّدْ يا أخى ليسَ البُكا مِنَ التُّقَى

الأغا : أبكيكِ يا هدى وإن لم يُرجِع الميْتَ البُكا

« ويقع مغشى عليه »

مصطفى : « للأغا »

جرِّب نَشوقَ مرةً خذ تجدِ الحزنَ هدَا

العجيزى : رُشُّوهُ بالماء يُفيــــق

« لرضوان » رِضوانُ هاتِ كوزَ ما

الأغا : « يرفع رأسه قليلا ويقول : »

وَلَيكُ عَـذْبًا بارِدًا إنى أحِسُّ بالظَّمَا
ليتكِ مامت وليتَ المَيْـــتَ ياهُدى أنا ! ؟ !
هُدَى تعالىْ انظرِى البيتُ منكِ قد خلا

« للعجيزى : »

سيدى أصْغِ لى :

هدَى رحمة الله على روحِها وألفُ سَلَامِ

يا أسفا على هدَى يا أســفًا يا أســفًا
مالى يخونُنِى فمِى ؟ مالى تخونُنِى القُوَى ؟

« ويتمايل الأغا ثم يسقط »

محمد : لقد رجعْنا فوقَعنا فى البـلاء والعَنا

العجيزى : « للأغا »

قم ياأخى انهَضْ قل تكلّمْ هاتِ بيِّنْ ياأغـــا
ما نحن فى مأتَمِها مأتَمُها قد انقضى
وكل حىٍّ ميّتٌ يوماً و إن طالَ المدَى

الأغا : تركتْ عندَنا وَصاةً

العجيزى : وما ذا ؟

الأغا : كتبتُها قبل الزَّواجِ بعامِ
كتبتها وأشهدتُ مُفتي القُطرِ عليها وقاضِيَ الإسْلامِ

قد تركتْ يرحمُها اللهُ امسكونى لا أقعْ ...
« ويتمايل كالنشوان »

العجيزى : قم خلفه يامصطفى ! ...

مصطفى : دعْه لساعِدَىَّ دَعْ

الأغا : قد تَرَكَتْ فى عُلبة «مَصَاغَها» عشرَ قطعْ
من جوهرٍ مُبرَّإٍ من الخُدُوشِ والبُقَعْ

العجيزى : لمن ؟ . .

الأغا : لعشرٍ من نساء الحارهْ من كل جارةٍ و بنتِ جاره

العجيزى : وعيَّنْتَهُنَّ ؟

الأغا : أجل ، و بيَّنَتْ

العجيزى : يالىَ ، ياللغبن والخسارة ! ...
يا أسف الدهرِ على جواهرى يا ندماً

مصطفى : مالك يا أخى ؟

العجيزى : أحسُّ أنَّ ظهرى انقسما
عوقبتِ يا هدى ولا أُخرجت من جهنَّما

« يغمى عليه »

محمد : لا. بأس لا بأس إنى أرى به إغماء

شيخ الحارة : رضوان طرْ جىءْ بكُوزٍ

الحلبي : صُبُّوا عليه الماء

العجيزي : « وهو يفيق »

والبيت يا أغا أجبْ البيت ما أصابَهْ ؟ . .

الأغا : وَقَفته لبنت أول زوجٍ

الحلبي : إن هذا قضاه حقٌ قديمِ

العجيزي : أرى البغى والتعسُّف حقاً

يا كثيرَ التحليل والتحريم

قلَّبتنى هدى على النار حيًّا

قلّب الله جسمها فى الجحيم

« للأغا »

وأثاثُ البيت هذاَ ؟

الأغا : جاءأيضاً فى الوصيّهْ !

أصبح البيت وما فى البيت مِلْـكا لبهيّـه

العجيزي : إرم يا دهرُ بالمصائب إرم

ظلمتنى هدى فما كان جُرمى ؟

شيخ الحارة : بقى الطين فانتظرْ رحمة الله

ولا يدخلنَّكَ اليأسُ منها

إنها خلَّفتْ ثلاثين فداناً بينها وأنت تعرف بنْها

الأغا : لا ، لا تصدق سيدى

فما درى ، ما عَرَفا

العجيزى : ماذا جرى إذنْ ؟ أَينْ

الأغا : الطينُ أيضا أُوقفا

العجيزى : لمن ؟

الأغا : لبيتِ الله والروضـةِ قـبرِ المصطفى

العجيزى : يارب بيتُك غنى وعن نصيبى غنىٌّ

وقل لقبرك يُرجعْ لى ثروتى يا نبىٌّ

الطين أيضاً قد مضى وكل شىء انقضى

يا لأعاجيب القضا

الحلبى : اصبرْ أخى ، تعزَّ ، ما هذا الجزعْ

هب أن ذلك الزواج ما وقعْ

ليس الحياةُ غير رىٍّ وشِبعْ

العجيزى . « وهو يهجم عليه »

هبْ أن رأسك انفلقْ هب أن مخّك اندلقْ

حتى جرى على الزلق

سلمان : الطينُ أيضاً قد مضى ياويح لى ، ويْحَ لِيَهْ !..
ضاع علىَّ تعبى وضاعتْ التسميهْ !..

هـذا العجيزىُّ مزيج من غباءٍ ونكدْ
قد جاء مصر هارباً من الديون فى البلدْ
وماله من عمل فيها ولا له أحدْ
لكنْ عليه سند

النشاشقى : إذهبْ ، كل ، اشرب السند
الجميع : إذهبْ ، كل ، اشرب السَّندْ ! . . .

ستار الختام

البخيلة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٤

تمهيـــــد

زمن الرواية	سنة ١٩٠٧
مكان الرواية	القـاهرة

أشخاص الرواية

الست نظيفة	(البخيـــلة)
جمـال	حفيـدها
حُسْنى	خادمتهـا
عبد السلام	طبيب
رشـاد	سمسـار
عزيز	من أبناء الذوات

الفصل الأول

« قهوة « جميل » بميدان « لاظ أوغلى » . « جمال » و « رشاد »
« على مائدة يتحادثان ، وآخرون متفرقون . يدخل صبي القهوة »
« بصينية عليها المطلوب من المشروبات فيناول الزبائن . ويقول : »
« هنا سادة، هنا القرفة ، هنا الشاى . ثم ينتقل إلى مائدة « جمال » »
« و « رشاد » ، ويقول : خشاف سيدى . والبازهيران[1] ؟ »

جمال : البازهير لى أنا

رشاد : وشيشتى يا مصطفى

الصبي : طلبتها يا سيدى

[يمر بائع جرائد مناديا]

اللوا[2]

---

(١) الليمون

(٢) جريدة « اللواء » التى أسسها الزعيم مصطفى كامل

رشاد : اللوا تعال يا ولد

البائع : إقروا حديث مصطفى[1] إقروا خروج المتمد[2]

رشاد : كرومر ؟ خروجه متى ؟

البائع : غدا أو بعد غد

رشاد : من قال ذاك ؟

البائع : [ويمشى]

مصطفى

رشاد : التفت الأفكار حول مصطفى كالقائد

جمال : وصارت الأخبار عند باعة الجرائد

رشاد : آمن صحبى بمصطفى كفى تعشقا كفى والعقلاء

جمال : كلهمو

رشاد : والأذكياء

جمال : اشربهمو

(١) ابرهيم مصطفى كامل

(٢) اللورد « كرومر » ، المعتمد البريطانى

رشاد : ما أنت ؟

جمال : لستُ منهمو

إنى أنا مع البلدْ إن قام قمتُ أو قعدْ

لم يرنى فيه أحدْ

[اثنان على مائدة يتحادثان عن جمال] :

الأول : تأمّل المُكثِر من إعجابِهِ بنفسه ينظر فى ثيابِهِ

تلفُّتَ الطاووس فى إهابِهِ

الثانى : لله ما أظرفَ . يا له فتى قد أبدع البارى تعالَى شكلَهُ

لو كان هذا ولدى وواحدى خرجتُ قبل الموت من مالى لَهُ

الأول : من الفتى يا أخى ؟

الثانى : جمال هذا الذى يخلف البخيلهْ

على الدكاكين والضِّياع والثروة الضخمة الجليلهْ

هذا الذى يفترس الأكياسا ولا يرى الأحلام إلا ماسا

فإن صحا شكا لك الإفلاسا

يأخذ من هذا وذاك بالرِّبا يُعطى نحاسًا ليردّ ذهبا

وقيل شىء فوق ذا

الأول : وما يقولون ؟

الثانى : عَجَبْ

الأول : ماذا ؟

الثانى : بلاطُ بيتِها مركَّبٌ على الذهبْ

الأول : وذلك الآخَرُ من ؟

الثانى : ذاك من السماسرِ

يبيع كل عامر يصيبه وغامرِ
وكم وكم زوّج أو طلّق من حرائرِ
تلقاه فى كل طريق كالغبار السائرِ
من قهوةٍ لبيرةٍ لمنتدًى لسامرِ
ويدفع الشباب فى الوُحولِ والمخاطرِ
فمن يدَىْ مسلِّفٍ الى يدَىْ مُقامرِ
ومن سموم حانة الى لُعاب عاهرِ

لا يُبغضُ اللهُ ولا رسوله
من العبادِ كالمرابين فئةْ

الأول : أىّ رباً يشترطون يا تُرى ؟

الثانى : عشرون أو ما فوق ذاك فى المائهْ

أنظر إلى السمسار يسحر الفتى

وانظر إلى الغلام كيف استحسنهْ

عندىَ ألفٌ ما ملكتُ غيرها

مَن لى بها ألفين إن فاتت سنهْ ؟

الأول : عندك ألفٌ أنت ؟

الثانى : ألفٌ ذهبا

الأول : تريد تعطيها بفاحش الربا ؟

إذن لقد كنت تُرائى يا أخى

ولم تكن تقواكَ إلا كَذِبا

[جمال يرفع صوته] :

باللهِ مِن ذا الحديثِ دَعْنا

وانظرْ معى هذه الكُوْنَبَهْ

[ينظر إلى رجل وجيه ملفف بالثياب ومعمم] ويقول :

ومن يكون الوجيه ؟

رشاد : هـذا مقاول يُكبرون كَسبَهْ
وكلَّ يومٍ عليه نعلٌ وكل يوم عليه جُبَّهْ
تراكم المال فى يديه من حبةٍ أمس صار قُبَّهْ

جمال : وما قَرَنَ الحظَّ بالكركدنِّ وما أعجب المالَ من سحنتِهْ ؟

رشاد : ومن عجيب بعد هذا المشيب
بَنَى باثنتين على زوجتِهْ
ورام الزواجَ ببنت النقيب ؟
فما قبلوه على ثروتِه

جمال : وما تلك ؟ من هى بنت النقيب ؟

رشاد : فتاةٌ هى البدرُ فى ليلتِهْ

جمال : وما بيتُها ؟

رشاد : قصرُ آبائها
طويلُ العمادِ عريضُ الغرَف

جمال : وما مالُها ؟

رشاد : القصرُ عنوانُه
أليس القصورُ رموزَ التَّرَف ؟

جمال : وما سمعةُ البيتِ ؟

رشاد : ماذا تقولُ ؟

أما فى قديم البيوتِ الشرفْ ؟

جمال : وَلِمْ أَبَت الشيخَ وهو الغنىُّ

رشاد : وهل كل مافى الزواج المهورْ ؟

وهل يملأ التيسُ عينَ المهاةِ

وهل تحمل الكركدنُّ القصورْ ؟

جمال : رشـاد أَهْىَ حـــلوةٌ ؟

رشاد : وذات قصـــرٍ ، وكَفَى

جمال ، ما ضـــرَّ لو أَنِّىَ صا هرتُ الغـــنى والشرفا ؟

أتعـــرف البنتَ يا رشادُ

رشاد : وأعرف الأمَّ يا جمـــالُ

جمال : كيف ومن أين ؟

رشاد : لى ببيتِ الــــنـــقيب من نشأتى اتصــالُ

أُمِّىَ كانت إليه تغـــدو

إذ أنا طفــلٌ ، ولا تزالُ

جمال : ماذا ترى رشادُ إن طلبتُها ؟

تُرى تَردُّني إذا خطبتُها ؟

رشاد : أَصْغ لى . أنت مثل ما تتمنى

«زينبٌ» تجمع الغنى والجمالا

جمال : الغنى يا رشاد ؟ إنك تهذى

رشاد : أنا أهذى ؟

جمال : أجلْ . وتخلِطُ

رشاد : لا . لا

أنت فوق النقيب دخلًا وَرَيْعًا

بعد حينٍ وأنت أكثرُ مالا

جِدّةٌ تجعل الحديد على الما

ل وتحمى الأبوابَ والأقفالا

جمال : لكنها يا صديق أشدُّ منى ومنكا

رشاد : صبرا فعمّا قليل سيُفرج الله عنكا

جمال : وجمالى ؟

رشاد : [ويخرج مرآة]

أفى جمالك شكٌّ ؟

خذْ تأملْ . أنظرهُ فى مرآتى

سوف تَسبِي فؤاد زَينبَ

جمال : من « زيــــــنبُ » ؟

رشاد : هذا يا صاحبى اسمُ الفتاةِ

جمال : رشاد ، اسمع . عقدتُ العزمَ فاذهبْ

وأُمَّكَ فاخطبا لى اليومَ زينبْ

رشاد : إذن أعطـــنى ليرة من حِسابى

وبعـــد غـــدٍ نلتقِى ها هنـا

جمال : [يناوله الليرة] :

قبلتُ فخُـــذْ

رشاد : [بعد أن ينظر أمامه] :

إنتظر يا جمالُ بربِّكَ فالحـظُّ قـد أحسـنا

فهـذا أخـو زينبٍ مقبلًا

فسِر حيث شئتَ ، ودعنِى أنا

[يجلس عزيز فيتقدم إليه رشاد]

رشاد : عزيزُ ؟ مَنْ ؟ أهلاً أخى منذ شهورٍ لم أرَكْ

عزيز : رشادُ أنت ها هنا ؟

مَن ذا الذى كان معَكْ ؟

رشاد : أنظر إلى ثيابِهِ ولونِها كيف اتّحَدْ

أنظر إلى حذائه من النظافة اتّقَدْ

والبنطلون مُسْتَوٍ لم ينكسِرْ ، لم ينعقِدْ

أعِرْنِيَ السمع أعِرْ عندى لكم شىءٌ يسُرّْ

عزيز : ما ذاك ؟ هاتِ ، ما الخبرْ ؟

رشاد : هذا جمالٌ وحيدُ جَدّهْ

بخيلةٍ يا عزيزُ ، جِلْدَهْ

عزيز : وعمرُها يا رشادُ ؟

رشاد : يربو على الثمانينَ

عزيز : تلك مُدّهْ

والمالُ ؟

رشاد : ما شئتَ من فدادينِ

ومن بيوتٍ ومن دكاكينِ

والذهبُ الصَبُّ كلَّ ناحيةٍ

في البيتِ ، مِن مُخبّأ ومدفونِ

عزيز : والآن ماذا تبتغي ؟

رشاد : أُريدهُ لزينبا

عزيز : وكيف ؟ هل يقبلُها ؟

رشاد : كلّمتُهُ فما أَبَى

فامضِ إلى أمِّكَ يا عزيزُ بلّغْها النَّبا

لقد وصفتُ القصرَ لِـأبلهِ وصفاً عَجَبا

ولم أزلْ أطري له الجَدَّ وأمدحُ الأَبا

وأنعتُ المجدَ القديمَ وأحلِّ النّسَبا

وقلتُ عن أُمِّكَ خَيْراً وامتدحتُ زينبا

عزيز : وقد نسيتَني أنا ؟

رشاد : لا . بل أَطَلْتُ الكَذِبا

عزيز : وما الذي قلتَ عنِّي ؟

رشاد : قُلت : فتًى ما أفاقا
بالليلِ يَغشَى الملاهي وبالنهارِ السِّباقا
تسألني عزيزُ رأيي
عزيز : لِمَ لا ؟ ألستَ منذُ زمنِ المهدِ أخا ؟
رشاد : أنتم عزيزُ يا أخي في أزمةٍ
ولا يَفُكُّ ضيقَكُمْ إلا الغِنى
المالُ فيه وحدَهُ خلاصُكم
لا بدَّ منه اليومَ أو لا فَغدا
عزيز : أجلْ ، بغيرِ المالِ لا عَيْشَ لنا
وكيف ؟ من أين يجيءُ ؟ أَفْتِنا
رشاد : مما نخوض فيه منذ ساعةٍ
مِن الفتى ، مِن موتِ جَدَّةِ الفتى
عزيز : وما الذي نصنع كي نصيدَهُ ؟
لا بد من مَصيدةٍ
رشاد : تلك أنا
اسمعْ أخي عزيزُ أنتم أسرةٌ
لم يبقَ من وجودِها إلا شَفا

قصرُكمو من قِدَمٍ مهدَّمُ
قد خاطَ فيه العنكبوتُ وبَنَى
سكنتموه ها هنا وهاهنا
كالبوم . . كل بومتَيْنِ فى فضَا
ملأتموه خدمًا أشداقُهم
دائرةٌ على الرغيف كالرَّحَا
أنظر إلى القصور كيف أصبحتْ
لم يبقَ من مقدَّمٍ ولا أغا
احتجب القوم وراء ظلها
لا يُسالُ البوابُ إلا قال : لا

عزيز : كفى رشادُ صِفةً لبؤسِنا . كفى . كفى
ولا تعذِّبْ مهجتى ولا تهِجْ لِيَ البكا
وامضِ اجتهدْ رشاد فى تزويج أختى بالفتى
إذا كان لها أهلا

رشاد : ولِمْ لا يا أخى ؟ لِمْ لا ؟
فتًى لم يحْكِه الشبا نُ هندامًا ولا شكلا
ولم يُنكِرْ له الإخوا نُ لا ظَرْفًا ولا عقلا

ومن بيتٍ يرى الناس عليه الخيرَ والنبلا
أبوه كان إنسانا

عزيز : وهذا كله فضلا
عما وراء جدَّتِهْ

رشاد : وعن عظيمِ ثروتِهْ
يا ليتنى فى حالتهْ

اسمع عزيزُ يا أخى أنا وانت لا نَرِثْ

أمْلَطُ يارب كما خلقتنى راضٍ على قلّةِ ما رزقتنى

عزيز : دعنا من الهزل . هلا أخذت فى الجدّ ساعهْ ؟
رشادُ أنت صديق ماذا ترى فى البضاعهْ ؟

ادخلْ بنا فى الجدّ يارشاد متى تراه ؟

رشاد : فى غدٍ أراه

عزيز : لم تقل لى عن الفتى . ما أبوه ؟

رشاد : كان نَخْرَ الرجال .. كان مديرا

[ثم لنفسه]

كانَ والله يسكَرُ الصبح والليل الى كل حانةٍ سِكِّيرا

عزيز : والفتى ، كيف شغلُهُ ؟

رشاد : في الدواوين

عزيز : إذنْ قد نراه يومًا وزيرا

رشاد : لِـمَ لا ؟

[ثم لنفسه]

قلتُها ومن أين أدرى ؟ ربمـا صار حاجباً أو خفيرا

[ثم لعزيز]

لا تسـلْني ما أبـوه يا أخى أو مَن الأمُّ وسَلْ ما جدَّتُهْ

لا ولا ماشغله ؟ ماجاهه ؟ في الدواوين ولا ما رتبتُـهْ

لجمالٌ في غـدٍ أو بعــدَه بوزيرين تســاوى ثروتُهْ

[بعد لحظة]

وَلِـمْ لا وجدَّتُهُ نمـلةٌ

إذا وقفتْ او مشتْ حصَّلَتْ

وتُدخل في بيتها ما تُصيبُ

ولا يُخـرج الدهرُ ما أدخلَتْ

لو انقلبتْ من جميع الجهات

على القشّ في فمهـا ما انفَلَتْ

ترى المال في بيتها في اللحاف
وتحت البلاط وحشو الشَّلتْ

عزيز : عجبتُ . يأتي البخيلَ المالُ وهو يرى
أنَّ البخيلَ إليه غيرُ محتاجِ
وقلَّ ما جاء حرًّا ماجدًا ومشى
إلى الكريم الكثيرِ الهمِّ والحاجِ

آهِ ما أكثرَ حاجي   مَن بحاجاتي أُناجي ؟
أزمةٌ دُرتُ فلم أَلْـقَ لها وجهَ انفراجِ

رشاد : عزيزُ أنت مفلسٌ
عزيز : ما شئتَ في ذاك فقُلْ
رشاد : على البلاط يا عزيزُ كلُّنا ذاك الرجلْ

عزيز : إذن بمالُ صفقةٌ رابحةٌ لنا كلينا
رشاد : قد فهمتَ مأربي
ولستُ أنسى فضلكم عندي ولا
ما طوّقتْ أمُّكَ أمي وأبي
عزيز : إذهبْ إذنْ رشادُ فاخطبْهُ
رشاد : لمن ؟

عزيز : لى ، ولزينب ، وأمّ زينب

رشاد : للأمِّ والإبنِ وللبنتِ ؟

أجل

عزيز : وكلّ مَن مَتّ لنا بالنسبِ

رشاد : أصبتَ يا عزيزُ أنتَ فَطِنٌ

عزيز : لا . بل هو البؤسُ يفطّن الغبى

رشاد : ورُكوبى يا صــديق وذَهابى وإيابى ؟

عزيز : إمض أنفقْ ما تشا واصــــبِرْ إلى يومِ الحسابِ

أنا لــو بيــع بفَلــيس لم يجــدْ سـوقًا جِرابى

كلانا رشادُ على زورقٍ كسيرٍ وموجٍ عنيفٍ شقى

فإن ننجُ ننجُ بخير المتاع وإلا غرقنا مع الزورقِ

* * *

« ثلاثة آخرون جلوس على مائدة بالقهوة . »

« أحدهم يقرأ جريدة ، والآخران يتحادثان »

الأول : مَن ذلك المُطِلُّ من لحيتِهِ

كالبغل من وراء مِخلاةٍ رنا

الثانى : تسألُ عن ذاك الذى انحنَى على

صحيفةٍ يَقرا وولّانا القفا ؟

الأول : أجل ، أجل هذا القفا

الثاني : هذا هو الدكتور

الأول : منَ ؟

الثاني : عبدُالسلام مُرتضَى

يقرأ ما صادف من جريدةٍ
من سطرها الأول حتى المُنتهَى

وتستوي صُحُفُ الصباح عنده
وصُحُفٌ ظهرنْ من عامٍ مضى

تذاكرُ الدفنِ التي يكتبها
في الشهر أضعافُ تذاكرِ الدوا

وعيبه البخلُ

الأول : فيه بخلٌ ؟

الثاني : أبخلُ من جارَتي نظيفهْ

الأول : من يا أخي هذه ؟

الثاني : عجوزٌ في (الخط) من أسرة شريفهْ
ليس لها في الحياة إلا عبادةُ المالِ من وظيفهْ

حتى لقــد صارت حديثَ الحــارهْ

وضحكَ الجــارِ وسُخْــرَ الجــارهْ

كلهمــو يحسدها بمــالها ويتمــنى حاله كحــالها

وهكذا الأنفس فى ضلالهــا

الأول : ما غِنــاها يا أخى ؟

الثانى : أكـــــثرُ هـــذا الخُـطِّ مالا

الأول : ومن الوارث إن ماتت

الثانى : فــتًى يُــدعى جمــالا

الأول : وذلك الدكتورُ ؟

الثانى : هذا «مادرٌ»[1]

الجــوعُ يا أخى ولا الأكلُ معَــهْ

لقــد دعانى للغَــداء مرّةً

فقدّم البيضــة بين أربعَــهْ

وجىء بالشواءِ

---

(١) أبخل العرب ؛ و يضرب به المثل فى البخل .

الأول : قل ماذا جرى ؟

الثانى : أومَا إلى خادمه أن يرفعَه

رأى فيه عيبًا وإن لم نجد
على الجسم عيبًا سوى قِلّتِهْ
فقد كان أنضجَ لحمٍ رأيتُ
وقد كان كالمسك فى نكهتِهْ
ومن بخلِهِ تُفتحُ القهواتُ
وتُغلقُ ، وهو على « شيشتِهْ »
يُقضّى بها طَرَفَىْ يومه
ويُمضى بها طرفَىْ ليلتِهْ

الأول : ومرضاهُ ؟

الثانى : يلقاهمو فى الطريق حينًا ، وحينًا على قهوتِهْ

[غلام يدخل القهوة صائحًا]

الغلام : أين هو الدكتور ؟

أحدهما : ذاك

الغلام [للدكتور] : سيّدى أخى سَقَطْ
تحت الترام

الدكتور : فليكن أو تحت وابور الزاط
فما الذى أصابهُ ؟

الفلاح : إنفلق الرأسُ

الدكتور : فقطْ ؟
هيّا ولو أنّى ما عالجت فى الشارع قطْ

الفلاح : اللهُ فى عونِ الجريح منكَ جرّاحَ القطط

« ستار »

الفصل الثانى

[فى منزل السيدة نظيفة]

« حجرة بها دكة عليها شلتة ومخدات ثلاث — السيدة »

« نظيفة تلبس جلابيـة من الشاش الأبيض ، ومتعصبة »

« بمنديل ، وفى رجلها القبقاب »

نظيفة : [تتكلم وحدها فى الحجرة] :

منزلى حولى نظيفٌ   وأنا الست نظيفهْ

وبلاطى ذاك أنق   بكثير من صحيفهْ

كل ما كلفنى ما   ء وصابون وليفهْ

لا بساطٌ لا كليمٌ   لا حريرٌ لا قطيفهْ

غير هذى الخشبات الـ   خيزُرانات الخفيفهْ

ليس بيتي كبيوت الناس أحمالاً كثيفة
أنا بيتي في الهواء الطَّلقِ والشمس اللطيفة

ودكتي تلك أغلى لديَّ من ألف صفقة
كم مال زوجي عليها وكان يقطر خفّة
جلستُ فيها عروسا واليوم إذ أنا قُفّة

[بعد أن ترى « حسنى » الخادمة داخلة عليها وبيدها شيء]

تعالَيْ يا ابنتي جيئي بماذا جئتِني « حُسنى » ؟
حسنى : لقد جئتُ بفنجانٍ
نظيفة : خُذيهِ جرِّبي البُنّا
وهذا شُبُكي هاتي[1]
حسنى : أجل بالعود[2] قد جِيتُ
وفي الكيس مع الدخا نِ زَندانِ[3] وكبريتُ
نظيفة : سلمتْ حسنى يداك

(١) أداة التدخين .
(٢) عود البخور .
(٣) مثنى « زند » ، وهو ما تقدح به النار .

حسنى : أنا مولاتى فداك

والآن هل آخذ خَرْجَ النهار (١)

نفليفة : إمضِ خذيه إنه فى (الكرار)

حسنى : هيّأته سيدتى ؟

نفليفة : أجل

حسنى : وما أخرجتِ لِى ؟

نفليفة : رأسٌ من الثومِ وخمسٌ من صغارِ البصلِ

حسنى : والسمن مولاتى تُرى ؟

نفليفة : كأميس . لمْ أقلّلِ

أوقيّةٌ

حسنى : والأرز ؟

نفليفة : لا لا يدخلنّ منزلى

لقد غلا سعرًا ولا يُعجبنى السعرُ الغَلِى

حسنى : ليتك بالزيت اكتفيتِ والدقيقِ والعسلْ

نفليفة : ولِمَ ياحُسنَى أرا كِ اليومَ عادَكِ الخَبَلْ ؟

(١) ما تخرجه « نفليفة » عادة من مواد لإعداد الطعام .

نسيتِ أنَّ هاهنا وتحت هذى الكنبَهْ
العشراتِ من قديم الكعك والقُرَيْبَهْ ؟
حسنى : لمْ أنْسَ يا سيدتى
نظيفة : أنت إذنْ مخرِّبَهْ
حسنى : قد اشتهيتُ لُقمةَ القاضى
نظيفة : اشتهتك عقربَهْ ؟

وما الذى اشتريت يا « حسنى » لنا من الخضَرْ ؟
حسنى : « الباميا » كأنها الزُّ مرُّدُ الخامُ الحجَرْ
نظيفة : « الباميا » ؟ منذ متى هذا الخضارُ قد ظهرْ ؟
حسنى : جديدة .. قلت عسى سيدتى بها تُسَرّ
نادَى المنادونَ عليها منذ أسبوعٍ عَبَرْ
ترفلُ فى شوكتِها وفى شبابها النَّضِرْ
نظيفة : أجل لقد أكلتُها فى منزل الشيخ « عمرْ »
كالذهب الإبريزِ والشومُ عليها كالدررْ
حسنى : واليومَ تأكلينها
نظيفة : أمَرّ من طعم الصَّبِرْ
اشتُريَتْ غاليةً مثلَ البواكيرِ الأُخَرْ

حسنى : هدية تلك

نظيفة : ومِمَّنْ ؟

حسنى : مِن قريبٍ لى حضَرْ

نظيفة : من أين جاء ؟ ومتى ؟

حسنى : من الصعيد قد بَكَّرْ

نظيفة : وبِمْ تُرى جَزَيْتِيه ؟ بقبلةٍ مستعجلهْ ؟
إمضى فتاتى واطبخى « دقيّة » مكمّلَهْ
كأنها خليّةٌ من عسلٍ محمَّلَهْ
والثوم فيها لؤلؤٌ وهى به مكلّلَهْ
والعظم ..

حسنى : واللحم ..

نظيفة : احذَرى يُتعبنى أن أكُلَهْ

حسنى : اللحم يا سيدتى فى « الباميا » ما أسهلَهْ

نظيفة : « حسنى » انظرى

حسنى : سيدتى

نظيفة : على البلاط وَسَخٌ

حسنى : الآن أغسل البـــلا طَ ثم أَمضى أطبـــخُ

[تنسل السيدة إلى حجرتها . . يدخل جمال]

جمال : حُســـنى

حسنى : جمـالُ سـيدى ؟

جمال : أنتِ هنـا ؟

حسنى : أنـــتَ هنـــا ؟

جمال : ما تصـــنعين ؟

حسنى : صنعتى الـــيومَ وصـــنعتى غـــدا
على البـــلاط أنحـــنى أغســـله كما تـــرى

جمال : يـارب لِمْ خلقتَ للـــعذابِ هـــذه اليـــدا ؟

حسنى : لا . . لا عذابَ سـيدى إنى أُحب العمـــلا

جمال : وأين جـــدتى فلـ ـســى لا أراها ها هنـا

حسنى : أظنهـا مضـــتْ تصـــلّـــى فى الخـزانةِ الضحى

جمال : لله أو للـال يـا حُسنَى تُرى ؟

حسنى : كما تشـا
مالى وما تعمـــلهُ ؟ لكلِّ عبـــد ما نوَى ؟

جمال : [لنفسه وقد رأى كيسا على الدكة] :

ما ذاك تحتيَ ... كيسٌ ؟ بُشراىَ ، هذا جِرابُ
أعامرٌ ليت شعري جرابُها أم خرابُ ؟

كيسٌ ؟ أجل كيسٌ وحُسنِيَ لا ترى ... لا تسمعُ
[ثم يقبله] :
كيس وفيه ذهبٌ آخُذُهُ أم أدَعُ ؟
[يتركه مترددا]
لا ... لا ... ألصٌّ أنا ؟ لا ليت يدى تنقطعُ
[يتناوله] :
لننظرْ ما حوى الكيسُ
[يفتحه ويعد ما فيه]

جنيهان . . . ريالانِ
وهذا فصٌّ ياقوتٍ وذى سُبحةُ مَرجانِ
[يخرج ما فى جيبه]
لننظرْ ما حوى جيبى أقرشانِ ونصفانِ ؟
حرامٌ شدةُ البخلِ حرامٌ طولُ حرماني

[يرد نقوده ، و ينظر إلى الكيس] :

فإن مددتُ نحو كيسها اليدا   سرقتُ نفسي ما سرقتُ أحدا

ولا أرى سارقَ نفسه اعتدَى

لا يا جمالُ .. ما رأى   رأيَك في الناس أحدْ

من قال مالُ الوالدين   مُستباحٌ للولدْ ؟

[حسنى ، وقد نظرت إليه خلسة فرأته ، وهو يسرق]

يا أسفا على جمالٍ ما صنعْ ؟   جاء إلى الكيس مرارا ورجعْ

حام عليه برهةً ثم وقعْ

[لنفسها] :

ويحَ جمالٍ جَرؤتْ   على الحرام راحتُهْ

ما كان لصًا إنما   جَنت عليه جدَّتُهْ

[جمال يدس الكيس في جيبه] :

ولِمَ لا ؟ والمال مالي بعدَها   وإنْ تصرفتْ بمالي وحدَها

وديعتي حتى تموتَ عندَها

[يخرج مسرعا]

حسنى: يا ألفَ ويلٍ على جمالٍ انسلَّ كاللصِّ في الظلامِ
الفقر والبخل صيّراه من ابن بيتٍ إلى (حرامى)

هو لصٌّ وسارقٌ غيرَ أنى أُحبُّهُ
حرمتْه القليلَ من حقِّه .. أين ذنبُهُ؟

إنى بعينى هذه رأيتُه مرددا
لما أحسَّ المال جُنَّ وأضاع الرَّشدا
على الضمير والعفاف والحجا تمرَّدا
لو ملأتْ جدَّتُه يديه ما مدَّ اليدا

[ثم تسمع ضجة فتقول]:

قد رنَّ في الحجرة قبقابها
صلَّتْ وعادت من مُصلَّاها
وما درتْ وهي تصلِّي الضحى
أنَّ جمالًا من ضحاياها

[تدخل السيدة نظيفة بدون أن ترى «حسنى»]

[فتقول حسنى لنفسها]:

تسرع نحو كيسها لم ترَنى .. فلننتظرْ

ماذا تُرى تفعل؟ هل تبكى دماً أم تنتحرْ؟

[نظيفة لنفسها] :

كِيسىَ كان هاهنا من ساعةٍ .. شئٌ عجبْ !
من يا تُرى طيَّرهُ ؟ كيف اختفى ؟ أين ذهبْ ؟
فيه ريالان وفيهِ قطعتان من ذهبْ
وضعتُه هنا وغبتُ عنه .. ليت لم أغبْ
كِيسِى حبيبى أين أنتَ؟ كيف ألقاكَ ؟ أَجِبْ !

كِيسىَ .. يارب أعدْ لى كيسى وخذه لى يارب من إبليس
وكلِّ لص فاجر خسيس

إن عدتَ لى فشمعةٌ للحنفى أو شمعتانْ
قرش يعود لى به من القروش مائتانْ

وشمعةٌ للسيدهْ توضعُ فى مسجدها
تبيت فيه مُوقدَهْ بالقرب من مَرقدها

لا .. أنا فى فقرٍ إلى شمعةِ
سيدتى « زينبُ » بِى عالمةْ

ولم يَرَ الناس ولم يسمعوا

سيدةٌ تأخذ من خادمةْ

[ثم بعد أن ترى «حسنى»]

نظيفة : حُسنى

حسنى : مُرِى

نظيفة : أنتِ هنا ؟

حسنى : أجل

نظيفة : تعالَى اسمعى

خلِّى البلاطَ

حسنى : ما جرَى ؟

نظيفة : دعِيه ساعةً دعِى

حسنى : ماذا جرى سيدتى ؟

نظيفة : ما لم أكُنْ أنتظرُ

مصيبةٌ .. فاجعةٌ

حسنى : ماذا دهَى ؟ ما الخبرُ ؟

نظيفة : كيكى كان ها هنا طيَّره المُطَيِّرُ

حسنى : ما كان فيه ؟

نظيفة : ذهبٌ وسُـبحةٌ وجـوهرُ

حسنى : وهل ظننتِ السوءَ بى سيدتى ؟

نظيفة : أستغفر الله ابنتى أستغفرُ

«حُسنَى» ابنتى خادمتى تسرقنى ؟

ذلك ما ليس ببـالى يخطرُ

فى ذمـةِ الله كيسى عوّضـنى اللهُ عنـهُ

واللـصُّ لا بد يوما يقتـصُّ لى اللهُ منـهُ

حسنى : سـيدتى مسـرفةٌ سـيدتى مضيّعـةْ

إن الجـرابَ لم يكنْ هـذا المكانُ موضعَهْ

نظيفة : إذهبى يا ابنتى عرفتُ غريمى

أنت لا تجهلينه فهـو منّـا

حسنى : مَن تُرى؟ مَن ؟

نظيفة : سلى ضميرَكِ عنه أنتِ منـه ملئتِ قلباً وذهنا

حسنى : مَن ؟

نظيفة : جمـالٌ

حسنى : ماذا تقولين يامو لاتى

نظيفة : الصدقَ

حسنى : بل تظنِّينَ ظنًّا

مَن ؟ جمالٌ ؟ هذا محالٌ فَظُنِّى

بِى أنا السوءَ

نظيفة : أنتِ؟حاشاكِ«حُسنى»

حسنى : إذن مَن ؟ قِطةٌ فى البيتِ لمَّا لَمْ تجدْ لحما

مضت بالكيس ظَنّتهُ هو الجلدَ أو العظما

نظيفة : [مستضحكة]

إمضِى اذهبِى ياخَباثْ يا نكبةً فى الإناثْ

أوشكتْ تدخلُ الضحى .. إلهَسى الفو

طَةَ « حُسنى » طِيرِى إلى الكانونِ

واحذرى الطّبخ أن يشيط وسُدِّى الـ

ـبابَ دون الأنوفِ .. دون العيونِ

حسنى : سيدتى ها أنا ذِى ذاهبةٌ لشانِيا

انتظـــرينِى ســاعةً ثم انظُـــرِى طعاميا

[تخرج]

نظيفة : [لنفسها]

قـــد ذهبتْ اشأنهـا اليـــوم يومُ « البـاميا »

« حُسنَى » اذهبِى إنى لفى شكٍّ وإن

أظهرتُ أنِّى بكِ جدُّ واثقهْ

قد سُرِقَ الكيسُ وما من أحدٍ

سواكِ فى البيت فأنتِ السارقهْ

ولكـــنى أداريـــكِ فَأُخْفِى خـــبرَ البـــئرِ

وكم ســـيدةٍ قيَّـــدَها الخـادمُ بالســـرِّ

[جمال يدخل] :

نظيفة : مَن ؟

جمال : جدتى ... هـذا أنا

نظيفة : مَن ؟ وَلَدِى جمـالُ ؟

جمال : ما صـــنعَ الزكامُ يا جـــدةُ

نظيفة : لا يزالُ

وأنت ما تصنع يا جمالُ ؟ كيف الحالُ ؟

جمال : الحال يا جدّهْ زفتٌ وقطرانْ

نظيفة : كيف ؟ انفضِ الجيبَ

فيه جنيهانْ

جمال : أنا ؟ جنيهانِ ؟ ومن أين له ؟

جيبيَ حتى من ريالين خلا

جدةُ

نظيفة ؟ روحي ... تكلّمْ ماذا ؟ فداكَ البنونا

جمال : أقول لكن مدِينِي جدةُ لا تغضبينا

نظيفة : إلا النقود فإني حلفتُ أمس يَمينا

جمال : إذن أمضي كما جئتُ إذن لا شيءَ يا جدهْ

على أنيَ لم أظفرْ بشيءٍ منكِ من مدّهْ

نظيفة : والثلاثون ريالا ؟

جمال : قد مضى شهرٌ عليها

تلك شمَّتْها يدُ النشالِ فانسلَّتْ إليها

نظيفة : لا حَرَمَ اللهُ اللصوصَ خيرَكا

ما بالهُم لا يسرقون غيرَكا

لم تلقَني وتنصرف بمالي إلا وعادتْ قصةُ النشّالِ

كأن مالي ليس بالحلالِ

جمال : لم اقُلْ مالُكِ يا جدَّةُ سُحْتٌ أو حرامْ

فلقد يُسرق مالُ اللـه والبيتُ الحرامْ

نظيفة : العينُ يا جمالُ

جمال : لا تقولي فما إلى مالِك من سبيلِ

لعين حاسدٍ ولا فُضولي

مالُكِ في الحافِ والمنديلِ

مالُكِ في القفّةِ والزنبيلِ

وتحت ماءِ البئرِ في برميلِ

نظيفة : في البئرِ ؟ إنّ ذا عجب ماذا تصوغ من كذِبْ ؟

[في اضطراب]

جمال لا تنسَ الأدَبْ

في البئرِ يا ابني؟ هذه ما خطرتْ ببالي
لِمْ لا تقول المالُ قد خبئاتٌ في سروالي؟
لكن هَبوني قد فعلتُ ما لَكم ومالي؟
ألستُ يا ابني حرّةً بصيرةً بمالي؟
أصنعُ ما شئتُ به أصنع ما بدا لي

جمال : هَوّني جدتي عليك فإني لم أنازعك هذه الحريّة
خبّئي المالَ حيث شئتِ من المنـ
ـزلِ في السقف أو وراء حَنِيّة
ادفنيه في مطبخ أو كرارٍ
أو لحافٍ أو شلتةٍ أو حَشِيّة
أو قواديه في قرارة بئرٍ
ذات عمقٍ عن الظنونِ خفيّة

جدتي هذا كثيرٌ ما الثلاثون ريالا؟
هي يا جدة ليست عند أمثالِ مالا
لا يمينًا ملأتْ يو مًا ولا أغنتْ شِمالا

نظيفة : عند أمثالك؟

جمال : أىْ واللهِ

نظيفة : ما أنتم رجالا
هى تبغِى ثروةَ المر ءِ إذا كانت حلالا

إسمع جمالُ

جمال : . سامعٌ يا جدتى

نظيفة : جدُّكَ يا بُنَىَّ كان مُفلسا

جمال : مثلِىَ يا جدةُ ؟

نظيفة : لا يا ولدى بل كان أشقى حالةً وأتعسا
أسَّسَ من شروى نقيرٍ ثروةً

جمال : لم تذكُرى جدةُ كيف أسَّسا
ألم يكنْ سكناهُ رَبْعًا دارِسا ؟
ألم يكن طعامه المدمَّسَا ؟
ألم يكنْ على البلاطِ نومُهُ ؟
ألم يُحَرِّمْ نفسه أن تلبسا ؟

نظيفة : ومَن نبَّاكَ أو مَن ذا
رأى جدَّكَ عُريانا ؟

جمال : هَبيهم لم يُنبِّئونى كفانى بك عنوانا

جدتى ما رأيت قطُّ على جسـ
ـمِك مذ كنتُ غير هذى الثياب
بدِّلى ثوبَكِ القديمَ أهذا
كفنٌ يُرتدَى ليومِ الحساب ؟
وعلى الرأس ذلك الشاش و (الأو
يَةُ) مَلَّا تَطَاوُلَ الأحقابِ
قد عفا رقعتيهما النشر والطـ
ـىُّ وطولُ المدَى وطولُ الخضاب
لَم يَرِ الناظرونَ رجليكِ إلا
كعصِيِّ الحمَّامِ فى القبقاب

نظيفة : قد توقَّحْتَ يا جمالُ

جمال : دعينى

اتركينى (أفش) جدةُ ما بى

والدى مات فى الشباب من الصبر

ماتَ واليومَ تقتلين شبابى

نتابعة : لا تـــذكّرني العـــزيز جمالٌ

وَدَع الجرحَ ، لا تحرّكْ مُصابى

جمال : اقتليـنى كوالدى

نظيمة : بَعْدَ الشـــــرُّ بل اسلمْ وحُطّنى فى التراب

إن يا اخى الجرابَ والمالُ فيه لكَ

جمال : مَن لى ببعض ما فى الجراب ؟

ما انتفاعى به ؟ كُليـه ،، اشربيه

بعـــد ما آذن الصِّـبَا بذهـاب

[سرورى ممتزج بالدموع]

إصـفحى جدةٌ عمـا كان منى واغفــرى لى

وائـذَنى أيتهـا الجــــدّةُ أمضـى لسـبيلى

نظيمة : لقــد نسيتُ يا جمـا لُ وطـــويتُ ما جَـرى

والآن ادعــوكَ

جمال : لمـا ذا ؟

نظيمة : للغَــداء ،، ما تَـرى ؟

ابـقَ جمـالُ نقتبسْ لــونًا جـديدًا غاليـا

ابقَ بنىّ كُلْ معى اليومَ عندى (باميا)

جمال : « الباميا » جديدةٌ ؟ من قال يا جدّتيا ؟

نظيفة : أَكَلْتَها ؟

جمال : أجل مراراً عند أصدقائيا

نظيفة : فى (الباميا) خَلُّ الطها ةِ وخُذ الطّواهيا

وطبخ «حُسنَى» يحفظُ الشّبابَ والعَوافيا

اجلسْ جمالُ ساعةً وناجنى بحاجتِكْ

جمال : ماذا أقول جدتى ؟

نظيفة : قلْ ما تَشا لجدّتِكْ

جمال : أنا يا جدتى كبرتُ ولا أطلب الا الزواج

نظيفة : عندى صبيّةٌ لكَ

جمال : الخادمُ ؟ لا ، كم قلتُ : لا

نظيفة : لا تَدْعُ « حُسنَى » خادماً

جمال : ابنةُ من ؟

نظيفة : بنتى أنا

جمال : لقيطةٌ ربّيتِها انت ، أليس هكذا ؟

سطيحة : تذاكرنا الزواج تعالَ ننظرْ

زواجُكَ كم يكلِّف يا جمالُ

جمال : قليلاً بحذقي

ظريفة : كم ؟

جمال : نصف ألف

سطيحة : أعندك ما لنصف الألفِ بالُ ؟

[يغنى]

ما ثَمّ مصرٌ لا يُبقي عليها ولا يُبقي على الأفراح مالُ

[ثم يقول جمال]

اشرحْ جمالُ ما يكو نُ المهرُ

جمال : هُدَيه هيّنهْ

سطيحة : من الجنيهات ؟

جمال : أجل ليست ريالاتٍ هيّنهْ

و « شبكة » تصلح أن تُهدَى وأنتِ المُهدِيَهْ

سطيحة : وكم تُساوي ؟

جمال : مئةً

سطيحة : أُخرِجُها من ماليَهْ ؟

جمال : ومشية كراة بيت للعروس وليّة
نملؤه أمتعة وحلية وآنية
ومشية لقرحي ومشية لجبية

نظيفة : واحيرتي ! واضيعتي ! « جمالُ » .. واخرابية !
إنْ أنا زوجتكَ يا ابني بعتُ ما ورائية

جمال : إذن فاعلمي جدتي أنني خطبتُ

نظيفة : وما لي ومَن تخطبُ ؟
أحقا خطبتَ ؟

جمال : أجل جدتي

نظيفة : ومن تلك؟ ما بيتها؟ ما الأبُ ؟

جمال : فتاةٌ من « الخُط » بنت النقيب

نظيفة : بلا والدٍ واسمها « زينبُ »
هنيئاً لك البيتُ بيتُ العفافِ

جمال : وبيتُ الغنى ، والغنى يُطلبُ

نظيفة : أأنتَ تعرِّفني من تكون
وما مالها ؟ إنها تكذبُ

لأنت أسعدُ منها وأنت أكثر مالا

جمال : أنا ؟ انظرى ذاك جيبي هل تُبصرين ريالا ؟

لطيفة : بل تلك « حسنى » فتاتى أتمُّ منها جمالا

وربما صارت على فقرها أكثرَ منها فى غدٍ مالا

وكيف وجدتَ المالَ يا ابنى ؟

جمال : اقترضتُهُ

لطيفة : وممن وكم يا ابنى وكيف رِباه ؟

ومن أين تقضى الدينَ ؟

جمال : يقضيه قادرٌ

على الشيءِ لا يَقضى الديونَ سواهُ

لطيفة : إزعق « جمالُ » ناد « حسنى » أُدْعُها

[ثم تنادى] : يا بنتُ

جمال : حُسنَى

لطيفة : بنتُ

حسنى : [تدخل] مولاتى

نظيفة : عندى « جمالٌ » يتغدّى معى

هاتى حديث « الباميا » هاتى

حسنى : سوف ترى ياسيدى صَنعتى

وسوف تنسى « كفتة الحاتى »

نظيفة : حُسنى بذلتِ كثيراً وما رفقتِ بمالى

أكفتةٌ بيمينٍ وباميا بشمال

حسنى : سيدتى لاتغضبى لالحم فى المطبخ لا كفتةَ لا كبابا

العظمُ لاغيرَ ملأتُ « الباميا » منه ... فطابت نكهةً وطابا

نظيفة : يَسلمُ فُوكِ يا ابنتى

[ثم لجمال] : إسمع لها

« جمالُ » ... كيف تُحسنُ الجوابا

جمال : جدتى هل فكّرتِ فى أمر « حسنى » ؟

نظيفة : كيف ؟ ماذا ؟

جمال : كما افتكرتِ بأمرى

زوجيها

نظيفة : أزوِّجُ البنتَ ؟

حسنى : لا . . . لا سيدى ... ذاك لم يَمُرَّ بفكرى

أنتَ ياسيدى «جمالُ» كثير الـــمزْح فاجعلْ محلَّ مزحِكَ غيرى

أنا لا أقبل الزواج بإنسا نٍ ولَو ساق مالَ قارونَ مهرى

أنا ماعشت لا أفارق هذا الـــبيتَ إلا الى قرارةِ قبرى

نائفة : عشتِ « حسنى »

[ثم لجمال] :

سمعت كيف أجابت ؟

كيف لم تنسَ لى حنانى وبِرِّى ؟

[وتهم السيدة نائفة بالوقوف] :

جمال : أين يا جدة تمضين

نايفة : قريبًا . . خطوتين

أنا قد خبأتُ أمس لك يا ابنى موزتين

[تمشى وتخرج] :

جمال [لحسنى] :

بَعُدَتْ جدتى تعالَىْ أقبلْـ

ـكِ تعالَىْ حبيبتى قبِّلينى

حسنى : بعدتْ فليكنْ عفافى وديِنى

حول عِرضى لا يُبعِدُ اللهُ دينى

إن أكن خادما فنفسىَ فى خِد
رِ من النبلِ والعفافِ مَصونِ
ابغ يا سيدى سواى لما تد
عو له اليوم من خسيسٍ ودُونِ

جمال : هى حُسنَى لا يذهب الوقتُ

حسنى : دعنى
وقتُ مثلى بجانب الكانونِ

جمال : قبلةٌ ها هنا على الجيدِ «حُسنَى»
أو على الوجنتين أو فى الجبين

حسنى : ما الذى قلتَ يا جمالُ

جمال : طلبتُ الحقّ

حسنى : حقّ المهوّس المجنون
لكَ يا سيدى جمالُ شئونٌ
فامضِ فيها وخلّنى وشئونى

جمال : إلى أين ؟ قفى (حُسنَى)

حسنى : إلى الكانون والنارِ
إلى الشغل الذى يَنهى عن الريبة والعار

[وتمشى .. السيدة نظيفة تدخل]

نظيفة : جمـــالُ يا ابنى

جمال : جـــدتى

نظيفة : [تلحين] : ما لكِ تَرجعينــا

الموزتانِ يا جمـــا لُ صارتا عجينـــا

جمال : ألقيهمـــا يا جدتى الـــــرِّقِ العَفَنَ التِّينـــا

نظيفة : اشربْهما يا ابنى عسى أن يُورثاك لينــا

جمال : أنا يا جـــدة لا أقـــــوى على هذا العلاجْ

إن فى البيت دجاجًا فاطرحيـــهِ للدجاجْ

« ســـتار »

الفصل الثالث

المنظر الأول

« الست نظيفة على فراش أرضي في قاعة من منزلها »

« وحولها « حسني » وجماعة جئن للسؤال عنها من الجارات »

زائرة [وهي داخلة] :

العوافي أمّ الأفندي العوافي

حسني : اخفضي الصوتَ . . أمسكي يا خالهْ

الزائرة : ما لها ؟ ما بها ؟ عفا الله عنها

حسني : هي من ليلتين في شرِّ حالهْ

زائرة : أمُّ الأفندي عوفيتْ من قلبها تحبني

ما كان أندى يدها على الفقير والغني

شفاها الله للبيت وللجار وللجارهْ

جَـرى إحسانها كالسيــلِ حتى أغرق الحارهْ

قـد وقعتْ عينى عليها مرّةً فى « السيدهْ »

أخرى : فما رأيـتِ ؟

الأول : نخـوةً وكرمًا ما أزيـدَهْ

جاءت وراحت تُقرِضُ اللـه وتُعـطى مسـجدَهْ

وكلما مـدَّ فقيـرٌ يـدَهُ

الثانية : عضّتْ يدَهْ

يا أختُ أين ذلك المدحُ العَطِرْ؟

وأين جُودها الذى كان المطـرْ؟

الأول : [لحسنى]

أنظرِى خلفَكِ « حُسنى »

حسنى : مَن ؟

الأول : هى الشيخة « بنبـهْ »

[الشيخة بنبه تتقدم] :

بنبه : كيف حال النائم اليوم ؟

حسنى : انظـرِى . الحالةُ صعبهْ

إحدى الزائرات :

« حسنى » اطرَحِى الغمّ ولا

تستسلمى إلى الكَدَرْ

رأيت رؤيا أمس

أخرى : ما ذلك

حسنى : خيرًا . ما الخبرْ ؟

الزائرة : رأيتنى فوق طريق فيه طينٌ ومطرْ

مشتْ به أم جمالٍ تنثنى وتفتكرْ

تحملُ حِملَ جملٍ أو جملين من حجرْ

حسنى : ثُمّ

صاحبة الرؤيا :

إذا فوقَ الطريقِ ثَمّ شيخٌ قد ظَهَرْ

كأن نورَ وجهِهِ تحت العمامةِ القمرْ

قد طرحَ الأحمالَ عنها بحَجَرتْ على الأثرْ

حتى لبثتُ ساعةً عجبتُ كيف لم تَطِرْ

سمعتِ يا شيخةُ رؤياىَ ؟

الشيخة : سمعتُ العجبا

رؤيا كأنها الفَلَقْ تبارك الذى خلَقْ

أم بجمالٍ أعيُيَتْ وزال عنها العناءُ

وذلك الشيخ قطبٌ على يديه الشفاءُ

أخرى : أم بجمالٍ بخيرٍ قد أُلقِيَ الحمل عنها

[يظهر الدكتور مقبلا]

إحدى الزائرات :

ماذا ؟ من الداخل ؟ من يا تُرى ؟

أخرى : هذا هو الدكتورُ عبدُ السلامْ

الأولى : أبعدَ هذا .. القطبُ يؤتَى به ؟

الثانية : وأىُّ قطبٍ ؟

الأولى : هلْ نسيتِ المنامْ ؟

أخرى : ماذا تقول ؟ تظنُّ هذا القطبَ ؟

الأولى : ذاك هو العمَى

هذا الطبيبُ مُطربَشٌ والقطبُ كان مُعمَّمَا

شتَّانَ بين القمرِ المنوَّرِ الملمَّحِ

وبين تيسِ الجبلِ المفلفَلِ المملَّحِ

ما تلك فوق عينه ؟

الثانية : زجاجةٌ مُدَوَّرَهْ
تقيه ضوءَ الشمس أو تمنعُ عنه الغَبَرَهْ
كأنها غمامةٌ تحجب عيْنى بقرهْ

الأولى : ولِمْ تغَطَّى بالثيا ب السودِ رأساً لقدم ؟
كأنما أُخرجَ من زكيبةٍ من الفحَمْ

الثانية : سود الثياب بمصرٍ صارت ثيابَ الإمارهْ
فلا تَرَيْنَ بياضًا إلا على شيخ حارهْ

الأولى : وما يقيه ؟
الثانية : إسالى حُسنى
حسنى : يقيه « تُوسكَنَهْ »
الأولى : مسكينٌ الدكتورُ قد أصبح فُوهُ مدخنَهْ
الدكتور: العوافى أمّ الأفندى العوافى
حسنى : هى فى غَشْية ونوم عميق
الدكتور: كيف حسنى؟ما حال أمّ جمالٍ ؟
حسنى : هى فى الكَرْب خفّف الله عنها
الدكتور: ودوائى ؟

حسنى : لما تعاطتْهُ نامت

نومةً لم تقُمْ إلى اليوم منها

ما بها يا سيدى ؟ ما داؤها ؟

الدكتور : تُخمةٌ من أكلةٍ ذاتِ دَسَمْ

حسنى : تخمةٌ ؟ لا سيدى الدكتور . . لا

نحن لا نعرف فى البيت التُّخَمْ

الدكتور : إذن بها ضعفٌ

حسنى : ومن أين جاء الضعفُ

الدكتور : من قلةِ ما تَطْعَمُ

حسنى : وما يقوّى الضعفَ ؟

الدكتور : الأكل يا حسنى

حسنى : وكيف الأكلُ؟ أين الفمُ؟

الدكتور : رحم الله زوجها إنه كان صاحبى

كان فى كل منزل وطريق بجانبى

[ثم ينتقل الدكتور بفتاة مخاطبة إحدى الزائرات]

« خضرةٌ » أنت هنا ؟ ما تصنعين يا ابنتى ؟

خضرة : فى كل ساعةٍ أجى أسألُ عن سيدتى

الدكتور : و« حسنٌ » زوجُك ما

يصنعُ ؟

خضرة : فى البيت انطرَحْ

منذ تناول العــلا جَ بالأوانى ما سَرَحْ

الدكتور : وما له لم يَجِئْنِى ؟

خضرة : بأىّ رجلٍ يَجيئكا ؟

الدكتور : [إلى مرجانة] :

ما ذاك يا بيضاء ماذا أرى ؟

مرجانة : تورّمَ الخــدُّ من الدُّمَّل

الدكتور : [يخرج مشرطا من جيبه]

هاتى أريه .. اصبرى ساعةً

افتحهُ

مرجانة : لا ، يفتحُ اللهُ لى

أخرى : دعيه يفعلْ تستريحى

أخرى : اقعدى حَذارِ « مرجانةُ » أن تفعلِى

[يدخل جمال]

الدكتور: من ذاك ؟ أنت جمالٌ ؟

جمال: من ؟ سيدى الدكتورُ ؟

كيف وجدتَ جدتى ؟

الدكتور: تسير نحو العافيَهْ

جمال: وكيف وهى من ثلاثٍ لم تُفِقْ ؟

حسنى: بل إنها من أربع كما ترَى

وارحمتاهُ لك يا سيدتى

ولطفَ اللهُ بنا فيما جرَى

جمال: حُسنَى أقلِّ الحزنَ .. يعفو اللهُ عن

أزيد من هذا ويَشفِى أكثرا

الدكتور: دَعَا .. لا تخافا ولا تحزَنا

فما الأمر لليأس بالصائرِ

وكم فاقدِ الرشدِ لا غائبٍ

ورائى تركتُ .. ولا حاضرِ

وآخرَ لا راقدٍ فى الفراشِ

إذا قلّبوه .. ولا ساهرِ

حسني : أمرضاك كلُّهمو هكذا ؟

وهل يستفيقون يا سيدي ؟

الدكتور: تقوم عليهم يدي بالشفاءِ

قيامَ المسيح على المُقعَدِ

حسني : [لجمال]

وأنت سيدي جمالُ قَوِّني

علِّمْني العزاءَ والتصبُّرا

زائرة : « مرجانةُ » انظريهما

الأخرى : يحبها

الأولى : تحبُّهُ

الثانية : وبيديه قلبُها

الأولى : وفي يديها قلبُهُ

« يخرج جمال ، وتخرج مرجانة وبعض »

« الزائرات ، وتدخل إحدى الجارات تدعى زهرة »

زهرة : ما حال أمِّ الأفندي ؟

حسني : سيدتي في العذابْ

مضى عليها أربعٌ في كُربةٍ لا تُفْرَجُ
في النزع لا وعيَ لها والسرُّ ليس يخرجُ

زهرة : لديَّ خاطرٌ خطَرْ

حسني : ما ذاك ؟

أخرى : ماذا ؟ ما الخبَرْ ؟

زهرة : اصغينَ .. مما جرَّبوه في الأسَرْ
صوتُ « الفلوسِ » عند رأس المحتضَرْ
إن كان في دنياه بالبخل اشتهرْ
يسمعها فينطفي على الأثَرْ
وكلما تأخرتْ عنه انتظرْ

حسني : إذن قومي أريحيها إذن من هذه الحالَهْ

زهرة : وأين الشاش والفضةُ ؟

حسني : من مالِيَ يا خالَهْ

زهرة : مالُكِ أو مالُ سوا كِ كلُّ مالٍ قد حضَرْ
القصدُ أن يقرعَ صو تُ المالِ سمعَ المحتضَرْ

« حسنى » اسمعى لِيَ أصغى

هاتى مُلاءة فرش

والآن فليُلقِ كلٌّ منكنَّ فيها بقرش

ثم لحسنى

« حُسنَى » خُذى من طرَفِ

ثم لأخرى

وأنتِ من ذاك الطرَفْ

للجميع

وأنا أبقَى ها هنا

لصبى موجود

وأنت قُم خُذْ لا تخَفْ

والآن فلنقُمْ الى الفراشِ

ومثلَ صُنعِى فاصنعوا بالشاشِ

يدخل جمال

جمال : ما الحال حُسنى ؟ وكيف أمستْ ؟

حسنى : في النزع والكرْبِ لا تزالُ

« يذهبون بالشاش حتى يقتربوا من فراش المحتضرة ، وهم »
« يمسكون بجهاته الأربع ، فتخرج الأولى نقودا وتلقيها فى »
« الشاش ، فيعمل الباقون مثلها ، يتقدم « جمال » بلأة : »
« ويخرج من جيبه نقودا ، ويقول : »

جمال : وأنا أيضا أشترك هاكِ خُذى ما أمتلك
وضعتُ كل فضتى كى تستريحَ جدتى

« يانى النقود »

« الأربعة يهزون الشاش بالنقود بينهم »

« وتقول الأولى مخاطبة المحتضرة »

الأولى : إمضى ولا تُفكِّرى فى المالِ وانسىْ حديثَ القرش والريالِ
أنتِ وما ملكتِ للزوالِ

هُزُّوا معى . . هزُّوا معى يا أيها الروحُ اطلعى
إلى النعيم الأوسَعِ

وديعةَ الله اذهبى إمضى ولا تُعذِّبى
لله عُودى والنَّبى

إحدى السيدات [بعد وفاة الجدة] :

قد انقضى الأمرُ قد خرجَ السرُّ
« حسنى لكِ الأجرُ

حسنى [لجمال] :

الصبرَ . . وانخرجْ سيدى جمالُ

لمثلِ ذا لا يصلحُ الرجالُ

المنظر الثانى

« فى منزل المرحومة الست نظيفة . »

« تظهر « حسنى » فى ثوب أسود »

حسنى [لنفسها] :

عَينى أحقٌّ أننى فى منزلى ؟
لا ، كان لى فوهبتُهُ لجمالِ
غاليتُ فى شَغَفِ الفؤادِ بحبّه
حتى وهبتُ له الثمينَ الغالى
أعطيتُه ما كان أصبح فى يدى
من مال جدته .. فليس يبالى
لم يرضَ قلبى أن أعيش سعيدة
ويعيشَ فى بؤسٍ ورقة حالِ
أتُراه يقدرُ خدمتى ومحبتى
أو لا يمرُّ له الصنيعُ ببالِ ؟

رحمة الله على سيدتى
وسقى الله ثراها وجزاها
حرمتنى الشاش حتى ذهبتْ
فكستْنى الخزَّ فى الموتِ يداها
وحمتْنى الماءَ حتى احتجبتْ
فسُقيتُ الشهدَ من فيض نداها
صار لى من بعدِها منزلُها
والدكاكينُ وآلتْ ضَيعتاها
ثروةٌ قد نهض الجوعُ بها
ومشى الحرمانُ فيها فبناها
وهبتْ لى كلَّ ما قد ملكتْ
لم تدَعْ من ذاك شيئاً لفتاها

[بعد لحظة]

لا .. ذاك مالُ جمالِ   تركتُهُ لجمالِ
وعدتُ ماكنتُ مِن قبْلُ ، فوطنى هى مالى

أجل أنا الخادم والطاهيَة
وما أنا السارقةُ الباغيَة

ولا على الناس طفيليّةْ
أجمل أموالهمو ماليّةْ

سمعتُ حديثَ البخلِ حتى صحبتهُ
زماناً أراه كلَّ حينٍ وأسمعُ
يروح ويغدو بين عينيَّ صورةً
ويأتي خيالي بالحياةِ ويرجعُ

سيدتي وبخلُها في (الخطِّ) سارَ كالمثَلْ
وانتقلتْ وذكرُها بالبخلِ فيه ما انتقلْ
يرحمها الله فما أنسى لها تلك الجُمَلْ
في غضبٍ عند الحوا رِ واضطرابٍ و (زعَلْ)
وما اختلفنا مرةً في حَمَلٍ ولا جَمَلْ
لكنْ لأجلِ الثومِ كا
نَ الخُلْفُ، أو حول البصلْ
ولم نكنْ من الدقيـ ـق ننتهي ولا العسَلْ

يرحمها الله وإن لم تأتِ يوماً بحسَنْ
عاشت بثوبٍ واحدٍ كالميْتِ عاش بكفَنْ
أما أنا . . فالشاش أو ما دون ذاكَ في الثمَنْ
وبذلتي وفوطتي طال عليهما الزمَنْ
وأجرتي عشرون قرشاً مع كثرةِ المِهَنْ

البيتُ لا أبرحُها خارجةً وداخلَهْ
صامدةً كالداوِ كلَّ سامةٍ ونازلهْ

طبّاخةٌ أصنع من لاشيء شيئاً نأكلُهْ
وأنحني على البلاطِ كلَّ حين أغسلُهْ
وكلُّ دكانٍ علىَّ أجرُها أحصِّلُهُ

[تدخل زهرة]

زهرة : ألعوافي يا ابنتي

حسن : من جاءنا ؟ خالتي زهرةُ ؟ أهلاً مرحبا
ادخلي

زهرة : [لنفسها في حسد وحقد] :

يا لك من طبّاخةٍ نثرَ الحظُّ عليها الذهبا

[ثم لحسني]

يا هَناكِ المالُ حسني

حسني : مالُ من ؟

زهرة [لنفسها] : هي تُخفي

حسني : بلَغوكِ الكَذِبا

زهرة : عَجَبًا .. أنت إذن لم ترِثي

مالَ مولاتِكِ ؟

حسني : لا . لا . عَجَبا

أنا يا خالةُ لستُ لِعَمّة

لعنَ اللهُ الغِنَى المُغتَصَبا

زهرة : إن للجيرانِ « حسني » ألسُنًا تَهذي ماوالا

حسني : ما الذي قالوه ؟

زهرة : قالوا أنتِ جَرَّدتِ جَمالا

حسني : كذبوا والله لم ألمسْ له باليدِ مالا

[تخرج « زهرة » وتتبعها « حسني » ويدخل « جمال »]

[تدخل « حسني » فترى جمالا]

حسنى : مَن ها هنا ؟ أَهُوَ جمال سيدى ؟

جمال : أجل . أنا الغريبُ فى بيتِ أبى

أنا الذى قد سلبوه مالَهُ

لم يبقَ من مالِيَ ما لم أُسْلَبِ

قد ضربتْنى فى الحياةِ جدتى

وفى المماتِ

حسنى : الف لا . لم تُضْرَبِ

اجلسْ . تفضلْ . استرِحْ

هَوِّنْ عليك سيدى

جمال : لم يبقَ من مالِكِ يا

جدةُ شيءٌ فى يدى

ضَيَّعْتِ أمسِى ثم لم يَكْفِ فضيَّعْتِ غدى

« حسنى »

حسنى : « جمال »

جمال : افترقنا

حسنى : كيف ؟ لا . أبدا

جمال : تغــيَّرَ الأمرُ من حالٍ إلى حالِ

أنتِ الغنيةُ « حسنى » والفقيرُ أنا

المـال مالُكِ منـذُ اليـوم لا مالى

حسنى : المـالُ يا جمـالُ ؟ الفقرُ ؟ الغـنى

ماذا تقول سيدى ؟ ماذا جرى ؟

جمال : أليس حرمـانِيَ لــونًا متقنـا

طبختِه أنت وجــدتى معا ؟

« حسنى دَعِى الخُبْثَ ولا تجاهَلِى

حسنى : أتعــلم الخبثَ علىَّ والرِّيا ؟

حُــرِمتَ مِمَّ ؟

جمال : من تراثِ جدتى

حسنى : إذن من الوارث

جمال : أنت لا أنا

حسنى : أنا أراك سـيدى تهــزأ بى

كفى جمـالُ مخفـرًا منى كفى

أُقسمُ هذا الأمرُ لم أعمَلْ لَـهُ

وإنى آخِرُ من درَى بِهِ

جمال : أما رأيتِ كاتبا معمَّماً

وشاهدَيْنِ يعملون ها هنا ؟

وشيخةً تُملِي عليهم سخفَها

تَحْرِمُ ذا قُربى وتعطِى أجنبا

كمينِ ربوةٍ تخطّى خيرهُا

إلى الوهاد مُستحقّاتِ الرُّبى

حسنى : جمالُ سيدى تعالَ نحتكِمْ

إلى الحقوقِ والصوابِ والنُّهى

هَبْ ما تقول يا جمالُ قد جرى

جمال : لقد جرى

حسنى : هاتِ الكتابَ فامحُ ما

تشاءُ ، واثبتْ ما تَشا

بَدِّلْ وغَيِّرْ فى كتابِ وَقْفِها كما ترى

أنت غِنايَ . . إنْ غضبْتَ ما انتفاعِى بالغنى ؟

أمضى فابغِى سيداً أو ابتغى

سيدةً أطهو لها

جمال : ماذا أرى ؟ تبكين حسنى ؟ مم ؟

حسنى : لا

جمال : كفى ابنتى كفى بكا

حسنى : خذ مالنا وخلنى أعش كما

كنت أعيش أولا

جمال : بحياتى قولى الحقيقة حسنى

أتحبينني ؟

حسنى : أجل . بملء قلبى

جمال : مثل حبى ؟

حسنى : جمال أحببتنى اليوم ؟

جمال : قديم وحق عينيك حبى

كنت أهواك طفلة تملأين ال

بيت والحوش من صياح ووثب

كنت أهواك طفلة في الكوانين نافخة

كنت أهواك خادما كنت أهواك طابخة

[ثم يمسك يدها و يقول]

كم اشتهيتها يدا ما فرغت من العمل

كنت أراها كَبَيدِ المملكةِ أهلًا للقُبَلْ
واشتهي رائحة الثوم عليها والبصلْ

حسنى : سيدى أنت خطبتَ

جمال : لا

حسنى : نعم بل خَطَبْتَ امرأةً ذاتَ يَسَارْ
وأبوها كابرٌ ذو لقبٍ وله زرعٌ وضرعٌ وعقارْ

جمال : وما تريدين "حسنى" ؟ أأنفضُ اليد منها ؟
الله ربُّ جمالٍ يُغنيه عنك وعنها

[امرأة تريد الصعود]

المرأة : أأحدٌ في المنزلِ ؟

جمال : [من أعلى]
مَن هذه ؟

المرأة : أمُّ "على"
أنتَ هنا ياسيدى ؟

جمال : أجل ، تفضّلى ادخلى

أم علي : [تصعد] .

دستورَكم

جمال : تفضّلي لا أحدُ في المنزل

حسني : [لجمال]

من تلك من ؟

جمال : إمرأةٌ من بيت أصهاري الجُدُدْ
صديقةٌ قديمةٌ في كل أمرٍ تجتهدْ

حسني : ماذا تُريد يا ترى ؟

جمال : الآن نعلم الخبرْ
أما أنا فليس لي في بيتِ إنسانٍ وَطَرْ

حسني : كرهتَ سيدي الغني ؟

جمال : أجل

حسني : وهكذا أنا

[ثم وهي خارجة]

لا يأخذُ الإنسانُ من دُنياهُ إلا الكَفَنَا

[تدخل أم على]

جمال : يا مرحبًا أمَّ على ماذا حملتِ من خبرْ ؟

أم على : كنتُ رسولَ الصفوِ والـيومَ أتيتُ بالكدَرْ

جمال : ماذا ؟

أم على : أصِخ يا سيدى أُمُّ العروسِ جُنَّتِ

جمال : كيف ؟ ولِمْ أمَّ على ؟

أم على : تريد فسخَ الخطبةِ

جمال : كـذا أنا

أم على : وأنت أيضًا ؟

جمال : تلك كانت نِيَّتى

قد سمعتْ لا شكَّ أنِّى قد خَسِرتُ ثروتى ؟

قد علمتْ بأنى قد حَرمتنى جدتى ؟

أم على : أجل

جمال : فقالت مفلسٌ ليس يليق لابنتى

أم على : وهذه (الشبكةُ) ياسيدى

انظر ، تأمَّل ، خاتمٌ لا يُعاب

وهـذه قيمـةُ ما جاءنا

من (سَبَتِ) النقلِ وغالى الثيابْ

خمسون خُذْها، عُدَّ، مِنْ عادتى

جمال : [يأخذها]

أنْ تَغْلَطى يا خالتى فى الحسابْ

[ثم ينتهى من العد]

أم على : هى خمسون سيدى

جمال : هـذه خمسةٌ لَكِ

اذهبى . لستُ ناسيًا أَبَدَ الدهرِ فضلَكِ

[تخرج أم على ثم تدخل حسنى]

جمال : [بعد أن يراها]

رَبّاهُ . . ما ذاك ؟ تلك حُسنَى ؟

من أين حُسنَى ؟

حسنى : مِن الستارَهْ

سمعتُ ما قالت العجوزُ

ولم تَفُتْنِى لها عِبارَهْ

خُذْ سيدى

جمال : ما ذلكا ؟

حسنى : ذلك وقفُ أسرتِكْ

[تناوله ورقة]

كانت شروطُ الوقفِ لى

فاسْتُعمِلَتْ لخدمتِكْ

وما ظننتُ ثروتى ما كان غيرَ ثروتِكْ

ذاك اتفاق قد جرى بيني وبين جدتِكْ

ما أرصدتْ بجهتى حوَّلْتُهُ بجهتِكْ

جمال : جدتى فى تمَامِها برَّةٌ بى ومحسنَهْ

فعلتْ فىَّ فعلةً نبهتْنى من السِّنَهْ

ساء فى المال مذهبي فرأت أن تُحَسِّنَهْ

وأنتِ « حسنى » أتحبيننى ؟

حسنى : أأنتَ فى ذلك ترتابُ ؟

قد كنتَ دنيا مغلقاً بابُها

دُونِى .. فكيف انفتحَ البابُ ؟

جمال : الآن «حسنى» أقبل نُخْبِرْ حديثَ ما مضى
كيف وجدتِ جدتى ؟ وما مكانى عندها ؟

حسنى : تحبُّك الحبَّ الذى كانت تحبُّه ابنَها
وتكتسِى إن غبتَ عنها أو بَعُدْتَ الوَلَهَا
تكاد لا تسمعُ إنْ غِبْتَ، تكادُ لا ترى

جمال : فما لها كانت تُذيقُنِى الجفاءَ ؟ مالَها ؟
فلو سألْتها العَمَى ضَنَّتْ علىَّ بالعَمَى

حسنى : سيدتى بخيلةٌ

جمال : أعلمُ يا حسنى بِذَا
وهى إذا قيستْ إلى جَدِّى، كالغيثِ نَدَى
علَّمها جَدِّى، وكا ن أجمدَ الناسِ يدا

حسنى : وأنا أيضًا سيدى أُصِبْتُ بالبخلِ أنا !

جمال : حنانيك، ماذا قلتِ «حسنى» أَخَفْتِنِى
أقَدَّرَ ربِّى أنْ يطولَ عذابِى ؟
أأعداكِ حسنى بُخْلُ جَدِّى، إننى
أنوفٌ من مصاب صائرٌ لمُصابِ

حسنى : لا تخشَ بخلى سيدى .. لستُ مَنْ
تبخلُ فى حقٍّ ولا واجبِ

جمال : ويحى ! أأرميك بالبخلِ ؟ قَبَّحَ اللهُ ظنِّى
وقد رأيتُ بعينى وقد سمعتُ بأذنى
فأنتِ أرجعتِ مالى وكان قد ضاع منى
فما سوى اللهِ «حُسنَى» يَقْدِرُ يجزيكِ عنى

ستجمعنا الدنيا غداً .. كيف يا تُرى
يكونُ طعامى أو يكون شرابى ؟

حسنى : سنشرب الماء فى أوانٍ
غاليةٍ حلوةٍ نضيدَهْ
وبيرةً كل ظهرِ يومٍ
توضع فى الثلج والبرودَهْ

جمال : والأكل ؟

حسنى : ماشئتَ من شواءٍ
ومن دفينٍ ومن عصيدَهْ

جمال : نسيتِ «حسنى» ما ليس يُنْسَى

حسنى : ما ذلك ؟

جمال : « البامية » الجديدهْ

هذه « الشبكةُ » التى أرجعتِها المقفّلهْ

خاتمٌ قد وضعتُه فى البنانِ المُقبَّلهْ

[يلبسها الخاتم و يقبل يدها] :

حسنى : والمهر ؟

جمال : [يشير إلى النقود المردودة]

تلكَ هى لَكْ أُعطى جمال ما مَلكْ

ما المالُ مهرًا للمَلَكْ

حسنى : ومهرُكَ سيدى ؟

جمال : مهرى ؟ تُرانا

تزوجنا على دينِ النصارَى ؟

دَعى حُسنَى المِزاحَ

حسنى : أقول جِدًّا

ولِمْ تأبى ؟ أتحسبُ ذاك عارا ؟

وكم من مسلمات سُقن مهرًا   وإن دُعِيَ الأباعدَ والعقارا

جمال : إذن هاتی اذکری مَهری   وسمّيِه على قَدرِى

فقد تعطينني قرشًا   وقرشين . . وما أدرى

حسنى : بلْ الدنيا وما فيها   وما جلَّ عن الحصْر

جمال انزل إلى البئر   تجدْ مهرَكَ فى القعر

جمال : مَهرِىَ فى البئر ؟

حسنى : أجلْ

جمال : كيف هوَى ؟ كيف نزلْ ؟

أنزلُما ؟ هذا خَبَلْ !

حسنى : ننزلُ إنْ شئتَ معا

لكى أريكَ الموضعا

هناك تبصرُ العجَبْ

جمال : ما ذاكَ ؟

حسنى : صُندوقُ خَشَبْ

ممتلئٌ من الذهبْ

جمال : هناك الذهبُ الحلوُ إذن طِيرِى بنا طِيرِى

قبلتُ المهرَ يا حُسنَىَ إلى البيرِ إلى البيرِ

(ستار)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٤/٢٠٦٧

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٠٢٦٨ - ٩